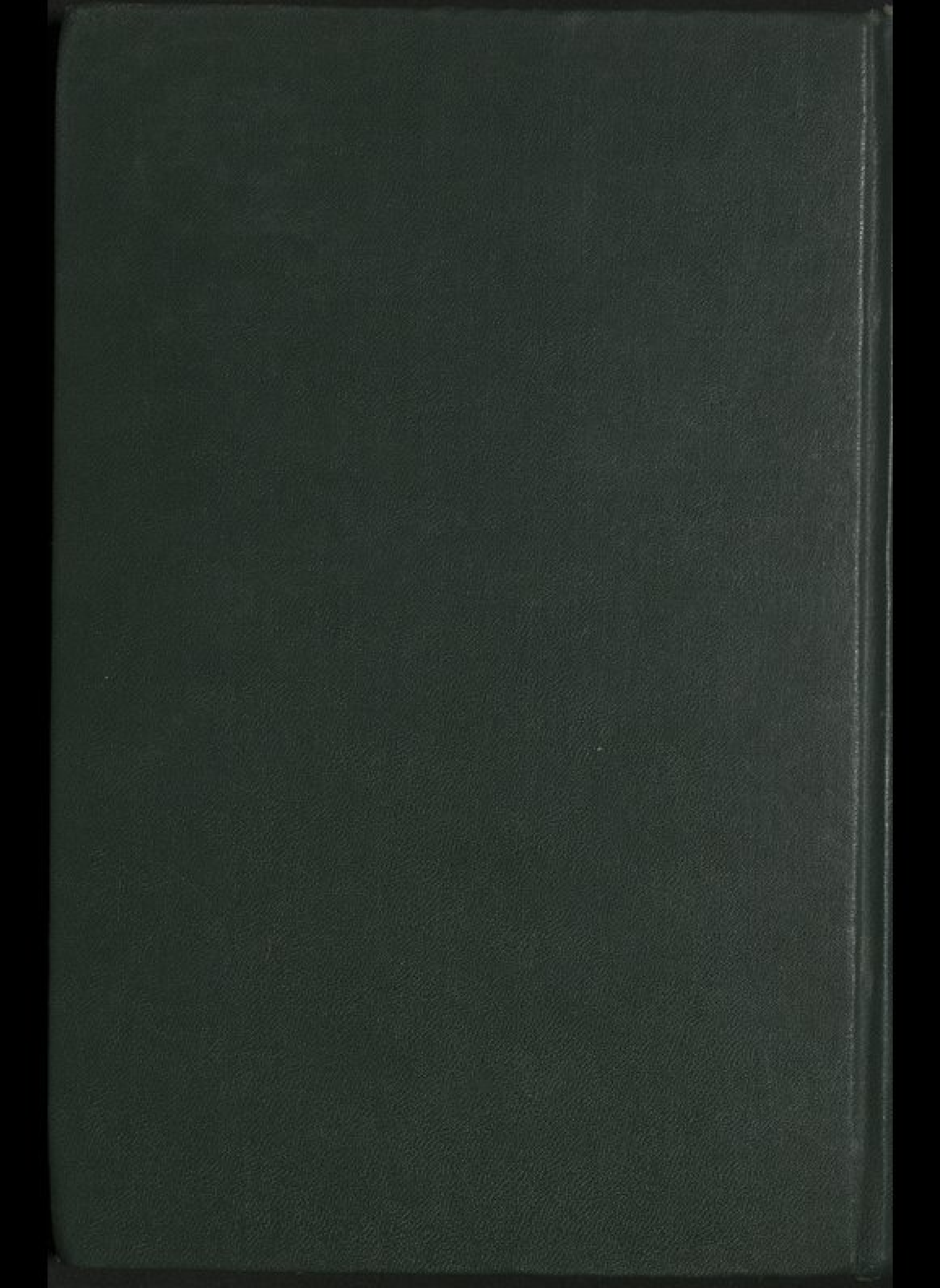
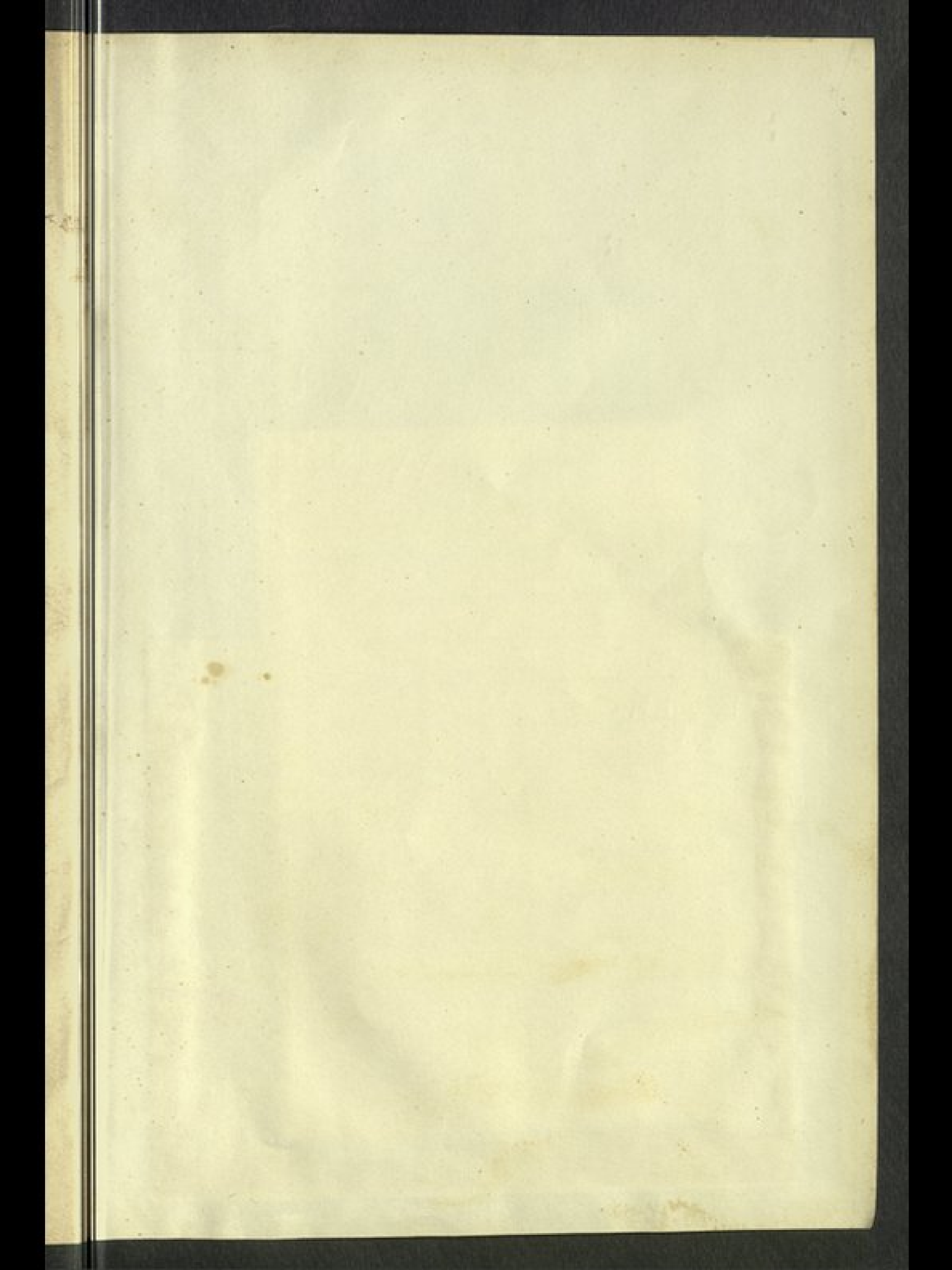




كفاح الشعب

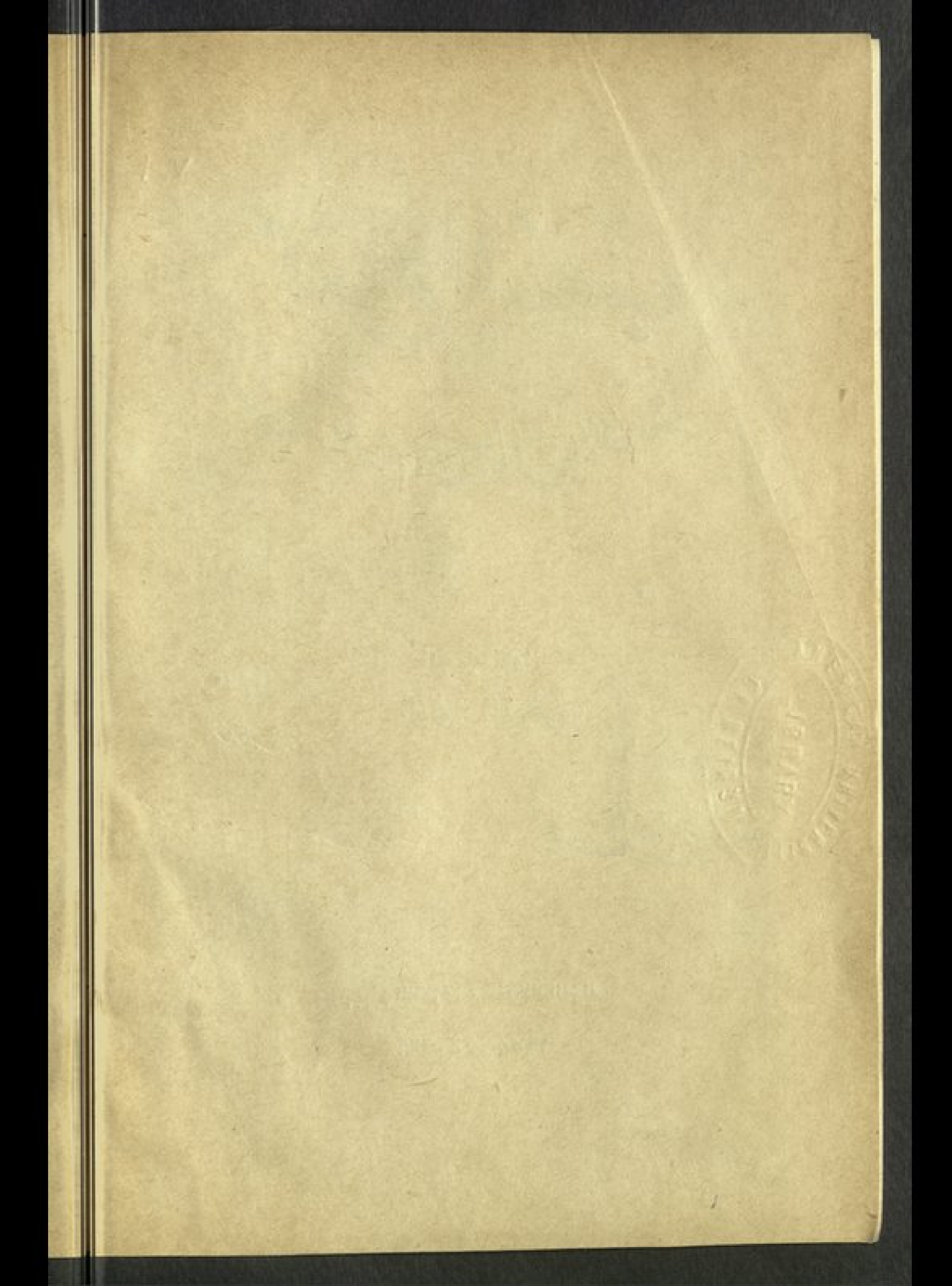
من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر

المجلد الاول

الوعى القومى

محمد أمين حسونه

القاهرة – ١٩٥٥



فاتحة الكتاب

انى رأيت انه لا يكتب انسان كتابا ما فى يومه الا قال فى غده : « لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

العماد الاصفهانى

للمؤلف

اعمـــال روائيـــة

اشبال الثورة .. .. سنة ١٩٣٠
الورد الابيض .. .. « ١٩٣٢
الباب الذهبى .. .. « ١٩٤٤
هنرى الرابع « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٣٧
الاستاذ كلينوف « عن كيرن برامسون » .. « ١٩٤٣
الحب والموت « عن لويجى بيراندللو » .. « ١٩٤٧

دراسات ادبية

ساعات الصمت .. .. « ١٩٤٥
بيراندللو .. .. « ١٩٤٩

سـياحة

وراء البحار .. .. « ١٩٣٦

تاريـخ

مصر والطرق الحديدية .. .. .. « ١٩٣٨
٢٣ يوليـــو .. .. « ١٩٥٣
جمهورية مصر فى عامها الاول . .. .. « ١٩٥٤

تاريخ مصر
فى ظل التحرير

نشأنا ودرسنا وشببنا وسط اكداس من الاكاذيب والمفتريات احاطتنا بها فئة من المؤرخين المتملقين ، القوا فى روعنا بأن مصر هبة من اسرة محمد على ، وصوروها فى صورة امة ذليلة مهينة ، غارقة فى الجهل والفوضى والظلام ، الى ان هبط عليها « مبعوث العناية الالهية » فخلصها من براثن الظلم وانتشلها من الوحل والرغام ، وهى دعاية كاذبة جوفاء تنقصها الحقائق الناصعة .

اهمل المؤرخون مزايا الشعب فى ثنايا مؤلفاتهم . الشعب صانع التاريخ ومبتدع الخوارق والمعجزات، فاعتنوا بالطلاء الخارجى البراق وتناسوا الجوهر . فجاءت مؤلفاتهم صورا باهتة مشوهة ، اقرب الى الباطل منها الى الحق . درسوا مصر من خلال مواكب طواغيتها واقيالها ، تلك الطبقة المدفونة فى قصورها الباذخة ، المحجوبة وراء اسوارها العالية ، الغارقة الى آذانها فى لذائذها ، المحوطة بحاشية من الاقطاعيين والنفعيين والوصوليين ، الذين لا يمتون الى الشعب بصلة ولا يعبرون عن نفسيته واحاسيسه وعقليته وتفكيره ، ولا يتخاطبون بلغته ، بل كانوا خوارج ، دخلاء ، اغرابا عنا روحا وشعورا وتفكيرا ولسانا .

نظر هؤلاء المؤرخون الى التاريخ كمغامرة لبعض الاشخاص الذين لا يملكون من فضيلة او عبقرية سوى النفوذ الخرافى ، سواء آل اليهم ذلك النفوذ عن طريق الاغتصاب او عن طريق الميراث او نتيجة الزلفى وارضاء نزوات ومطامع المستعمر .

وجهوا كل همهم الى الاشادة بمناقب الطواغيت وتمجيد اعمالهم الخرقاء ، والزعماء الذين يقودون الصفوف قيادة عمياء اساسها الاستغلال والنفعية . شبهوا الملوك بالشموس والاقمار وانصاف الآلهة ، ووصفوا المستبد السفاح بالرحيم العادل ، فى الوقت الذى كان يلهب فيه ظهور رعاياه بالسياط ويسومهم سوء العذاب ، ويستنزف دماءهم ، ويسلو على ثمار كدهم لانفاقه فى مآربه . اما الجماعات فأين هى ؟ ماذا كانت تعمل وتدبر وتفكر ؟ ماذا كان رأيها فى هذه المشكلة او غيرها ؟ الى اى حد شاركت حكامها فى العمل على

شبهوا الملوك بالشموس

تشييد صرح الحضارة وتطور وسائل العمران ؟ . اكان الشعب راضيا عن هذه المسالة ام كارها ام ناقما ؟ كم عدد الامهات اللواتي ثكلن فى فلذات اكبادهن فى اعمال السخرة وضروب الاستعباد والوان التنكيل والبطش ؟ كم عدد العبقريات الشعبية التى شاركت فى الفتح والغزو والذود عن ارض الوطن واقامة المعالم والمنشآت ؟

الواقع ان تاريخ مصر الرسمى لا يمثل الشعب على حقيقته ، الشعب الذى هو محور الامور ورزح المسائل ، لا يصور حياته وكفاحه وجهاده واناته من الظلم وصرخاته فى وجوه الظالمين .

ذلك ان مؤرخ مصر الحديثة ، لم ينزل من برجه العاجى ولم يهبط من سدته الرفيعة الى حيث الشعب يشقى ويتالم ويتعذب ، لان الشعب لا يمنح المؤرخ الجاه والسؤدد ، ولا يدر عليه العطايا والمنن .

وابتكر المؤرخون من حملة القماقم ، تاريخا سودوا صفحاته بامجاد زائفة ، واحداث خارقة ، واعمال باهرة هى فى مجموعها تلفيق فى تشويق ، كانه لم يكن امامهم شعب يناضل ويكافح ، ويكد ويعمل ، ويضحى بالغالى والرخيص ، شعب حمل على ظهره مسارف الحكام ونقائصهم ومعائبهم ، شعب شقى افراده لارضاء كبرياء رجل ، وجاعوا فى سبيل تخمة فرد واحد . شعب عريق فى الحضارة ، نهض باعباء الزعامة ورفع مشعل المدنية ، واقام منارة للعلم فى عصور سادت فيها الظلمة والجهل غيره من الشعوب .

ان طوائف الشعب المصرى ليست باقل عبقرية ونبوغا وسداد راى من الحكام الذين يسود بهم المؤرخون صفحات مؤلفاتهم . فمن بين افراد الشعب خرجت طبقات الصناع والزراع والعمال والجند والتجار ، تلك الطوائف التى قاومت الغزو الفرنسى ، وردت الانجليز على اعقابهم فى رشيد ، وحاصرت الوالى العثمانى فى القلعة وهتفت بسقوطه ، وانزلته من كرسى الولاية ، وفرضت على خلفه شروطا هى بمثابة وثيقة دستورية ، ودحرت قوات الاحتلال البريطانى فى معارك متطاحنة ، وانزلت فاروق عن عرش جبروته . . . ولكنها سياسة النفاق والموارية التى قلبت الحقائق ، وصورت الحكام الذين باعوا الوطن للغاصب فى صور يأباها الواقع .

نحن نعرف ان حروب مصر ، واقامة السدود وبناء القناطر وتعبيد الطرق ، وشق الترع والمصارف ، واقامة الخطوط الحديدية

والاسلاك البرقية ، وتشغيل المصانع لم تقم الا على اكتاف وسواعد الطبقات الكادحة، ولكن لنتأمل زيف المؤرخين: فقد نسبوا هذه الاعمال الى الحكام الاغراب ، فقالوا : ترعة المحمودية ، والابراهيمية ، ومدينة الاسماعيلية ، وقناطر محمد على ، وقلعة السعيدية ، ومديرية الفؤادية ، وجامعة فاروق ، ومتاحف ومدارس وشوارع وقرى فلان .... وعلان !!

• ● •

ان الامم الناهضة الحية تعنى بدراسة تاريخها القومى دراسة مجدية ، ويبذل علماؤها وعشاق البحث فيها سنى حياتهم فى تتبع آثاره واحياء ما درس من امجاده .

ومصر التى تكافح اعداءها فى الداخل والخارج كفاحا شاقا مريرا فى سبيل رفعة شان الشعب واقرار سيادته ، فى حاجة الى تاريخ حافل يسجل على صفحاته صور البطولة وايات المجد والفخار .

نحن فى حاجة الى صور بارزة فى البطولة نحتذيها ، والى مثل عليا من ضروب الوطنية نقتدى بها ، وتدفعنا الى العمل والسير قدما الى الامام ، والتطلع بعيون باسمة مشرقة الى المستقبل .

لقد كان جزاء كل من تصدى لنقد اعمال الحكام والاشادة بمزايا المواطن الصالح ، اما القتل واما النفى الى اعالى النيل ومصادرة مؤلفاته .



فالجبرتى لقى مصرعه فى مزارع شبرا على اثر نقده حكم محمد على فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » . وخليل سليم نقاش صودرت الاجزاء الاولى من سفره التاريخى « مصر للمصريين » وهى الاجـزاء التى تحدث فيها عن مباذل وآثام الخديو الخليع اسماعيل . والمنفلوطى واحمد حلمى واحمد فؤاد ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش حكم عليهم بالسجن والغرامة . وعلى الغاياتى ومحمود بيرم التونسى ومن قبلهما يعقوب صنوع واديب اسحق اضطروا للفرار من مصر واللجوء الى عواصم الغرب بسبب نقدهم سياسة الحكام الاغراب المستبدين . وعباس العقاد قدم الى المحاكمة وسجن لمجرد كونه نقد عملا من اعمال الملك فؤاد فى مجلس النواب على الرغم من تمتعه بالحصانة البرلمانية ، وغيرهم كثيرون فقدوا ارزاقهم

واضطهدوا وشردوا واحرقت مؤلفاتهم فور صدورها بسبب انهم « عابوا فى الذات العلية » .

وفى الوقت الذى فرضت فيه رقابة صارمة على المطبوعات العربية واشرف على تنفيذها اعوان الحاكم ، فتح الباب على مصراعيه لطائفة من المؤرخين الاجانب الذين باعوا ضمائرهم لقاء اثمان بخسة، فوضعوا سلسلة من المؤلفات حشوها بالطعن فى كفاية الشعب والحط من كفاح ابطاله والشك فى مقدرتهم ، مع تمجيد الحكام الاغراب تمجيدا يرفعهم الى مرتبة القداسة .

وبقى امام مؤرخ مصر الحديثة مصدران يستقى منهما مادته :

اولهما : مصدر اجنبى شوهه اساطين الاستعمار الذين صوروا الشعب على انه ظل محكوما بأمم اجنبية، كالرعاة الهكسوس والفرس واليونان والرومان والاتراك والمماليك والعثمانيين، وان وقوع المصريين لعصور طويلة من الظلم والاستبداد قد طبع الطبيعة المصرية بطابع الاستسلام والخنوع ، ثم بوبوا التاريخ الى عصور اطلقت عليها اسماء غير مصرية ، كعصر الفرس والعصر الرومانى وعصر الاحتلال البريطانى ... واخيرا شوهوا سمعة البلاد واطنبوا فى سرد مزايا الحكم الاجنبى ، وكيف انه انقذ الفلاح من براثن الظلم وحرره من سيطرة المرابين وفداحة الضرائب والسخرة ، وعمل على اصلاح الاداة الحكومية وحمى الحرية الشخصية ووطد الثقة المالية بالبلاد .

ان هذه الترهات التى دونها المستعمرون فى تاريخ مصر الرسمى معناها ان الشعب لم يعرف فى اى دور من ادوار تاريخه المجيد العزة والكرامة والروح القومية . فضلا عن ان تبويب التاريخ على هذه الصورة من شانه ان يدخل فى روع المواطنين ان مصر كانت مباحة للغزاة الفاتحين .

اما المصدر الثانى فهو المحفوظات التاريخية للدولة ، وقد ظلت هذه المحفوظات التى تشمل المكاتبات الرسمية والوثائق والاسانيد ودفاتر الروزنامة والحجج الشرعية ، والمعاهدات الدولية ، وملفات خدمة كبار الموظفين ، فى مقرها الاصلى فى القلعة . وكان الاطلاع عليها ميسورا لمن يشاء من الباحثين والمحققين اذ انها اصبحت ملكا للتاريخ وفى ذمة الزمان ، فاعتمد عليها المرحوم امين سامى فى وضع موسوعته التاريخية « تقويم النيل » اذ نقل منها وترجم عنها الوف الوثائق .

وجاء الملك فؤاد فنظر بعين الحذر والحيطة الى هـذه الوثائق والاسانيد والسجلات الرسمية لان فيها مادة صالحة للمؤرخ الذى ينشد الكتابة عن مصر والحكم على رجالها فى امانة ونزاهة واخلاص، غير متحيز لناحية خاصة او واقع تحت سيطرة امير او سلطان ، فاشار بنقلها الى قصر عابدين حيث افرد لها مكانا خاصا وعين لها الحفاظ والمترجمين الذين تعمدوا ابراز المحاسن من تاريخ بيت محمد على دون المساوىء والاضداد، وسخر طائفة من الكتاب الاجانب للدفاع عن سمعة اسرته ، ومنهم جبرائيل هانوتو والقاضى كرابيتس وهنرى دودل وساماركو وقطاوى ودوان والايوبى ، ورصد المال مكافأة لمن يبرز فى وضع مؤلفات تمجد من اعمال ابائه ، ثم امتد هذا النفاق التاريخى الى غيره من الحكام ، فزيفت مؤلفات عن محمد على وابراهيم واسماعيل وتوفيق ، وشوهت الحقائق تشويها غير مشرف لمن كتبوها ، وظهر الزعماء الصالحون فى صور بغيضة الى قلوب النشء ووصفوا بانهم « عصاة » و « رعاع » و « غوغاء » و « ثوار » و « خارجون على القانون » و « متمردون على الخلافة او على سيد البلاد » .

• ● •

لقد مضى ذلك العصر ولن يعود ، مضى بكل ما يحتويه من مفاسد وشرور وآثام

ان تدوين تاريخ مصر القومى على نسق جديد ينبغى ان يتم فى ظل التحرير ... يجب اعادة النظر فى اسفار التاريخ وان يستبعد منها كل ما يشتم منه رائحة التمجيد الكاذب، وابراز محاسن الزعامة الشعبية ومقوماتها ... يجب ان توضع الوثائق التاريخية تحت تصرف المؤرخين والباحثين بعد ترجمتها ونشرها مبوبة حسب ازمانها وموضوعاتها واشخاصها والاحداث البارزة فيها ، وان تقوم الدولة بانشاء دار عامة للمحفوظات الرسمية تكون بمثابة مستودع للتاريخ ، والعناية باعداد من فى وسعهم فهم هذه الحقائق والاسانيد ودرسها وترجمتها توطئة لتدوين تاريخ الشعب وطوائفه وكفاحه تدوينا صحيحا .

• ● •

يهتم المؤرخون عادة بتدوين المصادر التى اعتمدوا عليها فى تاليف اسفارهم واستمدوا منها مادتهم وهم يطلقون على هذه المصادر والمراجع « مكتبة الكتاب » ولكن معظمهم يعمد الى نقل فهارس من دور الكتب باسماء عشرات الكتب الخاصة بموضوعه وان لم يطلع الا على النذر اليسير منها .

لذلك سنضرب صفحا عن ذكر المراجع والمصادر والاسانيد والمحفوظات والرسائل التى رجعنا اليها واقتبسنا منها مادة هذا الكتاب ، فلم يكن يعنينا ونحن غارقين وسط هذا الخضم الزاخر بالمواد التاريخية ، الا ان نظفر بلب الموضوع الذى يدور فى فلكه مادة هذا الكتاب .

على اننا نخص بالذكر بعض المصادر الاصيلة التى اخفيت زمنا عن العيون والارصاد ومنها :

١ — مجموعة من الوثائق والاسانيد بعضها بقسم المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى « عابدين سابقا » والاخر فى متحف سراى طوب قابو باستامبول ولا سيما صور البرقيات والمراسلات التى تبودلت بين عابدين والقبو كتخدائية باستامبول حول شئون مصر .

٢ — مذكرات خطية لمحمد عارف « باشا » رئيس مجلس الاحكام بعنوان : عبر البشر فى اعيان القرن الثالث عشر ، ترجمها الاستاذ محمود نفعى ولا توجد منها سوى نسخة واحدة تركية بمكتبة جامع السلطان احمد باستامبول ونسخة وحيدة اخرى من الترجمة العربية .

٣ — مذكرات خطية لخطيب الثورة عبد الله نديم بعنوان : مذكراتى عن خديو مصر الاسبق اسماعيل باشا .

٤ — مذكرات خطية لاسكندر فهمى باشا ، احد مديرى مصلحة السكك الحديدية ، عن احداث عاصرها فى ايام ولاة مصر السابقين ودونها فى حينها فى صورة يوميات .

٥ — مذكرات خطية لامين سامى باشا احد كبار رجال التربية والتعليم فى مصر عن بعض الاحداث الجسام التى عاصرها .

اما المؤلفات الافرنجية فلا تقع تحت حصر واهمها : الكتب الصفراء والزرقاء والبيضاء التى اصدرتها الحكومات الاجنبية عن المسالة المصرية .

• ● •

وليس من شك فى ان القارىء الحصيف سيخرج من هذا الكتاب بالنتائج التالية :

١ — ان مصر سبقت جميع الشعوب فى اعلان حقوق الانسان .. حدث هذا عندما اجتمع العلماء والزعماء وحرروا الوثيقة الاجتماعية الكبرى التى اوقفوا بها الحكام الطغاة عند حدودهم والزموهم بالاعتراف بحقوق المواطنين السياسية والاجتماعية .

٢ — ان عزل الحاكم الظالم حق من حقوق الشعب يمارسه حسب نصوص الشريعة السمحاء ... وقع هذا عندما نهض الشعب ليعزل الوالى احمد خورشيد ، وعندما اجتمع اعضاء « الديوان العرفى » فى القاهرة ووقعوا وثيقة بعزل الخديو توفيق . وعندما طلب قادة الثورة باسم الشعب الى اخر ملوك مصر فاروق التنازل عن العرش .

٣ — ان الزعامة الشعبية التى حاول محمد على ان يبيدها بعد القضاء على مكرم والشرقاوى ومشايخ الازهر ، برزت قوية واضحة بعد ستين عاما بقيادة البطل الفلاح احمد عرابى الذى صاح صيحته التى دوت فى سمع الزمان : لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم .

٤ — ان حكام مصر الاغراب منحوا الاجانب وبنى جلدتهم معظم الاراضى التى كان المصريون يملكونها بالوراثة ، ثم سلطوا على الفلاحين اعوانهم من جباة الضرائب لتركهم جياعا ، وفى جميع المناطق كان القتل والخطف والاعتداء على النفس والعرض من الامور العادية ، ولم يكن امام الاحرار الا ان يختاروا بين الموت والحرية .

٥ — ان الثورة الوطنية الكبرى التى قادها عرابى انتكست لانه كان يواجه قوات تفوقه عددا وعدة ، وكانت الخيانة وضعف الروح المعنوية متفشية بين الافراد والجماعات ، وكان عرابى مضطرا الى أن يختار قواده ومعاونيه من المتمصرين الذين عجلت خيانتهم بخراب البلاد .

٦ ــ ان الذين غرسوا بذور الكراهية فى نفوس اخواننا السودانيين واوقعوا بهم المظالم كانوا من سلالة العثمانيين ومن يلوذ بهم ، وليسوا من المصريين الاقحاح كما ينسب ذلك خطأ الينا ، فكما كانوا يحقرون المصرى بلفظة « فلاح » كذلك كانوا يسبون السودانى بكلمة « عبد » .

٧ ــ على الرغم من اعمال البطش وكبت الحريات والتنكيل بالمواطنين ، والتعطش الى الدماء ، سار الشعب فى طريق الكفاح والجهاد حتى يثبت المبادىء والمثل العليا ، وكانت الثورة على الاستبداد السياسى وعلى الظلم الاجتماعى ثورة متصلة لم تهدأ حتى تقيم فى الوطن حياة حرة سليمة ، وتجلى الروح المصرى بوراثاته الاصيلة وفضائله العالية .

٨ ــ ان الحاكم والحكم كانا معناهما الخيانة . وكانت الثقة مفقودة بين الحكام وبين المحكومين ، لان الحكم لم يكن لابناء الشعب ، بل ان مصر كانت تحكم من الخارج ، تارة من استامبول واخرى من لندن او من باريس بوساطة سماسرة الاستعمار ، وكان الحكم عبارة عن شركة يتبادل النفع فيها المستعمر والحاكم على حساب المجموع .

٩ ــ ان الحدث الاكبر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ان مصر لاول مرة منذ عهد قمبيز تحكم من القاهرة وبرجال من ابنائها ، وان العزة القومية واقرار السيادة الشعبية ، بعثت مع هذه الثورة .

١٠ ــ ان ٢٢ مليونا من الاحرار يزهون اليوم على ضفاف النيل بوطن جديد يشيدون صرحه ويعملون من اجل رفعة شانه ، بفضل جهود ابن بار من ابناء مصر هو جمال عبد الناصر ورفاقه من قادة الثورة الذين قضوا على الملكية وقوضوا صرح الاقطاع والرجعية ، وعمموا العدالة الاجتماعية ، ثم اقاموا الجمهورية ، وحرروا وطنهم من الاستعمار ، وها هم يقودون الصفوف الى النهضة لتلحق مصر بركب الحضارة وعجلة التطور .

فليفتح الجيل الناشىء عيونه على هذه الحقائق ويستوعبها ، وليؤمن معنا بأن صفحات هذا الكتاب هى بمثابة تحد لتلفيقات تاريخية وتفنيد لمفتريات وارهاصات سبق ان صاغها ونشرها قوم مضللون .

القاهرة ــ اول يناير ١٩٥٥

محمد امين حسونة

كشاف

بالكلمات الدخيلة والمصطلحات الاعجمية

واسماء المناصب العثمانية الواردة فى الوثائق والاسانيد التاريخية

ابريقدار : حامل ابريق الماء للوضوء ، وهى من الوظائف الرئيسية داخل القصور .

ابعاديات : مزارع اصلها اراضى بور .

ارناؤود : جنود البانيون برعوا فى التلصص وقطع الطرق ، يرتدون سراويل فضفاضة وصدارا مكلف بصفائح من المعدن والسلاسل وعلى رءوسهم طربوش احمر .

اغـا : اذا ذكرت مفردة ، فالمراد بها « المستحفظان » اى محافظ العاصمة ومدير الشرطة بها ، واذا اضيفت الى اللقب عنى بها « رئيس » . ثم اطلقت فيما بعد على الرؤساء العسكريين .

الامراء المصرلية: اى المماليك . وكلمة مملوك اسم مفعول من « ملك » وهم ذرارى الارقاء الذين كان النخاسون يبيعونهم وهم صغار السن الى الحكام والسراة ، فشبوا على الفروسية والاقدام ووصلوا الى مراكز الصدارة فى الدولة وكانوا اصحاب الكلمة النافذة .

التزام : فى الوثائق المالية بمعنى اخذ بعض ايرادات الحكومة لحساب الشخص والتعهد بتحصيل اموالها وتوريدها للخزانة العامة فى مقابل ربح او « فائض » معين . والمتعهد بالتحصيل والتوريد يطلق عليه اسم « الملتزم » . وكانت الحكومة اذا ارادت توجيه التزام تحصيل اموال احدى النواحى تطرحه فى المزاد ، ومن يرسو عليه المزاد يصبح ملتزما معتمدا من الحكومة ويشرع فى تحصيل الاموال بمساعدة حاكم الولاية وكاشفها وعساكرها وتحت يده محصلون من طرفه .

الجى : سفير .
امرارية : ديوان المرور .
اميراخور : امين اسطبل .
امير الحج : من كبار موظفى الدولة ووظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل الى الحرمين فى موسم الحج
امين العنابر : مدير مخازن الحكومة التى تشون فيها الحاصلات الزراعية
انجارية : ديوان النقل النهرى .
انختاراغاسى : ناظر القصر او امين المفاتيح .
انكشارية : فرقة من الجيش العثمانى النظامى ، انشأها السلطان اورخان ، وكانت مكونة من ابناء الذميين الذين يقعون اسرى منذ الصغر ، فيشبون على تعاليم الاسلام ويتلقون تعليما عسكريا خاصا ، يوم كانت جيوش الدول الاخرى جيوشا مؤقتة تعبأ لفترة قصيرة ، واعتمد آل عثمان على الانكشارية فى توطيد ملكهم فى الداخل وفى الخارج وفى الدفاع عن ممتلكاتهم ، ولكن شرورهم كانت قد استفحلت فى عهد السلطان محمود الثانى فاوعز الى « العساكر المنصورة » بابادتهم وكان عددهم قد بلغ زهاء اربعين الفا ، فبدات المجازر فى استامبول فى عام ١٨٢٦ .
اودة باشا : ضابط فى الانكشارية ، وهو احيانا رسول من قبل المماليك والعلماء الى الوالى ، يذهب اليه حاملا قرار الديوان بعزله ، ويطلق عليه العامة اسم « ابو طبق » .
اوغلو : ابنه .
ايج اغاسية : خدم خصوصيون فى داخل الحرم .
باب العالى : مقر الصدارة العظمى ، اى مركز رياسة الحكومة العثمانية باستامبول .
بارة : جزء من اربعين من القرش .
باش اختيار : اقدم ضابط فى الجيش .
باشبوزق : جنود مرتزقة .
باشبوغ : القائد العام .
باشى اوغلان : رئيس الغلمان المكلفون بالخدمة داخل القصور .

باشوية ذات ذنبين : هى التى تخول لحاملها ان يضع ذؤابتين من شعر الخيل تميزه عن الاخرين .
بايردار : ومثلها علم دار ، اى حامل العلم فى الكتيبة العسكرية .
بشلك : خمسة قروش .
بصاص : مخبر فى البوليس .
بلص : رشوة .
بلوك باشا : ضابط فصيلة .
بندقلى : صانع اسلحة .
بيت المال : وزارة المالية .
بير لربيك : الوالى الذى ينوب عن السلطان فى مزاولة سلطته .
تاريع : المساحة .
تتر : ساعى .
تسريح : رسم يدفع على المحصولات الزراعية عند ارسالها من بلد الى آخر .
تفكجية : حملة البنادق او الذين يتولون اصلاحها .
تعليمجى : مدرب .
تمن : كانت القاهرة مقسمة الى ثمانية اقسام لكل قسم مركز للبوليس اطلق عليه اسم « تمن » .
توتينجى : خادم لاعدد لفافات التبغ .
جابى : محصل الضرائب .
جامكية : مرتبات .
جبخانة : مدفعية .
جدد : جزء من عشرة من اجزاء البارة .
جنتمكان : ساكن الجنة .
جندارجى : خادم لغسل الملابس .
جهادية : عساكر نظامية .
جوخدار : حاجب . والاصل فى الكلمة ان ابواب مكاتب كبار موظفى الدولة كانت من الجوخ الاخضر ، فالرجل الذى يقف خلفها « جوخ دار » .
جوربجى : عمدة .
حاصل : مخزن .

خازندار : امين الخزانة ، ووظيفته هى ان يحمل الجزية السنوية الى العالى .

خـان : وكالة . مكان للمبيت والاقامة المؤقتة ، بمثابة فندق .

خشداش : زملاء فى خدمة قصر واحد .

خفيـة : البوليس السرى .

خوجهباشي : كبير المدرسين .

داورى : الوالى . وداور مصر اى حاكم مصر .

داى : خال . ويطلق الاسم على حاكم الجزائر . ومثلها «باى» اى بك ويطلق على حاكم تونس .

دبوس : الة من حديد ذات اضلاع تستعمل فى الحروب واحيانا فى تعذيب العصاة من الجند .

دخولية : عوائد تدفع عن التجارة التى تدخل الى العواصم والمدن.

دده : رئيس الدراويش

دفترخانة : دار المحفوظات .

دفتر دار : مدير الايرادات والمصروفات، والمشرف على ضبطها وحفظ سجلات الاراضى الزراعية .

دكريتو : مرسوم .

دلاتية : فرقة من فرسان الجيش العثمانى . خليط من المغاربة والسوريين والاكراد ، قائدهم برتبة « دليل باشى » اى رئيس الادلاء ، ثم انحرف المعنى وصارت كلمة « دلاة » معناها الهوس أو الجنون ، وكان الدلاتية يتحمسون فى القتال واقتحام المخاطر ، وكان سلاحهم السيف وغدارتان ولباس الراس عندهم قلنسوة اسطوانية من اللبد الاسود ويحيط باسفلها شريط من التيل انبوبى الشكل .

دوربينجى : الناظر بالمنظار المكبر الى السفن القادمة الى الميناء .

دوننمة : اسطول

دويدار : حامل الدواة اى المحبرة .

ديار رومية : الجزء الذى كانت تركيا تحكمه من بلاد اليونان .

ديوان افندى: واحيانا افنديسى ، اى سكرتير الوالى ومدير مكتبه .

ديوان الصغير: مقره القلعة ويؤلف من مندوبين عن الفرق العسكرية ومن الكتخدا والدفتردار والروزنامجى ويعقد يوميا .

ديوان الكبير: مقره القلعة ايضا ويؤلف من رؤساء فرق الحامية العثمانية وبعض كبار الموظفين ومنهم الدفتردار والروزنامجي وامير الحج وقاضي مصر ورؤساء المذاهب الاربعة ، والعلماء والاشراف ، ومهمته النظر فى الشئون الرئيسية للحكومة .

وكان الوالى لا يشهد جلسات كل من المجلسين وانما يتابع المداولات من وراء ستار .

ديوان المكس : الجمرك .

روزنامجي : المشرف على جمع الضرائب وضبط حساباتها .

روزنامة : ادارة جمع الضرائب .

زردخانة : واحيانا السلاح خانة ومعناها بيت السلاح وتحتوي عادة على السيوف والقسي والنشاب والدروع من الزرد ، ويرؤسها «امير سلاح» يعاونه فريق من الضباط يعرفون باسم « السلاح دارية » .

سر جشمة : واحيانا صارى جشمة اى قائد قوة غير نظامية .

سر خفية : رئيس البوليس السياسى .

سر عسكر : واحيانا صارى عسكر ، اى القائد العام .

سفارتنامة : التقرير الذى يرفعه السفير .

سلحدار : امين الاسلحة .

سنجق : مدير الاقليم .

سياستنامة : دفتر السياسة ، والمقصود به دفتر نظام الحكم .

شاه بندر : نقيب التجار .

شاهد : موظف مهمته حفظ سجل اراضى الالتزام ، حيث يدون فيه مساحة الارض واسماء المستثمرين .

شبوقجي : خادم لاعداد الشبق للتدخين .

شماشرجي : الخادم الموكل اليه بملابس الرجال .

شنك : وصحتها « شنلك » اى الصواريخ التى تطلق فى الفضاء فى الحفلات .

شيخ البلد : حاكم مصر وصاحب السلطة العليا فى البلاد والمرجع الاول فى شئون الدولة ، وتماثل وظيفته «رئيس الحكومة فى الوقت الحاضر » .

شيخ زامة : مورد عمال .

صدر اعظم : رئيس الوزارة
ضبطية : دار الشرطة .
ضربخانة : دار سك النقود .
طبردارية : لفظ فارسي معناه الفأس ، وحملة الاطبار بمثابة الحرس الخاص للسلطان يلازمونه فى الاحتفالات ويرؤسهم « أمير طبر » ويحملون عادة البلطة .
طبلخانة : الموسيقى العسكرية .
طلخان : غطاء رسمى للرأس «قاووق » يلبسه كبار موظفى الدولة
طوخ : شارة الوزير ، وهى عبارة عن عصا طويلة عليها ذؤابة يحملها التابع امام جواده .
طوفنجي : حامل القربينة وهى سلاح بين البندقية والغدارة .
عرضي : معسكر ، واصلها اوردو اى فيلق الجيش .
عسكرباشي : رئيس الجند .
غاروقة : عقد يتسلم الدائن بمقتضاه ارض المدين، يستغلها وينتفع بثمارها نظير فائدة حتى يسدد المدين هذا الدين .
فردة : او فرضة ، وهو ما تفرضه الحكومة من ضريبة على الذكور من مختلف المذاهب فوق الثانية عشرة من العمر ، وقيمة الفرضة بين ١٥ و ٦٠ قرشا سنويا .
فرمان : مرسوم الولاية .
قابجي : رسول من كبار موظفى الباب العالى .
قادين افندي: السيدة الكبيرة فى القصر .
قاضي البهار : مدير قسم من جمرك السويس خاص بالتوابل والبن التى ترد الى مصر من الشرق الاقصى عن طريق البحر الاحمر .
قاضي عسكر: قاضي القضاة والمشرف على الانظمة القضائية ، يعينه السلطان العثمانى لمدة عام أو عامين ويعاونه قضاةآخرون
قافلة باشي : من كبار موظفى الدولة ، مهمته تفتيش القوافل القادمة الى مصر والصادرة عنها، اى بمثابة مدير سلاح الحدود.
قبودان دريا : امير البحار ، وكان فى مصر ثلاثة قبودان للمحافظة على ثغور : الاسكندرية ودمياط والسويس باعتبارها ابواب مصر .
قبوكتخدا : وكيل الوالى لدى الباب العالى ، بمقام سفير .

قزلار اغاسي : رئيس الخصيان فى القصور .
قمشجي : سائس .
قليونجي : بحار واحيانا « غليونجى » .
قنابر : قنابل .
قهوجي باشا : رئيس سقاة القهوة فى القصور .
قوجه باشي : رئيس قرية من النصارى .
كاشف : وكيل السنجق فى المديرية ، ووظيفته ضبط الامن والاشراف على جمع الضرائب .
كافل الديار : حاميها وحاكمها .
كبكبة : موكب .
كتخدا : كلمة فارسية اصلها « كد خدا » اى رب المنزل . وفى الاصطلاح الادارى بمعنى الوكيل أو النائب ، فهو الذى ينظر فى المسائل تمهيدا لعرضها على الوالى ، ويصدر أوامره راسا فى المسائل الثانوية ، ويحل محل الوالى فى غيابه أو عندما يشغر منصب الولاية ، واحيانا يطلق عليه اسم « كخيا » اختصارا .
كشكول : صحن من الخشب يضع فيه الدرويش طعامه ويعلقه بسلسلة فى عنقه .
كشوفية : نصيب الكشاف والسنجق من فائض الضرائب فى مقابل حماية الفلاحين من سطوة البدو ، وحماية الملتزمين عند تحصيل الضرائب .
كلاف : يعنى بمواشى الوسية ويقوم بتطبيبها وكذلك مواشى الفلاحين فى مقابل حصوله على جزء من المحصول .
كلخانة : اى « بيت الورد » وهو اسم قصر من قصور السلطان نسب اليه الخط الريحانى او الخط الشريف الذى تكتب به المراسيم والاوامر السلطانية .
كلف : الغرامات .
كلفا : وصيفة فى القصور .
كيسة : خمسمائة قرش . ومثلها الحمل وقدره مائة الف قرش
كيلارجي : امين مخزن الطعام .
لالا : مربى فى القصور .
مابين : الديوان السلطانى . وما ــ بين كلمة عربية يقصد بها ما بين السلطان والحكومة .

مباشر : فى الاصل الموظف الذى يباشر الامور المكلف بتاديتهـا ، وعرف « المباشر » بانه الذى يدير بيت المال وشئون الحسابات والاشراف على جمع الضرائب .

متسلم : موظف كبير يتولى شئون البلد ومراقبة الاعمال الحكومية

محتسب : موظف له الاشراف على الاسواق والتفتيش على الباعة ومراقبة التجار لمنع وقوع الغش .

مسافرخانة : بيت الضيافة .

مستحفظان: وجاق الحرس الذى يناط بهحفظ الامن فى داخل المدينة

معمارجى : مدير مبانى الحكومة ، ومن اختصاصه ايضا : الاشراف على ترميم الحصون والقلاع .

معجون اغاسى: صيدلى .

مفروزة : فرقة من الحرس الاهلى انشاها عباس الاول .

ملتزم : شخص يتعهد بتحصيل الضرائب للدولة فى منطقة معينة تسمى « دائرة الالتزام »

مهردار : حامل الاختام .

مهم : احتفال .

ناظر الجيش : القائد العام — وكان يعاون ناظر الجيش اربعة من كبار القادة وهم : صاحب ديوان الجيش. ومستوفى الجيش. ومستوفى اقطاع العرب . ومستوفى الرزق .

نوبة : موسيقى خاصة بالحاكم .

والى : صاحب السلطة العليا فى البلاد ، يعينه السلطان العثمانى لفترة اقصاها ثلاث سنوات ، واهم وظائفه مراقبة تنفيذ الاوامر السلطانية . ودعوة الديوان الى الانعقاد . وتعيين حكام الاقاليم .

وجاق : سلك عسكرى ، أو بمعنى آخر فرقة عسكرية ، وكان فى مصر ست فرق لكل منها ضباط يسمون « الوجاقلية » .

وسية : الارض التى تمنحها الدولة لملتزمى الضرائب ، وهى عادة معفاة من الضرائب ، ومنها ما يخصص للانفاق من ريعها على وجوه البر وتسمى فى هـذه الحالة « ارض رزقة بلا مال » .

وكيل خرج : امين المحفوظات ، لان الاوراق الرسمية كانت توضع فى غرارة « خرج » .

ويركو : ضريبة تفرض على اصحاب المهن وعلى الصناع .

يثقجى : خادم للعناية بمخادع النوم .

يسرجى : تاجر رقيق .

يول اغاسى : حارس طريق ـ خفير ـ وبالاخص الطـرق المؤدية الى ينابيع المياه للشرب .

الشعب خالد لا يموت

نشوء فكرة الحملة الفرنسية ـ المقاومة فى الاسكندرية ـ موقف حاكم الثغر السيد محمد كريم ـ معركة شبرا خيت ـ معركة الاهرام ـ الكفاح المسلح فى الاقاليم ـ ثورة اكتوبر ـ معارك الفداء والتضحية ـ ثورة مارس ـ مصرع كليبر ـ جلاء القوات الفرنسية

كانت مصر ولا تزال عروس الشرق ودرته، وعقد العالم المتوسط ومطمح انظار الدول . ولو كانت بنيلها وواديها الخصيب فى بقعة اخرى من بقاع الارض غير موقعها الحالى لما تطلعت اليها الانظار ولما تسابقت اليها المطامع ، اذ ان ثروتها الطبيعية ليست فى حد ذاتها مما تبعث على الطمع او الجشع فكل ما يخرج من ارضها يكاد يكفى ابناءها . ولكن موقعها الجغرافى بين قارات ثلاث جعل لها اهمية ستراتيجية ممتازة ، ومركزا تجاريا تحسد عليه حتى ادى التنافس بين الدول الى فكرة عامة وهى ان من يحتل ارض مصر يملك زمام الشرق ويسيطر على طريق الهند .

شاعت هذه الفكرة بين الفرنسيين وهم بسبيل تكوين امبراطوريتهم والتوسع فى الفتح نحو الشرق ، فنادوا بتجريد حملة عسكرية على مصر لحفظ تجارة فرنسا فى حوض البحر الاحمر ومنطقة الشرق الاوسط ، واتخاذ مصر قاعدة للهجوم على انجلترا فى الهند وهدم مراكزها التجارية فى الشرق ، وايجاد اسواق لتصريف انتاجهم الصناعى ، والنظر فى حفر برزخ السويس للسيطرة على المواصلات مع الشرق الادنى .

ومنذ يوم ٩ مايو عام ١٧٩٨ نشرت سفن الاسطول الفرنسى قلاعها واعلامها فى البحر الابيض المتوسط ووجهتها ثغر الاسكندرية ، وبعد ان عرجت على مالطة وكريت بقصد تضليل الاسطول البريطانى ظهرت امام شاطىء ابى قير فى اليوم الاول من شهر يوليو عام ١٧٩٨ فبرزت امام الضباط والجند المآذن والمبانى وعمود السوارى والمنارة وقد اتشحت بازار الفجر .

وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين ثغرا صغيرا لا يزيد عدد سكانه على عشرة آلاف نسمة ، ولا توجد به حامية قوية تذود عنه ، وليس هناك من الحصون والمدافع والذخائر سوى منشآت عتيقة لا تصلح لصد عدوان ، ولكن كان على راس الثغر حاكم مصرى قح هو السيد محمد كريم ، فسرعان ما تزعم حركة الدفاع عن المدينة ، فرمم

الحصون والقلاع ترميما ساذجا توحى به الضرورة العاجلة ، وجهزها بما استطاع العثور عليه من ذخيرة وعتاد ، وركب المدافع العتيقة على الاسوار ، واهاب بالمواطنين الى حمل السلاح ، ثم استنجد بفرسان البدو فى الصحراء الغربية والبحيرة للانضمام الى قواته ومناوشة العدو وصد هجومه .

وكادت احلام نابليون بونابرت ، قائد الحملة ، تطيش ، فقد لقى حركة مقاومة عنيفة على الرغم من الدعايات الجوفاء التى كان يبثها وزعمه بان الفرنسيين هبطوا ارض النيل لتخليصها من « السناجق المماليك الذين يتسلطون على البلاد ويختصون انفسهم بكل شىء حسن فيها . وان الفرنسيين مسلمون مخلصون ، واصدقاء السلطان العثمانى واعدى اعدائه » .

واحتشد الشعب السكندرى على الاسوار وفى الابراج يحملون السلاح ويطلقون النار على القوات المغيرة ، وكاد نابليون نفسه يذهب ضحية الرصاص الذى كان يتطاير حول راسه ورءوس اركان حربه. وخشى ان تحدث مذبحة فى المدينة يتردد صداها فى بقية المدن وفى العاصمة فتكون دعاية سيئة ضد القوات التى زعم بانها حليفة السلطان .

استبسل محمد كريم فى الدفاع عن المدينة بما يملك من حول وقوة ، وقامت الاضطرابات ونشبت القلاقل فى وجه الجيش الفرنسى، وبعث السيد محمد كريم الى مراد بك حاكم مصر يطلب النجدة من القاهرة . بيد ان مراد بك تقاعس عن نجدته ، واخيرا راى سكان الثغر ان الكفاح قد لا يثمر امام قوة مسلحة تفوقهم عددا وعدة فهادنوا الفرنسيين الى ان تسنح لهم الفرصة للانقضاض عليهم .

وتلقى نابليون السيد محمد كريم فى مجلس من الوجوه والاعيان بقوله : لقد اخذتك والسلاح فى يدك ، وكان فى وسعى ان اعاملك معاملة الاسير ، ولكن نظرا الى استبسالك فى الدفاع اعيد اليك سلاحك ، واتعشم ان تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة فاسدة .

وترك نابليون الاسكندرية فى عهدة الجنرال كليبر، وواصل الزحف بقواته صوب القاهرة بعد ان اوصاه بالتودد الى السكان ومعاملتهم بالحسنى ، بيد ان نابليون ما كاد ينزح عن الثغر حتى هب السكان لاستئناف القتال ، وبدأوا يناوشون القوات المحتلة ، محاولين النيل

من هيبتها ، فاضطر كليبر الى ان يقبض على السيد محمد كريم واتهامه باثارة الفتن والتواطؤ مع اعداء الجمهورية ، ثم ارسله الى بارجة فرنسية لاعتقاله وانذر السكان بتسليم اسلحتهم ، وتوعد من يتاخر عن التسليم بالاعدام ، ثم فرض غرامة قدرها ثلاثمائة الف فرنك على التجار .

اما السيد محمد كريم فسيق الى رشيد ، ومنها نقل الى القاهرة حيث اجرى هناك تحقيق معه بشان تحريضه السكان على المقاومة واثارة القلاقل ، والتواطؤ مع المماليك ومع البدو ، واخيرا قدم الى المحاكمة وحكم عليه بالاعدام ، وسمح له بان يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثين الف ريال فى بحر اربع وعشرين ساعة فلم يقبل الدفع وقال : اذا كان مقدرا لى ان اعيش فعلام ادفع الغرامة ؟

ومات شهيدا وطوف براسه فى شوارع العاصمة ليكون موضع عبرة وذكرى ، فكان السيد محمد كريم اول مصرى ضحى به على مذبح الاستعمار الاوربى .

• • •

وظن الفرنسيون انه بمجرد ان تطأ اقدامهم ثرى الكنانة فان المصريين سيفتحون لهم اذرعتهم مرحبين بهم لانهم سيخلصونهم من جور المماليك ، متشبهين بسكان القسطنطينية الذين كانوا يهتفون لجيوش محمد الفاتح : العمامة ولا التاج البابوى .

بيد ان المقاومة التى لقوها فى الاسكندرية وعلى طول الطريق الى القاهرة خيبت ظنونهم ، بل انهم بعد ان احتلوا العاصمة وقهروا المماليك فى معركة الاهرام اخذوا يتصورون بانهم قد ملكوا مصر ودانت لهم رقاب اهلها . ولكن فاتهم ان اية قوة معادية لا يمكن أن تخضع شعبا ينفر بفطرته من الاستعمار ، فهبت الثورات فى وجوههم وكابدوا اهوالا ، وكانوا اقرب الى ان يكونوا محصورين منهم بالفاتحين .

كان نابليون يحلم بان احتلال مصر هو خطوة اولى لتاسيس امبراطورية فرنسية فى الشرق والتغلب على اوربا المتألبة على فرنسا. بيد ان الامور لم تجر على نحو ما يشتهى ، فقد ثار الشعب ثورات متتالية فى سبيل الظفر بالحرية والكرامة ، فاضطر الفرنسيون الى ان يسلكوا مسلك القسوة والبطش . قبضوا على الزعماء كرهائن ،

واقدموا على اعتقال العلماء لاتفه الاسباب ، وقاموا باعمال تعذيب وارهاب لا تختلف فى شىء عن همجية القرون الوسطى ، وصوبوا نيران مدافعهم الى قلب العاصمة بغية هدم مراكز التكتلات الشعبية فى المساجد والاسواق ، واسترسلوا فى ضروب التعذيب والتخريب والسلب والنهب ، واعدموا المكافحين وقطعوا رءوسهم وطافوا بها فى الطرقات ارهابا للمواطنين ، وجلبا للطاعة والخضوع ، ثم فرضوا الغرامات والضرائب الباهظة ، وصادروا الاموال ، وسخروا دواب النقل وارهقوا كواهل الشعب بسلسلة طويلة من المظالم .

ولقد عمدوا الى المساجد ودور العلم وبوابات الحارات فهدموها حتى لا تعوق تحركاتهم العسكرية عن التوغل وقمع حركات المكافحين، ومنعهم من التحصن ، وخربوا البساتين وقطعوا الاشجار واقتلعوا ابواب المنازل وشبابيكها لاتخاذ حطبها وخشبها وقودا .

وحاول نابليون ان يحطم الروح المعنوية فى نفوس المصريين ويبعث اليأس الى نفوسهم ببياناته ونشراته حيث قال فى احداها : واعلموا ان ارض مصر استقر ملكها للفرنساوية ، فيجب عليكم ان تعتقدوا ذلك وتركزوه فى اذهانكم كما تعتقدون بوحدانية الله تعالى .

بيد ان هذه الحملة العسكرية المقرونة بالبطش والقسوة انتهت الى الاخفاق الذريع ، اذ رفض الشعب الرضوخ لاهواء المستعمرين وصمد امام اطماعهم فى عزم واصرار ، وبرزت من خلال الاحداث والمحن شخصية الشعب المصرى ، بعد ان مرن على النضال والكفاح، وصقلت الشدائد والتجارب روحه الفتية . وانجبت الثورة طائفة من الزعماء والقادة الذين قادوا خطاه ووجهوا جهوده ووحدوا قواه للظفر بالحرية والكرامة .

بعث السيد محمد كريم حاكم الثغر الى مراد بك فى القاهرة ينبئه بظهور الاسطول الفرنسى على شواطىء الاسكندرية ويقول : انه يتألف من سفن كثيرة لا اول لها ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله ادركونا بالرجال .

فلما قرا مراد بك ذلك الجواب غضب غضبة شديدة واجتمع بالامراء وبالوالى العثمانى ابو بكر باشا وبقادة الجند والوجوه وعلماء الازهر ، وقد صور الخيال لمراد بك بان هؤلاء الفرنجة يقومون بغزو

دينى وانه لا يخرج عن كونه انتقام لهزيمة لويس التاسع واسره فى مدينة المنصورة ، ثم ركبه الغرور فصاح فيمن حوله : ساحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنابك خيلى .

واخذ مراد بك يتاهب ويستعد لمنازلة « جيش الكفار الكثير العدد والعدة » . فصادر الاموال وسلب ما يحتاجه الجيش من مؤون وخيام دون ان يدفع الثمن ، ثم شرع فى التحول مع جنده لملاقاة الفرنسيين عند الرحمانية ، واخذ معه المدافع والبارود وفى ركابه فرسان البدو بما يقدر عددهم جميعا بنحو عشرين الف مقاتل .

وفى ١٢ يوليـو التقى الجيشـان عند شـبراخيت ، ونثرت الشمس اشعتها الذهبية فوق خوذ المماليك واسلحتهم وملابسهم المذهبة التى يختالون بها فوق صهوات جيادهم ، ودارت المناوشات بين الفريقين ، واظهر المماليك فيها من ضروب البسـالة والاقدام وخفة الحركات ما ملأ صدور الفرنسيين اعجابا واجلالا بهم ، الى ان احتدم القتال بين الفريقين ، ولم يكن من السهل على المماليك وهم لم يلتحموا فى حروب منذ عشرات السنين ان يقهروا جيشا مدربا تدريبا فنيا ومجهزا باحدث الاسلحة ويقوده رجل عسكرى من عباقرة القواد .

ووصلت الانباء الى القاهرة عن هزيمة المماليك ، فباتت العاصمة ليلتها فى رعب وفزع ، ونودى بالنفير العام، فاجتمع العلماء فى الازهر، وتحفز الشعب للدفاع ، وتطوع المواطنون بالمال والانفس ، وهبط السيد عمر مكرم نقيب الاشراف من القلعة ناشرا « البيرق النبوى » الى بولاق وحوله الالوف من افراد الشعب وهم يهللون ويكبرون ومعهم الطبول والاعلام والطاسات .

اهاب السيد عمر مكرم بالشعب للدفـاع عن عاصـمة العروبة والاسلام فلبى الشعب النداء ، خرج الرجال والشبان وجاد كل منهم بماله وروحه ، اشتروا السلاح والمؤون والخيام ، واقاموا المتاريس فى الشوارع واخيرا تجمعوا فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل .

• ● •

تعد معركة الاهرام من المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر ، شـانها شان مواقع : اليرموك التى قضت على السلطة الرومانية المسيحية فى اسيا الصغرى . والقادسية التى قضت على الدولة الفارسية . وفتح القسطنطينية الذى قضى على الدولة البيزنطية وعبد الطريق امـام العثمانيين فى البلقان الى ان وصلوا الى فيينا .

كذلك كانت معركة الاهرام ، فقد قضت على المماليك وادالت دولتهم ، وكان الغرور قد صور لهم بان الفرنسيين سوف يلقون حتفهم ويحفرون قبورهم ويحل القضاء بهم عند سفح الاهرام .

شرع المماليك يستعدون للنزال ، فالفوا جيشين : الاول ، بقيادة مراد بك ، ويمتد من بشتيل الى امبابة فمنطقة اهرام الجيزة . فالميمنة ترتكز على شاطىء النيل وقاعدتها امبابة وفيها الاستحكامات والمدافع .

والميسرة على مقربة من الاهرام وفيها الفرسان وسبعة الاف متطوع من المصريين وفى اقصاها فرسان البدو ، وبينها القلب ويتكون من عشرة الاف مملوك والفين من الاغوات .

وهناك الاسطول النهرى ويحرس هذه القوات من ساحل امبابة الى مصر العتيقة فالجيزة .. وقدر عدد المدافعين جميعا بخمسين الف مقاتل بخلاف المصريين .

اما الجيش الثانى بقيادة ابراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل ، ومن حوله سكان القاهرة يحملون الطبول والزمور لتشجيع المقاتلين .

وبدات المعركة فى صبيحة يوم ٢١ يوليو ...

وحين وقع نظر نابليون على هذه الحشود وخبرها وعجم عودها تطلع الى جنده يبعث الحماسة فى نفوسهم فقال : تقدموا .. ان اربعين قرنا تطل عليكم من فوق قمة الاهرام .

فكانت لهذه الكلمات فعل السحر فى النفوس .

وبدات المعركة بان رتب نابليون قواته على شكل مربعات : ففرقة الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال رينيه فى الميمنة ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال فيال فى الميسرة ، وفى القلب فرقة الجنرال دوجا وفيها القائد العام .

وبدات القوات الفرنسية الهجوم على ميمنة جيش المماليك حتى تكون بعيدة عن مرمى المدافع فاخترقتها واستطاعت تطويقها . وكان ان ترك مراد بك الفى جندى وكر على فرقة الجنرال دوجا فى القلب بنحو خمسة الاف من خيرة فرسانه حتى اذا صار على مرمى المدافع الفرنسية فتحت هذه المدافع افواهها فجاة وسحقتها القذائف والنيران ، بيد ان المماليك على الرغم من هذا القوا بانفسهم فى هذه المعمعة يضحون بارواحهم فى سبيل الذود عن ارض الكنانة .

وتحول مراد بك ببقية فرسانه على فرقة الجنرال ديزيه فى الميمنة ، وكان هجوما عنيفا قاسيا قال فيه نابليون عبارته المأثورة : لو كان عندى نصف عدد جيش المماليك لافتتحت به العالم .

ولكن المدافع الفرنسية سلطت عليهم قذائفها من جهات اربع فاوقعت الاضطراب فى صفوفهم ، ثم دارت فرقة الجنرال دوجا بحركة التفاف حول المماليك فاطبقت عليهم وحالت بينهم وبين الوصول الى شاطىء النيل فوقع المماليك فى الشرك وصاروا يتساقطون كالثمار الناضجة . واستشهد فى هذه الموقعة زعماؤهم الذين دافعوا دفاع الابطال واستطاع الباقون الانسحاب والتقهقر الى الوراء .

واخيرا جاءت قوات الميسرة التى يقودها الجنرال بون فكرت على قوات المماليك فى امبابة وحاول المماليك صد هذا الهجوم باطلاق القذائف من مدافعهم بيد ان هذه المدافع كانت من طراز عتيق لا تتحرك ولا تدور فلم تنجح فى صد الهجوم ، وكان ان اختل النظام وسادت الفوضى صفوفهم ، واستطاع الفرنسيون تطويق هذه القوات والاستيلاء على المدافع والمؤون والذخيرة .

اما مراد بك فتمكن من الفرار ومعه ثلاثة الاف فارس الى جنوب الجيزة ، واغرق الاسطول النهرى هناك حتى لا يقع غنيمة باردة فى ايدى الفرنسيين .

وقبيل الغروب كانت المعركة قد انتهت بعد ان ظلت دائرة نحو عشر ساعات ، وبلغت خسائر المماليك والمصريين زهاء سبعة الاف قتيل ، وتقول المصادر الفرنسية ان قتلاهم لم تزد على ثلاثمائة قتيل وهو رقم بالطبع مشكوك فيه .

وعم الفزع شعب القاهرة الذى كان يرقب المعركة ويتلهف للوقوف على نتيجتها ، فلما ايقن بهزيمة المماليك قضت العاصمة ليلة عصيبة ، ونزح عنها الوف المواطنين ومعهم نساؤهم واطفالهم وهم يبتهلون الى الله ان يأخذ بيدهم .

سلمت القاهرة الى نابليون فدخلها دخول الظافر المنتصر ، واذاع على الشعب بيانا زعم فيه بانه ليس فى نيته احتلال ارض مصر ، وانما هو يحارب المماليك الذين طالما شقوا عصا الطاعة على الخليفة ، وان اقصى رغباته ان يحافظ على نفوذ السلطان وحقوقه . وليس على السكان ان يخافوا على عيالهم وبيوتهم وممتلكاتهم لا سيما وانه يحترم القرآن ويعظم النبى ويقدسه .

اما جنده فجعلوا قبلتهم بيوت المماليك فاقبلوا عليها ينهبون محتوياتها ويسبون جواريهم وسراريهم وكن من الحبشيات والروميات والجركسيات ، وفرضوا على التجار الف وستمائة كيس ومثلها على المباشرين الاقباط وثمانمائة كيس على التجار النصارى .

وادرك نابليون بأن مركزه محفوف بالخطر ، وانه يقيم بجيشه بين شعب يتحين الفرصة للانقضاض عليه ، فصار يتودد الى المصريين بكل الوسائل ، ويتزلف الى الزعماء ، ويسترضى العلماء باعتبارهم قادة الشعب وينهى جنده عن العبث بمعتقدات المصريين وتقاليدهم والتعرض لدينهم واموالهم واعراضهم ، ثم راح يشهد الحفلات الدينية والقومية ، فاسهم فى حفلات المولد النبوى والمحمل ورؤيا رمضان ووفاء النيل ، بل لقد ذهب به التملق والضرب على النغمة الدينية الى حد اشاع فيه انه اعتنق الاسلام ، وانه يضع القرآن الكريم جنبا الى جنب مع كتب السياسة ، وقال فيما بعد : انه كان فى مصر مسلما وفى فرنسا كاثوليكيا من اجل ممالأة الشعب .

ووقع عصيان مسلح فى البحيرة وفى رشيد ، وتكرر الاعتداء على مؤخرة القوات الفرنسية فكانت تعمد الى قمعه بنيران المدافع والتنكيل بالمكافحين رميا بالرصاص ومحاصرة القرى واحراقها .

وكان ابراهيم بك قد فر بمن بقى من جيشه الى الشرقية ، وكذلك فر مراد بك الى الصعيد . فوجه نابليون قواته تقتفى أثر الجيشين بقصد ابادتهما . وسار بنفسه على رأس قواته الى بلبيس ، غير ان ابراهيم بك اخلى له المنطقة قبل ان يصل اليها ، واتجه الى الصالحية فتعقبه نابليون واشتبك معه فى معركة حامية الوطيس اضطر فيها المماليك الى الانسحاب بعد ان استبسلوا فى القتال .

اما مراد بك فاعتصم فى الصعيد ، فسير اليه نابليون حملة عسكرية قوامها خمسة آلاف جندى بقيادة الجنرال ديزيه غير ان جيش مراد بك اخلى له منطقة البهنسا التى كان مرابطا فيها وانسحب نحو الجنوب .

وشبت الثورات والقلاقل فى الفيوم وبنى سويف واسيوط وجرجا ، وفى كل مكان رابطت فيه قوات فرنسية ، ولم يستطع نابليون ان ينعم بثمار انتصاراته على المماليك بل اصبح موقفه حرجا اذ كانت روح المقاومة تشتد وتتفاقم وباتت مواصلات الجيش النهرية

والبرية مهددة بالانقطاع فكان المقاومون يهاجمون السفن ويستولون على ما فيها من المؤون والذخائر والاسلحة ويستعملونها فى قتال الفرنسيين .

وبرهنت هذه الثورة على ان السلطات الغاشمة لم تكن فى يوم من الايام أقوى من حركات الشعوب وتكتلها فان الاولى مصيرها الى الزوال اما الثانية فخالدة بخلود الشعب ، مادام هناك افراد مناضلون تتردد فى صدورهم نبضات الحياة .

• ● •

فى يوم ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ أى بعد ثلاثة اشهر من الاحتلال ، شبت الثورة فى القاهرة ، وكانت انتفاضة ووثبة جاءتا عنوانا لنفسية الشعب .

ويعزى السبب فى قيام الثورة الى تفنن المحتلين فى ابتزاز الاموال ومصادرة الممتلكات وانتهاك الحرمات ، فقبض على نساء المماليك فى مقابل ان يفتدين انفسهن بالمال ، فافتدت السيدة نفيسة المرادية نفسها وتابعاتها من زوجات الامراء والكشاف بمائة وعشرين الف ريال . وكان لهذه السيدة مكانة مرموقة فى نفوس المصريين ، فضلا عن ان العادة لم تجر قبل ذلك بان يتعرض المحاربون للنساء ويقبضون عليهن وجعلهن تحت الحفظ .

وعمد المحتلون الى هدم بعض المساجد والمنارات بحجة توسيع الطرق لتحركات الجيش وسير المركبات ، وازالوا ابواب الحارات ، بحجة التنظيم ، وطلبوا الى التجار سلفة اجبارية تقدر بملايين الفرنكات ، للانفاق منها على الجيش ، وارتكبوا الفظائع فى قمع شعور المواطنين والتنكيل بهم واعدامهم ، ثم جاءت اخيرا الضريبة التى اقرها « الديوان الخصوصى » على العقارات والدور واصحاب الحرف والصنايع . فكثر لغط الناس وتناجوا فيما بينهم ، واكتظت بهم الطرقات .

اختمرت فكرة الثورة فى الاذهان ، وانتشرت الدعاية لها باساليب متباينة ، فخطب عالم من الازهر هو السيد بدر المقدسى فى جمع غفير وحرضهم على الذهاب الى بيت القاضى لحمله على ان يرافقهم الى دار القيادة والتوسط فى الغاء الضريبة الاخيرة .

وكان من عادة المصريين ان يلجأوا الى رجال الشرع وعلماء الدين يبسطون لهم شكاواهم ويستعدونهم على القوم الظالمين، وكان للزعامة الدينية فى ذلك العصر مكان الصدارة .

وما كاد القاضى يلبى دعوة الجموع الحاشدة المتظلمة حتى وجد نفسه فى الطريق امام جموع اخرى تزحف اليه وكلها تناشده التوسط فى شأنهم ، فخشى القاضى مغبة الامر وانكفأ الى منزله ، فانهالت عليه هذه الجموع وعلى اعوانه ضربا بالعصى ورجما بالاحجار ، ثم اتجهت الجموع صوب الازهر وهم يضجون ويصخبون وينادون بالثورة والدعوة الى كراهية حكم الاجنبى ونبذ طاعته ثم جاء غيرهم وهم يحملون الاسلحة ويصيحون : الى القتال — الى الجهاد .

ولم يكد الجنرال ديبوى حاكم القاهرة يبلغه نبأ ذلك الحشد فى الازهر حتى نهض على رأس قوة صغيرة من الفرسان ليتعرف اسباب الهياج ، فقابل المواطنون هذه القوة العسكرية برجمها بالاحجار ، فحمل الجند عليهم ، وجاء برتلمى الرومى ومن اعوان الاستعمار وصنيعتهم على رأس قوة اخرى من حفظة الامن واطلق الرصاص على هذه الجموع ، مما اثار سخطها فاشتبكوا مع الفرنسيين فى قتال وانهالوا عليهم طعنا بالسيوف والخناجر ، واصيب الجنرال ديبوى بطعنة رمح فى صدره فهوى عن جواده واسلم الروح بعد ساعات .

وكان لمصرع حاكم القاهرة اثره فى نفوس الثوار فتحمسوا واقبلوا على الضباط والجند يرمونهم بسهامهم ويحملون عليهم بالاسلحة الساذجة التى فى ايديهم فقتلوا منهم العشرات ، ثم استولوا على المواقع المحيطة بالعاصمة واتخذوا من مصاطب الحوانيت متاريس اقيمت على منافذ الطرق لعرقلة حركات الجند واخذوا يطلقون النار من خلفها .

وهنا ادرك الفرنسيون خطورة الموقف وانذرتهم هذه المقدمات بهبوب العاصفة . لقد ترامت هتافات الشعب الى مسامعهم ، وهم وان لم يفهموا معنى الالفاظ الا انهم ادركوا مغزاها ومرماها . انها صوت نذير الثورة ، وهم يدركون تماما ما هى الثورة ، فما عهدهم بثورة شعبهم ببعيدة عن اذهانهم . انهم يعرفون ان لا شىء اقوى من شعب يتوق الى الحرية ، ويسعى حثيثا اليها ، انه يضحى فى سبيلها بما يملك من حول وقوة . لقد خبروا نفسية الشعوب الثائرة التى

حاولوا اخضاعها ، انها نفسية لا ترحم . تمزق المستعمر اربا وتصب اللعنات فوق راسه ، فهذه هى لغة الشعوب اذا استبد بها الظلم واطاش صوابها الاستعباد .

وشكلت لجنة قيادة الثورة وجعلت مقرها الازهر ، وانتخب الشيخ السادات رئيسا لها، ونظمت كتائب المتطوعين وزودوا بالاسلحة وانبث العلماء وشيوخ الازهر بين الصناع والتجار ومختلف الطوائف يدعونهم الى الثورة ، وتسلل الدعاة الى الريف يستنهضون همم الفلاحين لمناهضة المستعمرين ومؤازرة المكافحين ، فاقبلت افواج منهم يحملون العصى والفؤوس والرماح والبنادق ، واعتلى المؤذنون شواهق المآذن ينادون نداءات مثيرة للخواطر . ثم اغلقت المتاجر واوصدت الاسواق ابوابها حتى بدت العاصمة كمدينة مهجورة .

وعلت صيحات السخط فى كل مكان، وتجمع المواطنون فى الجوامع يستمعون الى العلماء وهم يخطبون ويحمسون افراد الشعب على منازلة المحتلين وتحرير مصر ، الى ان اندلع لهيب الثورة واشتد اوارها .

وانبث الفقهاء فى الشوارع ينادون : من كان موحدا يأتى الى الجامع الازهر لان اليوم يوم المغازاة بالكفار وعلينا ان نزيل هذا العار باخذ الثار .

وهرع الفرنسيون الى اعداد مدافعهم وقناصتهم، ونصبوا المدافع على سفح جبل المقطم لضرب المدينة بسيل من القذائف .

وخرج قرابة ثمانية آلاف مجاهد من باب الفتوح ، وتدفقوا منه الى المرتفعات للاستيلاء على المدافع التى تصب نيرانها ، فصدتهم القوة المرابطة عند سفح الجبل ، فتسلق فريق منهم اسطح جامع السلطان حسن وصعدوا الى مناراته لضرب الجنود الفرنسيين الذين يقفون خلف المدافع واصلوهم نارا حامية. فبادر القناصة الى اقتحام الجامع وتحطيم ابوابه وقبضوا على فريق من المكافحين ورموهم بالرصاص .

وتلقى الثوار الكولونيل سلكوسكي قائد حرس نابليون عند باب النصر ، وكان على راس كتيبته ، واشتبكوا معها فى قتال مر المذاق الى ان اصابوه برصاصة صرعته فى الحال .

واستشاط الفرنسيون غضبا ، فسلطوا قذائف مدافعهم على الازهر موطن الثورة ، واخذت القنابل تترامى على الجامع وعلى الاحياء المجاورة حتى تصدعت الجدران وانهارت المنازل الملاصقة ودفن الالوف من النساء والاطفال والشيوخ تحت الانقاض ، وجرى الدم فى الشوارع من الفريقين ، وورد فى احصاء رسمى عن مقر القيادة بان عدد القتلى بلغ زهاء اربعة الاف من الانفس فى هذا اليوم .

ولم يلبث الفرنسيون ان احتلوا الجامع الازهر بخيولهم وجاسوا خلال اروقته وربطوا الخيول عند القبلة . وحطموا القناديل ونهبوا المخطوطات والمصاحف .

وعمدوا الى الانتقام من شعب القاهرة ، فقبضوا على زعماء الثورة من علماء الازهر واعتقلوهم فى القلعة ثم اعدموهم دون محاكمة ، وطرحت جثثهم فى النيل . واسرفوا فى تعذيب طائفة من قادة الحركة واوثقوا مئات من الفلاحين فى الحبال وازهقوا ارواحهم . اما الشيخ السادات فقد امر نابليون بعدم المساس بشخصه واعدامه .

• ● •

ولم يقتصر غليان العواطف واضطراب المشاعر على سكان العاصمة وحدهم بل لبى نداء الثورة المواطنون فى الجيزة ، وقدم من قليوب شيخ العرب سليمان الشواربى على راس فرسان البدو والفلاحين لنجدة المكافحين ، فارسل نابليون مفرزة من الجند تصيدتهم عند مشارف العاصمة . عند عزبة الزيتون ، وحالت بينهم وبين الانضمام الى الثوار ، وقبض الفرنسيون على الشواربى واعدموه فى القلعة .

واخيرا استطاع الفرنسيون أن يقمعوا الثورة فى القاهرة بعد ان افنوا الالوف من شعبها ليواجهوا ثورة انكى منها امتدت من اقصى مصر الى اقصاها .

ففى المطرية نهض حسن طوبار وعبأ الالوف من المجاهدين وزودهم بالاسلحة فسيطروا على منطقة بحيرة المنزلة وما جاورها وحشد المراكب والزوارق لعرقلة حركات الجيش الفرنسى ومهاجمة سفنه وكان الثوار مسلحين بالسيوف والحراب والخناجر والسهام والبنادق فالتحموا فى معارك مع القوات الفرنسية وهزموها ، ولم تجد هذه القوات سبيلا الى الانتقام الا باحراق القرى الثائرة والقيام باعمال السلب والنهب واغتصاب الاموال والحلى وانتهاك حرمة المنازل ، والقبض على الوجوه والاعيان بصفة رهائن .

وفى ميت غمر وسنباط وميت الفرماوى ودنديط هب الفلاحون يذودون عن حقوقهم وكرامتهم ، فقطعوا الجسور لتغمر المياه الاراضى وتعرقل زحف القوات المعادية واعتصموا بالتلال يصلون منها هذه القوات نيرانا حامية .

وابدى ثوار المنصورة بسالة واقداما ، محاولين ان يستعيدوا امجاد اسلافهم الذين ردوا الفرنسيين على اعقابهم فى الحروب الصليبية ، واسروا قائدهم الملك لويس التاسع وسجنوه فى بيت لقمان .

وبلغ التمرد والعصيان فى طنطا اقصى مداه فى ايام المولد الاحمدى، وشد فرسان البدو أزر الطنطاويين فى الكفاح ، وكان نابليون يخشى ان يرتكب جنده حماقة فى هذا البلد الدينى المقدس الذى يعد فى نظره بمثابة مكة ، فأمر باستعمال سياسة اللين والحكمة والاكتفاء بالقبض على شيوخ الجامع الاحمدى وزعماء المدينة بصفة رهائن .

ولقى المستعمرون عنتا فى منوف وقليوب والمحلة الكبرى وحملوا على الثوار حملات جنونية طائشة ، وصاروا يقابلونهم بقذائف المدافع والرصاص ، ثم تحرج الموقف فى الصعيد وخرج سكانه عن بكرة أبيهم ينتفضون للتخلص من قبضة المستعمر الذى اخذ ينكل بهم ويحرق قراهم ويشردهم هائمين على وجوههم فى العراء .

• • •

خمدت ثورة اكتوبر واستكان المصريون الى المهادنة ريثما تبرا جراحهم ليحملوا على المستعمر فى ثورة اشد هولا ونكالا ، ثورة عارمة تزعزع قواعده وتهدم مراكزه وتدفعه الى طلب الجلاء بنفسه عن الارض الطيبة يدنسها برجسه .

ولم تشهد القاهرة فى ثورتها الثانية ارتباطا وثيقا وتفانيا بين الافراد والجماعات وتضحية بالدم والمال مثلما شهدته فى ابان ثورة مارس عام ١٨٠٠ فقد تنازل كل مواطن راضيا عن نفسه وعن ماله وعن جميع حقوقه لكسب معركة التحرير ، واخذت حركات الكفاح الشعبى تنحدر بمرور الايام فى اشكال وصور شتى حتى حولت الرجال الى قنابل وشبكة الانفجار ، وصار افراد الشعب فى نظر المستعمر ليوثا كاسرة ، تتربص الوثبة للانقضاض عليه ، وسرعان ما صارت القاهرة كشعلة من نور ونار تضىء معبد الحرية وتبدد ظلمات الاستعباد .

جاءت الانباء الى القاهرة بأن تركيا قد عبأت جيوشها للزحف على مصر من ناحية الشرق برا . وعلى الشواطىء الشمالية بحرا بغيـة طرد الفرنسيين من أرض الكنانة . وان هنا لك ثمانين الف جندى عثمانى يرابطون على ابواب القاهرة ، وان الفرنسيين بقيادة كليبر قد خرجوا لمنازلة هذه القوات فى منطقة عين شمس .

وتمكن العشرات من الجنود العثمانيين من التسرب الى القاهرة واخذوا يختلطون بمختلف الطوائف ويحرضونها على الثورة . فلم يكد كليبر يعود من معركة عين شمس منتصرا على الاتراك حتى وجد نفسه يواجه ثورة عارمة شبت فى القاهرة وفى الاقاليم .

دوى فى القاهرة بوق الثورة فلبت العاصمة النداء ، واستمدت قوتها من ايمان افراد شعبها ونخوتهم واستبسالهم ، وانتفضوا جميعا تحركهم فكرة واحدة هى طرد الدخيل عن الارض الطاهـرة ، ومن هذا اليوم تحولت القاهرة الى بحر زاخـر متلاطم الامواج ، كثير المفاجآت ، مروع الحوادث .

كان نابليون قد غادر مصر عائدا الى فرنسا بعد ان عهد بقيادة الحملة الى خليفته الجنرال كليبر ، فايقن الشعب بان حكم الفرنسيين يجب ان يزول ، وتحفز المواطنون للمقاومة والكفاح وخوض معركة التحرير وجعلوا قبلتهم حرية مصر .

واتجهت الانظار الى الزعماء الذين سيخوضون معركة التحرير ، واهتزت النخوة الوطنية فى الصدور . صاح عمر مكرم صـيحته المدوية فلباها السادات وشيوخ الازهر ، وتعهد السـيد المحروقى بالقيام بنفقات المجاهدين ، وقامت النساء بطهو الطعام وغسل ملابس الثوار ، وتطوع الفلاحون من سكان الضواحى بمدهم بما يحتاجون اليه من الغلال والمواشى والسمن .

كانت الشرارة الاولى للثورة فى حى بولاق ، يتزعمها الحاج مصطفى البشتيلى ، فحمل سكان الحى السيوف والبنادق والرماح والهراوات ، وزحفت جموعهم صوب مخازن الجيش الفرنسى على شاطىء النيل ، واشتبكوا فى معركة خاطفة مع الحراس ، وتمكن الثوار من الاستيلاء على محتويات المخازن من ذخيرة وعتاد حربى ومؤون .

ثم اتجهوا لمهاجمة الفرنسـيين فى قلاعهم ، وكانت اقربهـا الى طريقهم « قلعة قنطرة الليمون » لاقتحامها، ولكن مدافع حامية القلعة تلقفتهم بقذائفها واستطاعت أن تحصد منهم نحو ثلاثمائة شخص .

فأعاد الثوار تنظيم صفوفهم ، وتوالت القذائف والانفجارات فوق الرءوس ولكن الشعب برغم هذه الكارثة التى حلت به لم يتراجع أو يتخاذل بل اقبل يجود بالروح فى معركة الدم .

امتدت الثورة الى بقيةاحياء العاصمة فاحتشد زهاءخمسين الف ثائر اخترقوا بجموعهم الشوارع وتسللوا من الدروب متجهين صوب مقر القيادة الفرنسية فى حى الازبكية ، وكانت قد سبقتهم الى هناك ثلة من الفدائيين فاحتلوا اسطح المنازل المطلة على مقر القيادة لاطلاق النار عليها .

وتحت وابل من القنابل التى كانت ترسلها مدافع القلاع ، تقدم الثوار لوضع حد لمهزلة الاحتلال ، والتحم الفريقان فى معارك حامية الوطيس تمثل فيها الصراع بين الحرية والاستعباد . وبين الحياة والموت . كانت اشلاء الثوار تتطاير مع الشظايا ، والقذائف تحصدهم حصدا ، الدور والقصور ، المعابد والمساجد يتقوض بنيانها وينهار ، واشبال الثورة لا يكفون عن التقدم واقتحام المخاطر .

أبدى الثوار من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية ، وكانوا يملكون ثلاثة مدافع استعاروها من الجيش العثمانى ولكنهم لم يجدوا ذخيرة لاطلاقها فصاروا يطلقون منها كرات الحديد ، والمثقلات التى يزن بها التجار بضائعهم .

واستمرت المعركة فى عنفوانها ، حول مقر القيادة الفرنسية الى اليوم التالى ، وعثر الثوار على عدة مدافع كانت مطمورة فى حدائق قصور المماليك ، فاخرجوها من تحت الطين والتراب وجلبوها الى ساحة المعركة ، وتمكنوا من احتلال منازل بعض القواد الفرنسيين ، وتحصنوا فى المنازل المطلة على القلاع وحول بركة الازبكية .

وقضت القاهرة يومين فى جحيم مستمر وظلام دامس ، وخاف بعض المواطنين على عائلاتهم ، كما خشوا ان يحاصر الفرنسيون القاهرة فيهلك المسنون والاطفال والنساء جوعا ، وتجمهر اصحاب هذا الرأى فى حى « الجمالية » وبيتوا النية على الرحيل ليلا ، ولكن الثوار ناهضوهم وعنفوهم ، واقسموا بالا يتخلى عن العاصمة فى محنتها أحد ، ثم اغلقوا ابواب القاهرة وعينوا عليها حرس اهلى . وقاموا بحركة بارعة الغرض منها تطهير المدينة من الطابور الخامس ، فهاجموا المحافظ مصطفى اغا لتواطئه مع المستعمر ، واعتدوا على السيد خليل البكرى صنيعة الفرنسيين .

وبينما كان فريق من الثوار يصد هجوم الفرنسيين ويناوشهم كان فريق آخر يعمل فى اقامة المتاريس وخطوط الدفاع ، ثم قسموا المدينة الى مناطق ، وجعلوا على راس كل منطقة قائد شعبى يدافع عنها ، واهابوا بكل قادر على حمل السلاح ان ينضم اليه فى منطقته وبذلك تحولت الحركة الى تعبئة عامة .

ووجد الثوار انه ليس فى وسعهم ان يقهروا جيشا منظما مدربا ومسلحا كالجيش الفرنسى ويجلوه عن ارضهم الا بالسلاح نفسه ، فانشأوا معملا للبارود فى بيت قائد اغا فى الخرنفش وجاءوا بالصناع والعمال من حدادين وسباكين وبرادين ونجارين وتحايلوا على صنع الذخائر والبارود ، واقاموا مصنعا آخر لصب المدافع فى بيت القاضى وجمعوا الحديد لذلك من المساجد ومن تجار الحدايد ومن بقايا المدافع المتخلفة عن معركة عين شمس ، وكانوا يحرصون على جمع القنابل المتساقطة عليهم ويعيدون صبها ، ولم تمض ايام معدودات حتى اخرجت هذه المصانع اولى انتاجها .

وعاد كليبر الى العاصمة فوجد الحالة اخطر مما كان يتصور وان موقف الثوار على شىء من المناعة ، وان محاولته قمع حركاتهم سيؤدى الى خسائر فادحة ، كما انه كان فى حاجة الى ذخائر ونجدات لقتالهم ، فاكتفى بشد ازر حاميات القلاع ، وضرب القاهرة بالقنابل ليل نهار لاثباط عزيمة الثوار واضعاف روحهم المعنوية ، ولما لم يفلح فى ذلك ، عمد الى اجراء ديبلوماسى وهو التفرقة بين العناصر المختلفة ، ففاوض العثمانيين فى وضع شروط للصلح ، وابرم معاهدة مع مراد بك زعيم المماليك منحه بمقتضاها الحكم على الصعيد فيما وراء بلصفورة على أن يدفع للفرنسيين ما كان يدفعه للعثمانيين ، وعلى الا يساعد كل من الطرفين الاخر فى حرب ، وارسل الى بعض العلماء يدعوهم الى مقابلته لطلب الصلح ، اما الشعب فكان فى نظر هذه العناصر الثلاثة غنيمة باردة .

وعاد المشايخ : عبد الله الشرقاوى والمهدى والفيومى والسرسى الى الثوار يحملون اليهم شروط الهدنة التى عرضها القائد العام ، ومنها ان ترجع الحالة الى ما كانت عليه قبل الثورة دون جزاء او عقاب . وكان رد الثوار على هؤلاء الوصوليين الذين ساوموا على حرية الشعب ان دبت الروح فى نفوسهم ونادوا باستئناف الكفاح الى آخر رمق ،

وبلغ من حنقهم على هؤلاء المشايخ ان اعتدوا عليهم ورموا عمائمهم الى الارض واسمعوهم قوارص الكلم .

وكانت القاهرة فى غضون هذه الفترة العصيبة من حياتها هدفا لاعصار مدمر هائج، فالقذائف تدقها اناء الليل واطراف النهار فتخرب وتدمر وتقوض المنازل ، والسكان يقضون ليالى لا يذوقون فيها طعم الكرى الا غرارا ، اذ كان الاخلاد الى النوم معناه الموت . والماء قد شح اذ حال المستعمرون بين المصريين وبين مياه نيلهم، فصار السكان يروون ظماهم من مياه الابار على قلتها ، والقوت قد عز واختفى ، وكل ما كان شائعا من الطعام هو الارز المطبوخ بالعسل الاسود ، والمخابز والمحال التجارية قد أوصدت ابوابها ، والماشية قد نفقت لندرة العلف ، ولكن السيد عمر مكرم كان لا ينى يطوف بمراكز الفدائيين يتفقدها ويحثهم على مواصلة الكفاح .

كان الثوار يعلمون بأن بعض القوات الفرنسية فى طريقها الى العاصمة للنجدة والتنكيل بشعبها واذلاله، فبذل الثوار ما فى وسعهم للقضاء على هذه القوات قبل تجمعها ، فضاعفوا مجهودهم وقابلوا كل هجوم بما هو اشد هولا منه .

وعاد كليبر يطلب الى وفد العلماء الاجتماع به للمفاوضة، والحف فى الطلب ، وعرض عليهم شروطا للهدنة ووقف القتال بشرط ان يخرج العثمانيون من القاهرة ، فرد عليه العلماء بان السكان يخشون ان ينتهز الجند فرصة نزوح العثمانيين للتنكيل بهم ، فعمد كليبر الى المراوغة وقال : اذا قبل السكان الشروط اجتمعنا مع العثمانيين والمماليك ومعكم بوصفكم زعماء الشعب وعقدنا الصلح ووقعنا عليه جميعا .

وبعث الفرنسيون الى سكان حى بولاق يطلبون الهدنة فرفضوا هذا العرض فى اباء وشمم وذكروا بانهم مرتبطون بمصير القاهرة واذا هوجموا فسيدافعون عن انفسهم حتى الموت .

اخفقت مساعى الصلح ، وكان لا بد من استئناف القتال ، فعند فجر يوم ١٥ ابريل سلط كليبر قواته المسلحة على حى بولاق . وجعل يغزوه من البر ومن النيل ، وهاجمه الجنرال فريان بقسوة وفى منتهى الشدة ، واستطاع الجند ان يتسللوا الى داخل الازقة والدروب ، فاصلاهم سكان الحى نيرانا حامية وسقط المئات من الفريقين بين قتلى وجرحى .

واخيرا رأى الفرنسيون ان الاستيلاء على بولاق بهذه الطريقة يكلفهم خسائر فادحة فى الارواح والعتاد فعرضوا الهدنة . بيد ان الثوار ابوا الا مواصلة الكفاح ، وازاء هذا الاصرار من جانبهم عاد الفرنسيون الى خوض المعركة يصارعون الموت والموت يصرعهم ، وبلغ من شدة حنقهم ان دمروا ميناء بولاق واحرقوا المنازل ، فكان لا يسمع سوى دوى المدافع وانات الجرحى وحشرجة الموت ، وسرعان ما خضبت الطرقات بالدماء وتكدست الاشلاء والرمم على جوانب الطرق ، وتحول الحى الى خرائب واطلال .

وثارت الطبيعة بدورها ، وكانت ثورتها صدى لما يجرى على سطح الارض ، فانهمرت الامطار ، وصحبها البرق والرعد وسالت الطرق بالمياه وسدت بالاوحال واختلطت بالرمم والاشلاء ، وكان منظرا كريها موحشا .

وكانت ثورة الطبيعة من العقبات التى عاقت حركات الثوار ، وصارت اقدامهم تغوص فى الطين وتنزلق ، ولكن ذلك من ناحية اخرى ساعد الفرنسيين على الكر على حى بولاق اذ كانوا يهاجمونه من مساحات من الارض مفتوحة لا تؤثر فيها مياه الامطار والاوحال كما كان الحال داخل الازقة والدروب .

واصل الفرنسيون هجومهم على بقية احياء العاصمة ، تتقدمهم المدفعية ويتبعها القناصة ، ثم الفدائيون الذين كانت مهمتهم قذف فتائل مغموسة فى الزيت والقطران على المنازل بقصد احراق المدينة ، وكانت النار كلما اشتعلت فى احد المنازل عمد سكانه من النساء والاطفال الى النجاة بان يلقوا بانفسهم من النوافذ فرارا من الموت ومن فحيح اللهب .

وجاء الهجوم عنيفا على احياء الحسينية وباب الحديد وبركة الرطلى ، واخذت حصون قنطرة الليمون والظاهر والرويعى تقذف الدمار على المدينة من مدافعها .

وفى خلال هذا الهول كانت الرسل تتردد بين المعسكرين المتطاحنين لوضع حد لهذه المجزرة البشرية الرهيبة ، وقد بدأ الفرنسيون بطلب الصلح الى ان تم الاتفاق اخيرا على الهدنة مع منح السكان العفو والتصريح لمن يريد منهم مغادرة العاصمة بالنزوح عنها .

وهكذا استطاع الثوار بصلابتهم وعنادهم أن يفرضوا شروطامشرفة لصلح توج ثورة عارمة دامت سبعة وثلاثين يوما هلك فى اثنائها منهم نيف وخمسة الاف شهيد .

ودخل كليبر العاصمة من باب النصر دخول الغزاة الفاتحين ، تتقدمه الخيالة وفى ايديهم السيوف مصلتة ، ويليهم المشاة وقد وضعوا فوق رءوسهم قلانس من الفراء ، واحتفل بهذا الانتصار المزعوم ثلاثة ايام ، واخيرا طلب كليبر وفد العلماء ومشايخ الازهر وانهى اليهم بانه كان فى وسعه ان يحرق المدينة عن آخرها ولكن الشفقة اخذته على النساء والاطفال ، وبما انه قد صفح عن السكان فهو يلزمهم بدفع غرامة حربية قدرها مليونا ريال وعشرين الف بندقية وخمسة عشر الف طبنجة وعشرة الاف سيف ، على ان توزع الغرامة على الاعيان والتجار واصحاب الحرف والصنائع ، وجعل على اصحاب العقارات ان يدفعوا قيمة ايجار سنة مقدما ، وخص السيد احمد المحروقى بغرامة قدرها مائة وخمسين الف ريال .

وكانت هذه الغرامات والكلف فى حد ذاتها فادحة ومطلبا جنونيا لا تطيقه اية عاصمة خرجت من ساحة الشرف مثخنة الجراح ، ولكن الاجراءات التى تلت ذلك كانت اشد وانكى ، فقد خرق الفرنسيون شروط الهدنة فاقتحموا المنازل وصادروا الاسلحة وحكموا بالاعدام على كل من يحرز سلاحا ، وقاموا بحركة ارهاب واسعة النطاق ، فقبضوا على لفيف من العلماء وعلى راسهم الشيخ السادات الى ان يوفوا ما هم مطالبون بدفعه من غرامة . ووزعت الغرامات على السكان فكان نصيب الشخص غرامتان او اكثر حتى اوشك الناس على الافلاس ومنهم من قضى نحبه تحت آلات التعذيب ، وقبلوا ان يدفع البعض بدل النقود مصوغات ذهبية او فضية وكانوا يقومونها بابخس الاثمان ، فضلا عما نهبوه من محتويات المتاجر والقصور ومنها دار السيد عمر مكرم .

• ● •

كان هذا اللون البشع من الارهاب فى اخضاع عاصمة العروبة والاسلام حديث الشرق وشجنه ، فملأ السخط اطواء الصدور وبكاها من بكاها الى أن تحمس لها شاب سورى اسمه سليمان الحلبى فى الرابعة والعشرين ربيعا ، فصمم على غسل الاهانة بالدم ولوح بنصل

حاد فى يده ، تحركه شهوة الانتقام ثم ركب راحلته تطوى به البيد والقفار الى ان دخل القاهرة وسار فى شوارعها ودروبها ويتطلع حزنا واسى على ما اصاب عاصمة الشرق من خراب ودمار وينصت الى انباء الفظائع والموبقات التى ارتكبها « عساكر الكفار » .

ومضى الى الازهر تهديه مآذنه السامقة وآوى الى صحنه عدة ايام يريح جسمه المكدود من عناء السفر ، حتى اذا ما استرد نشاطه خرج فى صبيحة ١٤ يونيو ١٨٠٠ ووجهته مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الازبكية ، وتسلل خفية الى الحديقة حتى اذا ما لمح الجنرال كليبر مقبلا عقب حفلة غذاء عند احد قواده انقض عليه بنصله ، فارداه قتيلا ، وبذلك قضى على روح المقاومة فى جيش فرنسا فى الشرق .

وقبض على سليمان الحلبى وعلى ثلاثة من المجاورين ثبت انهم كانوا على بينة بنيته فى الاغتيال ، واغلقت ابواب الجامع الازهر ، وقبض على المشايخ : الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وحجزوا فى القلعة .

وصدر الحكم باعدام الحلبى ورفاقه الثلاثة امام عينيه وتفصل رءوسهم عن اجسادهم ، ثم يعاد التعذيب مع المتهم الاول فتخرق احشاؤه وتحرق يده اليمنى ويترك ليموت موتا بطيئا .

ولم تشف هذه الطريقة الانتقامية ما فى صدور القوم من غل فاحتفظوا بالرءوس الثلاثة بعد ان طرحت الجثث فى العراء للطيور الجارحة تنهشها ، واحتفظوا ايضا بهيكل جسم الحلبى ، واخذوها معهم الى فرنسا .

وبعد ان قتل كليبر حل محله فى القيادة العامة الجنرال مينو وكان قد اعتنق الاسلام وتسمى باسم « عبد الله باشا مينو » واقترن بسيده من كرائم الاسر فى مدينة رشيد ، ولم يكن هذا القائد على شىء من حزم نابليون ولا كفاءة كليبر ، وفى عهده حدث انقسام بين صفوف الجيش ، وقد استهل حكمه بتوفية مبلغ الغرامة الحربية السابق فرضها على سكان العاصمة .

واخذت انجلترا تسعى الى اخراج الفرنسيين من وادى النيل بتحالفها مع الباب العالى ، وكانت الخطة الموضوعة تتلخص فى ان تزحف القوات العثمانية البرية عن طريق العريش ، والقوات البحرية

تنزل فى ابى قير ، ويزحف من ناحيــة السويس جيش بريطانى من الهند ، وتهبط الى شواطىء الاسكندرية قوات اخرى من الاسطول البريطانى ، وبذلك يطوق الجيش الفرنسى من جميع الجهات ويمنع وصول المدد اليه .

وقد نفذت هذه الخطة الموضوعة باحــكام وكان من جرائهــا ان نشبت معارك حامية الوطيس بين القوات المتحالفــة وبين الجيش الفرنسى ، واضطر الفرنسيون الى اعتقال عدد كبير من الزعمــاء والعلماء واودعوهم القلعة ، خشية تحريضهم الشــعب على القيام بثورة .

وفى النهاية نظر الفرنسيون الى الموقف ووجدوا الا فائدة ترجى من المقاومة والبقاء بين شعب يعاديهم وامام قوات عسكرية تفوقهم عددا وعدة ، وبذلك انهارت احلامهم ، فاتخذت القيادة العليا قرارا بوجوب الجلاء ووقعت اتفاقية بهذا الشأن فى ٢٧ يونيــو ١٨٠١ مع رؤساء اركان حرب الجيوش العثمانية والبريطانية .

شعب فى المزاد

جلاء الحملة الفرنسية ـ نشأة محمد على ـ مناوراته السياسية ـ نفوذ الالبانيين ـ الولاة ومصيرهم ـ الباب العالى يطالب بطرد محمد على ـ التطاحن على السلطة ـ الفزع والارهاب فى القاهرة ـ آخر عهد المماليك بالحكم

انتهت الحملة الفرنسية على وادى النيل بانتهاء القرن الثامن عشر ، وعلى الرغم من انها لم تمكث سوى ثلاث سنوات وثلاثة اشهر فقد تركت من الآثار العلمية والعملية ما يعد اساس نهضة كبرى ، وهذه النهضة هى التى احتضنها محمد على ونسبت اليه خطأ ، فقد اضطر رجال الحملة الى ان يعملوا مجدين فى انشاء صناعات كبرى وفى مقدمتها المنسوجات والورق والبارود ورفع المياه ودبغ الجلود وتعميم المستشفيات ، فضلا عن انهم نظموا الحياة الاقتصادية والمالية والادارية ، وساعدوا على ايقاظ الروح القومية بما استحدثوه من انشاء « الدواوين » التى كانت بمثابة برلمانات صغيرة ، والدعوة الى المبادىء التى قامت عليها الثورة الفرنسية وحقوق الانسان .

وبعد ان غادر آخر جندى فرنسى ارض النيل ، وقعت مصر فريسة لاطماع المغيرين وموضعا لتنافس وتطاحن الانجليز والمماليك والعثمانيين ، وكان كل منهم يسعى جهده للكيد للاخرين لانتزاع السلطة منهم .

فالانجليز قدموا الى مصر حلفاء للعثمانيين بغية اجلاء الفرنسيين عنها ، ولكنهم كانوا يضمرون احتلالها للسيطرة على طريق المواصلات الى الشرق وبخاصة الى الهند وايجاد اسواق لتصريف انتاجهم الصناعى . وكان جيشهم بقيادة الجنرال هتكنس وعدته ستة عشر الف مقاتل يرابطون بين الاسكندرية ورشيد ودمنهور ، وكان هناك ستة آلاف جندى من الهند بقيادة ميجر بيرد ويحتلون منطقة الجيزة .

والمماليك وعدتهم خمسة الاف مقاتل ، بخلاف قبائل البدو المنضمة تحت لوائهم ، كانوا ينظرون الى ان السلطة فى مصر حق من حقوقهم ، توارثوها عن اسلافهم . وكانوا يعدون انفسهم غير غرباء عن مصر فهى موطنهم الدائم الذى لا يعرفون وطنا سواه ، وقد تسلسلوا من اسلاف قدموا الى وادى النيل منذ اجيال ، وتأقلموا واندمجوا فى المصريين ، فكانوا ينظرون الى الوالى العثمانى كحاكم غير شرعى ، دخيل عليهم ، والمواطن احق بحكم بلده من الغريب .

وقد اكسبهم شعورهم بأن الحق فى جانبهم ، قوة معنوية ، جعلتهم يتفانون فى الدفاع عن كل شبر من ارض الكنانة ، بما يملكون من بسالة واقدام .

اما العثمانيون الذين سعوا الى اجلاء الفرنسيين بفضل معاونة حلفائهم الانجليز للانفراد بالحكم والقضاء على نفوذ المماليك ، فكانوا يرون انفسهم أصحاب سيادة وفاتحين لمصر من جديد ، فلم يكترثوا لابناء البلاد الذين اسهموا فعلا فى الحكم ايام الاحتلال الفرنسى ، فاقصوهم ونظروا اليهم نظرة ازدراء واحتقار .

كان يمثل العثمانيين فى الاسكندرية القبطان حسين باشا ، وفى القاهرة الوزير يوسف ضيا باشا ، الى ان عين محمد خسرو باشا واليا ، وكانت تحت امره قوة تقدر بنحو ثلاثة عشر الف مقاتل بخلاف اربعة الاف من الجند الالبانيين غير النظاميين .

وقد سعى الاتراك قبل زحفهم على وادى النيل بشهور الى الحصول على رجال يصلحون للقتال من المناطق المشمولة بنفوذهم ، وكان حسين اغا جوربجى قوله ممن طولبوا بتقديم ثلاثمائة مجند « لاخراج الكفار من مصر وكسر شوكة المماليك » وتموين الاسطول بما يحتاجه من المؤون والمعدات ، فجند فصيلة اسند قيادتها الى ابنه على عثمان ، ودربها على فنون القتال على قدر ما تسمح به الحاجة ، وجعل لشاب مغامر يناهز الثلاثين من عمره اسمه محمد على ان يكون « باير قدار » هذه الفصيلة ، اذ كان مفتول العضل ، مشهورا بالاقدام واقتحام المخاطر ، فى وسعه حمل علم الفصيلة والذود عنه .

ووصلت المركب المقلة لفصيلة قوله الى خليج ابى قير فى بداية شهر مارس عام ١٨٠١ وغادرها الجند بعد ما عانوا من اهوال السفر فى البحر ثم مشاق الحرمان فى رمال ابى قير المحرقة . وكان على عثمان معتل الصحة ، ضيق الصدر ، لا يستطيع القيام باعباء منصبه العسكرى فطلب العودة الى مسقط راسه تاركا قيادة الفصيلة الى ذلك الرجل المغامر « البابر قدار » الذى شعر بان ارض النيل تجذبه اليها بقوة سحرية .

• • •

ولد محمد على فى ثغر صغير على حدود مقدونية وتراقية بجنوب بلاد اليونان اسمه قوله أو « لاكا فالا » اى الفرس . وقيل انه ولد

فى نصر تلى من ارباض قوله . وليس فى هذه المنطقة من السجلات والوثائق ما يكشف عن شىء من مولده أو عن تاريخ زواج والده أو زواجه هو او قيد اسماء ابنائه . ولكن عندما سمع محمد على فيما بعد ان نابليون بونابرت وولنجتون وشيللر وكوفيير وغيرهم من العباقرة ولدوا فى عام ١٧٦٩ زعم لكل من يقابله ولا سيما اذا كان من الافرنج انه ولد فى تلك السنة . وانه من وطن الاسكندر المقدونى ، ليقترن نجمه بنجوم هؤلاء الافذاذ العباقرة ، وقد سبق له ان صارح بعض اخصائه مرة بقوله : اذا اعطيت درويشا عشرين قرشا فانه يمدحك فى التكية ، ولكن اذا منحت احد الافرنج خمسمائة قرش فانه يمدحك ويفخمك فى كل بقعة من بقاع الارض عن طريق الصحافة .

واسرة محمد على أصلها من الاكراد فى ديار بكر ، انتقل ابوه ابراهيم واخواه الى قونية فى الاناضول ، غير ان المقام لم يطب لهم فيها ، وسرعان ما نزح عمه عثمان الى استامبول للتجارة ، وانتقل ابراهيم واخوه طوسون الى قوله .

واضطر والده الى ان يعمل « بول اغاسى » اى حارس لتامين الطريق الى ينبوع المياه فى القرية ، وهى وظيفة تافهة لا تدر على صاحبها سوى دخل ضئيل محدود . أو هى لا تدر عليه الا راتبا ناقصا أو راتبا بالاسم لا يتقاضاه مطلقا شان الوف الموظفين والمستخدمين والعمال فى الدولة العثمانية ، وكانوا يعولون فى تدبير معاشهم على الرشاوى والهدايا والاحسانات ، اما عمه طوسون فاحترف صناعة شباك صيد الاسماك .

واقترن ابراهيم بفتاة فقيرة تدعى خديجة من قرية نصرتلى ، كانت فى صباها تتجول بين القرى ، حاسرة نقابها لكسب قوتها ، وقد انجب منها عدة اولاد لم يعش منهم سوى محمد على . وقد تخبط المؤرخون فى ذكر وفاة ابراهيم ، وكيف انه توفى عن ولده وهو صبى دون سن الحلم ، فكفله عمه طوسون ، ثم جوربجى قوله ، ولكن هذه الواقعة تنقضها الاسانيد التى لا يرقى الشك اليها ، فعلى ضريح على ابراهيم فى قوله ، نقشت على الشاهد هذه العبارة :

« هو الخلاق الباقى — مرحوم ومغفور بول اغاسى على اغانك اوغلو ابراهيم اغا — قوه له لى مرحومون روحته بحرمة الفاتحة — رمضان ١٢٠٥ » .

اى ان هذه الوفاة وقعت وسن محمد على نحو عشرين عاما وليس اربع سنوات كما ورد بطريق الخطأ فى كتب التاريخ ، واذن فلا يكون هناك محل لان يكفله احد .

بلغ محمد على اشده وضاقت نفسه من قلة الرزق وتاقت الى الاسفار سعيا وراء الرزق واجهد جسمه فى تحمل الجوع والعناء ، ومما رواه هو نفسه انه قال : كنت اتمنى ان يدفع الله عني هذه الشدائد ويرحمني مما الاقيه من الذل والضنك ، فكنت اجهد النفس فى طلب العيش على قدر الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان اطوى الارض ، سائرا على قدمى ، لا اذوق طعاما ولا مناما ، كانت الارض فراشي والسماء غطائى ، واتفق ان سافرت علي ظهر مركب اريد بلدا فى طلب الرزق ، فهبت ريح صرصر عاتيــــة وارتفعت الامواج والقت المركب على الصخور حتى يسر لى الله النجاة بالسباحة الى جزيرة طاشيوز .

ابتكر محمد على وسائل للعيش ، فكان يجوب القرى ويتســلق الصخور لصيد الطيور ، أو يشترك مع القرصان الذين يخرجون من مخابئهم يترصدون الصيادين ليسلبوهم صيدهم ، أو يتســلقون جوانب السفن ويفاجئون الملاحين لسلب ما تحمل هذه السفن من مؤون وسلع ، وكانت مصر فى خياله واخيلة امثاله من شباب قوله أرض السعادة والحظ وتحقيق الاطماع والاحلام ، الارض التى تصير العبد حرا والخامل بطلا والفقير موسراً .

وكان بين الذين اتصل بهم تاجر دخان فرنسى اصله من مرسيليا اسمه ليون فاستخدمه « خرمنجى » فى مصنعه ، اى يتذوق طعــم الدخان وينسق صنوفه ، ويقال انه كان لهذا التاجر الفرنسى الذى احسن اليه فى فترة صباه وشبابه شىء من التأثير فى ميول محمــد على وحبه واخلاصه للفرنسيين .

وعقب وفاةوالده اضطر الىان يلوذ بدار جوربجى قوله، ويصادق ابنه على عثمان الذى كان فى مثل سنه ، وما زال به حتى قلده مركز والده « بول اغاسى » وكانت معظم المراكز الحكومية تؤول الى الابناء بطريق الارث .

ثلاثة احداث لفتت اليه انظار سكان منطقة قوله :

يتلخص اولاها فى ان شابا اسمه آغو كان ممتازا واشــجع من محمد على ، وكان له اخ يدعى عثمان ، خشن الطباع ، وكان ان عمد

الى قتل اخاه آغو فى ثورة عاطفية ، وانسل الى دار جوربجى قوله مستظلا بحماه ، فما كان من محمد على الا أن جمع رفاقه وهاجموا دار العمدة دون ان يراعوا حرمته واختطفوا القاتل عنوة وشنقوه على شجرة الدلب .

وثارت قرية فى الجبل تسمى « بروستا » وامتنعت عن سداد الضرائب وتحمل الظلم ، لان سكانها طولبوا بدفع الضريبة مضاعفة ، فهاجموا جباة الضرائب وحاولوا الفتك بهم ، وخشى جوربجى قوله ان يحتاج الامر الى بضع مئات من الجند لاقتحام القرية وارغام سكانها على دفع المستحق من الضريبة ، وفيما هو حائر فى امره ينشد مخرجا من هذا العصيان الذى جاهرت به القرية ، اذ اقترب محمد على منه وساله ان يترك له تدبير المسالة بشرط ان يمده بقليل من الحراس المدججين بالسلاح ياتمرون بأمره .

وكان ان اجابه الجوربجى الى طلبه فاصطحب معه سلحدار القرية سليمان اغا وثمانية من الحراس ثم اتجهوا صوب بروستا . واقتحم محمد على المسجد ودلف الى المحراب وجلس فيه بعد ان اوصى الحراس بايصاد الابواب عدا بابا واحدا . ولما حانت ساعة الصلاة وتوافد الاتراك الفقراء على المسجد اشار محمد على الى حرسه بالانقضاض على المصلين وشد وثاقهم ، ففزعوا وطلبوا الامان ، بيد انه خاطبهم بقوله :

ــ يالكم من قوم اخساء ، كيف تثورون على الحكومة ؟

ثم ساق امامه اربعا من الاسرى ، شيخ القرية وفقهاءها الثلاثة وقادهم الى دار حسين اغا ، ولما وقع نظره عليهم قال له :

ــ خذ نعاجك . . انا لست قصابا ، وهل يحتاج الحكام الى قصابين لاخضاع النعاج .

اما هذه الضريبة المضاعفة التى فرضها الجوربجى فكانت بسبب وجود خسرو باشا ضيفا عليه فى قوله ، ليتمكن من القيام بنفقات الضيافة اللازمة له ولاتباعه .

اما الحادث الثالث فمجمله ان الشبهات حامت حول محمد على لقتل شخص يدعى على اغا من قرية نصرتلى التابعة لدرامة ، وكان متزوجا من سيدة على حظ غير قليل من الثراء والجمال تدعى آمنة

وبعد مرور ايام على وقوع الحادث كان محمد على فى مجلس شراب بمنزل راشد الذى كان ينزل فى ضيافته كلما مضى الى بلدة درامة المجاورة ، فقال محمد على يخاطبه :

ـ هل من الجائز ان اتزوج من درامة ؟

فاجابه على الفور :

ـ نعطيك آمنه ابنة على مصرلى

ولقى راشد عناء فى حمل خليل محمـــد اغا جوربجى درامه فى الموافقة على عقد هذا الزواج ، فقد كان محمـد على فى نظره « فتى طائش شقى لا يؤمن جانبه » .

هذه الحوادث واشباهها جعلت جوربجى قوله يفكر فى طريقـة يتخلص بها من الشاب الشقى وابعاده عن المقاطعـة باسرها الى ان اهتدى الى الوسيلة التى ينشدها ، فعند ما اتصل به الامر بتجنيد طائفة من شبان المنطقة ، انطلق الى حاكم الروملى واخذ يطنب له فى شأن محمد على وكيف انه عينه جنديا احتياطيا للمحافظة على الامن بعد ان اظهر مهارة فى اخضاع عصيان سكان قرية بروستا ، حتى حمله على ان يسـند اليه مركز « عسكر باشى » ووكل اليـه حمل علم فصيلة قوله .

وكان خيال مصر لا يزال يداعب فكر محمد على ، واخـذ يحلم بالذهب الذى سيعثر عليه فى أرضها ، وما كاد يهبط الى البر فى ابى قير حتى انخرط فى سلك القوة التى سيرها القبطان حسين باشا فى فرع رشيد بالاشتراك مع فرقة انجليزية تولى قيادتها الكولونيـل سبنسر لمهاجمة قلعة الرحمانية ، وكان قد اعتصم بها الفرنسيون بقيادة الجنرال لاجرانج ، ومن حسن الحظ ان انتهت المعركة بانتصار القوتين المتحالفتين وانعم على محمد على بهذه المناسبة برتبة « سر جشمة » .

وفى سبتمبر عام ١٨٠١ كان الضابط القولى الصغير على راس فصيلة من الجند غير النظاميين ، واستطاع ان يتقـرب من الوالى محمد خسرو باشا الذى سبق ان عرفه فى قوله، ايام حادث بروستا، فرقاه الى رتبة « طوفنجى باشا » ، ثم اتصل فى الوقت ذاته برجل اصله من قوله ، هو عمر اغا قواص القنصلية الفرنسية فى القاهرة ، والذى لعب دورا خفيا بين مواطنه وبين القنصل ماتيو دى ليسبس.

كان خسرو باشا قد اعتزم القضاء علي المماليك . وقد بدا بتنفيذ خطة جهنمية توطئة للانفراد بالسلطة المطلقة فاستصدر امرا من السلطان بمنع جلب الجراكسة والكرج الى مصر ، ونشر جواسيسه بين المماليك للوقوف على نواياهم وخططهم ، وكان فى مقدمة الجواسيس الذين اعتمد عليهم الضابط محمد على الذى حباه بالكثير من عطفه ورقاه ترقيات استثنائية انتهت بأن اسند اليه قيادة كتيبة من الفرقة الالبانية غير النظامية .

ووقعت معركة دمنهور بين العثمانيين والمماليك فى ٢٠ نوفمبر عام ١٨٠٢ وكان من المنتظر ان يحفظ محمد على جميل سيده بان يتفانى فى تنفيذ الامر الصادر اليه ، بيد ان محمد على تخلى فى اللحظة الاخيرة عن المهمة الموكولة اليه وهى قيادة الكتيبة الالبانية والاشتراك فى المعركة ، وكان من نتيجة تخلفه عن خوض غمار المعركة مع جنده ان هزم الاتراك وتكبدوا خسائر فى الارواح والعتاد ، فلما علم الوالى بتقاعس محمد على حنق عليه واستدعاه الى مقابلته ، وكان الوقت ليلا ، فرفض الضابط الصغير الامتثال للامر والمضى الى القلعة واجاب الرسول الذى حمل الامر اليه بانه سوف يحضر فى رابعة النهار على راس فرقته ، فابتلعها الوالى وسكت على مضض ولو كان حاكما سديد الراى ، لامر على الفور بالقبض على هذا الضابط الذى يعصى اوامره ومحاكمته عسكريا .

والواقع ان محمد خسرو باشا كان رجلا ضعيفا ، ربى فى احضان المابين الهمايونى وتقلب بين مناصبه المختلفة ، وقضى فترة من حياته كان مغضوبا عليه فى اثنائها من السلطان فى قوله حيث كانت تربطه بحاكمها حسين اغا صلة من الود ، فلما صفح عنه السلطان وعين واليا على مصر استهل حكمه بالتودد الى زعماء الشعب ووعد بانزال العقاب بالجند الذين يسلبون الناس ارزاقهم ويعتدون على الانفس ، ولكن وعوده كانت بمثابة دخان فى الهواء ، فلا هو اشرك الزعماء فى الحكم على نحو ما عمد اليه الفرنسيون ، ولا خفف عبء الضرائب والكلف ، ولا الجند ارتدع عما كان ياتيه من المخازى والآثام واخراج العائلات من دورها ليقيموا هم فيها ، ثم واجهته مشكلة المماليك الذين عزم على القضاء عليهم ، فقد كانوا من الحول والقوة بحيث لم يستطع ان يواجههم بقواته المفككة . هذه السياسة الملتوية الضعيفة التى اتبعها الوالى جعلت الضابط الالبانى الصغير لا يابه لاوامره .

اشتهر عن محمد على الدهاء والحنكة وانتهاز الفرص واتباع سياسة فرق تسد ، فعقب انتهاء مهمة القوات البريطانية من أجلاء الفرنسيين ونزوحها عن ثغر الاسكندرية فى مارس عام ١٨٠٣ ، ثم اشتداد ساعد المماليك . رسم لنفسه خطة حازمة هى الا يساعد احد الحزبين المتطاحنين على الاخر ، وان يعمل ما فيه صالحه منتفعا بمركز مصر وخصب ارضها ، وما فطر عليه شعبها من سكينة وولاء. وكانت الوسيلة العملية لذلك هى ان يترك العثمانيين والمماليك يتطاحنان فيضعف بعضهم بعضا ويتلاشى نفوذهما وبذلك تسنح له الفرصة للوثوب عليهما والتخلص منهما .

وقد واتته الفرصة الاولى عند ما حاصر المماليك مديرية المنيا وخربوا القرى وعاثوا فيها فسادا . فقد امر الوالى جنده بالسير الى الصعيد لمطاردتهم ، ولكن محمد على حرض الفرقة الالبانية على القيام بحركة عصيان والامتناع عن التحرك الا اذا دفعت اليهم مرتباتهم المتاخرة وهو يعلم بان خزائن الوالى خالية من المال . فما كان من خسرو باشا الا ان ارتكب حماقة بان صوب الى الجند المتمردين المدافع من القلعة ، وحاول طاهر باشا قائد الفرقة الالبانية التوسط فى الامر فرفض الوالى ذلك رفضا باتا ، وهنا اضطر طاهر باشا الى احتلال القلعة ، وفر خسرو باشا الى دمياط ، حاملا معه كل ما استطاع العثور عليه من اموال واسلحة .

وتولى طاهر باشا الحكم بالوكالة ، وكان رجلا اميا لا يعرف التكلم بالتركية ولا العربية ، وانما بلهجة سكان الجبال فى البانيا ، وكانت تغلب عليه الشعوذة الدينية ، فهو من اتباع الطريقة البكتاشية يقضى معظم اوقاته فى التكايا ، يجادل الدراويش ويسامرهم ، واراد ان يستبد بالمواطنين ففرض عليهم ضرائب فادحة ولكن القدر لم يمهله فى جنى ثمارها فقد ثار الانكشارية اذ راوا فى انتصار الالبانيين وتولية زعيمهم انتقاصا من شانهم بوصفهم من اعوان الوالى، وكان ان اقتحم القلعة ضابط اسمه اسماعيل اغا ، وكان رجلا كرديا صلب الراى عنيدا ، ومعه ضابط اسمه موسى اغا وبضعة جنود ، وخاطب طاهر باشا بقوله :

— ليس فى وسعى أن أرغم الجند على السير بدون مال .

فعنفه طاهر باشا وسبه بكلمات بذيئة ، وهنا ثار الضابط الكردى وخاطب جنده الذين يلتفون حوله بلغته وفى صوت خفيض بان يفكوا

ازار سيوفهم لانه اعتزم ان ينهى حياة الرجل بضربة واحدة من حد حسامه .. ثم عاد والتفت الى طاهر باشا وخاطبه فى ثورة وعنف :

ـ سيدى .. ان الدب الجائع لا يرقص ، والجنود لا يشبعون بشتائمك ، فلن يكون هناك سفر بدون نقود ، ولا يجوز ان تكيل السباب والالفاظ البذيئة لمن هم على اهبة السفر .

وبعد لحظات شوهد راس طاهر باشا يسقط من النافذة على اثر ضربة واحدة من السيف ، ولم يتجاوز حكمه ٢٦ يوما ، ثم عمد الانكشارية الى داره فنهبوا محتوياتها واشعلوا النار فيها .

وحاول محمد على ان يصدر عفوا عن القتلة ، ولكن بعض القادة فوتوا عليه هذه الفرصة بأن انتهزوا فرصة مرور الوزير احمد باشا بالاراضى المصرية فى طريقه الى المدينة المنورة لتسلم قيادة الحامية العثمانية بها ، فنادوا به واليا على مصر .

وكظم محمد على غيظه من هذا المسلك وقال معقبا : انه لا يعرف فى شخص الوزير احمد باشا سوى انه رجل اجنبى ولى ولاية اقليم عربى وانه غير اهل للاضطلاع باعباء الحكم لجهله بدخائل الامور فى مصر .

وكان ان مضى الى معسكر المماليك وفاوضهم فى مناهضة الوالى الجديد ومهد لهم سبيل العودة الى احتلال القاهرة ، وما زال بهم حتى انضموا اليه ودخلوا العاصمة واقتحموا مخازن القمح . ثم سلط الجند الالبانيين على احمد باشا لطرده او اغتياله .

وهاجت الخواطر فى الباب العالى لما اصاب سلطته من التصدع ، وبادر بان ارسل وال جديد هو على باشا الطرابلسى او الجزائرى ، واصله من المماليك الجراكسة ، فوصل الى الاسكندرية فى ٨ يوليو عام ١٨٠٣ مصحوبا بقوة عسكرية قوامها الف جندى ... واختلف الوالى الجديد وهو فى الطريق مع الامراء المماليك من ناحية ومع الجند الارناؤود من ناحية اخرى ، فضيقوا الخناق عليه وحاصروه ثم قالوا له : لقد حان وقت رحيلكم والخيول فى انتظاركم .

واخيرا تربصوا له عند قرية منية السيرج ، قبل ان يصل الى العاصمة ، واخذوه اسيرا ثم وجهوه الى الشرق مع حرسه وشرعوا فى اغتياله ، فلما احس دنو اجله خاطب قاتليه بقوله : ان واليا مسلما يعرف كيف يموت فهو لا يلوث يديه بلمس العصاة .

ثم نشر امام الجند قطعة من القماش كان يحتفظ بها بين امتعته، ذكر عنها بانها كفنه ، واستحلفهم بالا يحرموا جثته هذا الكفن .

فمال عليه الجند بالسيوف وجزوا عنقه ....

ثم اتجهوا الى اتباعه واجهزوا عليهم ، وفر بقية حرسه الى الصحراء حيث وارتهم رمالها .

ووصل النبأ الى محمد على فامر باقامة معالم الزينات ، كما اتفق مع البرديسى زعيم المماليك على فك اسار خسرو باشا من معتقله فى دمياط ، وهو يعلم بان خسرو من ضعف الراى وسوء الادارة بحيث سيصبح فى هذا المنصب العوبة فى يده يحركها كيف يشاء ، ولكن البرديسى اعاد خسرو مخفورا الى القاهرة ليسجن فى القلعة بدلا من ان يحكم منها .

هكذا اصبح الحكم فى ظاهر الامر بأيدى المماليك ولكن الواقع ان محمد على كان لا يزال يعمل ويكد ويحرك الدسائس من وراء ستار، فبعد ان اخذ يتخلص من منافسيه على الولاية واحدا اثر الاخر اتجه الى الشعب يتقرب من زعمائه وشيوخه واعيانه ويعمل على ان يصور نفسه امام الجميع فى صورة البطل المنقذ .

وفى خلال هذه الفترة العصيبة التى كانت تمر بها البلاد والازمات التى تعصف بالمواطنين الامنين ، ظهرت على مسرح الحوادث شخصية قوية جبارة ، هلع لمقدمها محمد على ، تلك هى شخصية محمد الالفى بك زعيم المماليك الذى كان قد رافق الحامية الانجليزية فى جلائها عن الاسكندرية ، وبعد ان مكث فى انجلترا زهاء احد عشر شهرا وثق فى خلالها علاقته برجال السياسة فى لندن ، عاد الى مصر مزودا بالمال والتحف والهدايا ، والعهود والمواثيق لتنصيبه حاكما على مصر .

وادرك محمد على انه امام خصم عنيد جبار لا يلين ، خصم ليس من طبقة الولاة الضعاف الذين ينصبهم الباب العالى على مصر بالاسم دون أن تكون بيدهم القوة الفعالة فيناهضهم محمد على ويؤلب الخواطر عليهم ، وكان ان ضيق الخناق على الالفى ورصد حركاته واخذ يعمل على تشتيت انصاره ، حتى انه عاقب سليمان البواب بك وصادر ممتلكاته لمجرد انه استضاف الالفى فى منوف .

ولما كان وجود الالفى يهدد نفوذ محمد على والبرديسى الزعيم الاخر للمماليك فقد اتفقا سويا على القيام بعمل مشترك وسلطا عليه الفرقة الالبانية فاعترضت طريقه فى النيل ونهبت متاعه وامواله وما

اتى به من تحف وهدايا ، اما هو فركن الى الفرار للنجاة بنفسه واللجوء الى مضارب البدو فى الصحراء .

توطد مركز البرديسى بعد اختفاء الالفى فاصبح هو زعيم المماليك، وصور له خياله ان الجو صفا له ، وان الامور دانت واستقرت له . وانه اصبح على قاب قوسين او ادنى من الصعود الى منصة الحكم . ولم يفطن الى ان محمد على يلعب دوره فى الخفاء وان كل حركة تقع، له فيها اصبع .. وكان الزعيمان المتكالبان على الحكم قد عقدا اتفاقا وذاق كل منهما دم صاحبه شارة التضحية والاخلاص . ولكن اطماع البرديسى غيرت عاطفة محمد على نحوه . واخيرا اتهم هو محمد على بانه لا يناصره فى موقفه من الالفى وانه يحاول الاتصال به سرا .

وبدت اول بوادر الانشقاق عندما اوعز محمد على الى جنده بان يطالبوه جهارا برواتبهم المتاخرة فلما مثلوا الدور المتفق عليه ، اجابهم بانه ليس بصاحب جباية ولا امين خزانة واحالهم الى البرديسى .

وحاول زعيم المماليك ان يستخلص المال المطلوب من شعب القاهرة ليسكن ثائرة الجند ، ولكن الحالة فى العاصمة بصفة خاصة وفى الاقاليم بصفة عامة كانت فى منتهى الخطورة وتزداد سوءا يوما عن الاخر ، وقد زاد من تفاقمها نقص النيل فى اغسطس عام ١٨٠٣ نقصا فاحشا ينذر بالقحط والجوع ، ثم انكب الناس على تخزين القمح وارتفع سعره وشح الخبز فى الاسواق ووقع الفقراء فى كرب وضيق .

واخذ المواطنون يتذمرون من مطالب شتى وفى مقدمتها : فداحة الضرائب وتعدد المغارم ووقوع مظالم من الجند ، وندرة المحصولات الزراعية . واخيرا لجأ الشعب الى العلماء يستعدونهم على القوم الظالمين ويشرحون لهم مخاوفهم ويصارحونهم بالامهم ومتاعبهم ، فاخذت الحمية عمر مكرم والشرقاوى والامير وانطلقوا فى يوم ١٠ نوفمبر عام ١٨٠٣ الى الامراء المماليك وطلبوا اليهم الحد من هذه المظالم والمغارم ومنع الجند من امتداد ايديهم الى افراد الشعب بالاذى عليهم ، ولكن هذه الوعود كما جرت العادة كانت وعودا جوفاء ، فلم يستطع البرديسى ولا غيره ان يحول دون سطوة الجند ولا ان يحول بينهم وبين اعتداءاتهم الآثمة ، فالجند لهم رواتب متاخرة وخزانة الدولة خالية بسبب سوء الادارة وتلف الاراضى الزراعية .

وفكر البرديسي وادمن التفكير ، وهداه تفكيره الى ابتداع وسيلة شيطانية للحصول على المال ليدفع منه رواتب الجند ويسكن به ثورتهم ، ففي مارس عام ١٨٠٤ اصدر امرا بفرض ضريبة على جميع العقارات والمنازل في القاهرة ، هي دفع اجر سنة مقدما ، واخذ جباة الضرائب يعاونهم جند المماليك يجوبون الشوارع والطرقات ويطرقون الابواب لاجبار كل مالك على الدفع ، فامتنع الكثيرون واستنكروا هذه اللصوصية السافرة ، وخرجوا من دورهم ومتاجرهم يجاهرون بالتمرد والعصيان ، واحتشدوا في الشوارع وامام المساجد وفي وفي ايديهم البيارق والدفوف والطبول وهم يستمطرون اللعنة على الحاكم الظالم .

انفجر اذن مرجل الثورة ... ونزع شعب القاهرة الى تدبير مظاهرات صاخبة اخذت تطوف بالاحياء وهي تردد صيحات ونداءات عالية : يالطيف يالطيف ، واشتركت النساء في هذه المواكب الشعبية فعمدت الى صبغ وجناتهن بالنيلة وهن يصحن ويولولن كانهن في ماتم ، ويصحن بعبارات تهكمية : ايش تاخد من تفليسي يابرديسي .

واتجهت هذه الجموع الى الازهر ، وغص صحن الجامع بالالوف من المتمردين الذين تطوعوا باحتلال الشوارع والاماكن الحكومية . والفتك بجباة الضرائب ، واضطرب البرديسي وهو يرى ويسمع هذه الصيحات المدوية المنذرة بهبوب العاصفة .

اما محمد على فقد اوجس خيفة من عواقب هذه الثورة ، وخشي ان تمتد غضبة الشعب الى جنده ، فبادر الى كشف المماليك امام الثوار وجعلهم وحدهم هدفا للنقمة ، واوعز للجند الارناؤود ان ينزلوا الى الشوارع ويختلطون بمختلف الطوائف ، وان يخاطبوا كل من يلقونه بقولهم : نحن معكم . ان رواتبنا على الميرى وليس على كواهلكم . وقصد زعيم الجند الى الازهر حيث تجمعت القوى المعنوية للكفاح والنضال ، واظهر عطفا مكذوبا على مطالب الشعب ووعد بمساعدته ، واخيرا اعلن جهارا انضمامه الى جانب الزعماء وتحديه البرديسي .

نجح محمد على اذن في كسب الجولة الاولى ، وتمكن من ان يؤجل دفع الضريبة المفروضة فهدات الخواطر الى حين ، وتفرقت الجموع ، وقام بعض العلماء فشكروا لزعيم الارناؤود حسن مسعاه .

وكانت الفرصة سانحة امام محمد على للتخلص من مزاحميه ، فرتب قيام ثورة عسكرية تطيح بنفوذ المماليك ، ومن سوء حظ البرديسى انه قابل هذه الثورة فى بادىء الامر بالتعالى والكبرياء ، ونقم على الشعب ان يجاهر بالتمرد والعصيان ، والامتناع عن دفع الضريبة ، وتوعده بان يلزمه بدفع الضريبة المطلوبة ثلاثة اضعاف . ولكن الارناؤود لم يمهلوه ان يتمادى فى غيه ، وكان ان حاصروا معاقل المماليك فى مصر القديمة وبركة الفيل والناصرية واحكموا الحصار ، ثم اتجهوا الى دار البرديسى نفسه فهاجموها وانقضوا عليها ونهبوا محتوياتها ، واشاعوا الذعر والفوضى فى قصور الامراء المماليك واعملوا السلب والنهب وجردوا النساء من حليهم وجروهن من شعورهن .

ووجد البرديسى نفسه فى مازق حرج ، بين ثورة شعب وتمرد عسكرى ، فتولاه الفزع وخشى على حياته ، واسرع بمغادرة القلعة ولاذ واتباعه بالفرار الى الصحراء ، وكان هذا آخر عهد المماليك بالحكم اذ لم تقم لهم بعدها راية .

وارسل محمد على اتباعه لفك اسار ولى نعمته السابق محمد خسرو باشا من سجن القلعة حيث ظل به ثمانية اشهر . وكتب الى الباب العالى يقول انه تنفيذا لارادته حارب المماليك واعاد الحكم باسم السلطان ومكن الوالى الشرعى من مباشرة مهام منصبه وجباية الخراج ودفع الجزية ومخصصات الحرمين .

وبذلك اكتسب محمد على عطف الباب العالى والوالى والجند الارناؤود والزعماء وطوائف الشعب ، وكان يبغى من وراء ذلك كله تحقيق الشطر الاول من برنامج خطته التى ترمى الى الاستيلاء على مقاليد الامور وحصرها فى قبضته .

وبدا خسرو يحكم مصر من جديد ... ولكن قادة وضباط الجند الارناؤود لم يقبلوه حاكما وطالبوا باسقاطه وهددوه بالثورة .

صوت الشعب

نفوذ الالبانيين فى مصر ـ فظائع الجند ـ ولاية خورشيد باشا ـ تحذير الباب العالى لمحمد على ـ مناورات فى سبيل الحكم ـ ثورة القاهرة .

اصبح الالبانيون هم اصحاب الحول والطول فى القاهرة، والمتصرفون فى شئون العباد ، كان الجندى الالبانى ياتى الى تاجر اقمشة مثلا ويطلب مقعدا ويجلس بالباب ويستمر على هذا المنوال عدة اسابيع وفى النهاية يطالب التاجر بنصيبه فى الربح بدعوى انه شريكه ، معتبرا أن جلوسه بالباب قد اكسبه الحق فى مشاركة التاجر فى تجارته ، فاذا امتنع التاجر عن الاعتراف بهذا الحق المغتصب استولى الجندى على المتجر عنوة واقتدارا يساعده فى ذلك اعوانه . والا رضخ التاجر المسكين للامر الواقع واقره الدخيل على ما يفرضه عليه من شروط ، وبهذه الطريقة كان لمعظم التجار المصريين شركاء من الارناؤود والعثمانيين .

واعتاد الجند سرقة الحمير بان يتفقوا مع المكارى على المضى بهم الى جهة ما معينة فاذا وصلوا اليها طردوا المكارى وعادوا بالحمار لبيعه فى السوق ، ومنهم من كان يقتحم احد المنازل مطالبا صاحبه بتسليمه حماره على سبيل الاعارة فاذا ما انكر رب البيت وجود حمار لديه ، شرع الجندى يقلد نهيق الحمار ، فاذا صادف وجود حمار فى البيت ، دفعته الغريزة الى مقابلة الصوت بمثله وعندئذ يدخل الجندى الى مكانه وياخذه اغتصابا لبيعه فى السوق .

وكان هؤلاء الجند يعمدون الى قتل المواطنين فى الطرقات لغير ما سبب ، وخطف العمائم من فوق الرءوس لا سيما فى الليل ، فكان الرجل اذا مشى يربط عمامته خوفا عليها ، واذا تمكنوا من احد شلحوا ثيابه وسلبوه دراهمه ، بل لقد بلغ الامر بهم ان تبعوا شيخا معمما فى الطريق ففر منهم ولجا الى حمام الطبندى فاقتفوا اثره وفتكوا به فى داخل الحمام وسلبوا ما يحمله من دراهم .

وكانت جميع المنازل فى القاهرة وفى القرى مفتوحة امامهم يدخلون وياكلون ويمرحون وقتما شاءوا وكيفما ارادوا دون ان يستطيع رب البيت ان يحتج ، وكانوا يترصدون للمزارعين وهم فى طريقهم الى سوق امبابة فينهبون ما بايديهم من الاغنام والدواجن والبيض والزبد

والجبن . ومنهم من تطاولت ايديهم الى النساء ينتهكون حرمتهن وينسابون عليهن فى الحمامات العامة .

وهناك فريق من الجند جانبهم الشر فقنعوا بكسب قوتهم عن طريق ان يكون بائع سحلب او بقلاوة وجندى معا !!

وبعد مواقع دامية بين الارناؤود والانكشارية ، هب الاولون الى نهب بيوت الامراء المماليك ، وكانوا لا يكتفون بسلب الاثاث والرياش، بل عمدوا الى نزع الابواب والنوافذ واستولوا على ما فى المخازن من القمح والدهون والسمن وصاروا يعرضونها للبيع فى الاسواق .

وحدث ان البس محمد على اربعين نفرا من اتباعه الملابس العسكرية وامرهم بالاندساس بين الجند ، واخذوا يقلدون لهجة الارناؤود ويصيحون : ان رؤساءنا يطعموننا الرصاص بينما هم ينعمون بالمال ، فاذا كانوا فى حاجة الى مزيد من المال فانهم ينطلقون الى محمد على يطالبونه به ، اما نحن فنمضى الى الحمزاوى لننهبه ثم نذهب الى عيوشة والدمياطية وزنوبة والرشيدية ومبروكة . .

وانشا الجند يتناقلون هذا الكلام خفية وجهرا ، الى ان اتجهوا الى حى الحمزاوى ونهبوا متاجره وتركوا البوم ينعى فى ارجائه .

امتعض سكان العاصمة واشتد بهم الضيق والفزع ، ونهضوا يحتجون على اعمال اللصوصية السافرة والقرصنة ، فاغلق التجار متاجرهم والصناع مصانعهم ، وهجر الفلاحون مزارعهم ، وهنا ظهر محمد على على المسرح ووجد ان خير فرصة يدعو بها لنفسه ليحول مجرى الحوادث لصالحه ، هى ان يتصل بالزعماء اتصالا وثيقا ، فمضى الى الازهر واخذ يواسى شيوخه بكلمات كلها رياء ونفاق ومداهنة ، وتظاهر بالعطف والشفقة فقال لهم : سأذهب الى الحمزاوى والى جميع الاسواق وسوف اضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه النهب والاغتصاب .

وعندئذ اصبح محمد على صاحب الكلمة المسموعة ، فى يده زمام الجند وفى اليسرى زمام الشعب ، ودعا العلماء ورجال الدين وقادة الجند الى اجتماع اظهر لهم فيه وجوب تعيين وال .

وكان خسرو باشا قد خرج من مصر او بالاحرى طرد منها ، بعد ان اعترض قادة الارناؤود على وجوده بتواطئهم مع محمد على ، وهنا اتجهت الانظار الى حاكم الاسكندرية احمد خورشيد باشا ليتولى الحكم .

وكان خورشيد حاكما من الطراز نفسه ، اى رجلا قصير النظر ، متغطرسا ، من بقايا الارستقراطية العثمانية ، وكان مركزه حرجا ، فدولته تخذله ولا تمده بالجند لاقرار الامن والنظام. وخزائنه خاوية من المال لدفع مرتبات رجال الحامية وتسيير دفة الحكم، ويده قاصرة عن تحصيل الضرائب لا سيما فى الريف حيث كان المماليك يغيرون على القرى ويستخلصون لانفسهم خيراتها ، والقوات العسكرية التى تحت امره لا تتحرك الا اذا دفعت مرتباتها المتأخرة ، ومن حوله المماليك والارناؤود كل يبغضه ويضمر له السوء .

وصل خورشيد باشا الى بولاق فى اواخر مارس عام ١٨٠٤ وسكن القلعة فى يوم ٢٠ مايو وتفتق ذهنه الضيق عن ابتكار وسيلتين لجمع المال . اولاهما ان اصدر امرا بالقبض على السيدة نفيسة المرادية ، وكان القبض على النساء امر لم يجر به العرف ، فثارت خواطر العلماء ورجال الدين واحتجوا على ذلك .

اما الوسيلة الثانية فانه فرض اتاوة جديدة على ارباب الحرف والصنائع وفرض كلفا على الذميين من التجار ، فضج الجميع وعمدوا الى اغلاق الحوانيت والمصانع ... ولم تمض ايام معدودات حتى احتشدت جموع الصناع وارباب الحرف ومن حولهم الجماهير واتجهوا الى الازهر ، وصعد الكثيرون الى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، ووصلت هذه النداءات الى سمع الوالى وهو قابع فى مجلسه فى القلعة ، فبعث الى السيدعمر مكرم يستوضحه جلية الامر، فاجابه بان ارباب الحرف والصناع من طبقة الفقراء لا يمكنهم تحمل الضريبة، وطالبه برفعها ، فاستجاب الوالى الى هذا الطلب وقرر رفع الضريبة عن الجميع .

• ● •

واخذ الباب العالى ينظر بعين القلق الى ما يجرى فى مصر ، فهناك شعب اعزل من رعايا الخليفة يلقى افراده صنوفا من العذاب والهوان على ايدى فئة من الجند غير النظاميين يتحكمون فى مصيره ، وهناك مغامر طموح يحرك هؤلاء الجند للفتك بالابرياء واستنزاف ثمار كدهم ، ووجد الباب العالى ان الطريقة المثلى لدفع سخط الشعب هو ابعاد محمد على عن مصر حتى تستقيم الامور وتختفى عوامل الفتنة ، فوجه اليه انذارا فى مارس عام ١٨٠٤ قال فيه : تعلمون انه لما اقام الفرنسيون اركان حكمهم فى مصر ، بذل الباب العالى المال

والرجال لاعادة فتح هذا القطر وتنظيمه ، ومنذ هذا الوقت وجد بينكم من ساءت نياتهم وفسدت ضمائرهم فالقوه فى مخالب المماليك، وسلموا زمامه اليهم . وليس من قصد الباب العالى ان يتهمكم بتدبير هذا الخطا ، ولكن حيث ان الماضى دخل فى خبر كان ورفعت المسئولية وانمحت الجرائم بالعفو السلطانى ، فان الباب العالى يدعوكم الى مغادرة مصر على الفور والعودة الى وطنكم انتم ورجالكم . والباب العالى واثق من انكم ستقدرون تسامحه وعفوه فتمتثلون لاوامره ولا تخرجون عن طاعته » .

واضطرب محمد على وحسب للامر الف حساب ، واغتنم هذه الفرصة ليتودد مرة اخرى الى طوائف الشعب ويسبر غور شعورهم نحوه ، فاشاع بانه سيصفى ممتلكاته ويبيع داره فى الازبكية تأهبا للرحيل اطاعة لاوامر الباب العالى ، واوعز الى الوالى من ناحية اخرى بان يفرض الضرائب والاتاوات ليدفع منها رواتب الجند قبل رحيلهم، وكان غرضه الخفى هو ان يعم الاستياء مختلف الطبقات فتضج بالشكوى وتعمد الى الثورة .

واخيرا سمح للارناؤود ولقبائل البدو بتشكيل عصابات تعيث فسادا فى العواصم والقرى وتعمل للسلب والنهب حتى يضطرب حبل الامن . وفعلا اختل النظام وسادت الفوضى فى كل مكان واحرج مركز الوالى ، الذى اضطر الى ان يفوض الى محمد على قيادة الجند لكبح جماح الثوار والضرب على ايدى العابثين .

ولم يجد خورشيد باشا مفرا من ان يستنجد بالباب العالى ليمده بالقوة التى فى وسعها ان تسيطر على الحالة ويقر الامن والنظام ، فبعث اليه بثلاثة الاف جندى من فرق الدلاة .

وكان هؤلاء الدلاة كارثة على خورشيد باشا ، لانهم لصوص قبل ان يكونوا جنودا ، فقد جبلوا على الشر وامتداد ايديهم بالاذى ، وارتكاب الفظائع والموبقات .

وجد الدلاة انفسهم فى ارض غنية، وبعد ان كانوا لا يجدون قوتهم ولوازمهم الا بشق الانفس ، تفتحت خيرات الوادى امامهم ، فاخذوا يتمادون فى النهب ويعيثون فسادا ويقترفون الجرائم على تعدد انواعها.

● ● ●

كان محمد على يخال ان الوالى فى قبضة يده ما دام قد عهد اليه

بحفظ النظام ، فلا يقدم على امر كهذا دون مشورته ، ولكن خورشيد باشا كان من الدهاء بحيث لم يرض لنفسه ان يكون العوبة في يد غيره ، فاستنجد بقوة الدلاة ليوازن بها القوة التى يسيطر عليها محمد على حتى لا يستأثر وحده بالامر .

تفاقم الخلاف بين الوالى وبين قائد الارناؤود ، وكان ان بعث خورشيد باشا الى الوجاقلية والى العلماء ورجال الدين والاعيان للاجتماع به فى القلعة ، وابرز لهم ورقة من كيس اخضر ذكر عنها انها خط شريف « يبيح له ان ينفى هذا الشقى محمد على ويعيده الى موطنه » .

ولم يتوان محمد على من ناحيته عن تنفيذ الخطة التى ينتصر بها على خصمه ، فمضى الى معسكر الدلاة وغمر رؤسائهم بالهدايا واستطاع ان يقنعهم بانه ليس عاصيا ولا متمردا ، وان سبب غضب الوالى عليه ونفوره منه هو انه يطالبه بدفع ما لرجاله من رواتب متأخرة . وانتهت المقابلة بعقد تحالف بين الدلاة وبين الارناؤود .

وبعث الوالى يسأل الدلاة حقيقة التحالف المعقود ، فكان جوابهم : اننا لن نشهر السلاح فى وجوه الالبانيين ما دامت لهم حقوق فى عنقكم .

وتكشفت هذه الاحداث عن وقوف محمد على والوالى وجها لوجه كلاعبين فى رقعة شطرنج ، الاول بدهائه وحذره ومكره ودسائسه وتسلطه على الجند بذلاقة لسانه . والثانى بعجزه واستكانته وفساد رايه وافلاس خزانته من المال .

واشتدت سواعد الدلاة بتأييد محمد على الذى سلطهم على الشعب اقتداء بجنده ، فاخذوا يغشون المنازل عنوة ويطردون اصحابها منها ، ويخطفون النساء والغلمان ، ويعتدون على الارواح والاعراض .

وكان خورشيد باشا يدرك تمام الادراك بان محمد على هو اليد الخفية المحرضة فى كل الاحداث التى وقعت ، ولكنه كان من الدهاء بحيث كان يتباعد عن تحمل المسئولية سواء امام الوالى او المماليك او الشعب او الجند ، فاذا تأخر دفع رواتب الجند سلطهم على قائدهم فنكلوا به ، واذا فرض الوالى ضريبة ما بادر هو الى الاجتماع بزعماء الشعب وتظاهر بالاهتمام بتخفيف كروبهم ورفع المظالم عنهم ،

واذا حاول الوالى تسيير حملة لتأديب المماليك بادر هو الى معسكرهم فطمئن خواطرهم ، واذا استنجد الوالى بقوات نظامية لاقرار الامن وتاديب العصاة انطلق الى معسكر الجند وتآمر مع قوادهم ضد مصلحة الدولة .

ورأى خورشيد باشا ان يتخلص من محمد على بحيلة ولكنها انقلبت عليه ، وكانت بمثابة المسمار الاخير الذى دق فى نعشه ... كتب الوالى الى الباب العالى يشرح سوء الحالة فى البلاد ، ويقترح ترحيل محمد على باسناد ولاية الحجاز اليه ، واجاب الباب العالى هذا الطلب وجاء الفرمان بذلك .

وتأهب الوالى لعقد اجتماع فى القلعة يتلى فيه الفرمان ، بيد ان محمد على خشى الذهاب الى القلعة لئلا يكون فى الامر مكيدة للقبض عليه واقترح ان يعقد الاجتماع بمنزل سعيد اغا ، وعقد الاجتماع فعلا وشهده قاضى القضاة والعلماء والقادة ، واصبح محمد على يحمل رتبة الباشوية وخرج من منزل سعيد اغا فى موكب حافل وهو ينثر الذهب والفضة فى الطرقات .

ولم يسافر الى مقر منصبه الجديد . الم يصبح واليا وحاملا لرتبة الباشوية ، فماذا يمنعه من ان يتريث قليلا ويمكث فى القاهرة لعل الظروف تساعده على عزل خورشيد باشا واستبدال ولاية الحجاز التى لا تدر على صاحبها نضارا بمصر ذات الارض الخصبة والخير العميم .

• • •

تابع الدلاة اعتداءاتهم المنكرة ، حتى اشتد التذمر والتبرم وبدأ الشعب يفكر فى الثورة ...

والواقع ان الشعب تحمل الكثير من المكاره ، فمن قتال فى المدن والدساكر والقرى ، وضياع الانفس والاموال ، واتلاف المزارع ، ونهب المتاجر ، وسرقة البيوت المطمئنة ، ونشر الخراب والدمار .

انفجر مرجل الثورة واعلنت الدعوة الى الكفاح ، فاجتمع العلماء فى الازهر وقرروا الاضراب عن القاء الدروس ، ثم اغلقت المتاجر والاسواق واحتشد المواطنون فى الشوارع والمساجد يطالبون بوضع حد لهذه المهازل والفضائح وجلاء الجند الدلاة عن مساكنهم .

وخشي الوالى سوء العاقبة فارسل نائبه ومحافظ العاصمة الى الازهر للاجتماع بالعلماء ، ولكن سيلا من الحجارة انصب عليهما ، فاضطرا الى العودة، اما علماء الازهر فاتفقوا على مطالبة الوالي بترحيل الدلاة عن القاهرة وارباضها فى ظرف ثلاثة ايام ... ثم انتهى الاجل المحدد ولم يرحل سوى نصف عدد هؤلاء المتوحشين ، وظل النصف الاخر يتابع جرائمه المنكرة .

وحانت الساعة الفاصلة التى ظل محمد على يرتقبها سنوات خمس ، تعاقب فى خلالها على مصر خمسة حكام ، قتل منهم ثلاثة ، وطرد اثنان بعد ان سجنا ، وكان محمد على فى خلال هذه الفترة العصيبة لا يفتأ يخاطب نفسه بقوله : « يكفى المرء ان يكون عثمانيا وقائدا لطائفة من الجند حتى يصعد الى منصة الحكم فى مصر » . ولذا انتهز فرصة تذمر طبقات الشعب من الضرائب والكلف التى فرضت عليهم ، وعبث الجند وارتكابهم المخازى والموبقات ، ثم احتشاد الطوائف فى الازهر للاجتماع بالعلماء ومجاهرتهم بالتمرد والعصيان ، واغلاق لمتاجر والمصانع والمنازل حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة ... انتهز هذه الفرصة ، فصار يداهن السيد عمر مكرم ويتردد عليه سرا فى الليل ، ويستميله بشتى الوعود الخلابة ويقسم له الايمان الكاذبة بانهم لو مكنوه من الحكم فانه يسير حسب نصوص الشرع والاقلاع عن المظالم ، ولا يصدر امرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وانه اذا خالف هذه الشروط عزلوه واخرجوه من القلعة .

ولم تكن للسيد عمر مكرم دراية بالسياسة ومناوراتها ، كان ينظر الى محمد على بعاطفته الدينية وليس بعاطفته القومية ، وكان ينشد تولية حاكم صالح واقامة دولة جديدة تقر الامن والنظام وتعيد الطمانينة الى النفوس .. ولذلك صدق هذه الوعود البراقة واستطاع محمد على ان يطويه تحت جناحه ، واخذ مكرم على عاتقه تمهيد السبيل للولاية وحمل العلماء ورجال الازهر على مشاركته فكرته ، وهى ان محمد على لا يبغى من وراء الحكم سوى انقاذ ارض الكنانة من براثن الفوضى وعوامل الاضطراب .

الزعيم الاول

نشاة لسيد عمر مكرم ـ الوثيقة السياسية التى سبقت اعلان حقوق الانسان ـ الشيخ الشرقاوى ـ الشيخ السادات ـ عزل الوالى بارادة الشعب ـ اول انقلاب من نوعه فى الشرق ـ حصار الوالى فى القلعة ـ تولية محمد على بشروط يمليها نواب الشعب .

كانت بيوتات البكرى والسادات ومكرم هى البيوتات المعروفة فى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر . فاذا الم مصيبة بالشعب او وقع ضيم على مواطن ، من حاكم او مملوك ، لجا افراد الشعب الى هذه البيوتات يستظلون بحماها ويستعدون اربابها ، ويطلبون المشورة ورفع الحيف والعدوان عنهم .

ذلك ان الزعامات الدينية كان لها شأنها وخطرها وسلطانها فى هذا العصر ، وكان الحكام يفهمون الزعامة على هذا الوجه ويدركون ما لها من نفوذ وطاعة فى نفوس افراد الشعب . فمن هنا كانت مكانة هؤلاء العلماء فى الشئون السياسية العليا ، ومن هنا كانت مكانة رجال الدين محفوظة وكلمتهم نافذة .

والواقع ان هؤلاء الزعماء الشعبيين كانوا عند حسن ظن المواطنين بهم ، فطالما نهضوا لمكافحة المظالم الصارخة ، ورفع ثقل الاحمال الفادحة ، وطالما قاوموا الوان العنت والعدوان مقاومة باسلة مشرفة ، وتحملوا فى سبيل ذلك تضحيات غالية .

والسيد عمر مكرم ، نقيب الاشراف ، وحامل لواء الزعامة الشعبية ، من ارفع الاسماء ذكرا فى القرن الثامن عشر ، قضى حياته فى خدمة الشعب ، وتحقيق الامانى القومية ، ورفع الحيف عنه ، والسعى الى تحريره واعلاء كرامته ، بحيث كانت الوطنية عنده عقيدة ومبدأ يذود عنهما .

وقد ولد السيد عمر مكرم وشب ونشأ من اسرة عريقة النسب ، تمت الى الدوحة النبوية بصلة ، كان مولده فى مدينة اسيوط، حوالى عام ١٧٥٥، وتلقى علومه فى الازهر، وتثقف الى جانب ما درسه من علوم الدين ، ثقافة عصرية شاملة ، تشهد بذلك مكتبته النفيسة التى خلفها ، وعند ما توفى السيد محمد البكرى نقيب الاشراف « ١٧٩٣ » ولم يكن له عقب ، اتجهت الانظار الى عمر مكرم ليشغل هذا المنصب الدينى الرفيع .

وانصرف مكرم الى الشئون العامة الى جانب ما كان يمليه عليه منصبه الديني من تبعات ، وكانت ابرز مواقفه السياسية وكفاحه المشرف الرائع ، انه حين اضطربت الامور فى غضون عام ١٧٩٥ وفزع القوم من طغيان الامراء المماليك وعلى راسهم مراد وابراهيم ، وابى ترك الطاغيتين يحكمان على هواهما ، نهض السيد عمر مكرم على راس وفد من العلماء للدفاع عن الحريات العامة ومناهضة معالم الاستبداد ، والزم الطاغيتين بشروط تعهدوا فيها باقامة العدل ، وانهم يتوبون عن العدوان ، ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم العرف والشرع ، من صرف الاموال على مستحقيها ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويتكفلون بكف اتباعهم عن امتداد ايديهم الى الاموال ، وبأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة .

ان هذه الوثيقة التى استخلصها مكرم وزعماء الشعب من الحكام الطغاة ، يعدها المؤرخون بمثابة حقوق الانسان الاولى التى سبقت فى التاريخ اعلان حقوق الانسان فى فرنسا فى اعقاب ثورة سنة ١٧٩٨ ، وهى حجة دامغة وصفحة مشرفة للشعب المصرى الذى يأبى حملة القماقم ، من الكتاب المغرضين ، الا ان يصوروه ذليلا ، مستسلما للظلم ، راضيا عن الهوان ، وانه ظل مطية لمن غلب .

وفى الحقيقة ان مصر وان كانت قد رزحت زمنا تحت نير الاستبداد ، وتحملت صنوف الآلام والبلوى والاذى ، الا انها مع ذلك لم تنفصل عن ماضيها المجيد ، ولم تفقد شخصيتها القوية ، وطابعها المستقل ، ومواهبها فى الحضارة . فقد صقلتها التجارب وهزتها الانقلابات ومرنت على الكفاح ، فخاضت غمار معارك دامية متواصلة فى سبيل استخلاص حقوقها ، والظفر بحياة الحرية والعزة والكرامة ، وبرز من خلال هذه الاحداث والمحن عدد من الشخصيات كانوا بمثابة زعماء الشعب وقادته وموجهو خطاه .

• ● •

ومضت اعوام ...

حتى اذا كان ٢ يوليو عام ١٧٩٨ هبطت القوات الفرنسية شواطىء الاسكندرية لتغزو مصر غزو استعباد واذلال ، وكان شعب القاهرة فى حالة فزع واضطراب ، فهل فى وسع المماليك ان يدافعوا ويناضلوا ويردوا الغزاة على أعقابهم مدحورين ويصونوا ارض الكنانة ؟

وتمثلت هذه الحملة العسكرية فى خاطر عمر مكرم على انها غزو يقوم به النصارى وانها امتداد للحروب الصليبية ، فاجتمع بالعلماء والمشايخ فى الازهر وشرعوا فى تلاوة البخارى والدعوات الصالحات واسماء الله الحسنى ، ويبتهلون الى المولى بالنصر ، ثم اذاع الزعيم نداء على الشعب يستحثه فيه على الجهاد .

كان مكرم يحسب ان الامراء المماليك من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين صدوا جحافل التتار والصليبيين ، ولكن موقعة « الاهرام » بددت احلامه ، فقد هزم المماليك هزيمة نكراء ، وفى ساعات محدودة ، مما جعله يؤمن بانهم لا يحاكون المماليك الاول فى شجاعتهم وبسالتهم واقدامهم ، فهم جبناء ، عتاة ، ظالمون ..

وعلى الرغم من انه لم تكن له دراية بفنون الحرب ولا اساليب القتال ، الا انه شهد بعينيه ، ابادة قوات المماليك ، وفرار البقية الباقية منهم ، واتجاههم صوب الصحراء او ناحية المشرق، او تفرقهم فى فياق الصعيد ، ثم زحف القوات المغيرة على العاصمة واحتلال اطرافها . وابت عليه كرامته ان يرضخ لهذا الهوان ، فخرج الى الشام ، واقام فى يافا يرقب عن كثب الاحداث الجارية فى وطنه ، فلما دخل نابليون المدينة حرص على اكرام وفادة من لقيهم من الزعماء المصريين ، واكبر فى مكرم عاطفته القومية المشبوبة وشجاعته الادبية، وكرامته التى يذود عنها ، فدعاه الى العودة الى وطنه .

عاد الى مصر فالفاها على غير ما كان يعهدها اذ تحولت من عاصمة للعروبة والاسلام الى بلد يطؤه الفرنسيون باقدامهم ، ويبسطون نفوذهم على كل شبر فيه ، ووجد للمستعمرين اعوانا من الخونة ، وزعماء يصانعونهم ويمالئونهم ، ويضعون موارد البلاد تحت تصرفهم، ومصر تئن انينا صامتا موجعا .

وكانت القاهرة فى غضون هذه الفترة تغلى كالمرجل ، والثورة على الابواب ، وتحرير الوطن من نير المستعمر قبلة الجميع ، فلما شرع مكرم يدعو بنى قومه الى الجهاد الاكبر و « مغازاة الكفار » ، اقبل المواطنون يلبون دعوته بما يملكون من حماسة وشعلة وطنية ، ويضحون بالغالى والرخيص ، فاقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وتحصنوا فى دور العبادة وبذلوا الاموال والارواح فدية لوطنهم .

صاح مكرم صيحة التحرير فلباها أولا العلماء وشكلوا لجنة للثورة جعلوا مقرها الجامع الازهر ، ثم قاد الجموع وأثار اليقظة والدعوة

الى الكفاح ، وبدا النضال عنيفا سافرا بين المحاصرين والمدافعين ، وشهد الفرنسيون بسالة المصريين واقتحامهم المخاطر والاهوال ، وحين انتهت الثورة بالاخفاق نقم المستعمرون على الزعيم الاول فنفوه الى دمياط .

• ● •

والى جانب عمر مكرم برزت أسماء زعماء شعبيين التفوا حوله ووضعوا ايديهم فى يده وتصافوا على الاخوة فى الجهاد ومناهضة المستعمر ، ففى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الجامع الازهر ، تتمثل الوطنية الاسلامية فى اجلى معانيها .

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى احد ابناء اولئك الفلاحين الذين يقع على كاهلهم العبء الاكبر من المظالم والوان السخرة ، فبعد أن أصاب حظا من التعليم فى قريته « القرين » بالشرقية ، وفد على القاهرة سعيا على قدميه ليلتحق بالازهر ، وتحامل على نفسه وعكف على الدرس والتحصيل وملازمة اساتذته من الشيوخ والفقهاء ، وكان للمتصوفة مقام بين الازهريين ، فكان كثير من العلماء يجمعون لانفسهم بين القاب العلم والتصوف ، ويتعهدون تلاميذهم بما يلقونهم به من تعاليم وواجبات فى حلقات الذكر الليلية ، كما يتعهدونهم بما يلقونه اليهم من مسائله فى حلقات الدروس النهارية . وكان للشرقاوى نصيب من هذه الحياة المختلطة ، فجمع بين العلم والتصوف ، واستطاع فى فترة وجيزة ان يكون فى طليعة العلماء المجتهدين ، وان يتصدر التدريس فى المعهد الدينى العتيق ، فطبع التدريس بطابعه الشخصى ، وكان لعلمه منهج التحقيق والدقة فى فترة خمد فيها الفكر ، ونحن نعلم ان منهج التحقيق العلمى فى هذا العصر كان بمثابة اغلال تمنع العقل من الانطلاق فى سبيل النظر والتفكير ، ونعلم الى جانب هذا ان أقوال الفقهاء الذين مهدوا طريق الخمود كان لها عند المشتغلين بالعلم فى هذا العصر حرمة وتقديس ، فان كان انصافا أن نعرف ما كان للشرقاوى من رسوخ فى العلم ، وتحقيق لمسائله فمن الانصاف ايضا الا ننسى ان علمه وتحقيقه كانا يتحركان من وراء تلك الاغلال .

ولى الشرقاوى مشيخة الازهر ، الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، ثم كانت الثورة التى قاوم فيها السكان العزل ، المحتلين المسلحين بما

يملكون من بأس وقوة ، واعتصم الثوار بالازهر واتصلوا بالشرقاوى ففتحت هذه الثورة السبيل امامه ليشق طريقه الى الصدارة ، واستطاع ان يجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية .

وكان الفرنسيون قد تمكنوا قبل ذلك من ان يهادنوه وان يكسبوا وده ، ووقع اختيارهم عليه وعلى عشرة آخرين من العلماء والوجوه ليتالف منهم « الديوان » ثم اختاره زملاؤه ليكون رئيسا للمجلس . وكان الديوان بمثابة مجلس نيابى مصغر ينظر فى كل ما يتعلق بالشئون الادارية العليا كاقرار الضرائب ، والاشراف على الاوقاف ، وتنظيم الامور المالية ، وكان اشراكهم بطبيعة الحال صوريا ، كما كان الديوان ابعد ما يكون عن قواعد الدستور .

وحسب الفرنسيون انهم اشتروا الشرقاوى بالمنصب الذى اسندوه اليه وبالمائة ريال التى يجرونها عليه شهريا . ولكن وطنية الشرقاوى كانت فى حرز مكين ، فقاوم سياسة المستعمرين اكثر من مرة ، وكانت له فيها مواقف مشهورة ، حدث ان نابليون صنع شارات تجتمع فيها الوان العلم الفرنسى، وامر رئيس الديوان والاعضاء ان يثبتوها على صدورهم . ثم مضى نابليون الى الديوان واشار الى احد اتباعه بان يعلق الشارة على صدر الشرقاوى ، فما كان من الشيخ الا ان نزع الشارة عن صدره والقاها على الارض وانصرف لساعته ساخطا غاضبا .

كان الشيخ يعلم بأن الشارة نسيج من الوان ثلاثة ، فليس فيها ما يمس عقيدته الدينية ، ولكنه فطن الى انهم يريدون منه ان يضع فوق صدره هذا الرمز الذى ينطق بأن حامله يدين للمستعمر الفرنسى بالولاء فنفر من ذلك نفرة الابى الشجاع .

وبعد مصرع كليبر عمد الفرنسيون الى اعتقال الشرقاوى والزموه بالبحث عن الازهريين الاربعة الذين جاء ذكرهم فى سياق التحقيق مع سليمان الحلبى واحضارهم . ثم فتشوا الازهر بحثا عنهم فما كان من الشرقاوى الا ان اغلق ابواب الجامع . ثم اعتقل مرة اخرى مع المشايخ : المهدى والصاوى وسليمان الفيومى قرابة ثلاثة اشهر عندما دخلت القوات العثمانية مصر .

• ● •

ما الساعد الثانى للسيد عمر مكرم فهو الشيخ محمد ابو الانوار

السادات رئيس لجنة الثورة ومن زعماء الاصلاح الديني والسياسي.
ولد في بيت كريم ومن اسرة عريقة، وتلقى علومه في الازهر، فجمع بين الفزارة في العلم وشرف النسب، واشتهر باقتناء نوادر المخطوطات، وكان الى جانب هذا جريئا في الحق، نافذ الكلمة، متصفا بالبسالة والاقدام، له مواقف نبيلة مشهورة في مناهضة الحكام المستبدين، وليس ادل على ذلك من موقفين رائعين نستشهد بهما، الاول ان حسن الجزائرلي باشا المبعوث العثماني، حاول ان يستبيح اموال المماليك ويقبض على نسائهم واطفالهم وطرحهم للبيع في السوق على زعم انهم أرقاء « لبيت المال » فاحتج السادات على ذلك احتجاجا صارخا لان هؤلاء المماليك ولدوا احرارا، فحنق الباشا عليه وهدده برفع المسألة الى السلطان وعدها حركة تمرد وعصيان للاوامر « الشاهانية »، فلم يعبأ الشيخ بذلك التهديد والوعيد. واما الموقف الثاني، فانه حين هبطت القوات الفرنسية ثرى الثغر، وعقد مراد وابراهيم اجتماعا للتشاور في الامر، فاجأ السادات الحاكمين بقوله: ان كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم، وآخر امرنا معكم انكم ملكتمونا للافرنج ... ثم التفت الى مراد بك وقال له: وخصوصا أنت بأفعالك الذميمة وتعديك مع امرائك على متاجر الناس وسلب بضائعهم.
وهي جرأة في الحق، نادرة المثال، في وقت عم فيه الطغيان واستشرى الظلم ...
وقد حاول الفرنسيون ان يضموه الى عضوية « الديوان » فرفضها، ثم اتهموه بتزعمه ثورة القاهرة الاولى وخشي نابليون ان يحاكمه ويعدمه كبقية الزعماء لئلا يصبح شهيدا في نظر الشعب .. وراس السادات لجنة الثورة التي كان مقرها الازهر، وكانت له منزلة مرموقة ومكانة رفيعة في انظار الشعب.

• ● •

ظلت الحوانيت والاسواق مغلقة في القاهرة، والمواطنون لا يكفون عن التجمهر والصياح في الطرقات، والاستغاثة بقولهم: يالطيف. يالطيف.
وفي ١٢ مايو عام ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب بهيئة مؤتمر في بيت القاضي لاختصام الوالي احمد خورشيد باشا، وكان المنادي قد أعلن في انحاء العاصمة ضرورة احتشاد السكان امام المحكمة « حسب

ما رسم به النقيب مكرم » . فخرج الالوف من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم ، واقبل المزارعون من الضواحى زرافات ووحدانا حتى اكتظت بهم الطرقات والمسالك المؤدية الى المحكمة الشرعية . ولاول مرة فى التاريخ اخذت المواكب الشعبية تشق طريقها فى الشوارع وتتجمهر قبالة مكان الاجتماع ، وهم يهتفون هتافات مدوية « يارب يا متجلى ، اهلك طائفة العثمانلى » .

طلب الشعب الى الزعماء والعلماء والفقهاء وقاضى القضاة، ضرورة مثول مندوبى الوالى امام مجلس الشرع ، فلما قدموا شرع السيد عمر مكرم ببحث الحالة معهم على ضوء الهتافات التى تطالب بتنحية الوالى عن الحكم ، وشرح الآلام التى يعانيها الشعب من عدوان الجند على المواطنين الامنين واخراجهم من منازلهم ، والمظالم والفوضى وقبض الخراج مقدما ومصادرة الممتلكات الى غير ذلك من الوان الاستبداد والارهاق .

واخيرا اصدر المؤتمر قرارا تاريخيا مشرفا جاء فيه : عدم فرض ضريبة من اليوم الا اذا اقرها العلماء والاعيان — يجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل الحامية الى الجيزة — الا يسمح بدخول اى جندى الى العاصمة حاملا سلاحه — أن تعاد المواصلات فورا بين القاهرة والصعيد .

وتسلم مندوبو الوالى هذه الوثيقة لرفعها اليه ، ووعدوا بالجواب فى الغد .

وتلقى الوالى هذه المطالب بالسخط والاستنكار ، وكان تصرفا غريبا منه ، اذ كان يعتقد بان الشعب المصرى ليس سوى مجموعة من الاكداس والاكوام لقوم فلاحين لا حقوق لهم ولا كرامة .

واشارت عليه بطانته بأن يعمد الى سياسة اللين والمراوغة ، فبعث فى طلب القاضى والعلماء الى مقره فى القلعة ، الا ان محمد على خشى أن يكون فى ذهابهم خمود نار الثورة وتفرقة الجموع المتكتلة وهذا لا يوافق طبعا مصلحته . وخاطب العلماء يحذرهم من لقاء الوالى لانه بيت النية على اعتقالهم او الفتك بهم ووجد هذا الراى آذانا صاغية من العلماء ورفضوا الذهاب الى القلعة ، فكبر على الوالى هذا الرفض وحنق عليهم وعد رفضهم تمردا وعصيانا .

ولم يضيع الزعماء الوقت سدى ، ففى اليوم التالى — الاثنين ١٣

مايو ١٨٠٥ ـ اجمع نواب الشعب الراى على وجوب المجاهرة بخلع الوالى ، واجتمع بدار المحكمة الشرعية العلماء والفقهاء ونقباء الصناع وقاضى القضاة ، وبعد التداول فى الموقف قرروا خلع احمد خورشيد باشا من الولاية واسنادها الى محمد على .

وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة من الجند العثمانى ، وباعمال اللصوصية وبالضرائب التى يطلب اليه دفعها صاغرا . كان فى حاجة الى مصافحة اى يد تمتد اليه لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكرب والمحن ، ولذلك وافقت الجماهير المتراصة فى فناء المحكمة وفى الساحة والطرقات المؤدية اليها على القرار الذى اعلنه عمر مكرم ، لا حبا فى محمد على وانما كرها فى احمد خورشيد .

وسار نواب الشعب وعلى راسهم مكرم والشرقاوى، يتبعهم زهاء اربعين الف مواطن ، الى منزل محمد على فى الازبكية ، وكان على بينة بما هم قادمون من اجله .

حمل اليه نواب الشعب قرارات المؤتمر وخاطبوه بقولهم :

ـ شرع الله بيننا وبين هذا الحاكم الظالم . . لقد اجتمعنا اليوم لخلعه فان أطاع نجا وان خالف عاملناه بما كسبت يداه .

فسألهم : ومن تريدون بدله ؟

فاجابوه : قد اخترناك بدلا منه بشروط منها : ان تسير فى الحكم بالعدل وفق نصوص الشريعة السمحاء ، والا تبرم امرا الا بمشورتنا، واذا خالفت هذه الشروط عزلناك من الولاية .

فقبل هذه الشروط ، ثم نهض مكرم والشرقاوى والبساه خلعة الولاية .

وطاف المنادون فى الطرقات يزفون الى الشعب هذه البشرى ، وأرسل نواب الشعب الى احمد خورشيد باشا فى القلعة يطلبون اليه النزول عن الحكم طوعا لارادة الشعب .

لم يصدق الوالى ما سمعه باذنيه . كان لا يزال مستسلما لاوهامه التى فرضتها عليه ابهة الحكم ، فاجاب الرسل الذين حملوا اليه قرار العزل بقوله :

ـ اننى معين بخط شريف فلا انزل بامر الفلاحين .

وتناسى أن هؤلاء المواطنين الذين نعتهم « بالفلاحين » سبق لهم

قبل سنوات عشر من هذا اليوم المشهود ان ارغموا الطاغيتين مراد وابراهيم على قبول الوثيقة السياسية المشرفة التى تعلى من شان الشعب وتعترف بحقوقه ، ولو آمن بهذه الواقعة التاريخية، لاعترف لفوره بحقوق الشعب ولما جابهه بذلك الجواب الاحمق الذى يدل على الغطرسة والتعالى والكبرياء الاعمى .

واستشاط العلماء غضبا من هذه اللطمة الموجهة الى الشعب ، واتفقوا على اشعار الوالى بكرامة الشعب وقوته ، عن طريق حصار القلعة لارغامه على التنازل عن الحكم .

وبدا النضال سافرا بين شعب يذود عن حريته وبين حاكم يابى الا ان يستعبد هذا الشعب . فتحصن الوالى استعدادا للدفاع عن مركزه والذود عنه . واحاط نفسه بقوة مكونة من الف وخمسمائة رجل ، ونقل الى داخل القلعة الماء والخبز والقمح ، ثم اوصد الابواب على نفسه ، اما الشعب فشرع لتوه فى تكوين فرق شبه عسكرية تتولى اقامة المتاريس وحراسة مداخل العاصمة ومد يد المساعدة الى الجند الارناؤود وقبائل البدو . وتسلح الافراد بالاسلحة البيضاء من خناجر ومدى وسيوف ، وبالهراوات والعصى والمشاعل . وبعث قاضى القضاة يحذر الوالى من نتيجة عناده وشططه ويذكر له ان عشرات الالوف من المصريين حضروا اليه واجتمعت كلمتهم على ضرورة تنحية الوالى عن الحكم او حربه ، بيد ان الوالى ابى سماع اية كلمة استكبار .

وكان عمر الارنؤدى وصالح قوش اغا قد انضما بجنودهما الى الوالى وعسكرا بداخل القلعة للدفاع عنه ، فبعث محمد على اليهما يفصح ما اجتمع عليه راى الشعب من عزل احمد خورشيد باشا ونبذ طاعته ، ويحذرهما من ان يقدما على شيء ضد مصلحة الشعب، فارسلا يقولان : ارونا سندا شرعيا نرتكن عليه فى التخلى عن هذا الحاكم .

وفى ١٦ مايو اجتمع العلماء والمشايخ وقاضى القضاة فى دار المحكمة الشرعية ، وحرروا وثيقة شرعية بعزل خورشيد باشا من الولاية ، وبعثوا بصورة منها الى الباب العالى ، اما هذه الوثيقة فقد تولى الشيخ محمد المهدى صياغتها واستهلها بقوله :

« ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به احكام

الشريعة الاسلامية الحق فى ان يقيموا الولاة ، ولهم ان يعزلوهم اذ انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم. لان الحكام الظالمين خارجون على الشريعة » .

وفزع الوالى من الحصار المضروب عليه ومن انضمام افراد الشعب الى الارناؤود الذين سبق لهم أن اذاقوهم الهوان ، وقبائل البدو التى كثيرا ما أغارت على اراضى الفلاحين ، فارسل مندوبا عنه للاجتماع بزعماء الشعب فى دار حسن باشا قائد الفرقة الالبانية ، وجرى النقاش التالى بين المندوب وبين العلماء :

— كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » .

فرد عليه عمر مكرم بقوله :

— اولى الامر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل. وصاحبك رجل ظالم ... وقد جرت العادة من قديم الزمان ان اهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور .

— وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الطعام والشراب وتقاتلوننا ، هل نحن كفرة ؟

— نعم . فقد افتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لانكم عصاة .

— ان هذا القاضى كافر .

— اذا كان قاضيكم المعين من قبل السلطان كافرا فكيف بكم ؟

كان جواب مكرم لمندوب الوالى يدل على يقظة ذهنية وجراة فى سبيل الحق .

وكان هذا الانقلاب من الاحداث الغريبة فى تاريخ مصر بل فى تاريخ الشرق بأسره ، ووجه الغرابة فيه ان بطله الشعب، فقد نهض الشعب لعزل الوالى العثمانى على الرغم من تأييد دولته له ، كما انه انتخب الرجل الذى يصلح فى نظره للحكم على الرغم من الفرمان السلطانى بابعاده عن مصر واسناد ولاية بلد اخر اليه ، وتم الانتخاب بشروط فرضها نواب الشعب على محمد على وهى ان يحكم لصالح المجموع ولا يبرم امرا الا بمشورة زعمائه .

استمر حصار القلعة عدة اسابيع والقى عبء الحصار ومناوشة القوات المتحصنة فى القلعة على عاتق من اسماهم احمد خورشيد باشا « بالفلاحين » . واخذت جموع المكافحين تتدفق من الحسينية والعطوف والازهر ومعهم اسلحتهم وبيارقهم ، يؤازرهم الوف من المزارعين الذين قدموا من الضواحى والقرى المحيطة بالعاصمة ، وقد كونوا جميعا قواتا اشبه ما تكون « بالحرس الاهلى » بزعامة السيد عمر مكرم .

وكانت قيادة مكرم للحركة موفقة الى اقصى حد ، فهو شعلة من الحركة والنشاط ، لا يفتأ يتنقل بين ابواب الحارات ومراكز التكتلات ، يشجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية ، وكان له نقباء وعرفاء يأتمرون بامره ، وفى طليعتهم حجاج الخضرى وهو مواطن من عامة الشعب يتزعم طائفة باعة الخضر ، وكان مشهورا بالبسالة والاقدام ، له صولة بين مواطنيه ، وقد تمكن هو واتباعه من اقتناص قافلة مكونة من خمسين جملا محملة بالذخائر والمؤن ، وكانت فى طريقها الى القلعة لتموين قواتها ، ففتك بحراسها واستولى على القافلة ، وساقها غنيمة باردة للمناضلين ، وكذلك ابن شمعة شيخ طائفة الجزارين ، وقد استطاع ان يجند الالوف من ابناء الاحياء الشعبية المجاورة لمناهضة الوالى المعزول .

وفى اثناء هذا الحصار الذى استمر عدة اسابيع حاول الجند الارناؤود ان يخذلوا محمد على ويخرجوا عن قيادته ، اذ كانوا لا يزالون فى حاجة الى المال ، واخذوا يهاجمون افراد الحرس الاهلى ، المرابطون خلف المتاريس ، فما كان من عمر مكرم الا ان اهاب بمواطنيه ان يدافعوا عن انفسهم وان يدفعوا الاذى بما فى ايديهم من سلاح . واخيرا اضطر محمد على الى ان يقترض من فيلكس مانجن وكيل فرنسا فى القاهرة عشرة اكياس من الذهب اشترى بها طاعتهم الى حين .

• ● •

وكان الباب العالى قد تردد كثيرا وماطل كثيرا فى اقرار اسناد ولاية مصر لمحمد على ، ولكن ماتيو ديلسبس قنصل فرنسا فى القاهرة لعب دورا اخر فى الموضوع ، وكان قد سبق له ان اشار فى احد تقاريره الى حكومته بقوله : « ان محمد على قائد الالبانيين يطلب

حماية فرنسا وبوسطها لدى الباب العالى ، وانه يرجو ان يصبح السيد الاعلى ، وانه منضم الينا بجوارحه » . ولذلك سبقت قرار العزل والولاية الذى رفعه العلمــاء الى الباب العالى ، توصيات الى السفير الفرنسى فى استامبول « بسبب ان محمد على خير صديق لفرنسا » . ونجحت وساطة السفير لدى دوائر الباب العالى ، كما نجحت الهدايا والرشاوى التى بعث بها محمد على الى استامبول .

وفى التاسع من يوليو عام ١٨٠٥ وصل « قابجى دار السعادة » يحمل فرمــان الولاية الى محمد على « حيث رضى بذلك العلمــاء والرعية » . فاستقبل الشعب المندوب الشاهانى بمظاهر الحفــاوة والابتهاج ، اذ كان وصوله آية على انتصار الشعب ورمزا على قــوة ارادته .

وفى دار محمد على فى الازبكية تلى فرمان الولاية بحضور العلماء وقاضى القضاة وقادة الجند والاعيان . غير ان خورشيد باشا كانت لا تزال لديه بقية من كبرياء وصلف الحكام الاتراك ومظاهر سيادتهم فلم يعبأ بالفرمان وتذرع بحجة انه « ولى حكم مصر بخطوط شريفة وأوامر منيفة وانه لا يعزل بورقة » .

استمر خورشيد باشا على عناده ورفض مغادرة القلعة ، الى ان وصلت الى ابى قير بحرية عثمانية للتحكيم بين احمد خورشــيد ومحمد على وتأييد سلطة الاقوى . وقضى صالح بك ، الكتخــدا الثانى عدة اسابيع فى المداولة والمشاورة الى ان رضخ خورشـــيد للامر الواقع واعتزم مغادرة القلعة ، فبعث اليه عمر مكرم بعدد من الابل حملت متاعه ونساءه ، وانتقل خورشيد الى منزل عمر مكرم وظل به زهاء خمســة ايام الى ان خرج فى يوم ١٣ اغسطس الى ساحل بولاق ليستقل المركب الى الاسكندرية .

ونزلت هذه الانباء على كل من البرديسى والالفى نزول الصاعقة ، ولو اتحدا فى بادىء الامر لتفاديا هذه الاحداث التى أدت الى اضعافهما وضياع نفوذهما، ولكن الشقاق والفرقة والتكالب على السلطة بينهما. أدت الى فوز محمد على وظفره بالولاية .. وحاولت قوات المماليك اقتحام القاهرة ولكن الجند الارناؤود كانوا لافرادها بالمرصاد ففتكوا بهم وهزموهم شر هزيمة وظلوا يطاردونهم فى كل بقعة يأوون اليها .
كان محمد على يقول : لن يهنأ لى عيش ومثالى انا ومثال الالفى

كبهلوانيين يلعبان على الحبل ولكن هو فى رجليه قبقاب .

وكان الالفى يتحدث الى اخصائه فيقول :

« والله يخيل الى ان اقتل نفسى ولكن لا تهون على ، وقد صرت الان واحدا بين الوف الاعداء وهؤلاء قومى وعشيرتى فعلوا بى ما فعلوا، تجنبونى وعادونى من غير جرم ولا ذنب بدر منى فى حقهم واشقونى واشقوا انفسهم وملكوا البلاد لاعدائى واعدائهم ، وسعيت واجتهدت فى مرضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا وتباعدا عنى ، ثم هؤلاء الجنود الارناؤود ورئيسهم الذين ولجوا البلاد وذاقوا حلاوتها وشبعوا بعد جوع وترفهوا بعد ذل ، يحاربوننى ويكيدون لى ، وهؤلاء العربان المجتمعون على اصانعهم واسوسهم واغاضبهم واراضيهم ، وكذلك جندى ومماليكى كل منهم يطلب منى رياسة وامارة ويظنون بغفلتهم ان البلاد تحت حكمى ويظنون انى مقصر فى حقهم ، فتارة اعاملهم باللطف وتارة ازجرهم بالعنف ، فانا بين الكل مثل الفريسة ، والجميع حولى مثل الكلاب الجياع يريدون نهشى وليس بيدى كنوز قارون فانفق على هؤلاء الجموع وتضطرنى الحاجة الى المال الى التعدى على عباد الله واخذ اموالهم ، والى مزارعهم ومواشيهم فاسلبها ، فان قدر الله لى بالظفر عوضت عليهم خيرا » .

مؤامرة لابادة شعب

محاولة لابعاد محمد على عن مصر ــ الاتراك يبيعون ذممهم ــ حملة فريزروهزيمة الانجليز فى رشيد ــ تنحية المصريين عن الاشتراك فى الحكم ــ نهب اموال الاوقاف ــ الوقيعة بين محمد على والعلماء ــ تنكره لعمر مكرم ــ ابادة الزعامة الشعبية .

شعر الباب العالى بعد فوات الفرصة بفداحة الخطا الذى ارتكبه من اسناد الولاية الى محمد على ، وكان محمد خسرو باشا واحمد خورشيد باشا قد استقرا فى استامبول ، وكان صدراهما موغرين من محمد على فالبا الخواطر عليه ، واســتطاعا ان يظفرا بفرمان لتوجيه الولاية الى موسى باشا ونقل محمد على الى سالونيك .

وفى يونيو عام ١٨٠٦ وصلت الى الاسكندرية عمارة بحرية ضخمة وعلى ظهرها ثلاثة الاف جندى ، بقيادة الوالى الجديد ، وارســل قبطان باشا رسولا الى محمد على يفضى اليه بما استقر عليه الامر من نقله الى سالونيك ، وحمل الارناؤود على مغادرة وادى النيل ولو بالقوة ، واعادة السلطة الى الامراء المماليك ، واشار قبودان باشا اخيرا الى ضرورة الاذعان للقرار الشاهانى ..

واضطرب محمد على فى بادىء الامر ، وتظاهر باطاعة هذا القرار، ولكنه احتاط للامر بان زعم بان لهؤلاء الجند رواتب متاخرة تبلغ قرابة عشرين الف كيسة ولذلك فهم يمانعون فى الرحيل ، ولكى يمثل دوره اتم تمثيل اوعز الى الجند بان يطالبوه جهارا برواتبهم ، وهى نغمة قديمة طالما لجأ اليها ، وانقذته فى مواقف الحرج والشدة .

وشرع فى دعوة الضباط الارناؤود يتذاكر معهم الموقف على ضوء القرار الشاهانى ، وجعلهم يقسمون على حد السيف بالا يتخلوا عنه ولا يتركوه وحده ، وان يدافعوا عن موقفه الذى هو موقفهم جميعا ، وصرح لهم بقوله : ان ما استوليت عليه بقوة السيف لن اتنازل عنه الا بقوة السيف ، وانا اعلم من امر الاتراك ما اعلمه ، فهم قوم يبيعون ذممهم وساعرف كيف اشتريها !!

وفرض على التجار والاعيان ستة الاف كيسة « برسم قبودان باشا » وذكر انها سلفة سترد لاصحابها ، ثم لم ترد بعد ذلك .

وارتدى زى المصريين وخلــع عنه رداء الاغراب ، ثم هبط الى الاسواق يتجول فيها بالــزى الوطنى ويختلط بمختلف الطوائف ويتودد اليها حتى يشعرها بانه ليس دخيلا على البلاد .

واخيرا اجتمع بالعلماء والمشايخ ليقف على رأيهم فى قرار ابعاده عن مصر ، ودفعت الحمية عمر مكرم فاخذ على عاتقه تثبيت محمد على على اريكة الولاية ، واتفق مع المشايخ على ان يرسلوا ردا على الفرمان السلطانى ومضمونه : « ان الاوامر وصلت الينا وتلقيناها بالطاعة ، الا ان اهل مصر قوم ضعاف ، وربما عصت العساكر على الخروج فيحصل لافراد الشعب ضرر وخراب الدور وهتك الحرمات وانتم أهل للشفقة والرحمة » .

ولما وصل هذا الجواب الى قبطان باشا رد عليهم بانه لا يقبل امثال هذا العذر ، ولا بد من تنفيذ اوامر السلطنة ولو لجأ الى القوة ، وانه لا محيص من مغادرة محمد على والجند الارناؤوط أرض النيل عن طريق دمياط .

ولعبت الرشاوى والعطايا وكرم الوفادة دورها ، واستطاع محمد على ان يستميل اليه قبطان باشا بهدايا هى عبارة عن اربعة الاف كيسة ، وثلاثين جوادا من كرام الخيل ، ومائة جمل محملة بالسكر والبن والاقمشة الفاخرة .

وشكر له قبطان باشا هذه الهدايا وبعث اليه بمدفعين وخمسمائة بندقية ، وكمية من الذخيرة ، كما اتفق مع العلماء على ان يكتبوا عرضا آخر حتى لا يقال بان ذمم رجال الباب العالى اشتريت بالمال !!

اما هذا العرض الذى وقع عليه العلماء والمشايخ والوجوه فقد جاء فيه:

« ان محمد على كافل الاقليم وحافظ ثغوره، ومؤمن سبله وقامع المعتدين ، وان السكان من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته واحكامه وعدله ، والشريعة مقامة فى ايامه ، ولا يرتضون خلافه لما راوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء واهل القرى والارياف وعمارها باهلها ورجوع الشاردين منها فى ايام المماليك المعتدين الذين كانوا يسلبون الناس اموالهم ومزارعهم ويكلفونهم بالفرض والكلف الخارجة عن الحد ، اما الان فالشعب المصرى مطمئن لولاية محمد على ويرجون من مراحم الدولة العلية ان تبقيه واليا عليهم ولا تعزله لما تحققوه فيه من العدل وانصاف المظلومين وايصال الحقوق الى اربابها وقمع المفسدين من البدو وقطاع الطرق . اما القروض التى اقترضها والفروض التى فرضها على ابناء مصر فليس الفرض منها سوى طرد الاشقياء والمفسدين ، على ان فرضها كان بموافقة سابقة من الاعيان والعلماء وفى اجتماع تفاوضوا فيه » .

هكذا كانت تدار شئون الدولة العلية .. مبعوث سام يقدم الى مصر بقرار شاهانى لعزل حاكم وتولية آخر مكانه ، فيقصر فى اداء مهمته بتأثير الرشاوى والعطايا !

وكان الوالى الجديد موسى باشا لا يزال فى الاسكندرية لا يدرى بالمناورات التى تجرى فى الخفاء ، ويلح على قبطان باشا بتنفيذ أوامر الخلع والولاية ، الى ان تدخل قنصل بريطانيا فى الاسكندرية فرسم لقبطان باشا خطة الغرض منها مفاوضة محمد على على اساس ان انجلترا تضمن له بقاء ولاية سالونيك فى حوزته مدى الحيـاة ، ثم تقدم الالفى بك زعيم المماليك فعرض بأن يدفع الى الباب العالى جزية سنوية قدرها الف وخمسمائة كيسة بضمان الخزانة البريطانية ، اذا ما خرج محمد على من مصر ، ولما اتصل الامر بمحمد على ساوم على مصر بأن تعهد بدفع اربعة الاف كيسة سنويا ، وابدى استعداده بأن يجعل من ابراهيم الذى كان قد وصل الى مصر حديثا رهينة لدى الدولة العلية ضمانا للسداد !

وجاء دور قنصل فرنسا واراد ان يحبط من هذه المساعى التى تبذل لاقصاء صديق فرنسا عن مصر ، فكتب الى الكونت هوراس سيباسيتانى سفير دولته فى استامبول ليعيد وساطته فى تثبيت ولاية محمد على على مصر .

وفى النهاية ابحر قبطان باشا بعمارته من الاسكندرية وعلى ظهرها موسى باشا والرهينة ابراهيم ، ومحمد اولاز اوغلى ومعهما الهدايا والرشاوى المرسلة الى رجال الباب العالى .

ومن حسن حظ محمد على أن البرديسى مرض وتوفى بعد ايام قلائل ، ثم اتاه من يبشره بموت الالفى فهتف من اعماق فؤاده : طابت لى مصر وما عدت أحسب لغيره حسابا .

وبذلك خلا الجو لمحمد على من منافسيه ، وانقضى الدور الاول للظفر بالولاية التى لم يرق اليها الا بعد ان استغل انشقاق العناصر المقلقة وضعفها بتسليط بعضها على الاخر عملا بسياسة « فـرق تسد » .

والواقع ان هذه العناصر وفى مقدمتها الولاة والمماليك والجند النظامية والجند المرتزقة ظلت تتطاحن الى أن انهكت قواها . وفى غضون ذلك كان محمد على يتودد الى الزعماء تارة والى القادة تارة اخرى حتى ظفر بثقتهم وتأييدهم . ولكنه مع ذلك ظل يخشى غدر

الارناؤود به ويخاف شرورهم، فكلما ثاروا وتمردوا واقبلوا يسومون الشعب سوء عذاب ويبتزون الارزاق ترك لهم الحبل على الغارب دون ان يقدر على كبح جماحهم .

واستشرت شرورهم في المدن بسلب التجار بضائعهم او مقاسمتهم ارباحهم ، اما فى الدساكر والقرى فكانوا يغزونها بأوراق فى ايديهم مكتوبة باللغة التركية ، فيلقون شيخ البلد والفلاحين السذج ويزعمون لهم ان ما بأيديهم اوامر من الوالى بتحصيل الضريبة او تقديم عدد من الاكباش والاغنام والدجاج والبيض والحاصلات الزراعية ويستولون عليها اغتصابا .

ولم ترتح انجلترا الى اغتصاب محمد على مقاليد الحكم ، فقد كان فى نظرها صنيعة فرنسا التى اخذت بناصره ، وكان الصراع الخفى يدور بين الدولتين المتكالبتين حول اتخاذ مصر قاعدة للوصول الى الشرق ، فسير الانجليز حملة مكونة من خمسة الاف مقاتل بقيادة الجنرال فريزر ، ووصلت الحملة الى الاسكندرية فى ١٧ مارس عام ١٨٠٧ واحتلتها دون مقاومة تذكر ، ثم تقدمت الى رشيد وكان المدينة فى حماية فرقة باسلة ، فما كادت القوة تدخل رشيد حتى هبت الحامية ونهض السكان يطاردون القوات المغيرة ويقاتلونها قتالا مر المذاق الى ان دحروها ، وخسر الانجليز بضع مئات من القتلى ، الذين علقت رءوسهم على اسنة الحراب وطوف بها فى شوارع العاصمة، اما الاسرى فسيقوا الى القاهرة واعتقلوا فى القلعة .

وكان محمد على فى أثناء تلك الموقعة فى منقباد بارباض اسيوط يقاتل المماليك فلما اتصلت به هذه الانباء المثيرة بادر بالعودة الى العاصمة .

وحاول الانجليز وهم فى الاسكندرية ان يستعدوا المماليك وان يستنجدوا بهم لنصرتهم ، ولكن المماليك رفضوا ان يلوثوا انفسهم بالخيانة والتواطؤ مع الاجنبى ، وخشوا اساءة سمعتهم اذا ما هم انضموا الى اعداء البلاد .

واضطرب شعب القاهرة لوصول القوات البريطانية واستعد للخروج الى رشيد تدفعه الرغبة الى التضحية والاستبسال وانكار الذات . واجتمع العلماء فى بيت القاضى وفى الازهر للتشاور والتداول فى كيفية الدفاع عن العاصمة ، وقام عمر مكرم يستثير حمية الافراد والجماعات ويوقظ النعرة القومية فى النفوس ، ثم شرع يجمع

التبرعات ويشير بتعزيز الاستحكامات واقامة المتاريس وحفر الخنادق .

وعند ما عاد محمد على الى الصعيد ذهب عمر مكرم والعلماء للقائه وكاشفوه بما عقدوا العزم عليه من الاستعداد لحمل السلاح والذود عن كل شبر من ارض الوطن ، بيد ان محمد على صدمهم فى شعورهم وفى عاطفتهم النبيلة بان صرح لهم بانه لا يسمح لمخلوق بالاشتراك فى تسيير دفة الحكم ولا التدخل فى شئون الدفاع وفاجأهم بان قال لهم : يكفينى نفقات الجند وعليكم بامدادى بتسعمائة كيسة .

وتألم عمر مكرم ومعه العلماء من محاولة محمد على ابعاد الشعب من مشاركته فى الدفاع عن ارض الوطن ، لقد خيب امالهم وبدد احلامهم وبدا المكنون من نفسيته للانفراد بالحكم .

والواقع ان محمد على كان يخشى زعامة مكرم ، كان يغار من هذه الزعامة لما لها من سلطان على القلوب واخضاع للارادات ، ويسىء الظن بالمصريين ويتجنب اشراكهم فى حكم بلاده . كان لا يرى فيهم الا « قوما لا يصلحون لغير حمل الاثقال وسوق الحمير » . ولذلك نحاه ونحى زملاءه عن التدخل فى شئون الحكم ، وقد سبق له ان تحدث مرة الى صديقه فيلكس مانجن « بانه سيحول بين المصريين وبين شئون الحكم والادارة وان يلزمهم حدهم » .

• ● •

اما الصدمة الثانية التى اصابت الزعامة الشعبية فى الصميم ، فان محمد على ما كاد يظفر برضاء الباب العالى حتى عمد الى تسخير الشعب فى خدمته ، ففرض الضرائب الباهظة ، وساق المواطنين الى السخرة بحجة الاستعداد للحرب . وشرع جنده يستولون على المهمات ويستخدمون الصناع فى تشييد المراكب . وفزع افراد الشعب من ثقل هذه التكاليف ، واتجهت الانظار الى عمر مكرم الذى صرح بان الوالى خرق الضمانات التى تعهد بتنفيذها .

واصبح محمد على كلما اعوزته الحاجة الى المال لنفقات الادارة ونفقاته الشخصية مال الى الاوقاف فاغترف منها ما يشاء او يكلف الناس فوق ما يطيقون .. كانت هناك اوقاف مشمولة برعاية العلماء ورجال الدين فاراد هو استغلالها وقبض ريعها، فتذمر العلماء وشعر النظار بالفضاضة لان هذه الاوقاف بمثابة خيرات ينفق ريعها على

تعمير بيوت الله وفى وجوه البر كافة .

وكان عمر مكرم قد اقام من نفسه وكيلا عن الشعب ، ورقيبا يحاسب الوالى على هذه الفعال، ويابى عليه ان يمضى فى هذه التكاليف، وما زالت هذه حالهما حتى سأل الوالى العلماء ان ينصحوا صاحبه بان يكف عن معارضته .

وكان العلماء يحسون من تلك التكاليف كل القسوة التى يحسها مكرم فلم يكونوا ينكرون منه الاعتراض لذات الاعتراض ، حتى لقد عاهدوه وعاهدهم ان يكونوا يدا واحدة تدفع بعض ما أراد الوالى ان يرهق الناس به . وكتب العلماء يحتجون على هذا المسلك وطالبوا باعفاء الاوقاف من الاتاوات والضرائب ، وحمل اليه الشيخ الشرقاوى قرار الاحتجاج ، فما كان منه الا ان ثار وأجاب قائلا :

ـ انا وحدى الذى ينتفع بالضريبة واما انتم فتبهظون كاهل الشعب بأثقل الاعباء . انكم سبب شقاء مصر والامها لانكم مع ايثار الحكومة لكم باعفاء املاككم من الضرائب لا تزالون تتقاضون من الفلاحين ضرائب تقدر بالفى كيسة .

ثم تهددهم بلهجة قاسية فيها شىء من الخشونة والغلظة واستطرد يقول :

ـ سوف أفحص المستندات وابيع الاملاك الموقوفة، انكم تعقدون الاجتماعات فى المساجد وتتكلمون عنى بلهجة تكاد تكون لهجة الامر ، وهذه نزعة باطلة لا يمكن استقبالها بغير الازدراء والاستخفاف، واننى على استعداد لان ارمى عنق كل من يستظل بلواء المعارضة فى وجه سياستى .

وتغيرت لهجة محمد على وتنكر لطبقة العلماء الذين رفعوه من الحضيض وولوه الحكم بحيث جعلوا الباب العالى من هذه التولية بازاء الامر الواقع فلا يملك سوى اقرارها .

وحل موعد دفع الجزية السنوية ، فطلب محمد على بيانا بالاموال المرصودة على الاوقاف ، ليغترف منها حاجته ، ولكن عمر مكرم كان له بالمرصاد فرفض تقديم مستندات الوقف . فارسل اليه يدعوه الى مجلسه فى القلعة فابى ان يذهب اليه الا ان يرفع عن المجموع ما طوق اعناقهم من مظالمه ، وجعل فريق من العلماء وغيرهم يلحون عليه ان يجيب الدعوة فلم يجب ، ولم ينزل عن شرطه ، بل زاد للمقابلة

شرطا جديدا هو ان ينزل محمد على من القلعة الى حيث يلتقيان فى بيت السادات .

واحفظ هذا الشرط الجديد محمد على اشد من حفيظته الاولى، واستعظم الامر فصاح قائلا : هل يريد هذا الرجل ان اترك مقر حكمى لاقابله فى بيت فرد من الرعية .

ورفض ان ينزل ساعة او بعض ساعة عن الاريكة التى اصعده اليها زعيم الشعب .

وعلى الرغم من ان بعض العلماء نقضوا العهد مع مكرم وبقى هو وحده امام الحاكم المستبد وجها لوجه . فقد اقسم بأن يكاتب الباب العالى بشأن سياسة محمد على وأن يثير عليه الشعب وينزله عن الاريكة التى اجلسه عليها ، واخذ ينقم على الوالى مظالمه ويجاهر بهذه النقمة ، واخيرا اجتمع بالعلماء ورجال الشرع وقال لهم :

ـ ان هذا الرجل محتال ، واذا تمكن فسيصعب ازالته ، فلنعزله من الان .

واراد السيد ابو الانوار السادات اطفاء نار الفتنة ، فمضى الى القلعة وخاطب محمد على بقوله :

ـ هيا بنا .. قم معى الى السيد عمر لتقبل يده فيعفو عنك وتظل متمتعا بمركزك .

واومأ اليه من طرف خفى بأن يفعل ما يشاء بعد ان يستتب له الامر ويتنفس ، ولكن محمد على أهاب بالشيخ وقبض على يده يلثمها قائلا له :

ـ لقد عينتك نقيبا للاشراف !

وكان عمله هذا ايماء الى ان اليد الواجب لثمها هى يده وحده ، بيد ان السادات تظاهر بالامتناع عن هذا العرض واجاب :

ـ كيف يكون هذا وقد اتيت لاصلاح ذات البين فتعرض على منصب الشيخ .

وتظاهر محمد على بانه اخذ على خاطره متدللا ، ثم التفت الى بكتاش احمد اغا المترجم وخاطبه بقوله :

ـ قل للشيخ انه تفضل فتبنانى ، وانا اتخذته ابا ، فهل لا يقبل الان رجاء ولده .

ولم ير السادات بدا من قبول رجاء محمد على وقنع بمبلغ عشرة آلاف قرش بصفة عطية بدلا من الفرو لتعذر وجوده آنئذ .

واخذ محمد على يبث العيون والجواسيس حول مكرم ، ويرصد

حركاته وسكناته ، ويقصى عنه الملتفين حوله ، الى ان واتته الفرصة فاصدر امرا بنفيه الى دمياط وفى حالة عدم اذعانه ستطلق قذائف المدافع على منزله ويهدم على من فيه .

وبلغه أمر النفى فأجاب فى رباطة جاش : اجل ! ان النفى غاية مطلوبى غير اننى اريد العيش فى بلد لا يستظل بلواء محمد على .

ورأى بعين الحسرة ان الآمال التى كان يعلقها على قيام حكومة جديدة يشترك فيها المصريون قد انهارت وتبددت وتبخرت فى الهواء، فهاهو الرجل الذى رفعته الزعامة الشعبية الى منصة الحكم بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق يخون الرسالة التى أؤتمن عليها وينفرد بالحكم ويقصى المصريين عن حكم بلادهم .

وازف موعد رحيل السيد عمر مكرم فاحتشد فى يوم ١٢ اغسطس عام ١٨٠٩ على ساحل بولاق جمع غفير يمثلون مختلف الطبقات ، ليودعوا الرجل الذى وقف حياته فى سبيل الدفاع عنهم ورد الحقوق اليهم ، وسعى الى تحريرهم من نير العبودية ، وتحرك المركب بالزعيم الاول بين الانات التى زفرتها صدور ابناء الشعب والدموع التى انهمرت من مآقيهم .

وكتب محمد على الى الباب العالى يبرر فعلته من عزل نقيب الاشراف ، فزعم بانه أدخل طائفتى الاقباط واليهود الذين فى خدمته فى سجلات الاشراف ، وانه قبل رشوة من الالفى زعيم المماليك ليمكنه من الحكم . ثم اجبر محمد على العلماء ان طوعا أو كرها على التوقيع على عرض يرفع الى الباب العالى بهذا المعنى .

ورفض الشيخ احمد الطهطاوى مفتى الحنفية ان يوقع قائلا :

ـ ان محوتم منها فرية الاقباط واليهود فانى القى اليكم بخاتمى فتمهرون العرض به .

وكان للسادات الوفائية والبكرية والعلوية مقام رفيع وشان جليل وكان مفتى الحنفية لا قيمة له الى جانبهم ، فلما سمع الشيخ ابو الانوار حجة الطهطاوى صاح قائلا : « هل هو أتقى منا ؟ » . وتوقف بدوره عن التوقيع .

وبلغ الامر محمد على فقال لمترجمه : هل هذا شيء عويص ؟ اصنعوا خاتما فى الضربخانة باسم الشيخ احمد الطهطاوى وامهروا العرض .

ولم يكن الشيخ الطهطاوى هو الوحيد الذى قلد خاتمه وزور به، كما سنرى فيما بعد .

وعزل الطهطاوى من منصب الافتاء ، فحمد ربه على ان خلصه من ورطة التوقيع على امر يخالف ضميره .

ولما توفى الشيخ السادات حجر محمد على على ممتلكاته وهم بمصادرتها ، فاحتج العلماء على ذلك ، وقال الشيخ الشرقاوى :

ـ ان بيوت المشايخ مكرمة ، ولم تجر العادة بالختم على تركاتهم .

فكان جواب محمد على :

ـ ان المتوفى كان طماعا ، جماعا للمال ، وطالت حياته ، وحاز اموالا وعقارا ، والخزانة العامة اولى بتركته لحاجة الحكومة الى المال فى نفقات الجند ومحاربة الخوارج .

واخيرا اتفق على ان يدفع الورثة الى الوالى خمسة احمال والى اولاز اوغلى خمسة وعشرين الف قرش ، والى المترجم على افندى هدية متواضعة فى مقابل الافراج عن التركة .

واخذ محمد على يقلب ظهر المجن لبقية العلماء الذين غرسوا شجرة الملك فى بيته ، فقبض على ثلاثة شيوخ من الازهر وهم : الشرقاوى والدواخلى وسعيد الشامى ، وحدد اقامتهم فى بيوتهم لا يبرحونها .

اما عمر مكرم فظل فى دمياط نحو سنوات اربع تحت الحراسة ، ثم نقل الى طنطا ، وظل بها خمس سنوات اخرى ، ثم اذن له محمد على بالعودة الى القاهرة ظنا منه ان الشعب قد نسيه ، ولكن آماله تبخرت حين وجد الشعب يتكتل مرة اخرى حول زعيمه ، فقرر نفيه مرة اخرى الى طنطا، وبذا ابعد عن طريقه اقوى شخصية يمكنها ان تقف فى وجهه ، ويمكنها ان تدافع عن حقوق الشعب .

هكذا مهد محمد على السبيل لاخضاع الشعب لحكمه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وظل يواصل سياسته الخرقاء من محاربته للعلماء ورجال الشرع الى ان اباد الزعامة الشعبية وقضى عليها قضاء مبرما .

• ● •

مظالم حكومة محمد على

قرصان باشا ـ صنيعة فرنسا ـ نهضة الاصلاح وبواعثها واهدافها ـ نقص عدد السكان ـ خفراء قولة امراء مصر ـ محمد الدفتردار وجرائمه ـ الغدر بزعماء الشعب ـ الدعوة الى الجمهورية ـ جنون محمد على .

اطلق احد كتاب الافرنج على محمد على اسم « قرصان باشا » . ووصفه معاصره الجبرتى : بأن من طبعه الحسد والشره والطمع ، والتطلع الى ما فى ايدى الغير وارزاقهم .

والواقع ان هذا الحاكم الدخيل لم يكن يهمه من امر الشعب سوى سلبه امواله ، وتسخيره فى خدمة اغراضه ومطامعه ، وامتصاص اخر قطرة فى دمه .. كان كرمال الصحراء ، دائم الظمأ ولكن الى النضار ، تتسرب ثروة مصر الى خزائنه فيغدق منها على افراد اسرته واعوانه واصفيائه ، ويشترى بجزء منها ذمم رجال الباب العالى ليثبتوه على الولاية وحصرها فى ابنائه وذراريه .

كان كلما اعوزته الحاجة الى المال لجأ الى الضرائب والكلف ، فينتفض المواطنون ويلوذون برجال الشرع يستعدونهم على الحاكم الظالم ، فيهرع هو اليهم ويخاطبهم فى مسكنه : « النوبة دى بس . ولعن الله من يفعلها مرة اخرى » . ثم يعود بعد أسابيع او اشهر حينما ينضب معينة فيثقل الكواهل بالكلف والغرامات ، الى ان ضاق العلماء ذرعا بأساليبه الجشعة وهددوه بابطال الشعائر الدينية فى الازهر . .

وكانت له طباع القراصنة ، يسطو على اموال الاوقاف المرصودة على تعمير بيوت الله ووجوه البر ، ويعمد الى الاستيلاء على القوافل التجارية المارة بطريق السويس ، فلا يفرج عنها الا بعد ان يدفع عنها أصحابها اتاوة يحددها هو ، والى ممتلكات أرامل المماليك اللواتى ثكلن فى فلذات اكبادهن أو ازواجهن فيضع يده عليها ولا يرفعها الا بعد ن يدفعن اليه مبالغ باهظة .

وكان جانب كبير من هذه الاقوال يتسرب من مصر الى الباب العالى والى سكان قوله بصفة خاصة ، وهكذا كان هذا الحاكم يسخو على الاغراب بشرط ان يكون المال من جيوب افراد الشعب الذى يحرم عليه القوت .

هل كان محمد على حقا دمية تحركها فرنسا من وراء ستار ؟

ليس من شك فى انه كان مدينا لفرنسا بالشىء الكثير ، مدينا لها بمساعدته على اعتلاء العرش وتثبيته على الولاية ، وكانت ضروب الاصلاح وتنظيم المالية وشئون الرى وتكوين الجيش والاسطول والفتوحات العسكرية واقامة المنشآت التى تحمل اسمه ، كل هذا وضعت بذرته فى الاصل الحملة الفرنسية ، وكانت تقارير البعثة العلمية التى صحبت بونابرت فى غزو مصر ولم يتسع الزمن لتنفيذها هى النبراس الذى وضعه نصب عينيه .

وكذلك كان مدينا لفرنسا بالمدربين العسكريين ، وبهيئة اركان الحرب ، وبالمستشارين والخبراء والفنيين ومهرة الصناع الذين اعتمد عليهم فى اقامة صروح النهضة ، وبعشرات الاساتذة الذين كونوا المعاهد العلمية والمدارس وتولوا التدريس فيها .

والواقع ان الفرنسيين كانوا هم اصحاب الكلمة المسموعة فى مصر ، وكان ساستهم هم الذين يتكلمون باسم مصر فى المحافل الدولية ويدافعون عن مسلك حاكمها ، لذلك بسطت فرنسا حمايتها على محمد على لا حبا فيه وانما نكاية فى انجلترا ، والى انه الحاكم الذى تعهد بتنفيذ مآربها فى الشرق .

سار محمد على فى سياسته على مبادىء الحكم المطلق ، فاقصى المصريين عن مناصب الدولة ، وابعدهم عن الاشتراك فى المهام العليا ، وحرم عليهم شئون الدفاع عن وطنهم كما رأينا فى معركة رشيد ، واكتفى منهم بتقديم نفقات الحرب وصناعة معداتها ، وجعل مناصب الجيش والادارة والوظائف الرئيسية وقفا على الخوارج سواء من بنى جلدته أو من الافرنج ، فقد خشى اذ اسهم المصريون فى تسيير اداة الحكم ومشاركته شئون الدفاع والسياسة العليا ان يشتد ساعدهم فيعزلوه كما سبق لهم ان خلعوا الوالى السابق احمد خورشيد .

وقد افتتح مجموعة من المدارس والمعاهد العلمية ، وارسل البعوث الى جامعات الغرب لا لغرض تعميم التعليم بين مختلف الطبقات او تثقيفها وانما لتخريج طوائف من الاطباء والصيادلة والمهندسين والبيطريين والصناع ، اى الذين يمكنه الانتفاع بهم فى اداة الحرب .
وجند الفلاحين ولكنه كان يصرف للجندى راتبا شهريا تافها ، وكساء

بسيطا ، ويحرمه من العلاج والترفيه . وكانت الخدمة العسكرية غير محددة ، وكانت لا تختلف فى شىء عن السخرة ، من ضرب وحشى واذلال واهدار للكرامة الانسانية .

واستصلح جانبا من الاراضى الزراعية وادخل الى البلاد محصولات جديدة ، وعمم سياسة الاحتكار فى الزراعة والصناعة والتجارة ولكن الارباح الطائلة عادت على خزانته وحده ولم ينتفع الفلاح بشىء .

وصفوة القول ان هذا الحاكم لم يكن يرجو من وراء هذه المشروعات والاصلاحات الخير خالصا لشعب مصر .. لقد كان يتعالى على المصريين ويانف من دعوتهم الى قصوره حتى فى المناسبات والاعياد الدينية ، ولا يتكلم بلغتهم ، وينعتهم بأسوا النعوت ، ويصفهم بانهم قوم لا يصلحون الا لحمل الاثقال ، وانهم اصحاب اقفية عريضة ، ولا ينفعون الا زبالين !! وكانت حاشيته تؤلف طبقة ممتازة ، تانف من الارتباط مع طوائف الشعب بصلات المصاهرة ، وتترفع عن التكلم باللغة العربية ، وكان الصلف والكبرياء والزهو من اخص صفاتهم ، ومنهم من خاطب الصفوة المختارة من الشعب بقوله : لن تستطيعوا ان توفونا حقنا من الشكر كاملا ولو اعطيتمونا كل اموالكم بسبب انقاذنا لكم من براثن المماليك !

اذن فما هو الباعث لمحمد على على القيام بهذه الاصلاحات ؟

فى الواقع انه كان يسعى الى خلق قوة عسكرية منظمة يحتفظ بها للدفاع عن مركزه امام شراذم الجند المأجورين من ناحية ، وامام الباب العالى فيما بعد .

وقد اقتفى محمد على اثر غيره من حكام الشرق فى تغيير النظم العسكرية العتيقة ، فالسلطان سليم الثالث سبق له ان كون « عسكر النظام الجديد » وشاه ايران سبقه الى الاستعانة ببعثة عسكرية فرنسية أدخلت اصلاحات فى الجيش الايرانى .

واقدم محمد على على محاربة الوهابيين والكريتيين واليونانيين طوعا لاوامر الدولة العلية وباسم السلطان وتحت رايته ، فلما كان النصر فى جانبه تملكه الغرور وصورت له اوهامه أن يتساوى بالباديشاه فيستقل بمصر عن الخلافة وان يحاربها فى ارضها ويحاول ان يثل عرش السلطان .

وكان محمد على اميا لا يقرا ولا يكتب ، ولم يكن يحفل بالادب

أو يهتم بالشعر كغيره من امراء الشرق ، بل ان اللغة العربية لم تنل من عنايته اى نصيب ، وكانت حكومته تركية الصبغة والاساليب والروح ، عممت الكتابة بالتركية وحدها فى دواوين ومصالح الحكومة، وحاولت ان تفرضها لغة اساسية فى التعليم ودور القضاء الشرعى والاهلى ، لولا ان ناهض هذه الفكرة المستشارون الفرنسيون ، ولكن هذا لم يمنع هذه الحكومة من تدريس اللغة التركية فى مراحـــل التعليم كافة .

وقد حاول محمد على بسبب حفيظته لرجال الازهر ان يقـدم على الغاء هذا المعهد الدينى الذى له قداسة وحرمة فى قلوب ملايين المسلمين ، فلما ادرك ان فى هذا الامر انتهاك لحرمة الدين نفسه ، انكر حظ الازهر من النهضة ولم يعطف عليه ، بل ان يد الاصــلاح لم تتناوله بشيء فظل قائما على نظامه العتيق ، محتفظا بشخصيته المستقلة وبمبادئه الخاصة فى التفكير ، بعيدا عن حركات الانشـــاء والتعمير التى كانت تدب فى كل ركن من اركان البلاد .

وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر فى تلك الاونة ان السكان يتناقص عددهم يوما عن الاخر ، فالوف الحقول والمزارع تعلوهـــا طبقات من الرمال لقلة الايدى العاملة ، والمصانع تعمل بنصف عدد العمال اللازمين لها ، والشوارع غير غاصة بالمارة ، اذا استثنينا طبقة العجائز والمعممين ، ويعود نقص عدد السكان الى عوامل شتى وفى مقدمتها نظام الجندية الذى اهلك الوف الشبان فى الحروب ، ثم نظام السخرة الذى افناهم تحت رمال الصحراء ، واخيرا الظلم والارهاق مما دفع بالفلاحين الى هجر حقولهم ، وقد حاول محمد على ان يسد هذا النقص الجسيم بغزو السودان وجلب رجال يصلحون للخدمة العسكرية بيد ان التجربة فشلت فشلا ذريعا ولم يتحمل شـــباب السـودان قسوة الجو فى الشمال .

• • •

لم يبق فى منطقة قولة كبير ولا حقير الا دعاه محمد على للقدوم الى مصر ، وولاه أرقى المناصب واقطعه اخصـب الاراضى ولو كان يجهل القراءة والكتابة ، وكان من المالوف ان يبحثوا عن منصب لرجل بدلا من البحث عن رجل لمنصب .

وكان محمد على يدافع عن مسلكه فيزعم بأن الذين يفدون من

الخارج يعوضهم عن حرارة الجو والغبار بمرتبات ضخمة وتعيينات مغرية ، فتزيا خفراء قوله بزى الامراء . وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة ، واحاطوا انفسهم بالخدم والاتباع ، ووصل كل صعلوك منهم الى مالا يخطر له ببال ، وسعوا الى الاقتران بارامل وكريمات الامراء المماليك ، والاستيلاء على مجوهراتهن ورياش قصورهن ، ومن لم ترضخ لجبروتهم ارغموها على الزواج .

وكان كبار الموظفين الذين تولوا زمام الحكم من اصل وضيع فلما ملكوا نواصى الحال وصاروا حكاما بارزين بلغ منهم الفساد أشده ، ودفعتهم مظاهر البذخ والاسراف والسعة فى المعيشة الى مد ايديهم الى الاختلاس والرشوة والاستيلاء على حقوق الغير ، وكان محمد على نفسه قدوة سيئة لهم ، وصاروا يترنمون فى مجالسهم بقول مأثور له وهو : ان الدرهم كالمرهم ، وان الرشوة حلالة عقد الامور .

وكانت العادة ان هناك سفينة تجارية تبحر من الثغر السكندرى الى ميناء استامبول مرة فى الشهر ، يملكها حطب اوغلى ، فكان يوم وصولها بمثابة عيد للاطفال الاتراك ، لانها تحمل الى اهليهم خيرات وادى النيل من رشاوى وهدايا .

ولذلك كان كل افاق كلما ضاقت به سبل العيش وهجر استامبول يضع نصب عينيه النزوح الى وادى النيل ، فقد كان الشائع لديهم بان خزانة حكومة مصر قد اوشكت جدرانها ان تتهدم من كثرة الاموال المكدسة فيها .

• ● •

من اعوان محمد على الذين كان يعتمد عليهم صهره محمد الدفتردار ، وكان رجلا قاسيا ، سفاكا للدماء ، فعند ما ذهب الى السودان للتحقيق فى مصرع اسماعيل بن محمد على الذى احرق فى بلدة شندى ، لم يرض بدية اقل من عشرين الف شاب ابادهم جميعا، ثم اشعل النار فى عشرات القرى تشفيا وانتقاما .

وقد حدث ان فرض احد ماموى الاقسام مبلغ ستين قرشا ضريبة على فلاح فى احدى القرى ولم يكن الفلاح يملك قرشا منها ، فأمر المأمور ببيع البقرة الوحيدة التى يعيش الرجل منها بان قسمها الى ستين جزءا باع كل جزء بقرش واحد ومنح راس البقرة الى القصاب مقابل اتعابه . فشكا الفلاح الى الدفتردار الذى استحضر المأمور

وانبه بعنف لا على استيلائه على بقرة الفلاح وانما على طرح اجزائها للبيع بستين قرشا فقط . ثم بعث فى طلب القرويين واخذ يوبخهم على انهم دفعوا قرشا واحدا فى كل قطعة لحم على حين انها تساوى اضعاف هذا المبلغ وبذلك اشتركوا فى اختلاس اموال اميرية !! واخيرا احضر القصاب وامره بذبح المامور كما ذبح البقرة وان يقسم جسمه الى ستين قطعة ، وامر القرويين بأن يبتاع كل منهم جزءا بقرش واعطى راس المامور للقصاب لقاء اتعابه !!

واشتهر عن الدفتردار بانه ينهب حيا باكمله .. وقع مرة ان وضع يده على المساكن فى احد الشوارع ، واقام بابين فى بداية الشارع ونهايته ، ثم احكم اغلاق البابين بالاقفال وعززهما بالحراس لمنع دخول السكان الى منازلهم . ولم يكن هؤلاء السكان من فصيلة الخلد حتى يحفروا سردابا تحت الارض ليصلوا عن طريقه الى مساكنهم ، ولا من انواع الطيور حتى يحلقوا فى الجو ويهبطون اليها. وظل المساكين بضعة ايام وقوفا خلف البوابات ولم يسمح بفتحها لهم الا بعد ان دفعوا اليه مبلغا باهظا من المال .

وكان قصره فى امبابة تحوطه حدائق غناء مغروسة بانواع الفواكه والثمار ، فكان يسقى البساتين الماء مذابا فيه الصابون اذا ما شك فى انهم اختلسوا بعض الثمار . ثم راى ان صرف الصابون فى كل يوم لهذه الغاية يستنفد جزءا من ميزانيته ، فلجأ الى حصر الثمار على الاشجار ، ولكن كاتب الحسابات المختص كان يختلس نصيبه من الفاكهة ، فاذا احصى ثمار شجرة برتقال مثلا وكان العددمائة يستنزل منه عشرين عند رصده فى السجل ، وكان هذا الحاكم الغبى يخيل اليه بانه ضبط محصول حدائقه بهذه الطريقة !

وارتكب الدفتردار من الموبقات والمعاصى لتحصيل الضرائب ما تقشعر له الابدان، وكانت « العدة » والكرباج ابسط الوان العقوبات عنده .

واخذ الفلاحون ينفسون عن صدورهم من مظالمه بان يقلدونه عند ما يقيمون حفلات الاعراس . فيركبون رجلا له لحية من شواشى الذرة على حصان طاحونة ويمسك بيده قلما وورقة ، ويفترض بعض المتفرجين من حوله انهم تجار والاخر انهم قواصة . ثم يأخذ الدفتردار الممثل فى وزن اى محصول بميزانه ، ويتعمد طبعا ان

ياتى الموزون ناقصا ، وعندئذ ينهال القواصة على التاجر . بالضرب بالسياط ، واخيرا يتوسل اليهم فيرفعون ايديهم عنه ، وهنا يقول الدفتردار : ان الواجب يقضى بتحرير « الوقائع اليومية » . ثم يمد القصبة المفروض انها قلم الى مؤخرة الدابة كانها الدواة . ويمررها على الورقة كانه يكتب شيئا . الى ان يدون ويشطب ما كتب . وبدلا من ان يقول له التاجر او المزارع المقصر :

ـ دعنى واعف عنى فى مقابل دفع مبلغ كذا رشوة .

فانه يصرخ قائلا :

ـ انظر ياسيدى الى ما اصاب اظافرى من فرط الضرب المبرح ويبرز له ابهامه فيقرأ الرقم الذى سجله على الظفر ، اى مبلغ الرشوة الذى فى وسعه ان يقدمه .

ومن اعوان محمد على ايضا سليمان اغا حاكم منطقة زفتى ، وكان من عادته ان يجلس فى نافذة قصره المطل على النيـــل ، فاذا ابصر بالفلاحـــات فى طريقهن الى مورد المياه ، ارتقب عودتهن يحملن البلاليص فوق رءوسهن ، وعندئذ يلهو باطلاق الرصاص على الجرة فتكسر وتبتل ملابس الفلاحة وجسدها وتشرع فى البكاء والنواح على حين يستغرق هو فى الضحك من هذا المنظر .

وكانت الصبايا عند ورود الماء يقلن لبعضهن : هل هو جالس فى الشباك ام راح فى داهية .

وكن ينتهزن فرصة انصرافه الى تناول الطعام او نومه ســاعة القيلولة فينطلقن الى مورد المياه .

ومنهم ايضا اوزون على قائد فرقة الدلاة الذى اسهم فى مذبحة القلعة ، وكان رجلا غليظ القلب ، خشن الطباع ، يقسو على جنده بان يؤدبهم « بالدبوس » فكان الجند تكاد رءوسهم تطير من الهلع كلما تذكروا اداة التعذيب والتأديب .

وكان اكولا نهما ، مفرطا فى التهام مختلف الوان الطعام ، ولا يكفيه فى الوجبة الواحدة اقل من خروف يشوى له على السفود . وكان فطوره فى الصباح يتكون من اربعين بيضة ورطلين من عسل النحل وبضع اقات من الخبز ، ويأخذ جنده يتزلفون اليه بقولهم : حبذا لو زارنا القائد ساعة الافطار ليكون وجوده بيننا باعثا على فتح شهيتنا .

وكان هؤلاء الاعوان كلما اعوزتهم الحاجة الى المال لجأوا الى مدير الخزانة العامة يهددونه بأساليب شتى ليدفع اليهم ما يحملون من

صكوك ، حتى تضايق منهم بحـــرى بك كبير الصرافين فمضى الى الوالى يشكوهم بقوله :

ـ ان اتباعك يثقلون علينا . . . نحن ندبر المال من اى مكان ولكن لا تدعهم يهجمون علينا فان خزانة الدولة ليست متجرا بل هى مقر حكومى له حرمته وقداسته .

فأصدر محمد على أمرا الى قواده باستخدام الكياسة كلما مضوا الى الخزانة العامة . بيد انه لم تمض ايام معدودات حتى اقتحم مبنى الخزانة القائد محمد اغا اللوفجة وبيده حوالة بمبلغ حمل من القروش .

وكان بحرى بك رجلا شديد الكبرياء والاعتداد بالنفس ، ولكنـه ازاء بطش هذا القائد خفض له جناح الذل من الرحمة ورده بقوله :

ـ ما الذى فى وسعى ان اقدمه لك . ان الخـــزانة خاوية الان ، والاولى أن تصحبنى الى منزلى فاجمع تجار الشام وربما اوفق الى جمع خمسين الف قرش وعليك ان تبتاع من هؤلاء التجار اقمشـة وشالا اكراما لهم .

فأجابه القائد فى زهو وصلف : وماذا يصنع الكلب الغريب بهـذا الشال ؟ انه ليس عالما حتى يلقيه على كتفيه ، وليس من التجار حتى يلفه على راسه . . الفلوس . . . الفلوس . . .

فتمالك بحرى بك اعصابه واجابه فى هدوء :

ـ ان الموت لا يكون الا مرة واحدة . . فان لم تصبر الى الغد فلن تصرف المبلغ الا يوم القيامة .

وتمكن بهذه الحيلة من تأجيل صرف المبلغ . . ثم عاود الشكوى الى محمد على الذى انكر بانه اعطى القائد صكا واتضح اخيـرا بان ختم الوالى قلد على الصك . ولما واجهه بذلك التزوير ، كان جواب القائد : لقد تلقينا عنك هذا الدرس عندما قلدت أختام مشـــايخ الازهر .

• ● •

وكان محمد على اذا ما غضب على شخص ما صاح « فليجر من رجليه » وهذا معناه الحكم عليه بالاعدام وتشريد اهله . وكانت قلعة ابى قير منفى للمغضوب عليهم من زعماء الراى والعلماء والفقهاء .

وكان ابراهيم بك الكبير آخر « شيخ للبلد » تولى هذا المنصب ،

وقد انسحب الى دنقلة فرارا من مظالم محمد على وخوفا على حياته من بطشه ، وعاش هناك فى فاقة ولبس العرى . وعند ما اتصل بزوجته نبأ نعيه مضت الى القلعة ، وقابلت محمد على قائلة له :

ـ لقد قتل فلذة كبدى فى مذبحة القلعة ، وجاءنى اليوم نعى ابيه ولما يلتئم جرحى . . . لقد حكم ابراهيم بك مصر مدى خمسة واربعين عاما ، وكنت أنت بنفسك تتناول تعيينك منه ، فهو سيدك السابق ، واخيرا فر الى دنقله دون ان يهتف بقوله : اليست لى ممتلكات فى مصر ؟ فاذا كنت لا تستكثر على رجل واحد ـ وقد استكثرت عليه مصر بأسرها ـ مقدار اربعة اذرع فى المقبرة التى شيدها ابان حياته فصرح لى باحضار جثمانه .

• ● •

وكان الغدر من شيم محمد على . . .

رأينا فيما سبق كيف وصل بدهائه ونفاقه وحيله وغدره الى منصة الحكم .

فغدر اولا بولى نعمته محمد خسرو واوعز بطرده من القلعة بالتواطؤ مع طاهر باشا . ثم اغرى الاكراد بقتل طاهر باشا فلم يدم حكمه سوى ٢٦ يوما . وكيف اوعز بعد ذلك بقتل احمد باشا وعلى الطرابلسى باشا . ثم تقرب من الامراء المماليك ومزج دمه بدم البرديسى شارة الاخوة والتضحية ، ولكنه تخلى عنه وغدر به . واخيرا داهن عمر مكرم والشرقاوى والدواخلى وعلماء الازهر وتحالف واياهم على مبايعته بالولاية بشروط اقرها حتى اذا استتب له الامر غدر بهم جميعا فنفى من نفى وعزل من عزل وعمل على تقويض اركان الزعامة الشعبية والسعى الى افنائها .

واخيرا عمد الى اسكات صوت الشعب القوى المجلجل الذى نادى بولايته وخان أمانة البيعة ، وتحركت طبيعته الشريرة ، فقسم مصر الى شيع واحزاب وخنق الطبقة التى رفعته الى منصة الحكم وقضى على نفوذها السياسى ، بتفرقة الزعماء ونفيهم ، ولوح للنفعيين والوصوليين بالاراضى والهبات .

ويبرر المشايعون لمحمد على بانه اضطر الى ارتكاب جرائم الغدر بالزعماء بسبب تغلغل نفوذهم السياسى بين مختلف الطبقات ، هذا النفوذ الذى ظهر جليا واضحا عندما اجمعوا الكلمة على عزل الوالى

السابق ، فاراد ان يحصن مركزه بابعادهم عن محيط السياسة العليا.

وكانت خاتمة كل الرجال الذين عاونوه فى الوصـــول الى الحكم لا تختلف فى شيء عن مصير عمر مكرم . فالمعلم حجاج الخضرى الذى ابلى بلاء حسنا فى حصار القلعة وامده بمحتويات قافلة مكونة من خمسين جملا ، حقد عليه بعد ان استتب له الامر، فامر بالقبض عليه وشنقه على السبيل المجاور لحارة الميضة وقت السحور وتركجثته معلقة بضعة ايام دون ان يؤخذ الرجل بجريرة بل قتل مظلوما ولفقت له تهمة كيدية .

والمعلم جرجس الجوهرى كبير المحاسبين قبض عليه وطالبـــه بمجموع ضرائب خمس سنوات ، واستطاع عن طريق الارهـــاب والتعذيب الوحشي ان يسلبه اربعة الاف وخمسمائة كيس ، وحاول الفتك به لولا ان الرجل فر من سجنه الى جهة مجهولة .

والصق بالمعلم غالى كبير المباشرين تهمة بيعه اسرار ميزانية الدولة الى الباب العالى فوكل الى امير الصعيد مهمة الفتك به . ودعـــاه ابراهيم الى سياحة فى النيل ، وبعد ان سارت المركب بهما بضعة ايام طلب الى ضـــيفه الى يلاعبه النرد ، وفى اثناء اللعب اخـــرج ابراهيم غدارته واطلقها عليه فارداه قتيلا ، وزف البشرى الى محمد على ، واشار باسناد منصبه الى ابن عمه المعلم بشارة .

وكان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى من علماء الازهر ومن اساطين التاريخ ، وقد عاصر احداث الحملة الفرنسية ودونها وطوى من عمره قرابة عشرين عاما تحت حكم محمد على ، وشهد بنفسه نشـــاة « النظام الجديد » . ولما كان الرجل مصريا فى روحه وفى تفكيره فقد اشفق على حال وطنه ، وساءته المظالم ومصادرة الحريات وفداحة الضرائب والزج بالابرياء فى اعماق السجون ، فخص الجزء الرابع من سفره التاريخى الموسوم بعنوان: «عجائب الاثار فى التراجم والاخبار» بسرد طائفة من هذه المساوىء ، فوصف محمد على بالدهاء والحيلة، والمداهنة ، والايمان الكاذب ، وسمى رجاله « بالظالمين » وان الذين اعانوه على قيام النظام الجديد يشاركونه فى الظلم و « من اعان ظالما سلط عليه » .

وقال عن ابراهيم : انه شاب مغرور ، لم يؤدبه مؤدب ، وصـــور العذاب الذى انصب على شعب الصعيد ، والذل والهوان اللذين لقياه على يديه . واخيرا انكر على محمد على مسلكه الشاذ فى الحكم حكما

اوتوقراطيا . فناصبه العداء ووقف منه موقف المعارضة العنيفة ، واخذ يدعو للمماليك باعتبارهم مصريين وانهم اندمجوا فى الشعب وربطوا مصيرهم بمصيره وأفصح عن أحقيتهم فى الحكم ، واعتبار محمد على واعوانه دخلاء عليهم .

ومن الطبيعى ان هذا الكلام كان لا يروق الوالى ولا اصفياءه ففى ١٩ يوليو عام ١٨٢٢ روع الجبرتى واهل بيته بدخول طائفة من المواطنين يحملون ابنه « خليل » وهو بين الحياة والموت . واتصل بأبيه بان بعض الاشقياء هاجموه ليلا فى طريق شبرا بينما كان قافلا من قصر شبرا الى منزله واثخنوه جراحا ثم ربطوه فى رجل حمار . وقضى خليل نحبه ثم اتضحت الحقيقة فيما بعد وهى ان سليمان اغا السلحدار قتل الولد تشفيا من والده لانه اطلع على صفحات من سفره التاريخى وانكر عليه نقده الجارح للنظام الجديد والحكم القائم فاستأذن الوالى فى الفتك به ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد .

ولم تنقض سنوات حتى مثل اعوان الوالى بالجبرتى نفسه فى مزارع شبرا بالطريقة التى قضوا بها على فلذة كبده ، وظنوا انهم بذلك قد قضوا على كتاب « عجائب الاثار » ولكن من حسن حظ مصر ان نسخا من المخطوط اخفيت فى مكان امين عند شيوخ الازهر الى ان طبع الكتاب بعد سنوات ، فكان ظهوره بين ايدى القراء بمثابة نصر عظيم للتاريخ المصرى .

ورأى محمد على أن يطلب الى الشيخ محمد العروسى شيخ الجامع الازهر ان يكلف احد العلماء بتأليف كتاب يعارض به الجبرتى، فعهد بذلك الى الشيخ احمد الرجبى الشافعى من علماء الازهر، وكان فقيها أديبا ، فكتب تاريخا سرد فيه اعمال « ولى النعم محمد على » ذاكرا منشآته وتعميراته ، غير انه التزم فيه السجع الثقيل الممل فلم يكتب لتاريخه الذيوع والانتشار .

وكان احمد اغا لاز مديرا لقنا ، وعرف عنه بانه كان معتدا بنفسه، لم يطاطىء راسه فى يوم من الايام للوالى ، وصادف ان كان محمد على جالسا على شاطىء النيل فى ناحية « اثر النبى » تحت شجرة جميز يستروح نسمات العصر ، فابصر بمركب يمخر عباب الماء ويحمل اوزا وبطا وطيورا فى اقفاص ، فسأل لمن المركب ؟ فقيل له : لاحمد اغا لاز وانه قادم فى اثره . . . ففكر قليلا ثم نظر فى ساعته وتظاهر بان وقت عودته قد ازف ، وبعد ما استقر به المقام فى القلعة اوصى كتخداه

محمد اولاز اوغلى بأن يدعو احمد اغا لاز الى مائدته لتنـاول طعام الافطار ، وكان الوقت فى شهر رمضان ، فكأنهم ارادوا أن يقولوا له : لا تذهب جوعانا الى الاخرة .

ولبى الرجل الدعوة دون ان يدرى النية المبيتة ، وعقب الافطار ، دعاه الوالى الى مقابلته وتناول الحديث بينهما شئون الحكم ، ثم تطورت المناقشة الى تكدير وتوبيخ ، واذا بالوالى ينسحب من القاعة ، واذا بالاعوان يغشون القاعة ويجزوا عنق احمد اغا لاز !!

ومن قواد محمد على لطيف باشا ، كان فى الحجاز على راس فيلق من الجيش يحارب الوهابين وندب لحمل مفاتيح المدينة المنورة الى دار الخلافة وهناك انعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، فغار محمد على لانه لم يكن يحمل هذه الرتبة فى مصر سواه . ثم طلب لطيف الزواج من احدى بنات محمد على فرفض طلبه تكبرا منه ، وعندئذ تفوه لطيف بكلام يحط به من قدر محمد على واصله .

ودبرت مكيدة لايقاع لطيف فى الشرك ، على زعم انه يدس للوالى لدى دوائر المابين ، وانه يسعى الى خلع محمد على عن طريق اشاعة نبأ وفاته فى الحجاز وذلك توطئة لينصب نفسه واليا بدلا عنه ، وفى ١٢ ديسمبر عام ١٨١٣ قبض على لطيف وحوكم محاكمة صـورية امام الكتخدا وحكم عليـه فى الحال بالاعدام ونفذ الحكم بطريقـة وحشية .

ومما يدل على صلف محمد على ان بطريق الروم فى الاسكندرية عندما توفى وارادت الحكومة حصر التركة توطئة للاستيلاء عليها ، تقدم حامل عصا البطريق الراحل وسهل لرجال الحكومة هذه المهمة وامدهم ببيان تفصيلى عن دخل الكنيسة ، فأمر محمد على بتنصيبه بطريقا على طائفة الروم . بيد ان بطريرقية الفنار فى اسـتامبول اعترضت على هذا القرار الذى لا يتفق والتقاليد الكنيسية او مذهب الروم ، فماكان من الوالى الان اجاب: ان كلمتى لا ترد . وقد نصب البطريق الجديد بعد ان ورد حملين من القروش وهذا يكفى .

وتعود محمد على أن يحتفل لنفسه بشهر رمضان فى قصره بالقلعة . كان أحيانا يقيم فى قصره فى شبرا طوال العام حتى اذا اقبل رمضان انتقل فى موكب كبير الى القلعة وامر بأن تضاء المآذن بالمصابيح المتعددة الاشكال والالوان . واختار مشاهير المقرئين يرتلون القرآن فى المسجد اما فى داخل القصر فكانت له الجوارى الحسان ، يرقصـن حتى

السحور على قرع الدفوف وانغام العود ، ومعهن المغنون والقيان ينشدن شعرا فى مدحه لا مدح النبى الكريم وفضائل الشهر المعظم الذى انزل فيه القرآن .

وكانت الاغانى التركية والجركسية والالبانية تحتل مكانها فى البلاط . وكذلك الوان الرقص .. ففى غرة رمضان من السنة الثالثة لحكمه تناول طعام السحور مع بعض خلصائه وسماره ، ثم نهض ليغسل يديه ووقفت جارية شقراء تصب الماء على يديه من ابريق من الذهب الخالص ، وكان شعرها طويلا مسترسلا ، اصفر كخيوط الشمس ، وكان محمد على فى ليالى رمضان يعبث بيده فى شعرها وهو يستمتع بالانغام . وعندما انحنت الجارية وهى تصب الماء انسدل شعرها الناعم فمس يده . فانتصب غاضبا ، واستل حسامه وامر الجارية ان تحنى راسها وهوى على عنقها البديع بسيفه المشحوذ فسقط راس الجارية فى الطست ...

وجلس محمد على فى هدوء واشار الى جارية اخرى فحملت الابريق ، وصبت له ، واكمل غسيل يديه وهو يقول : قطعت رقبتها لتتادب وهى تصب الماء على يدى .. كيف تسمح لشعرها بان يقع على يدى الطاهرة !!

• • •

وانتشرت الجاسوسية فى ذلك العصر المظلم انتشارا مروعا ، وكان الكتخدا هو المشرف على دائرة الجاسوسية ، وكان اعوانه يتخفون فى ازياء باعة الكعك واللب واللوز ويترددون ليلا على اصحاب البيوتات الكبيرة ، وينصتون الى الاحاديث التى تدور اثناء السهرة ويضمنوها تقارير يلقون بها قبيل الفجر فى فتحة باب بمنزل قفطان باشا قبالة مسجد السيدة زينب ، وهذه الفتحة بداخلها مخلاة ، وكانت تقيم فى هذا المنزل سيدة ملمة باللغتين التركية والعربية، وتتولى تعليم محمد على القراءة والكتابة ، وكانت تجهل شخصيات الذين يضعون هذه التقارير ، كما كانوا هم لا يعلمون لمن يضعون هذه التقارير . وعند الصباح تفتح المخلاة وتلخص التقارير وتبوبها وتنسقها ، وقبيل الظهر بساعة يرسل الكتخدا بغلة تحمل السيدة واوراقها الى القلعة فتقرا عليه ملخص هذه التقارير .

ومن الطريف ان نذكر انه كان فى جملة الخبراء الاجانب الذين قدموا الى مصر ، رجل فرنسى ، عهد اليه بادارة مصنع للبارود والكيمياء فى طرة ، وتدريب عدد من الشبان على الالمام باسرار هذه الصناعة . وقد نشأ ايم وترعرع فى مهد الثورة . كان مؤمنا بمبادىء الجمهورية ايمانا لا حد له ، فهو يدعو الى تحطيم سلطات الملوك والطواغيت غير المقيدة ، ويبغض الظلم ويعاف الاستبداد ، وينادى بالشورى وبالحرية والاخاء والمساواة ، ويبسط لزواره نظريات مارا وروبسبير ودانتون وغيرهم من زعماء الثورة .

وكان زواره يصغون الى احاديثه مستخفين ساخرين ، دون ان يقيموا لها وزنا ، وكان البعض منهم يعتقد بانه انما يلجأ الى هذه الوسيلة للاعلان عن نفسه .

واتجه الرجل الى تلاميذه الذين يتلقون العلم عنه فى مصنع البارود ومعمل الكيمياء . فاخذ ينفث فيهم مبادئه ، ويشرح لهم نظرياته ، ويدفعهم الى الايمان بافكاره ، وتقديس مثله العليا ، ويفرض عليهم ان يتسموا باسماء ابطال الثورة ، فمثلا يغدو احمد : دانتون ، وابراهيم : مارا ، ومصطفى : روبسبير ، ومحمود : سيفولا ، وعبد الرحمن : كمبر . واخذ يدربهم على النظام فى العمل على نسق مبادىء الجمهورية ، وفى اوقات فراغه ينشد لهم اغنيات الثورة ، ويدفعهم الى ان يفتتحوا عملهم بنشيد المرسييز ، وكان اذا سأل احدهم من انت ؟ فجوابه ان ينشد مترنما :

انا رجل حر ، مصرى صميم ، جمهورى بالخيار
ولدت لكى احب اخى واخدم وطنى
واعيش من ثمار عملى ومن كدى
وابغض الطواغيت وحكم الملوك المستبدين .

واتصل نبأ هذه الدعوة بمحمد على فطلب الى الرجل ان يشرح له بالضبط ماذا تعنى الجمهورية ، فكان جوابه دون خوف او وجل : اذا صارت مصر جمهورية فانك تغدو الشعب ، ويغدو الشعب هو الحاكم الاعلى ! ؟

ولم يفهم الوالى حرفا واحدا من حجة هذا الرجل عدو « النظام الجديد » ولم يعد دعوته خطرا ، وانما ظن ان به مسا من الجنون .. ثم سأل عنه قنصل فرنسا فى القاهرة ، فرد عليه : لا عيب فيه سوى انه يعتنق آراء تقدمية .

واراد محمد على ان يتخلص منه بوسيلة ما ، فعينه « شيخا للواحات » ومنحه سلطة مطلقة فى اقرار الامن وتوطيد النظام فى هذه المنطقة النائية ، ووكل اليه استصلاح مساحة شاسعة من الارض ، ووضع تحت امره مئات الشبان الذين كان يؤتى بهم من سنار ، وان يجرب فى هذه المنطقة غرس القطن وقصب السكر والقرطم واشجار الزيتون .

واستقر ايم فى الواحات ، وانقطعت صلته بالعالم ، والتفت الى النهوض بالالتزامات الملقاة على عاتقه ، بيد انه لم ينزل عن ارائه ومبادئه ، ولم يتخل عن دعوته ، فكان ينتهز فرصة ساعة الغروب فيخرج مع خدمه وحشمه ويجمع الاعراب ومشايخ البدو ، وهناك تحت اشجار النخيل ، يظل يتحدث اليهم ساعة برمتها عن المبادىء الجمهورية وتعاليم « الكائن الاعلى » .

وبعد ان قضى قرابة عامين فى منطقة الواحات نقل الى الصحراء الشرقية للبحث عن مناجم الذهب والنظر فى كيفية استغلالها ، فاتخذ له مقرا فى نقطة « الفواخير » . ولم تشغله مهام العمل والانقطاع عن العالم فى هذه العزلة ووسط الصحراء والرمال المحرقة عن مواصلة الدعوة الى سحق الطواغيت والتنديد بنذالتهم والتنبؤ بظفر الجمهورية . . .

ترى ماذا لو كان ايم زعيما شعبيا وبين يديه وسائل الصحافة والنشر ، اذن لاستطاع ان يؤثر فى عقول المصريين فيهبوا كرجل واحد لابادة النظام الذى فرضه محمد على ويستقلوا بمصر عن الدولة العلية ، وتاسيس الجمهورية .

• ● •

اضطربت قوى محمد على فى اواخر ايامه بعد ان جاوز الحلقة الثامنة من العمر ، فكانت له تصرفات مريبة ، وكان يشتد سخطه وغضبه لاقل شىء ، وعرف عنه التهور والاندفاع الى حد ان اصاب حاشيته القلق .

كان ابغض شىء ان يرى ابراهيم الذى تبناه وخلع عليه اسمه، فاذا ما وقع نظره عليه اربد وجهه وبدت على تقاسيمه امارات الغضب ، وكان ابراهيم بدوره يبدى تذمره من فعال محمد على ويهينه فى مجالسه ، ويقول لمن حوله من بطانة السوء : لماذا لا يموت هذا المعتوه؟

وكان يجلس فى خلوته يجهز الجيوش بالقلم على الورق بحجة ان هذه الجيوش سوف يسيرها الى الصين لغزوها . فاذا قيل ان خزانة الدولة ليست عامرة ، صرف النظر مؤقتا عن هذه المسالة .

وفى ذات يوم ابدى رغبته فى السفر الى مكة لقضاء بقية ايامه هناك ، وامر بطانته بالقدوم الى قصره على ضفاف ترعة المحمودية ، ثم استقل المركب ولم يكن يصحبه من خاصته سوى افراد قلائل وبعد ان اصدر امرا الى القبطان بالابحار عدل عن رايه فجاة وزايل المركب .

ولما اشتد اضطراب قواه العقلية ، صار يمشى على ترعة المحمودية ومن خلفه حارسه الالبانى ويصيح بأعلى صوته « الملك لك وحدك يا صاحب الملك » وعندما عاد أخيرا الى القاهرة راى ابراهيم ان يعتقله فى قصر شبرا ، ووكل الى كلوت بك الاشراف على علاجه ، ثم ارسل الى الباب العالى تقريرا ضمنه ما وصلت اليه حالة الوالى ووجوب عزله ، فأجابه الباب العالى الى طلبه وصدر الفرمان بان يحل محله فى الولاية .

حمام الدم فى القلعة

دفاع عن المماليك ـ مهرجان فى القلعة ـ الغدر بالامراء المصريين ـ نهب مساكنهم ـ اختلاف الراى فى مذبحة القلعة ـ مقارنتها بمذابح عالمية اخرى ـ محمد على أمام محكمة التاريخ .

دأب الكثيرون من المؤرخين المغرضين بتأثير الدعاية التى نشرها أعداء مصر ، على ان يصوروا المماليك فى صورة بغيضة الى النفوس، فوصفوهم بانهم فئة طاغية باغية ، تتألف من طغمة من الاشرار والمرتزقة ، حلوا بوادى النيل فامتصوا دماءه وقضوا على رخائه وتكلوا بقادة الراى واصحاب الكلمة المسموعة فيه .

والواقع ان هؤلاء المماليك الذين شقوا طريقهم الى الصدارة ، كانوا على درجة فائقة من القدرة واتساع المدارك ونية الخير والاخلاص لكل بلد حلوا بظهرانيه سواء فى مصر او الشام او العراق . كانوا أشد الطوائف استمساكا بتعاليم الاسلام، واكثرهم تضحية فى سبيله، ودفاعا عن حوزته ، واقدرهم على فنون الحروب واثبتهم جنانا ؛ برز من بينهم : بيبرس وقطز وقلاوون والناصر وقايتباى وقانصوه الغورى وبرسباى ، وغيرهم من القادة الذين صدوا تيارات المغول المخربة ، وقاوموا الصليبيين ، وسعوا الى صيانة الخلافة الاسلامية قبل ان يقضى عليها هولاكو فى بغداد ، فنقلوها الى القاهرة الى ان تسلمها السلطان سليم ونقلها بدوره الى استامبول .

والمماليك هم الذين صانوا تراث العرب وثقافة الاسلام ، ففى ظلال سيوفهم امن الازهر سطوات الدهر ، ونزلوا على احكام الشرع واحترام العلماء ورجال الدين ، فكانوا يجتمعون بهم يشاورونهم فى الامر ، ولا يفرضون ضريبة ما دون الرجوع اليهم والحصول على موافقتهم ، وقد اختلطوا بطبقات الشعب كافة وصاهروها ، وكانت عادات مصر وتقاليدها وثقافتها هى عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ، وكانوا يحسنون التكلم والتعبير باللغة العربية ، وامتازوا بما خلفوه وراءهم من الاثار النفيسة والعمائر النادرة المثال ، والجوامع والزوايا والتكايا .

ولا ننسى ان المماليك هم الذين دافعوا عن مصر ببسالة أمام قوات

نابليون بونابرت ، على حين كان الحكام العثمانيين واتباعهم من الالبانيين والخوارج يتوارون خوفا وجبنا وهلعا ، ولكن غلطة المماليك التى أوردتهم مورد التهلكة هى انهم لم يفهموا الغزو الاجنبى على صورته الحقيقية ، ولم يفطنوا الى انه فتح سياسى يرمى الفرنسيون من ورائه الى اغراض استعمارية بحتة .

بيد انهم بعد ان انهزموا امام قوات بونابرت فى موقعة امبابة ، تحصنوا فى الشرقية وفى الصعيد ، وقاوموا الغزاة المغيرين وانقضوا عليهم فى عدة مواقع ، ثم نهضوا من كبوتهم بعد الجلاء ليستعيدوا مجدهم الآفل . ولم يجدوا امامهم سوى محمد على ، وهو فى نظرهم حاكم غريب دخيل، فناصبوه العداء ، وظلوا شوكة فى جنبه، ونشبت بينهم وبينه ، معارك طاحنة كان النصر مرة فى جانبه واخرى فى جانبهم واخيرا ايقن محمد على بأن المماليك عنصر قوى مهيب الجانب ، فكان لا مفر له من اتقاء شرهم بالمصانعة والمداهنة مع الكيد لهم . وبدات المؤامرات تحاك حولهم . تارة بتسليط الجند الالبانى عليهم ، واخرى بمهاجمة الانكشارية لهم ، وفى النهاية بسط محمد على يده لهم وحالفهم ليتقى شرورهم ، واقطعهم عدة قرى ومنحهم حق الاستيلاء على خيراتها على ان يقدموا للحكومة كمية من القمح والحبوب .

وكانت زعامة المماليك قد آلت عقب وفاة البرديسى ثم الالفى الى جاهين بك . فقربه محمد على اليه وطلب اليه ان يقطن القاهرة مع اتباعه ، ومنحه خراج عدة قرى فى الجيزة والفيوم ، ولكن المماليك برغم ذلك كانوا متبرمين من مسلك الحاكم الدخيل الذى استلب السلطة منهم ، فدبروا عدة مؤامرات لاختطافه او الفتك به . وصادف ان كان الوالى منهمكا فى اعداد الحملة العسكرية التى يسيرها الى جنوب جزيرة العرب لمحاربة الوهابيين طوعا لاوامر الباب العالى . وكان مشغول الخاطر لئلا يخلو الجو للمماليك، فيتغلبوا عليه، ويقوضوا اركان دوته .

• ● •

وفى يوم الجمعة اول مارس عام ١٨١١ اعلن الوالى عزمه على اقامة مهرجان فى القلعة للاحتفال بتوديع الحملة العسكرية ، واهداء ابنه طوسون فروة الامارة عليها ، ووزعت رقاع الدعوة لحضور المهرجان

على كبار الموظفين ، وامراء المماليك ، على ان يكون الحضور بملابس التشريفة .

ولم تكد شمس يوم الجمعة المضروب تعلو الافق حتى احتشدت الجماهير على جوانب الطرق المفضية الى القلعة للتفرج على الموكب. وبالاخص موكب الامراء المماليك وهم يعتلون صهوات جيادهم ويرفلون فى ملابسهم الزاهية المزركشة ، واسلحتهم المفضضة والمذهبة ، وكان عدد من لبى الدعوة من المماليك اربعمائة وسبعين اميرا .

وكان محمد على قد قضى ليلته فى سراى القلعة ، ونهض مبكرا ليستقبل وفود المدعوين ، وتلقى الامراء المماليك فى قاعة الاستقبال بكل بشاشة وحفاوة ، فشكرهم على تلبيتهم دعوته ، وبالغ فى اكرام وفادتهم ، وامر لهم بالقهوة وشراب الورد ، وما فتىء يتبسط معهم فى احاديث تسيل رقة ومجاملة حتى اتاه من اخبره بأن المدعويين قد استقروا فى الاماكن المخصصة لهم ، وان الفرق العسكرية قد اصطفت فى مواضعها ، فنهض من مجلسه وتبعه الامراء المماليك ثم خرجوا ليمتطوا صهوات جيادهم ووقفوا بها على راس فيلقهم الباسل .

وتمت مراسيم الاحتفال وقلد طوسون امارة اللواء ، ثم اذن بتحرك الموكب ، فتقدمت فرقة من الدلاة ، ففرقة من الانكشارية ، ففرقة الوجاقلية . فالامراء المماليك بقيادة سليمان البواب بك . وسارت خلفهم الفرقة الالبانية بقيادة صالح اغا اق قوش . تتلوها فرق المشاة بقيادة الكتخدا محمد أولاز اوغلى .

وتأهب الموكب للخروج من باب العزب ، بهذا الترتيب ، حتى اذا خرج اخر جندى انكشارى من الباب ، كان الاربعمائة والسبعون مملوكا يشغلون بجيادهم المنحدر كله من اسفله الى اعلاه .. حينئذ وقع حادثان : الاول ان باب العزب ــ وهو باب القلعة من ناحية الغرب ويفتح الان على ميدان الرميلة ــ انغلق مصراعاه . والثانى ان صالح اق قوش اصدر امرا الى جنده فانسلوا وراء المماليك وتسلقوا الصخور المحيطة بالمنحدر ، وكمنوا وراءها من الناحيتين، ومن اسفل الى فوق ، ثم تقدم الفيلق الذى يقوده الكتخدا وانتشر على الاسوار.

ودوت طلقة مدفع ، وكانت هذه الشارة ايذانا ببداية المجزرة ، فما شعر المماليك الا والرصاص يتناولهم من كل جانب دون ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم ، وادركوا فى الحال حقيقة المكيدة المدبرة فلووا أعنة جيادهم محاولين الفرار ، ولكن حركتهم هذه زادت الموقف ذعرا ، وبثت

الاضطراب فى صفوفهم ، واخيرا راوا الا فائدة ترجى من جيادهم فترجلوا ، ونزعوا عنهم الفراء والثياب الغالية المشـغولة بالذهب والقصب ، وقد كان من شانها ان تعيق حركات ايديهم وارجلهم فى ذلك الموقف الرهيب .

واقبل الامراء المماليك يمتشقون سيوفهم فى يد وطبنجاتهم فى الاخرى يبغون لقاء عدو يثارون بقتله للكارثة التى حلت بهم ، ولكنهم لم يجدوا احدا ، واستمر اطلاق النار دون انقطاع ، كان الرصاص ينزل عليهم كالمطر فيحصدهم حصدا . فسقط زعيمهم جاهين بك امام عتبة صلاح الدين وصار جسمه مثقوبا بالرصاص كالغربال ، وتمكن سليمان البواب بك من ان يبلغ باب السراى والدم يسيل من اطرافه فانطرح على العتبة وهو يصـيح متاوها : « انا فى عرض الحريم » . وكانت استغاثة مقدسة فى ذلك العصر ، ولكن السيف جز عنقه ، وسحبت جثته بالحبال الى مكان سحيق ، واسـتطاع سبعة او ثمانية من المماليك الوصول الى المكان الذى يقف فيه القائد العام طوسون ، فتراموا على قدميه وسالوه النجدة والامان ، ولكن طوسون كان اشد قسوة من ابيه ، فلم يلن قلبه لتوسـلاتهم ، بل سرعان ما تخلى عنهم لحراسه غلاظ الاكبـاد ، يقتلونهم بين يديه ويمثلون بجثثهم اشنع تمثيل .

وما انفك الرصاص يدوى ويتساقط ، والمماليك يقعون صرعى كالذباب حتى فنوا عن اخرهم ولم ينج منهم سوى امين بك الـذى قفز بجواده من فوق سور القلعة على ارتفاع ستين قدمـا فى مكان يعرف الان باسم « نطة المملوك » . ووصفت صـحيفة « المونيتور اجبسيان » بالاسكندرية ، وكانت الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مصر فى ذلك الحين ، هذه المأساة الدامية بقولها :

« ولم ينج من المماليك سوى مملوك واحد هو امين بك شـقيق الفى بك ، لانه تخلف برهة فى عمل خاص فلم يدرك الا الصف الاخير من الموكب . فلما ترامى الى سمعه صرير الباب وهو يوصد ، وصافح اذنيه دوى الرصاص ، عاد بجواده الى داخل القلعة وانشا يبحث عن منفذ ينجو منه بنفسـه ، فلم يجد امامه الا سورا فى ارتفاع عشرين مترا فانطلق بجواده الى قمة مرتفعة ، فوقف عليها ووخز الجواد للوثوب به فى الهاوية الفاغرة فاها تحت قدميه ، فما هى الا لمعة البرق حتى كان الاثنان فى قاعها: الجواد صريعا لا حراك به، وفارسه مطروحا

على الارض لم يصبه الا اغماء خفيف لم يبث ان افاق منه ، ولم يتمالك الفارس الباسل ان اطلق ساقيه للريح ، وما زال مجدا فى السير حتى وصل الى مديرية الشرقية حيث آوى الى بيت احد كرام عربانها ولبث فى ضيافته اياما ثم غادر مصر الى سورية » .

• ● •

اما محمد على فانه بعد ان رتب كيفية خروج الموكب عاد الى قاعة الديوان مع حاشيته ، وكان القلق مستوليا عليه فى غدواته وروحاته الصامتة فى طول القاعة وعرضها . وعند ما سمع طلقة المدفع الاولى المنذرة ببداية المذبحة ، وقف بغتة وجرى دمه نحو قلبه بسرعة ، ثم تقلص وجهه واربد ، وعندما اطل من النافذة وشاهد الفرسان تردى تباعا والرءوس تطير حتى انتظمت دورة الدم فى عروقه وفارق وجهه الشحوب ، الا انه مع ذلك لم ينبس ببنت شفة ، واخيرا تقدم منه مندرتشى ، طبيبه الخاص الايطالى وقال مهنئا :

ــ هذا امر قد فرغ منه ، واليوم يوم عيد سعيد لسموكم .

فلم يجبه بكلمة واحدة بل رماه بنظرة قاسية وطلب ماء وشرب جرعا طويلة .

• ● •

وعند ما انتهت هذه المذبحة الفظيعة وراى الالبانيون انه لم يعد هناك مملوك الا وهو مردى ، برزوا من مكامنهم ونظروا لاول مرة فى حياتهم دون رهبة او وجل الى اولئك الفرسان المجزورين ، فاجهزوا على الجرحى منهم ومثلوا بالقتلى ، وجروا اجداثهم بالحبال ، والقوا بها فى حفرة فى باطن الارض بعضها فوق بعض دون تمييز بين الامير والوضيع .

وكان شعب القاهرة فى غضون هذه الفترة العصيبة لا يعلم شيئا البتة عما يجرى بداخل القلعة ، بل ظل الناس فى الطريق يرقبون سير الموكب ليمتعوا انظارهم بمظاهره البهجة . وكانوا لا يكفون عن اطلاق صيحات الفرح ، وان هى الا سويعات حتى ظهرت صفوف فرق : الدلاة والاغوات والوجاقلية والالداشية ثم لا احد ... هناك خامر الشك افئدة افراد الشعب لانهم لم يقفوا على سر انقطاع الموكب هذا الانقطاع الفجائى ، وذهبوا فى تاويل الحادث كل مذهب . الى ان انتشر بينهم غلمان المماليك سياس خيولهم وهم يهيمون على

وجوههم فى الشوارع ويصيحون : لقـــد قتل جاهين بك .. قتل سليمان البواب بك .. قتل ...

وما ان استقر هذا الصياح فى الاسماع حتى دب فى اوصال الجماهير، فاغلقت المنازل والحوانيت وابواب الحوارى واقفرت الاســواق والشوارع من المارة .

وفى اعقاب هذه المأساة هبط الارناؤود احياء القاهرة ، واغاروا على بيوت المماليك ورموا اعناق من بقى فيها من الرجال ، وجردوا النساء من حليهن وثيابهن الثمينة وهتكوا اعراضـــهن . وكانت فى يدى احداهن اساور ذهبية فقطع احد الجند المغيرين اليدين بحدحسامه حتى لا يجد عناء فى انتزاع الحلى منها . وكان بعض اولاد البلد قد تزيوا بزى المماليك بهذه المناسبة ووقفوا فى الشوارع يرصدون سير الموكب ، فاقبل الارناؤود يقبضون عليهم ويعملون السيوف فى رقابهم وهم يصرخون ويستغيثون : انا لست مملوكا ولا جنديا .. انا لست من شيعتهم .. فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث ، وتتبعوا الفارين فى نواحى المنازل بحجة التفتيش ويهتفون قائلين : هل عندكم مملوك ؟ او : سمعنا بان عندكم وديعة مملوك .. وانتهزوا هذه الفرصة فنهبوا دور الاعيان والوجوه الذين ليسوا بالطبع من الامراء المقصودين . وجردوها من الاموال والامتعة والملابس والرياش .

وظلت القاهرة عدة ايام كمدينة غزاها العدو عنوة واقتدارا ، اذ استباح ارواح سكانها وسبى نساءها واعتدى على عفاف بناتها ، الى ان بلغ عدد المنازل التى تمكـن الالبانيون من نهبها وسلبها زهـــاء خمسمائة بيت .

وخشى محمد على ثورة الشعب وانتفاضته ، فهبط من القلعـة ممتطيا صهوة جواده ، وحوله الحرس ، والجند مترجلين يلتفون حوله ، ورجال الحاشية على الجانبين ، وكانت الفرحة تغمر وجوه الارناؤود ، اذ افلحوا فى ابادة المماليك والسطو على ممتلكاتهم والاعتداء على زوجاتهم وبناتهم .

وسار محمد على الى دار الشيخ الشرقاوى وجلس عنده ساعة ، وكان قد لجأ الى كنف الشيخ كشافان من المماليك ، فتشفع الشيخ فى العفو عنهما وخاطب الوالى بقوله : لا تفضح شيبتى يا ولدى واقبل شفاعتى بالعفو عنهما .

فاجابه : شفاعتك مقبولة .

فاطمأن الشيخ الى هذا الوعد .. على ان الوالى لم يكد ينصرف ويؤوب الى القلعة حتى بعث فى طلب المملوكين ، فاعترض الشرقاوى على ذلك وقال : كيف يأخذهما وهما فى كنفى وتحت حمايتى وقد وعدنى بالامان .

فقال الرسول : انه يطلبهما لعرض بعض المناصب عليهما .

فخدع الشيخ ، وامرهما بالمثول لامر الباشا ، وما ان وصلا الى القلعة حتى جز عنقيهما واضيفا الى قوائم القتلى .

وبينما كانت هذه المجازر تجرى فى العاصمة اذ سارت النجب بكتب من الوالى الى عماله فى الاقاليم يأمرهم بقتل كل مملوك يقع بين ايديهم . فنفذ الحكام هذه الاوامر وتباروا فيمن يرسل الى القلعة اكبر عدد ممكن من الرءوس . واغتنموا هذه الفرصة للتخلص من خصومهم ولو كانوا من المواطنين ، ورموا اعناق الفلاحين الذين قصروا فى اداء ما يثقل كواهلهم من التزامات ، حتى بلغ عدد القتلى بضع مئات من المماليك والمواطنين .

• ● •

هكذا كانت خاتمة هذه الطائفة التى حكمت وادى النيل حقبة طويلة تزيد على قرون خمسة سجل التاريخ فى غضونها ان افرادها فدوا الكنانة بأرواحهم وشادوا ببسالتهم مجدا لا يمحى، واقاموا فيها ايام ازدهار دولتهم منارات للعلم والادب .

وهكذا كانت خاتمة البقية الباقية من جند بواسل خشى الحاكم الجديد بطشها فلجأ فى القضاء عليها الى اوضع ضروب الغدر والخسة. ودبر مذبحته الرهيبة التى ترتجف لذكرها الاوصال فرقا وتبارى السفاكون فى ازهاق ارواح فرائسهم والولوغ فى الدماء والتمثيل الوحشى ببقايا اجداثهم .

اما اسرار المؤامرة وخططها فلم يطلع عليها الوالى سوى اربعة من اصفيائه وهم : الكتخدا محمد اولاز اوغلى وكان بسليقته يبغض المماليك اشد البغض ، والسلحدار سليمان اغا ، وحسن باشا قائد الفرقة الالبانية ثم صالح اغا اق قوش من زعماء الارناؤود .

• ● •

بعد ان عرضنا مأساة مذبحة القلعة حسبما استقيصناه من الروايات والمصادر التى لا يرقى الشك اليها ، نريد ان نعرض ايضا

آراء المشايعين والمعارضين لنخلص الى راى قاطع فى الموضوع .

يبرر انصار محمد على هذه المذبحة بأن امثالها كان مألوفا فى الشرق ، وان الباب العالى هو الذى امر تابعه بالقضاء على المماليك وابادتهم على اية صورة ، وان البادیشاه حاول التخلص منهم تدريجيا ، فنشبت الحرب السرية بينه وبينهم ، وكان لا ينقطع اوارها ، وكان يعمد الى اغرائهم بقتال بعضهم البعض ، واثارة المنافسة بينهم ، وتدبير مؤامرات للفتك بهم ، بيد انهم كانوا على حذر وكان النصر بطبيعة الحال الى جانبهم .

وتذهب روايات اخرى الى ان المماليك كانوا يبيتون فى الخفاء مكائد الفرص منها اغتيال محمد على ، فاطلقوا عليه الرصاص مرة وهو يجتاز الاسواق ، وحاولوا اختطافه قبل وقوع المجزرة بايام حين اوبته من مدينة السويس ، فقرر هو ان يتغدى بهم قبل ان يتعشوا به .

وترى فيلكس مانجن صديق محمد على ومؤرخ سيرته وعصره ، ان الفتك بالمماليك فيه كل الخير لمصر ، فان بقاءهم يفضى الى حروب هى اضر على البلاد من الايقاع بهم ، وان الباشا انما دافع عن سلامته وعن وقاية النظام الجديد للدولة .

اما محمد على نفسه فقد دافع عن موقفه امام رهط من الاجانب حينما عدوا فعلته عملا منافيا للانسانية ، فاخذ هو يسألهم : اى الحادثين ادعى الى المؤاخذة ، القضاء على المماليك ام حادث اغتيال دوق دانجين (١) ؟

وهذه المقارنة نوع من التفكير السياسى المتأخر اذ لاوجه للمقارنة بين القضاء على جماعة غيلة وغدرا وبين الحكم على شخص واحد بقصد التشفى والانتقام .

---

١ — دوق دانجين من سلالة آل بوربون ، كان يقيم فى خارج فرنسا فى ابتنهايم بمقاطعة بادن بالالزاس . وكانت تطوف بذهن نابليون بونابرت فكرة الانتقام من الاشراف والامراء السابقين ، فبدأ بكبيرهم دوق دانجين واستدرجه الى باريس ، ثم لفق له تهمة التآمر ضد سلامة الدولة وعرشه . وحوكم الدوق امام « لجنة عسكرية » دون أن يسمح له بالاستعانة بمحامين ثم حكم عليه بالاعدام فى قلعة فنسان فى مارس عام ١٨٠٤ . واهتزت أوربا للحادث واجتاحتها موجة من السخط على بونابرت الذى حاول أن يخفف عبء المسئولية عن عاتقه فزعم بأن اللجنة العسكرية تعجلت الحكم وانه اصدر امرا باجراء تحقيق دقيق .

ويسوغ المؤرخ ادوارد جوان رايه بأن امثال هذه الحوادث شائعة فى بلاد الشرق وان مصدرها شهوات النفس ومطامحها ، وان محمد على كان على وشك الدخول فى حرب ضروس فى بلاد نائية ، فاذا غاب الجيش استيقظ ذوو المقاصد والاطماع الشريرة من سباتهم وبثوا الفتن لتحقيق أمانيهم ، وان الوالى الجديد وقى الكنانة من عبث الحوادث المقبلة واحاط نفسه واسرته بسياج من الطمأنينة والامن .

وقال مسيو دلابورت : ان الفتك بالمماليك خير ذريعة لقطع دابر الفتن والاضطرابات والجرائم .

وكذلك قال مسيو جومار الذى صار فيما بعد مديرا للبعوث العلمية المصرية فى فرنسا : لو امكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لاحكام التاريخ القاسية .

ومما هو جدير بالملاحظة ان جميع الذين دافعوا عن مسلك محمد على فى ابادته المماليك هم من المؤرخين الفرنسيين ، وليس هذا بغريب ، فقد ظل المماليك أعداء فرنسا الالداء وظل محمد على صديقها الوفى .

وسنضرب صفحا عن آراء المؤرخين الانجليز ، بسبب المعاهدات السرية والصلات الوثيقة بين الطرفين ، واستمالة الانجليز الامراء المماليك بالهدايا والاموال ليعضدوا موقفهم السياسى من معارضة فرنسا او الباب العالى او مناهضة الوالى الجديد .

ونذكر ان الجبرتى وقد طوى من عمره قرابة عشرين عاما تحت حكم « النظام الجديد » كان مشفقا على حالة المماليك . فانكر على محمد على مسلكه الشاذ فى اغتيال « الامراء المصرلية » واخذ يفصح عن احقيتهم فى الحكم واعتبر محمد على ورجاله دخلاء على البلاد .

وقال المؤرخ الثقة عبدالرحمن الرافعى: ان الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة ، كان له أعمق الاثر فى حالة الشعب النفسية ، لان مذبحة القلعة ادخلت الرعب فى قلوب الناس ، وكان من نتائجها ان استولت الرهبة على النفوس ، وان ذلك اول النذر بانحلال الحياة القومية وفسادها . . والواقع ان مذبحة القلعة قضت على الروح القومية واحلت مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على اكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين عاما التى قضاها فى الحكم بعد ذلك روح معارضة أو انتقاد . . .

ونحن نرى امثلة متعددة من مذبحة القلعة :

«١» فان بطرس الاكبر افنى جماعة الاستريلتز فى مذبحة انكى وافظع اذ فتك بنحو الالفين منهم .

«٢» وهناك مذبحة سانت برتلمى التى ازهق فيها الهوجنوت ارواح الالوف من الفرنسيين الذين دعوا الى الاحتفال بأميرهم هنرى دى نافار .

وفى عهد السلطان محمود ذبح بضعة الوف من الجنود الانكشارية دون ما شفقة ولا رحمة .

وفى اثناء الثورة الفرنسية قامت مذابح فظيعة فى كل من فرساى وريمس وليون واورليان ، وازهقت الوف الارواح ممن اتهموا بانهم مشايعون للملكية ، وتعرف هذه المذابح فى التاريخ باسم « مذابح سبتمبر » لانها جرت فى غضون هذا الشهر . .

وفى العصر الحديث اقام هتلر المذابح على نطاق واسع للانتقام من اليهود او من خصومه البولونيين الى حد ان قدرت محكمة نورمبرج التى تالفت لمحاكمة مجرمى الحرب عددهم بقرابة مليون شخص .

وفى جميع الامثلة التى سردناها كان الحاكم الشرعى للبلاد يقيم

---

١ ـ استعان بطرس الاكبر قيصر روسيا بالقائد لوفورت على تنظيم فرق عسكرية على النظام الحديث تكون عونا له على فرق الاستريلتز التى كانت عثرة فى طريق الاصلاح ، كما كان شأن الانكشارية فى عهد السلطان سليمان القانونى ، فنظم فرقة معظم جنودها من الفرنسيين النازحين عن وطنهم وعددها اثنى عشر الف نسمة . الا أن الاستريلتز انتهزوا فرصة غياب القيصر فى رحلة له فى عواصم اوربا فقاموا بفتنة وبثوا القلاقل والذعر ، وعندما آب بطرس الى عاصمة ملكه فى أواخر عام ١٦٩٨ دبر مذبحة قضى بها على الاستريلتز

٢ ـ كانت انجلترا كاثوليكية المذهب الى أن جاء الكاردينال ولسى واضاف الى السلطة الروحية التى يتمتع بها السلطة الزمنية ، فكان يتدخل فى شئون الجيش وموظفى الدولة ، مما اثار سخط الملك هنرى الثامن ، فطلب الى البابا اعلان الحرمان الكنسى للكردينال ، فلما رفض البابا هذا المطلب أعلن هنرى الثامن بأنه هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية .

وكانت هذه الظاهرة شائعة أيضا فى فرنسا ، فبعد ظهور كلفان ولوثر فى المانيا حاولت طائفة من المصلحين ، ومنهم سكان مقاطعة فانديه القيام بحركة مماثلة لقلب نظام الكنيسة وجعله بروتستانيا . وقامت السلطة الفرنسية الكاثوليكية ورجال الجيش بقيادة الجنرال كونيلييه بمذبحة مشهورة فى ليلة ١٣ مايو عام ١٥٧٢ ، أى فى ليلة القديس برتلمى ، فذبحوا البروتستانت خصوصا فى هذه المقاطعة ، وفر عدد كبير منهم الى الخارج وهم المسمون « بالهوجنوت » ، واستقروا فى هولندا وفى جنوب أفريقية ، كان هنرى دى نافار من ملوك الكاثوليك ، وهو المعروف فى التاريخ باسم هنرى الرابع .

المذابح لاغراب عن البلد الذى يحكمه ، أو للخوارج الذين يعملون على تقويض صرح نظام ارتضاه الشعب واقره . ولكن المماليك لم يكونوا اغرابا عن مصر ، فطالما ابدوا شعورا قوميا يصلهم بثراها ، وهذا الشعور يتخذ احيانا صورة بطولة عسكرية للدفاع عن ذمار الوطن ، وفى احيان اخرى ينصب فى صورة تشييد مساجد وزوايا وتكايا وملاجىء لايواء اليتامى وابناء السبيل .

وفضلا عن هذا وذاك فقد انطوت نفوس المماليك على الكثير من الحب لمصر والاخلاص لارضها الطيبة ، وليس ادل على ذلك من الحديث الذى يرويه الجبرتى على لسان الزعيم محمد الالفى ، حين شعر بدنو اجله ، فقد ارتقى ربوة على مقربة من قناطر شبرمنت ، ثم تطلع الى ناحية القاهرة وقال والحسرة تملأ جوانحه :

« يا مصر ، انظرى الى اولادك ، وهم حولك مشتتين ، متباعدين ، مشردين ، واستوطنك اجلاف الاتراك واليهود وأراذل الارناؤود . وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون ابطالك ، ويقاومون فرسانك، ويهدمون دورك، ويسكنون قصورك، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » .

وهى كما نرى حنين خالص لمصر واعتراف بافضالها ، ورثاء لما صار اليه حالها ، وتكاد هذه النغمة القومية ، التى لم نسمع بمثلها فى اية دولة اسلامية اخرى ، ان تكون نغمة جديدة على الاسماع ، وهى الطابع المميز الذى يجعلنا ننظر الى المماليك نظرة خاصة .

وقد نشأ هذا الشعور فى قلوب المماليك من طول الفترة التى اقاموها فى ارض النيل ومن كثرة ما اصابوه من خيراتها ، ومن فرط ما ظلت عند حسن ظنهم فهى التى امدتهم فى كل وقت بالمال وخلعت عليهم السؤدد والجاه ، واعزتهم ونصرتهم على اعدائهم . وقد دفعهم هذا الشعور الى النهوض بمرافق مصر ورفع المظالم عن شعبها ، والتعاون مع العلماء ومشايخ الازهر وهم حماة الدين وقادة الشعب على ما فيه الخير العام .

من ذلك لا يسعنا فى النهاية الا ان نكون عند حد آراء المؤرخين المنصفين وهو ان القضاء على المماليك عن طريق حاكم دخيل ، كان فيه القضاء على القومية المصرية وتمهيد السبيل لاقامة دولة اوتوقراطية قوامها الظلم واستبداد الحكام ومصادرة الارزاق وكبت الحريات .

جلاد الشعب

التحقق من بنوة ابراهيم ـ مجونه وعبثه ـ الفتك بعلماء الدرعية داخل المسجد ـ تشجيع تجارة الرقيق ـ الخراب والدمار فى المورة ـ الشك فى كفاءة ابراهيم العسكرية ـ البواعث الحقيقية لغزو الشام ـ محاولة خلع السلطان ـ مصر ضيعة تتوارثها أسرة محمد على .

كان ابراهيم رجل المتناقضات والمفارقات ...

كان مشهورا ، احمق ، صلب الراى فى غلظة وخشونة ، متكبرا متغطرسا ، معتدا بنفسه ، قلما يستمع الى نصيحة الا اذا وجد نفسه فى مازق ، يبذل الوعود يمنة ويسرة ثم يتناساها ، ويعمد الى السخرية والاستخفاف بمن يلقاهم ، أو هو يخاتلهم ويخادعهم .

وكان اسم ابراهيم يثير الفزع والخوف ، فاذا غضب انطبع وجهه بطابع من الوحشية مخيف ، واذا انفعل خال من حوله ان رءوسهم سوف تضرب فى الحال .

وقد تضاربت الاراء حول بنوة ابراهيم ، فمن المؤرخين من يزعم بانه انحدر توا من صلب محمد على . ومنهم من يؤكدحسب الروايات التى استقاها من شيوخ قوله ، ومن المصادر التى لا يرقى الشك اليها بان ابراهيم هو ابن على اغا الزوج السابق لامنة ، وان محمد على تبناه وعمره عامين عقب زواجه من هذه الارملة . ويؤكد فريق ثالث بان الفارق فى العمر بين محمد على وابراهيم اثنى عشر عاما فقط . وليس فى قوله بطبيعة الحال من سجلات المواليد ما يرشدنا الى بغيتنا ، فقد كان الامر يجرى على حالة بدائية .

وصلت اسرة محمد على الى القاهرة فى اواخر عام ١٨٠٥ عقب اسناد الولاية اليه ، وكانت مكونة من زوجة آمنة وابراهيم واحمد طوسون واسماعيل كامل ، فخص محمد على طوسون بمنصب رفيع هو حاكم القلعة ، على حين ابعد ابراهيم الى بقعة سحيقة وجعله دفتردارا على الصعيد .

وكان محمد على يخص طوسون بعطفه ورعايته ويميل اليه ، فظفر له برتبة الباشوية ذات الذنبين ، وعقد له لواء الحملة العسكرية على الوهابيين وعمره ١٦ سنة ، واسند الى ابنه الاصغر اسماعيل كامل مهمة قيادة الحملة التى سيرها الى السودان ، اما ابراهيم فظل على

حاله ، مقصيا فى اطراف الصعيد .

ولم يلمع اسم ابراهيم الا بعد عشر سنوات ، اى فى غضون عام ١٨١٦ بعد ان لقى طوسون حتفه فى قرية برنبال بالدقهليـــة ، اما اسماعيل فكان مصرعه فى بلدة شندى فى السودان عندما دبر له الملك النمر مكيدة انتهت باحراقه . هناك اراد محمد على ان يجبر خاطر الام الوالهة التى فقدت فلذتى كبدها فتبنى ابراهيم على اعتبار انه اقرب الناس اليه بعد ولديه طوسون واسماعيل .

اسند الى ابراهيم امر الاشراف على جمع الضرائب فى الوجـــه القبلى ، فارتكب من ضروب القسوة المتناهية ما جعل افراد الشعب ترتعد فرائصهم فزعا اذا ما ذكر اسمه . . حدث ان هبط المنيا ليجمع ما يجده عند الفلاحين من محصول القمح والفول والعدس ، وكان المحصول لا يزال فى باطن الارض ، فضرب موعدا اقصاه ثلاثة ايام لجنى المحصول وتذريته وشحنه فى المراكب بالنيل . ونصب المشانق فى الاجران لاعدام كل من يتوانى عن تنفيذ اوامره . واتى باحـــد وجوه الاقليم فطرحه القواصة الاتراك ارضا وسط الجرن وضربره ضربا مبرحا ليكون عبرة لغيره ، ثم حملوه الى داره بين الحياة والموت . وكانت النتيجة ان هجر الفلاحون الحقول فى غسق الليـــل ، وفروا بنسائهم واطفالهم الذين كثر عويلهم وصراخهم وهاموا على وجوههم فى العراء .

والى جانب هذه القسوة البالغة ، البعيدة عن الانسانية ، اشتهر عن هذا الجلاد خلاعته ومجونه ، فاذا امسى المساء اقبـــل على مجالس الشراب والغناء حتى يطرد عن مخيلته اشباح القتلى والمعذبين الذين يطيح برءوسهم ظلما وعدوانا ، وكان لا يانف من ان يشارك سماره احتساء النبيذ والتهام لحم الخنزير . . حدث فى ذات ليلة ساهرة احياها فى قصره ، وكانت موائد الخمر مبسوطة ، والقيان يرقصن رقصات خليعة على نغمات الناى ، ان دارت الخمر براسه ففك شال عمامته ، واقتدى به المدعوون ، وظلوا على هذا الحال الى الصباح ، فلما مضوا الى ديوان القلعة بدون شال العمامة ، صارت « موضة » واستغنى من ذلك الوقت عن ربط الطربوش العثمانى بالشال .

وكان فى جملة افراد حاشيته شخص يطلق عليه اسم « جورنال افندى » لانه ياتيه بانباء البيوتات ، ثم درويش خليع اسمه عثمان كفرى ، وكان لهما دالة عليه ، فهما يرفهان عنه بنكاتهما واغانيهما ،

ففى ذات ليلة ثمل ابراهيم الى حد انه نسى فيه وقاره ، وشرع فى الغناء بصوت منكر ، فما كان منهما الا ان خاطباه بقولهما : ان اباك يقضى وقته فى الحظ ويتركنا هنا فى الهم ، فبقينا تحت يدك متحملين فى النهار الغبار والمطر والوحل ، ثم نفد فى الليل على مجلسك لنقنع ببضع لقيمات وبضعة كؤوس فى مقابل غنائنا ، فما معنى صراخك وما معنى غناؤك ؟ ارحمنا ولا تستكثر علينا ما نزدرده وما نشربه ولا تجبرنا على افراغ ما فى جوفنا ، واذا كنت لا تتوب عن فتح فمك بالغناء فلن نرفع اصواتنا بعد الليلة !

وعلى الرغم مما اشتهر عن ابراهيم من قسوة بالغة فقد ابدى الندم على ما بدر منه وارضاهما بقوله : تبت والف مرة !!

وقال له محمد على مرة :

ـ سمعت بأن لديك درويشا لطيف المعشر اسمه كفرى فارسله الى لير فه عنى .

فكان جوابه : ان هذا الدرويش خليع وليس له مكان فى مجلسك !

• ● •

كان الثمن الذى طلبه الباب العالى الى محمد على لقاء تثبيته على الولاية ، نجدته بحملة عسكرية تخضع الوهابيين الذين عظمت شوكتهم فسيطروا على ارض الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين ونادوا بحركة تمرد على الدولة العلية والخروج على طاعتها .

واخذ محمد على فى تجهيز الجند واعداد المعدات وعهد بالقيادة الى طوسون ، وكان حدثا دون العشرين من عمره ، وليست له اية ثقافة عسكرية ، ولذلك لم يكن من السهل عليه ان يقود الجيش فى معركة الى النصر .. وكانت النتيجة انه فشل فشلا ذريعا فى مهمته واصيب الجند بالهزيمة تلو الاخرى . ثم قدم طوسون للترويح عن نفسه على أثر حركة تمرد بين الجند الارناؤود وسافر الى بلدة برنبال فى الدقهلية ، وعقب ليلة تعاطى فيها كمية من المخدرات قضاها فى احضان جارية جركسية اراقت حيويته اصيب بهبوط فى القلب ، وقيل تمويها انه طاعون او كوليرا او حمى شوكية ، وفاضت روحه بعد ساعات . وولى ابراهيم بعده قيادة الحملة، ولم تكن له هوالاخر اية دراية بالمعارك ولا بالحروب ولكن كانت الى جانبه هيئة اركان حرب من الاوربيين تدير دفة الحرب، واستطاع الجيش بعد ان اعيد

تنظيمه وفق الإساليب الحديثة ان يقهر الوهابيين فى عدة مواقع وان يكتسحهم من الاراضى التى احتلوها وانعم الباب العالى بهذه المناسبة على ابراهيم بلقب « خادم الحرمين الشريفين » ، وكان الاصح ان يسمى « بخادم الفرنسيين » فقد كان امينا مخلصا لمصالحهم وكان لا يخرج عن كونه دمية تحركها اصابع الاستعمار من وراء ستار .

وارتكب ابراهيم فى الاراضى المقدسة ضروبا من الوحشية لا يمكن لقائد مسلم ان يفكر فى ارتكابها ، ونشر الخراب والدمار فى كل بقعة حل بها . فاهلك الحرث والنسل ، وضرب شيخ العلماء الوهابيين بالسوط على وجهه بعد ان بصق عليه وخاطبه بقوله : ما رايك ايها الخنزير فى الجنة وما عرضها ؟ وجعل المذهب الوهابى مثار تندره وسخريته ، ولما ضاق بالعلماء وشيوخ الدين ذرعا امر بهم فجمعوا فى مسجد الدرعية ثم رمى اعناقهم جميعا وكان عددهم يفوق الخمسمائة عالم ولم تمض دقائق حتى كان المسجد مقبرة للقتلى من الفقهاء وفحول العلماء .

• ● •

واراد محمد على ان يحصل على رجال يصلحون للجندية بعد ان افنى شباب مصر فى الحروب وصنوف السخرة وبعد ان حصدت الاوبئة ارواحهم حصدا ، وكان قد سمع ان فى السودان رجالا اشداء، وان فيه مناجم للذهب والفضة واسواق عامرة بالرقيق ، ولما كانت لديه فكرة التخلص من الضباط والجند الارناؤود الذين رفعوا من شأنه ونبهوا ذكره فقد سيرهم فى حملة عسكرية الى السودان . ولم تكن هذه الاراضى داخلة تحت راية الخليفة العثمانى حتى يزعم الباب العالى بأن تابعه فى مصر قد اعتدى على شبر منها .

وسارت الحملة بقيادة اسماعيل كامل ، وكان شابا مفتونا مغرورا، ورافقه نفر من العلماء الافرنج لدراسة السودان من نواحيه الاقتصادية والنظر فى طرق استغلاله ، وحملة اخرى من رجال الدين للاتصال بالعلماء والشيوخ . كما فعل نابليون بونابرت عند ما قدم الى وادى النيل وفى ركابه رجال البعثة العلمية ، مما يدل على ان محمد على كان يسير على هدى الفرنسيين ويتبع مشورتهم فى كل خطوة يخطوها

واتى اسماعيل كامل من ضروب الحماقة واستفزاز شعور الشعب السودانى ما حمل الملك النمر على ان يدبر مكيدة له وان يوقعه فى الشرك واحرقوه حيا فى شندى . اما الفظائع والموبقات التى ارتكبها

جند اسماعيل فهى التى لا يزال اخواننا السودانيين ينسبونها خطأ الى المصريين مع ان الجيش الذى ارتكبها كان مؤلفا من شراذم مرتزقة وليس من بينها مصرى واحد .

وهال محمد على مصرع ولده فاوفد صهره محمد الدفتردار الى السودان ليتولى بنفسه الانتقام ، فطلب اولا دية قدرها بعشرين الف رجل حصدهم بالرصاص ، ولم يتورع ابراهيم عندما تولى زمام القيادة عن ارتكاب سلسلة من المآثم وضروب الوحشية ، وعمل على تشجيع النخاسة وافتتاح اسواق جديدة للرقيق ، واستولى على خيرات السودان مما حمل مشايخ القبائل على عدم التعاون معه .

على ان فتح السودان بدد احلام محمد على فلا هو عثر على الشبان الذين يصلحون للجندية ، ولا على مناجم الذهب والفضة المنشودة ، وانما قبض جنده على الالوف من السودانيين وساقوهم قسرا الى مصر للخدمة فى الزراعة واستصلاح الاراضى .

• • •

وكانت بلاد اليونان مهد الثورات والفتن ، فاراد الباب العالى الانتقام من شعبها متذرعا بحجة القضاء على اعمال القراصنة الاغريق ، فطلب الى محمد على فى عام ١٨٢٤ ان ينجده بحملة عسكرية تؤدب العصاة ، ولبى محمد على الدعوة واسعف سادته واولياء نعمته بعمارة بحرية ضخمة بقيادة ابراهيم ، وما كادت الحملة تهبط ارض المورة حتى عمد الجند الى السلب والنهب والتنكيل بالابرياء ، وشق بطون الحبالى وقتل الاجنة ، واكراه النساء على اتيان الفاحشة امام اعين ازواجهن .

وهبت اوربا لنصرة شعب اليونان ، واجتاحت قواتها الاراضى التى يحتلها جيش ابراهيم ، وعمدت الى احراق الاسطول المصرى فى مياه نافارين . ثم جاء الانجليز وساوموا ابراهيم على الانسحاب من المورة فى مقابل ان يفوز بنصيب من الجزية التى ستفرض على اليونانيين وان يضمنوا له ولاية الشام واعلان استقلاله عن الدولة العلية . وخدع ابراهيم بهذه الوعود البراقة فسحب بقايا حملته العسكرية من المورة دون ان يحصل على الاذن بذلك من السلطان الذى يحارب بامره وتحت رايته وبذلك خان سيده وكشف جناح القوات التركية ليكر الحلفاء واليونانيون عليه .

على ان كفاءة ابراهيم العسكرية مشكوك فيها ...

ونستشهد بما كتبه الكولونيل بريبه من ضباط اركان حرب الجيش المصرى ، اذ قال : « كان يبتعد عن العمليات الحربية الواسعة النطاق ، ولا يمكنه ان يفقه الخطة المرسومة لحملة من الحملات مع ما تشمله من ترتيبات فى فنون الحرب والحركات العسكرية .. وكانت الحرب التى يفهمها هى التقدم بجيشه فى غير ما هوادة نحو العدو ، والضرب بالسيف عند مجابهة الصفوف الامامية ، وقيادة جماعات غير منظمة من الفرسان ، واستخدام سيفه فى ابادة الذين لا ينجح فى اعادتهم الى الصفوف . وكان شعوره الفطرى بالنقص من حيث فنون الحرب ، بالنسبة الى قواد جيشه من الاوربيين يحمله على اظهار الازدراء نحو النظم العسكرية الحديثة والترفع عن الاقبال عليها » .

والواقع ان سليمان الفرنساوى كان روح الجيش والهامه ، وكان القائد الوحيد الذى فى وسعه السير بالجند قدما نحو النصر ، اما ابراهيم فقد لبس مسوح البطولة ونسب الى نفسه انتصارات لم يحرزها .

•●•

ومنذ عام ١٨١٠ كانت تطوف بذهن محمد على فكرة غزو الشام ليولى ابنه طوسون حاكما على عكا . وكان على استعداد لان يضحى بمبلغ جسيم من المال للباب العالى فى سبيل ان يظفر بذلك . غير انه لم يصبح فى وسعه تنفيذ هذه الفكرة الا بعد عشرين عاما اذ كانت قواته العسكرية منصرفة الى محاربة الوهابيين فالسودانيين فالكريتيين فاليونانيين .

واخيرا سنحت الفرصة فى عام ١٨٣١ عندما تحرش بعبد الله الجزار والى عكا ، فطلب اليه دفع مبلغ مائة الف جنيه وطرد اكثر من ستة الاف فلاح فروا من مصر ولجأوا الى كنفه . فأبى الجزار ان يمتثل لهذا الطلب متذرعا بأن المصريين من رعايا الدولة العلية ومن حقهم ان يقيموا حيث شاءوا فى الاراضى التى ترفرف فوقها راية السلطان ، وانه اذا اراد طرد المصريين واجبارهم على العودة فعليه استصدار فرمان بذلك من الباب العالى .

وحنق محمد على من هذا الرد المفحم وهدد الجزار بانه سوف يزحف اليه بجيشه لتاديبه واعادة المهاجرين الى قراهم .

وقبل الزحف الى الشام استصدر فتوى دينية من العلماء بتكفير عبد الله باشا الجزار — وكان فى الاصل مملوك مجرى ثم اعتنق الاسلام — ومروقه عن قواعد الشرع ، وخروجه على طاعة السلطان.

هذه هى الاسباب الظاهرة لغزو الشام، اما البواعث الخفية فترجع الى طموح محمد على فى توسيع دائرة حكمه ، والحصول على موارد مالية بسبب فشل سياسته الاقتصادية فى الاحتكار ، وعلى اخشاب الارز من لبنان لبناء اسطول يحل محل الاسطول الذى دمر فى نافارين . وعلى انتاج مناجم الفحم الحجرى والنحاس فى منطقة قرنايل بلبنان ، واخيرا الحصول على رجال يصلحون للخدمة العسكرية بعد ان افتقرت مصر الى شبان جدد .

وفى خريف عام ١٨٣١ سارت الحملة العسكرية بقيادة ابراهيم وهيئة أركان الحرب الاوربية ، فاستولت على الجزء الجنوبى من الشام المعروف باسم فلسطين وذلك بتأثير خيانة الامير بشير الشهابى ثم واصلت الزحف الى سهول لبنان فسورية ، وتوغلت فى بطاح الاناضول .

وكانت الدولة العلية من الضعف بحيث لم يمكنها وقف الجيش الزاحف ، وكانت الخيانات يتراكم بعضها فوق بعض ، وركب الغرور ابراهيم وصور له خياله ان يواصل الزحف الى استامبول توطئة لخلع الخليفة واقامة حكومة جديدة ، وسعى فى الحصول على فتوى شرعية تبرر له ما انتواه من شر ، ثم امر باسقاط اسم الخليفة من خطبة الجمعة واستعدى عليه نصارى الشرق وامتنع عن دفع الجزية السنوية . وهبت الدول الاوربية توقفه عند حدود مطامعه ، فسخر فى بداية الامر من حركتها واجاب متهكما : انى اضع هذه الدول التى تناصر الخليفة فى علبة سعوطى .

اما السلطان فلم يكن يملك من سلطات سوى ان امر بعقد مجلس شرعى للنظر فى عصيان محمد على وابراهيم وخروجهما على طاعته ومحاربتهما فى اراضيه واعتدائهما على حقوقه الشرعية . وقد عقد المجلس فى يوم ١٦ ذى القعدة عام ١٢٤٨ « ٢١ سبتمبر ١٨٤٠ » فحضره ثلاثة من المفتين واربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من ائمة القصر السلطانى ، وشيخا جامع اياصوفيا وجامع السلطان احمد . ورسم السلطان بتوجيه الاسئلة التالية :

— ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة امير المؤمنين

وخليفة رب العالمين ؟
الجواب على ذلك : قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد اوامره جهد الاستطاعة .
ـ وما الذى جاء به الشرع الشريف في عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن اليه واتم نعمته عليه ، فطغى وتجبر ودس الدسائس واقام الاحقاد وايقظ الفتنة النائمة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف واراق الدماء هدرا او خرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين .
الجواب على ذلك : يجرد من سائر رتبه ووظائفه ولا يعهد اليه بامر من امور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته للوحوش البرية او الى طيور الفلا وهذا جزاؤه فى الدنيا ، وفى الاخرة الخزى والنار الآكلة .
ـ هل يكون الخليفة مسئولا عن دم ذلك المارق امام الله والناس ؟
الجواب على ذلك : لا جناح عليه ولا تثريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به احكام الدين الحنيف .
وبعد ان اختلى المجلس ساعة اصدر الحكم التالى :
« حيث قد ثبت خروج محمد على وابراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة امير المؤمنين وبذلك قد قضى الشرع الشريف اولا بتجريد محمد على وابراهيم من جميع الرتب والمناصب والقاب الشرف الممنوحة لهما ثم بالقصاص منهما قتلا مع سائر من يشاركهما فى هذا العصيان والخروج على طاعة السلطان » .

• ● •

وارتكب ابراهيم فى اراضى الشام الفظائع نفسها التى ارتكبها فى حروبه السابقة ، فثقلت وطاته على الرعية وابتذل اقدار الرجال ، وفرض شتى الوان الضرائب على الفلاحين ، واحتكر صناعة الحرير والمحصولات الزراعية ، وكان لضريبة « الفردة » تاثيرها السىء فى النفوس ، بحيث كانت كل قرية مكلفة بدفعها عن جميع الذكور البالغين فوق سن الثانية عشرة ، ولو نقص عدد الذكور فيها بسبب الهجرة او المرض او الموت ، وان يوزع المبلغ المطلوب على من يوجد من الرجال فى القرية . وكان يصحب تحصيل الضرائب سوء المعاملة وابتزاز مبالغ اضافية تحت ستار حجج واهية ، وتقديم هدايا فى

المواسم والاعياد الى جباة الضرائب ، وتسخير العمال فى المصانع ، وقطع الاشجار من الغابات ونقل الفحم من المناجم .

وعمد الى تجنيد الشبان بالاكراه ، فكان الضباط يسوقونهم كالانعام مكبلين فى القيود الى القاهرة مما دفع الوف الشبان الى الفرار والاعتصام بالجبال .

وآذى المسلمين فى شعورهم الدينى بتشجيعه افتتاح الحانات ، والسماح للمقاهى بتقديم الخمور لروادها ، واحتكار صناعة تقطير العرقى والنبيذ ، والاستيلاء على الالات والمواعين المعدة لصنعها وحفظها ، وسلب ما كان مخزونا منها فى البيوت للاستهلاك الشخصى .

وكان من الطبيعى ان تدفع هذه المظالم شعب الشام الى الثورة والتمرد ، ومما زاد فى تاجج نار الفتنة ان قنصل انجلترا كان يتصل بالزعماء ويمدهم بالمال والسلاح ، ثم تألبت الدول الاوربية على مصر ووقفت الى جانب السلطان واجتمعت كلمتها على اخراج القوات المصرية من أرض الشام .

وارادت فرنسا التى كانت تشمل محمد على بحمايتها ان تنقذ الموقف بطريقة ما ، فاقترحت منح ولايتى مصر وعكا الى محمد على وذريته من بعده ، مقابل سحب قواته من الولايات العثمانية ، ولكن الباب العالى عارض ذلك وطلب ان يكون الجلاء غير مقيد بشروط .

وفى ٢٢ مايو ١٨٤١ تم الاتفاق على ان تصبح مصر ولاية وراثية فى اسرة محمد على ، وحددت الجزية بثمانين الف كيس سنويا ، وبانقاص عدد الجند الى ثمانية عشر الفا ، ومنح الوالى الحق فى منح بعض الرتب .

وانهارت آمال محمد على فى التوسع والفتح ، ثم اضطربت قواه العقلية ، الى ان عزل وتولى ابراهيم الحكم ، غير ان ولايته لم تدم طويلا ، فقد كان لادمانه على الشراب وافراطه فى الشهوات تاثير بالغ على حياته ، وكان اقل حادث يهيج اعصابه ويدفعه الى البطش بمن حوله . . . حدث ان تاخر مرة المركب الذى يقله فى طريق عودته من استامبول بسبب هبوب العواصف والانواء . وصورت له اوهامه ان الملاحين يتامرون عليه وانهم بسبيل اهلاكه فامر باغراقهم جميعا . وكان نوبار برفقته فتمكن بدهائه من ان يسكن ثورة غضبه ولولا ذلك لاصبح ضباط المركب والنوتية طعاما للاسماك .

وتمكن وهو فى المورة من ان يأسر بضعة الوف من الاطفال والصبيان الذين تركهم اباؤهم فى القرى بعيدين عن مواطن القتال . فحملهم الى مصر ووزعوا بوصفهم ارقاء على قصور الحكام ، وفرض على الاخرين الاقامة فى قرية عرفت باسم « الابراهيمية » بالشرقية . وهؤلاء الاطفال الذين انتزعوا من بين احضان ذويهم ونشأوا وترعرعوا على ضفاف النيل خصوا فيما بعد بارفع مناصب الدولة وصار منهم الباشوات والوزراء والحكام .

واصيب ابراهيم فى اواخر ايامه بالارق ، اذ كانت اشباح القتلى تقض مضجعه ، فلا يستطيع الى النوم سبيلا ، وصار يغرق همومه فى الخمر يعب منها الى ان يغيب عن وعيه ، وعند ما لفظ انفاسه على اثر ليلة شديدة الحرارة ، واسرف فيها فى احتساء شراب الشمبانيا المثلجة ، اشيع بانه مات فى حالة غير طبيعية ، وان بعض افراد الاسرة الذين كانوا ينظرون اليه على انه حاكم غير شرعى وانه ليس من صلب محمد على ، قد سلطوا الخدم لدس السم له فى الشراب .

الوالى المجنون

نشأة عباس الاول ـ عداؤه لافراد أسرته ـ اتجاهه الى السياسة البريطانية ـ غلقه المدارس والمعاهد والمصانع ـ نفى الاجانب ـ موقفه من الشعب ـ بوادر جنونه وهوسه ـ مصرعه

تعود المصريون الا يروا من عباس الاول سوى المخازى والآثام ، والتخريب والقضاء على آثار العمران ، وبث الرعب والهلع فى النفوس ، وتشريد المواطنين ودفعهم الى السخرة ، ونفيهم الى اقاصى الجنوب واعالى النيل ، وكان الموت هو الدواء الوحيد لمن يحيق بهم غضبه او نقمته .

ولم يكن ذلك الوالى يمتاز باى ضرب من ضروب الاصلاح ، بل بالعكس عاد بمصر القهقرى واسلمها الى الجهل والفوضى والظلام ، وصبغ الطرق بدماء الابرياء من ابنائها ، وكانت ولايته شر الولايات فى تاريخ مصر ، اذ اخرها عن طريق الرقى اجيالا طويلة ، وكان صنوا للحاكم بأمر الله وكافور الاخشيدى ومراد وغيرهم من الطواغيت الذين كان حكمهم اذلالا للكنانة .

وعباس الاول هو ابن طوسون بطل مذبحة المماليك ، وقائد الحملة العسكرية الى الحجاز ونجد ، ولد فى مكة ، وكانت جدته لا تزال على قيد الحياة ، بعد أن فقدت ولديها : طوسون واسماعيل ، فوجدت العزاء فى حفيدها عباس وانشأته مدللا منعما ، الى حد ان محمد على وابراهيم لم يمكنهما الاشراف على تربيته وتعليمه . فتركا الامر لها لتسلمه بدورها الى طائفة من الاغوات والخدم الجهلاء الذين تكتظ بهم القصور عادة . وكان على رأسهم « لاله » أبو كلبه فافسد تربيته ، وصار يهمس فى اذنه بين وقت وآخر بأن والده مات مسموما ولم يمت موتا طبيعيا ، حتى امتلأ قلب الصبى حقدا على ابراهيم ومحمد على .

وشب عباس عن الطوق فاراد جده أن يدربه على الاضطلاع بشئون الادارة ومهام الحكم ، فقلده منصب مدير الغربية ثم حاكم القاهرة ، فكانت تصرفاته تنم عن القسوة والبطش والتنكيل بالمواطنين ... حدث أن بعض الفلاحين فروا من شدة ما حاق بهم

من ظلمه الى مديرية البحيرة ، فتلقاهم مديرها واعادهم الى الغربية بعد ان شفع لهم ، فما كان من عباس الا ان اوقفهم فى مكان ما وجعلهم هدفا لقذيفة مدفع وذبح بعضهم كما تذبح الانعام .

وكانت الحكومة تحتكر صناعة الغزل والنسيج ، ولكن بعض الافراد ممن كانوا يسعون الى ارزاقهم عكفوا على صنع الغزل خفية على انوال يدوية فى منازلهم . فلما اتصل امرهم بعباس جمعهم ولفهم فى القماش المضبوط على انوالهم بعد ان لوثه بمادة القطران ، ثم اشعل النار فيهم عقابا لهم على مخالفة أوامر الحكومة .

وكذلك حدث أن الحق عيسى اغا خباز محمد على بخدمة عباس فى مقره بطنطا ، فبعث بشكوى الى ولى نعمته يتظلم فيها من مسلك حفيده الذى لم يرقه الخبز فاستل سيفه وقتل مساعد الخباز . وارسل محمد على الى وكيل مديرية الغربية يقول :

« لقد تاثرت من مضمون الشكوى ، وسبق ان امرت حفيدى بعدم الغدر بالاهالى ثم يطلب الوالى ان يوقظ وكيل المديرية حفيده وان يلقى عليه درسا ، والا فانه سوف يمحوهما ويزيلهما من الوجود معا » .

وظل محمد على طول حياته يلعن حفيده ويصفه بانه متطبع بطباع الحيوانات المتوحشة .

وشرع عباس فى تشييد قصر له على حافة بركة الازبكية بجوار جامع الكخيا وجمع اعوانه من جماعة المقدمين الاتراك يحملون العصى والاسواط . يسومون بها العمال والصناع من النحاتين والبنائين والنجارين والفعلة الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب ، وبدأ العمل فشيدوا السور من الحجر الاحمر ، واتفق ان مر عمه ابراهيم يوما بالازبكية فصافح اذنيه من صياح العمال وجلبتهم ما اثار دهشته ، فلما سال عن امرهم ، قيل انهم صناع وفعلة يعملون فى بناء قصر الامير عباس فسار صوب القصر وشاهد من امر هؤلاء العمال وما يقاسونه من العذاب ما هاله ، وبعث فى الحال الى عباس من يطلب اليه ترك العمل وصرف العمال بالحسنى .

وكانت امثال هذه التصرفات التى تنم عن القسوة والضراوة والاستبداد تصل الى سمع الوالى فينهى حفيده عنها ويحذره

عواقبها ، ولكن نفس عباس جبلت على الشر والاذى فلم يكن بحاجة الى زجر او ردع .

وكان عباس يرى انه احق بالحكم من ابراهيم الذى ليس من صلب محمد على ، فلما ولى ابراهيم الحكم واقيمت حفلة تلاوة فرمان التولية فى القلعة ، التفت ابراهيم الى من حوله وقال لهم : يبدو لنا ان عباس بلع حبة منجم ؟

وبعد ايام استدعاه وخاطبه فى سخرية لاذعة : ياعباس افندى . لقد سبق لك ان حججت ولكن على الطريقة الشامية !

فادرك عباس من ذلك انه غير مرغوب فى وجـوده ، وانه يجب عليه ان ينزح الى الاراضى الحجازية ، وكانت تحت الحكم المصرى ، واضطر الى اقتراض مبلغ من المال من شخص ارمنى اسمه يعقوب، بفوائد باهظة .

وكانت والدة عباس لا تفتأ تبكى وتولول عقب نفيه . الى ان لزمت الفراش ، فكان ابراهيم يواسيها بقوله : لا تتكدرى ، وساعمل على احضاره قريبا ؟

وفى الحجاز اقترن عباس بكريمة احد شيوخ نجد ، ثم اتصل به نبأ وفاة ابراهيم بعد اشهر قلائل ففرح عربان البادية واقاموا له سلسلة من الحفلات والمآدب . ووصل الى القاهرة مع عروسه النجدية ، واقاما فى قصر الحلمية ولكن طقس القاهرة لم يوافق مزاج زوجته ، فشيد لها قصرا اطلق عله اسم « الدار البيضاء » فى منتصف الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ، وكان هذا الحادث مثار تندر سكان القاهرة وموضع نكاتهم ، ووضعوا سلسلة من الاغانى الفاضحة عن غرام البدوية .

• ● •

كان من الطبيعى وقد ولى عباس الحكم ان ينفر من اعوان ابراهيم، ومن الذين كان يعتمد عليهم فى ادارة دفة الحكم ودولاب العمل . ورجال ابراهيم هم بعينهم رجال محمد على ، وبعضهم من اصحاب الراى والكفاية لا سيما الخبراء الاجانب . واقصاهم عباس واختص نفسه بقوم من غير ذوى الكفاية . وسلم اليهم مقاليد الامور ، فعملوا لانفسهم على حساب الشعب ولم تلبث شئون البلاد ان ساءت واضطربت ، وتدهورت مرافقها فى كل ناحية .

وقد قضى عباس عى جميع اسباب الحضارة والعمران فاغلق المدارس ومعاهد العلم والمصانع ، ولكنه اضطر الى الاحتفاظ بالجيش تلبية لمطالب الباب العالى من ناحية وللدفاع عن نفسه مما كان يهدده من الاخطار التى صورها له المنجمون من ناحية اخرى .

والواقع ان عباس كان شخصية غامضة معقدة ، صورت له اوهامه ان اعداءه يحيطون به من كل ناحية ، واشتدت رغبته فى التعرف الى أحوال الناس والوقوف على اسرار البيوت فخصص لهذه الغاية عددا من الجواسيس ، ياتونه بالانباء المقلقة ليباعدوا بينه وبين الشعب ويصبحوا هم موضع ثقته ومرجع اعتماده .

واطلق ايدى اعوانه يتجسسون على افراد الشعب بالحق والباطل، فعمت الشرور واستشرى الفساد ، واصيب الاخيار بالمصائب ، حتى اصبح خدم القصور جواسيس على اوليائهم . وكان الخادم مكلفا بان يبلغ « شيخه » فى كل يوم انباء البيت الذى يخدم فيه . وويل للسيد الذى يغضب عليه خادمه ، فقد كانت اقل وشاية من الخادم تكفى للقبض على رب البيت وتكبيله فى القيود الى حيث السجن والتعذيب ، وكم من ابرياء ذهبوا ضحايا اوهام عباس .

وحمله التطير والخوف على حياته الى الاكثار من شراء المماليك والاماء السود ، واقامة طوائف من الاتراك والالبانيين يحرسونه نهارا ، واخرين يسهرون ببابه ليلا ، واطلق على هذه الفرقة اسم « الاورطة المفروزة » .

وكان على كثرة بطشه وقشوته يخاف من كل من يدنو منه ، فاذا سار بموكبه احاط به حرسه الحديدى احاطة السوار بالمعصم ، فاذا رابهم من احد فى الطريق غمامة شك مالوا عليه واوجعوه ضربا بالسياط وربما فتكوا به .

وعطف على عربان قبيلة الهنادى فى الشرقية ، فكان يكثر من الاقامة فى مضاربهم ، واولاهم ثقته وسلمهم ابنه الهامى لتنشئته على طباع اهل البادية ، واغرت هذه الصلة ، عربان الهنادى بالاعتداء على السكان الامنين وسلب اقوات الفلاحين واثقال كواهلهم بالاتاوات .

وكان مولعا باقتناء الحيوانات الكاسرة وكرام الخيل ، ويميل الى مطاحنة الديوك والكباش ، وعندما يشخص الى الاسكندرية او الى

كفر مجر يبعث فى طلبها فتشحن اليه فى النيل .
زاره يوم قنصل فرنسا ، وفيما هو جالس فى قاعة الاستقبال فى انتظار الاذن بالمقابلة ، اذ اقتحم القاعة اسد ، فجزع القنصل اشد الجزع ولم يجد وسيلة ما سوى ان يتسلق النافذة متشبثا بسجوفها ، ودخل الوالى القاعة وتطلع يمينا وشمالا دون ان يجد القنصل ، واخيرا اهتدى الى مخبئه ، وقد ساله : ما باله . فاجابه بانه يخشى الاسد . فقال له : ولكنه اليف لا يؤذى . فكان جواب القنصل : عفوا ايها الامير ، فما تعودت معاشرة الوحوش .

• ● •

توغل عباس منذ صباه فى مطالعة مؤلفات السحر والتنجيم والشعوذة ، فصادفته يوما جملة ظنها امرا اداً ، وهى : « ويقتل عباس بالحديد » . ولما لم يفهمها على حقيقتها استدعى شخصا من حاشيته اسمه منتظر ، وكان كل شىء فى قصره ، وكانوا يدعونه « شيخ افندى » ساله عن المعنى ، فأجابه :

ــ اجل يا مولاى ، وانزلنا الحديد فيه باس شديد ، والسلاح يصنع من الحديد ، ومعنى « يقتل عباس بالحديد » اى انه سيتولى الحكم ويحكم ... وهذه الاسرار يكتبها اصحابها بالرموز ولا يفصحون عنها ، والناس تقرا كلمة « يقتل » بصيغة المجهول ولكن الحقيقة انها تقرا بصيغة المعلوم .

وتطرف الشيخ فى سرد حججه حتى انه طلب الى الوالى أن يكون على راس حكومته شخص يبدا اسمه بحرف السين ، فولى عباس من يدعى « سليم بك » وكيلا لديوان الكتخدا .
وجاءه اهل العرافة يوما وقالوا له :
ــ انا نخاف عليك من رجل طويل القامة ، اسمر اللون ، شكله كذا وكذا ...

وكانت هذه النبوءة كافية لاضطرابه وخوفه ، فامر بالمنجمين وضراب الرمل واصحاب اليازرجة والدجالين ليجمعوا فى صعيد واحد واقلتهم مركب فى النيل الى اقاصى الجنوب .
وكان يبغض النصارى ، فاخرج منهم من كان يتولى منصبا حكوميا ونالهم اذى واضطهاد شديد . ولما ثار غضبه عليهم اصدر

امرا باخراج جميع المسيحيين من الاراضي المصرية ونفيهم الى السودان . فجاءه الباجورى شيخ الجامع الازهر ، وكانت تربطه به صلة سابقة اذ كان عباس يشهد دروسه فى الازهر ويستمع اليها برغم انه لا يعرف العربية . وقال له الشيخ :

ــ الحمد الله الذى لم يطرا على ذمة الاسلام طارىء ، ولم يستول عليه خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته الى اليوم الاخر ... فلماذا هذا الامر الذى اصدرته بنفيهم ... واذا كنت تعنى النصارى من الافرنج النازلين بلادنا فانى اخاف ان فعلت بهم شرا ان يحل ببلادنا ما حل بالجزائر على ايدى الفرنسيين .

فغضب عباس وقال لاتباعه : خذوه عنى ...

فقال الشيخ وهو ينهض : اى ويعلم الله ... اى ويعلم الله !!

واستدعى مرة الشيخ محمد العباس المهدى مفتى الديار المصرية، واراد ان يحمله على اصدار فتوى يملك بموجبها ما فى ايدى اسرة محمد على ، قائلا : ان جدى قدم الى مصر لا يملك شيئا ، فكل ما خلفه لذراريه انما هو من مال الشعب ويجب استرداده ووضعه فى يد امينه المتولى شئونه .

فلم يوافقه المفتى واصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده الى ان طلبه بعد اسابيع الى بنها ، فسافر الى هناك وهو موقن بالهلاك ، وكان يرافقه فى هذه السفرة زميله الشيخ ابو العلاء الخلفاوى . فلما وصلا قصر بنها ، راجعه عباس فى الفتوى فاصر على رايه الاول ، وهنا امر عباس بانزاله الى مركب تقله الى قلعة ابى قير ، واعترى الشيخ زحار كاد يقضى عليه .

وسلط عباس شروره على افراد اسرته واغتصاب ما فى ايديهم . وكانت زهرة ابنة محمد على وزوجة محمد الدفتردار هدف نقمته اذ كان يبغض قرينها منذ حداثته ، فدبر مؤامرة لاغتيالها ، غير ان بعض جوارى قصرها يسرن لها مهمة الهرب عن طريق سرداب ثم غادرت مصر خفية الى استامبول للاستيطان بها .

• • •

وكان عباس كما بينا ضعيف الراى ، كثير الاوهام ، جاهلا ، يكره العلم ويمقت المتعلمين ويزدرى بهم ، فكان من شان هذه الصفات

ان تجمع ببابه اصحاب السعاية والوشاية والنميمة ، فياخذباقوالهم ويعمل بمشورتهم .

وعندما ولى الحكم اخذ المنافقون يبلغونه اسماء الذين حزنوا على موت ابراهيم والذين كانوا يصرخون فى الجنازة صائحين : « تيتمنا يا افندينا » فامر باقصائهم عن مناصبهم .

ومن شذوذه انه اطلق على نفسه لقب «عباس خير الناس» وكان يوقع بهذا اللقب على المراسلات الرسمية ، ثم حاول ان يتخذ لنفسه لقب « الآصفى » بدلا من « الوالى » لان اللقب الاول ماخوذ من الفارسية بمعنى « حاكم مستقل » .

وكثيرا ما كان يغضب لاتفه الاسباب ويسترد ما وهبه من ارض وعقار . ويضع المسلوب فى زى السياس ويذله بالخدمة فى الاسطبل الى ان يضطر المغضوب عليه الى الانتحار . وكان اذا عاد وعفا عنه وقربه اليه فهذا معناه تجدد المحن وسرعة انقلابه ... غضب مرة على ابراهيم اغا كتخداه فعاقبه بخمسمائة سوط ثم عفا عنه بعد حين فمنحه قصرا يقدر بستة الاف كيس ... وقرب اليه احمد جركس فزوجه جارية من جواريه ووهبه قصرا كان لابيه طوسون وعينه مديرا للبحيرة وكلفه بالتجسس على عمه سعيد ...وكانت الخصومة بين عباس وسعيد على اشدها الى ان حاصر سعيد مرة مديرية البحيرة ، ولكن جند الوالى تغلبوا عليه واضطروه الى الانسحاب ، فاتهم عباس احمد جركس بالتواطؤ مع سعيد وتفاه الى اسوان بحجة انه « حيوان فى صورة انسان » واستعاد منه القصر الموهوب ... ثم استولى على عدة قصور ومنها قصر احمد عصمت باشا بالازبكية ، وقصر احمد مختار فى شبرا ، وقصرمحمود طلعت فى العتبة الخضراء .

وشرع مرة فى اقامة حفلة ختان لولده الهامى استمرت ١٥ يوما وانفق عليها زهاء مائة الف جنيه فاجتمع اللاعبون من القاهرة ووفد غيرهم من استامبول لعرض العابهم فى ساحة القصر . وقد حدث ان نهض لاعب وطلب فئرانا تدير ساقية صغيرة الحجم ، فخابر رجال الحاشية الضبطية للتنبيه علىمشايخ الحارات بجمع عدد من الفئران ، بيد ان اللاعب استصغر حجمها ، فجمع عددا آخر اكبر حجما .

واخذ نساء القاهرة يقلدن فى البيوت فئران عباس بحركات كلها استهزاء وسخرية ، وسبحت النكات فى جو القاهرة من هذا الحادث الفريد فى بابه ، وعلم عباس من جواسيسه بما وقع فى المدينة من سخرية به ، فنكل بكل بيت‌وشى فى حقه وامر بقص شوراب اربابه.

وبلغ من سوء ادبه ان بعث بكتاب الى طلاب البعثة فى معاهد اوربا يقول فيه : . . ان طباعكم هى طباع الخونة من الفلاحين ، وسوف اعيدكم الى قراكم والبسكم ملابس الفلاحين .

وعهد الى جماعة من الاتراك ان يسوقوا طائفة من سكان القاهرة وضواحيها للعمل فى السخرة ، حيث يتولون عملية انشاء وتعبيد الطريق الصحراوى من باب‌الحسينية الى السويس ، لخدمة‌المصالح البريطانية ، وانتهز الاتراك هذه الفرصة فساموا العمال صنوفا من العذاب والهوان .

وكان من شأن هذه المظالم وعبث الحاكم بحقوق المواطنين ان‌اخذ فريق منهم يفكر فى طريقة الخلاص من الوالى ، فهم احد ابناء البلد بالاعتداء عليه فى شارع محمد على لولا ان فتك به الحراس قبل ان يصل الى مركبة الوالى .

• ● •

عندما ارتقى ذلك الوالى المأفون العرش قال لوفد العلماء والوجوه الذين قدموا لتهنئته :

— ان جدى محمد على كان يزعم بانه اوتوقراطى ، وفى الحقيقة انه كان اوتوقراطيا على رعيته واولاده فقط . واما قناصل الدول الاجنبية فقد كان بمنزلة النعل لهم .

والواقع ان عباس كان يمثل الارستقراطية العثمانية فى اضيق حدودها ومعانيها ، فطرابيش الموظفين وازياؤهم ينبغى ان تكون‌على انماط ما يرتديه الموظفون فى الدولة العلية . وعليهم‌ان يرسلوا لحاهم كما « هو الجارى فى دار السعادة » . ثم يعز عليه أن يرى « الاولاد الاتراك » يتسكعون فى طرق العاصمة فيامر بجمعهم فى المدرسة الخاصة التى انشأها لابنه الهامى . اما صفوة الطبقة الحاكمة من العثمانيين فيلحقهم «بمدرسة المفروزة» ليكونوا ضباطا وقادة فى المستقبل . واسماء ابناء الفلاحين فى المدارس الاخرى يجب ان‌تمحى

من سجل الوجود وتستبدل بها اسماء تركية .

ويمرض جوادان من جياده فيصب جام غضبه على الاطباء البيطريين الذين فى خدمة الحكومة فيطردهم منها ثم يعمد الى مدرسة الطب البيطرى فيغلقها ويقول فى كتاب له الى كتخداه :

« ان المتخرجين فى مدرسة الطب البيطرى والمعينين فى تفاتيش الحكومة لاصلاح جنس الحيوانات ومداواتها قد تسببوا فى خسارات عظيمة وتلفيات جسيمة من الحيوانات المعدة تحت امانتهم . وفضلا عن ذلك فقد تسببوا فى تلف الجوادين الكريمين السقلاوى والاحمرانى الواردين هدية من طرف حضرة شريف مكة لابننا الكبير ، كما انهم تسببوا ايضا فى مرض الجواد عسيان الاحمر المقدم لنا من طرف فيصل بمرض السقاوى ، وظهر حقيقة هذا بمشاهدتنا الجواد المذكور ، فبناء عليه ثبت ان كل التعب والمشقة والمصاريف الوافرة التى صرفت لهؤلاء الاطباء البيطرين من صغر سنهم الى اليوم ذهبت هباء فاستخدامهم اليوم مضر بالجهتين ، مضر بالخزينة نظرا للمرتبات التى يتقاضونها ، وبحيوانات التفاتيش بالنسبة لعدم مبالاتهم وعنايتهم . فعندما يصل امرى اليكم ان تبطلوا وتلغوا مدرسة الطب البيطرى وتنزعوا رتب ونياشين الاطباء البيطرين المستخدمين فى الحكومة ، كبيرا كان او صغيرا ومن ضمنهم عشماوى افندى وافصلوهم واطردوهم من سلك الوظائف الاميرية » .

ويختبر فى رحلة له الى الصعيد المهندسين المتخرجين فى مدرسة الهندسة ، فيظهر له انهم لا يعرفون عمليات الحساب بالطريقة التى يفهمها هو فيامر بفصلهم ، ثم يشرد صفوة العلماء ، فينقل رفاعة الطهطاوى الى الخرطوم ناظرا لمدرسة ابتدائية بها ، ومعه محمد بيومى اكبر عالم فى الرياضيات واحد خريجى جامعة باريس .

وقد لفت انظار شارلس اغسطس مرى القنصل البريطانى فى القاهرة صفات عباس المرذولة واهواؤه المتقلبة ، وبغضه للفرنسيين بصفة خاصة ، وكان ان استغل هذه الصفات ، وما زال به حتى اغراه بالقضاء على وسائل العمران التى انشئت فى عصر جده ، فابطل فى يوم واحد جميع مصانع الغزل والنسيج ، وكانت ميادين عمل للالوف ، ومصدر حركة فى الصناعة والتجارة ، ودفع بمصر الى

شراء ما تحتاجه من الاقمشة القطنية والصوفية من مصانع لنكشير وحدها وبأثمان مرتفعة .

وفى اعقاب ذلك اغلق الكثير من المدارس ومعاهد التعليم وصحيفة « الوقائع المصرية » وكل ما يمت الى الثقافة بصلة ، وطردالاساتذة والخبراء الاجانب فقضى على منابع العلم .

وكان الباب العالى قد اصدر « قانون التنظيمات » او مايعرف باسم «خط الكلخانة الشريف» وهو ينص على احترام الملكية الفردية ، ومنع المصادرة والجلد والسخرة والنفى ، وتعيين فترة زمنية محددة للخدمة العسكرية . فتردد عباس فى قبول هذه الاصلاحات التى تحد من سلطانه وطغيانه ، فاستعان بالقنصل البريطانى الذى اصبح بمثابة مستشار سياسى له لكى يحمل الباب العالى على تغيير سياسته نحو مصر .

• • •

ولم يشأ القدر ان يترك هذا الوالى المجنون يموت ميتة طبيعية بل قضى نحبه فى احوال شاذة كما كانت حياته شاذة . . .

فقد كان لعباس حاشية خاصة من الخدم يعرفون باسم « ايچ اغاسية » وكان كبيرهم خليل درويش بك برتبة « قائمقام » برغم حداثة سنه . واساء هذا الرئيس معاملة مساعديه فاطالوا السنتهم عليه وصاروا كلما مر بهم قذفوه بالفاظ بذيئة وبكلمات مستهجنة وعايروه بانه ليس كامل الرجولة . فشكاهم الى ولى نعمته الذى امر مملوكه بجلدهم ثم تجريدهم من اوسمتهم ورتبهم والبسهم لبدا وزعابيط وارسلهم لخدمةخيولهفى الاسطبل وكبرت تلك الاهانةعلى مصطفى باشا خازنداره فسعى جهده فى العفو عنهم غير انه لم يفز بطائل ، فترك الامر ليكن باشا وكانت له دالة على الوالى فأجابه الى ملتمسه .

وتوجه المماليك المعفو عنهم الى قصر الوالى فى بنها ليرفعوا اليه فروض الشكر ولكنهم اضمروا له السوء لما حاق بهم من اذلال ومهانة وظلوا يدبرون مؤامرة القضاء عليه ، واخيرا تواطأوا معغلام من خدم القصر يدعى عمر وصفى واشركوه معهم فى المؤامرة .

وكان من عادة عباس عند نومه ان يقيم على حراسته اثنين من هؤلاء الغلمان،وفى ليلة ١٤ يوليو ١٨٥٤ عاودت عباس نوبةمن نوبات هوسه

فاخذ منذ الغروب يسب خدمه ويقسم الايمان التى اعتادها بانه اذا ما اسفر الصبح فسينكل بهم على نحو لم يالفوه . فلما سمعوا تهديده ، وكانت النية مبيتة على الغدر به ، اقبلوا فى جوف الليل ، وكان القائم بالحراسة شاكر حسين وعمر وصفى ، ففتحاللمتآمرين باب المخدع ، وداهموا جميعا الوالى فى فراشه وهو مستغرق فى نومه ، وعندما هموا بالفتك به استيقظ مذعوراوارادمزايلة الفراش فحال عمر وصفى بينه وبين بغيته وتكاثروا عليه وقتلوه شر قتلة بالخناجر . وخرج الغلمان يوهمون حرس القصر انهم بسبيلهم الى العاصمة فى امر اشار به مولاهم ، فاعدوا لهم الخيول حيث اسرعوا بالفرار الى القاهرة ومنها الى تركيا .

واتفق ان مر ببنها فى اليوم التالى احمد يكن باشا فى طريقه الى ضيعته فى الدقهلية ، فلما علم بوجود الوالى فى قصره هبط بها لتحيته . ولكن قيل له انه لا يزل نائما . وانتظره الى العصر فلم يستيقظ فطلب ان يدلوه على مخدعه وطرق الباب فلم يجبه احد وهنا خامرته الشكوك واقتحم الباب فاذا بالوالى مسجى فى فراشه، غارقا فى دمه .

واشار يكن باشا بكتمان النبا واستدعى خصيان القصر وقال لهم : افندينا امر بسفر الحريم الى القاهرة فى الحال . فامتثل الجميع للامر وغادر القصر النساء والجوارى والخدم ولم يبق سوى الباشا مع نفر من الاخصاء . والبسوا الوالى ملابسه الرسمية ، ثم اعدت مركبته فى مدخل القصر وحمل اليها بمساعدة رئيس الخصيان .

وكان الفى محافظ العاصمة قد دعى على عجل الى قصر بنها . فلما وقف على حقيقة المأساة ذهل ، ثم اجلسوا الوالى فى المركبة وامامه المحافظ كما جرت العادة . ومضت المركبة بسرعتها يحف بها الحرس الى ان وصلت الى قصر الحلمية دون أن يدرى احدحقيقة ما وقع .

وكان من عادة عباس اذا اخترق بموكبه شوارع العاصمة ان لا يلتفت يمينا او يسارا لرد التحية . لذلك لم يفطن افراد الشعب الى ان المركبة تقل واليا قضى نحبه وليس بحى .

واجتمع اعوان عباس من الضباط الارناؤود والجراكسة والاتراك

برياسة المحافظ ونصبوا المدافع فى القلعة ونادوا بالهامى واليا على مصر ، وكان الهامى لا يزال فى طريقه الى انجلترا للسعى فى تنصيبه وليا للعهد بدلا من سعيد .

وشاع نبأ مصرع عباس وتناقله المواطنون بين مكذب ومصدق ، ثم تشاغل الناس عن جنازته فلم يدفن الا بعد الظهر ، وكان يوما قائظا ، فسارت الجنازة فى نفر قليل من خواصه وبعض الجند والفقهاء .

وكتب اعوان عباس الى اسماعيل سليم باشا محافظ الاسكندرية بما استقر عليه الراى من جعل الهامى واليا واوصوه باليقظة والسهر على الثغر الى ان يقدم الهامى .

وكان شريف باشا الكبير وقتئذ فى الاسكندرية ، فى انتظار ان يبحر منها الى اوربا للعلاج ، فلما مضى اليه المحافظ يكاشفه بالامر صاح فى وجهه :

— من العبث ان نضع رقابنا فى قبضة الهامى بعد الخلاص من ابيه . . . ان سعيد والى مصر فى « القبارى » وليس فى انجلترا .

ومضى وفد الى سعيد يبلغه الامر فابتهج فى قرارة نفسه لخلاص اسرته من عباس . وبعد ان شكر اعضاء الوفد مضى الى قصر راس التين واعلن ولايته بين قصف المدافع وهتاف الجند . ثم سافر الى العاصمة يصحبه من افراد اسرته : اسماعيل وعبد الحليم ومصطفى فاضل واحمد رفعت . الا انهم وجدوا القلعة موصدة فى وجوههم ، وطوائف العسكرية من الارناؤود والجراكسة والاتراك معتصمة بها وعلى راسها الاميرالاى محمد شكيب احد مماليك عباس . وبلغ من خوف سعيد على حياته انه اعتصم بدوره بقصر الامير عبدالحليم بشبرا لا يبرحه مدى ايام اربعة .

وفى غضون ذلك دارت المفاوضات بين الامير رفعت وبين الاميرالاى شكيب وحذره الامير سوء العاقبة لتمرده ومخالفته الفرمان الذى يحصر الولاية فى سعيد بوصفه ارشد افراد الاسرة سنا . واخيرا فتحت ابواب القلعة وصعد سعيد اليها ، وتمت مراسيم التولية ، وبلغ من ذعر الاميرالاى محمد شكيب ان فاضت روحه على اثر سماعه طلقات المدافع باعلان الولاية .

وقال سعيد عقب ذلك فى معرض السخرية والتنديد بالهامى :

« لم تبق ثمة حاجة الى سياحة ولى العهد فى انجلترا » . وامر باعادته محاولا التنكيل به والانتقام منه فى شخص أبيه ، بيد ان الهامى اتجه الى استامبول ووجد من السلطان عبد المجيد صدرا رحبا ، واصبح بمأمن من اعتداء سعيد عليه وبطشه به ومصادرة ثروته ،ثم صاهر السلطان فتوثقت الاواصر بينه وبين دوائر المابين.

هكذا كانت نهاية السفاح الطاغية عباس الاول ، الوالى المجنون المتعطش الى الدماء ، الذى حكم مصر نحو سنوات ست بالحديد والنار ، فكانت هذه السنون من اظلم الفترات التى مرت بوادى النيل .

قيود العبودية

نشأة سعيد وأخلاقه ـ المنافسة بين انجلترا وفرنسا ـ وثيقة العار ـ آثار الدمار في السودان ـ ارتباك الحالة المالية ـ مصر مقاطعة فرنسية ـ زحف الاجانب على وادى النيل .

كان محمد على يعد ابنه الصغير سعيد لفنون الحكم ، والتدريب على شئون البحرية ، فعهد بتربيته وتنشئته الى نفر من الافرنج وفى مقدمتهم المستشرق كوينج ، والضابط البحرى هوسار ، ثم دفع به الى فردينان دى لسبس ليكون رائدا له ومدربه على الرياضة وركوب الخيل .

وكان سعيد منذ صباه مفرطا فى البدانة الى حد خشى معها ابوه ان تؤثر البدانة فى تكوينه الذهنى والجثمانى ، فكان فى جملة التمرينات الرياضية التى درب عليها : تسلق صوارى المراكب والقفز منها سباحة فى الماء ، والسير والعدو اشواطا بعيدة ، وركوب الخيل ، ووضع غذاء له لتنقيص وزن جسمه . .

وولى سعيد الحكم بعد ان كتب له الوجوه والاعيان والمشايخ بالطاعة ، فكان اول ما اتجه اليه نظره الاستيلاء على ثروة سلفه الذى يبغضه من اعماق قلبه ، ومحاربة ولده الهامى وبقية افراد الاسرة . ومد يده الى الخزانة العامة فالفاها خاوية الوفاض ، فطلب الى مصطفى باشا خازندار عباس ان يقرضه خمسين الف جنيه فابى وقال : اننى امين على هذه الاموال ، وصاحبها الهامى فى الخارج ، وليس من حقى ان اتصرف فيها دون اذنه .

بيد ان بعض الامراء ممن يشايعون سعيد تدخلوا فى الامر حتى رضى الخازندار باقراضه المال المطلوب بشرط ان يوقع على صك ، ولما قدم الهامى سلمه الصك وهو يقول : هذا المال اخذه عم ابيك ، فان شئت طالبته به وان شئت تجاوزت له عنه .

وكانت سلطة الحكام والمديرين مطلقة لا يحدها الا حق الوالى فى الاعدام او العفو ، وكان جميع هؤلاء الحكام من الاغراب ، القساة الفاسدين ، وكان نشاطهم موجها الى الاحتفاظ برضاء الوالى واخفاء عيوب الادارة ، والاثراء اثراء فاحشا على حساب المجموع ، وتقديم

الرجال لاعمال السخرة ، وارهاق الفلاحين بالضرائب دون العناية براحتهم وامنهم وتعليمهم وتوفير وسائل العلاج لهم .

ونهج سعيد نهج من سبقوه من حيث الحكم المطلق والاستبداد بالمواطنين ، واستطاع ان يجمع فى قبضته السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وكان متقلب الاهواء ، ضعيف الارادة، كثير التردد ، يثق بالاجانب ثقة عمياء ويخضع لارائهم ويغره ثناؤهم الكاذب ، ويتأثر بمناوراتهم الاستغلالية فينفذها دون ترو ولا دراسة ، ويميز الفرنسيين الذى ربى فى احضانهم على سواهم ، فيغدق عليهم الامتيازات. ولقد زينوا له يوما انشاء جيش عرمرم ، يترك مقاليده فى ايدى قواد فرنسيين ، فانصاع لهم ، ولكن هذا الجيش اثقل كاهل الخزانة العامة ، فاضطر مرغما الى تسريحه وهدم القلاع التى بناها .

ومن ابرز الشواهد على تقلب اهوائه ، انه كان ينشىء الدواوين والمصالح الحكومية ، وقبل ان ينتظم العمل فيها يصدر اوامر بالغائها. وينعم على كبار رجال الدولة والجيش بالاوسمة و «الانعامات» ثم يسلبهم اياها بعد حين ، ويعزل ويعين لاتفه الاسباب . ثم يعمد الى ترقية الجنود الجراكسة والاتراك ممن لا يلمون بمبادىء القراءة والكتابة الى مرتبة الضباط حتى ثارت الفتنة بينهم وبين الضباط المصريين الذين نالوا قسطا وافرا من التعليم ، وتخرجوا فى الكليات العسكرية المختلفة .

وشاد فى العام التالى لولايته « القلعة السعيدية » على مقربة من القناطر الخيرية واقام لنفسه مقبرة بداخلها واستورد كميات من الحديد والنحاس من انجلترا لها ، الا انه سرعان ما ابدل رايه واشار بهدم المقبرة وظل حديدها ومهماتها فى زوايا الاهمال الى ان علاه الصدا .

وكان سعيد من انصار النخاسة والسخرة ، ففرضها على الوف المصريين ، وشن حملات تاديبية على قبائل البدو فى الفيوم والشرقية — وبالاخص قبيلة الهنادى — واخضعهم بطرق وحشية ، وكانت مدافعه واسلحته الفتاكة تحصدهم حصدا ، وقاد مشايخهم الى القلعة السعيدية يسجنون فى غياهبها .

وانقاد سعيد الى اغراء فردينان دى لسبس ومنحه امتياز مشروع قناة السويس وفتح له خزانة الدولة يغترف منها ما يشاء

للدعاية للمشروع والاتفاق عليه ، وما كادت تفصيلات المشروع تصل الى ايدى ساسة انجلترا حتى بلغ منهم الاستياء حدا جعلهم يوعزون الى سفير بريطانيا فى استامبول بمناهضته ودبروا مع الباب العالى مكيدة لخلع سعيد بان يستدرجوه الى مدينة بيروت ثم يلقى القبض عليه بتهمة تمرده وخروجه على طاعة السلطان فلما لم تتم هذه المكيدة ارسلت بريطانيا قطعا من الاسطول الى سواحل الاسكندرية بقصد التهديد والوعيد .

وفزع سعيد من تآمر بريطانيا والباب العالى عليه واضطربت افكاره وساورته الهموم لا سيما بعد ان دخل المشروع فى دور سياسي دولى وبدات المناقشات العنيفة تدور حوله فى المنتديات السياسية وعلى صفحات الصحف فى اوروبا . واراد دى لسبس ان يرفه عن سيده وان ينأى به عن هذه الاجواء لئلا يتأثر وينهزم امام التهديد وينفض يده من المشروع فزين له القيام بسياحة الى جنوب الوادى قائلا له : لماذا لا نبعد عن الثقلاء فنقوم برحلة الى السودان ، وهناك يخلو الجو لنا ونتحدث مليا فى مشروعنا بعيدين عن العيون والارصاد .

فأجابه سعيد الى طلبه ، واستقلا المركب فى النيل .. فما ان بلغ مدينة بربر فى يناير ١٨٥٧ وشاهد آثار الدمار والخراب الذى أنزله محمد الدفتردار وابراهيم بالشعب الشقيق حتى اغرورقت عيناه بالدموع وانخرط فى البكاء والنحيب ، فلما حاول دى لسبس مواساته وسؤاله عن بواعث حزنه اجابه فى مرارة :

ــ ابكى على تعاسة هؤلاء السودانيين وعلى ما انزله افراد اسرتى بهم وببلادهم من الوان الخراب والدمار .. ان الوف العرائض ترد الى من كل ناحية وهى تفيض بالشكوى من المظالم .. انظر الى القرى التى احرقها الدفتردار ، انهم لم يعيدوا بناءها بعد .. ان هذا هو البؤس بعينه ، ولا مفر لنا من التكفير عن ذلك الا بانسحابنا وترك السودان لاهله .

فثبط دى لسبس من عزيمته وقال له :

ــ ان هذا لن يكون .. ان واجبك كوال متعلم يحتم عليك الاحتفاظ بالسودان وان تهتم بشئونه !!

• ● •

وكان سعيد كسولا ، سهل القياد ، متلافا للمال بذىء اللسان ،

لا يرى فى داخل قصره الا حافى القدمين حاسر الراس ، وكان على كل من يود التزلف اليه من اصحاب المطامع ان يحمل اليه انباء كاذبة ، ويتملقه بكلام رقيق ، ويتبسط معه فى رواية النوادر والنكات التى تنعشه ، وكان ياتى بالمستغربات التى لا يعمد اليها سوى المأفونين واصحاب العقول الضيقة . قيل له يوما ان صحف اوربا تعيره بالجبن ، فاراد ان يظهر شجاعته وامر بأن تملأ جوانب احد الشوارع بالبارود وان يجعل سمكه قدما فى الطريق ، حتى اذا تم ذلك جعل يتمشى على مهل فوق البارود وهو يدخن الشبق ومن خلفه بطانته وفى ايديهم الشبق ايضا ، متوعدا كل من يتخلف عن ذلك بالعقاب .

وارتبكت الحالة المالية فى عهده ، فعقد اول قرض دولى فى تاريخ مصر وكان يضن بالانفاق على المدارس لمواصلة رسالتها العلمية ، فاضطرت الى غلق ابوابها الواحدة تلو الاخرى ، وكانت حجته فى حرمان افراد الشعب التعليم والتثقيف ان الامة الجاهلة اسلس قيادا من الامة المتعلمة ، وجعل مرحلة التعليم الثانوى وقفا على ابناء الذوات وحدهم

ومن الغريب ان سعيد الذى كان يضن بالمال على شئون التعليم كان يغدق المال جزافا وبلا حساب على المدارس الاجنبية لا لشىء الا ليذاع اسمه على السنة الافرنج . وكانت البعوث العلمية التى ارسلت الى جامعات الغرب ليس بين افرادها من المصريين سوى النذر اليسير ، اما الباقون فمن الاجانب الذين لا يمتون بصلة الى مصر سوى صلة الاقامة بها واستغلالها .

وقد سبق لسعيد ان دفع الى دى لسبس مائة الف جنيه على الرغم من ان موظفيه كانوا يشكون عدم دفع مرتباتهم عدة شهور ، ثم اعطاهم اذونات على الخزانة وصار الموظفون بدورهم يسلمون هذه الاذونات الى البقال والجزار والخباز ، وكم كان مضحكا ان يجتمع هؤلاء جميعا امام دار وزارة المالية للمطالبة بصرف اذونات بلغت فى جملتها اربعة ملايين من الجنيهات .

ولجا الى حيل اخرى للتخلص من صرف المرتبات المتاخرة ، فكان يمنح الموظفين مهمات من مخازن الحكومة بقيمة الاذونات التى يحملونها ، ويوزع عليهم ارضا من أملاك الدولة بدل معاش ، ووهب عبد الرحمن رشدى مدير الوابورات الاميرية مطبعة بولاق للتخلص من نفقاتها ،

واخيرا باع المصانع وسرح الجند ورهن مجوهرات وتحف ليحصل على اموال يسدد منها ديونه .

• ● •

وعلى الرغم من هذه الارتباكات المالية التى كانت تعانيها مصر ، فقد اضمحلت قواها البحرية واصاب سفن الاسطول التلف فامر سعيد بتكسيرها وبيع اخشابها .

واشترك طوعا لاوامر الباب العالى فى حرب القرم ، وارسل نحو عشرين الف جندى الى الاصقاع الباردة والثلوج حيث لقوا حتفهم .

وشجعت ميول سعيدالفرنسية أن يطلب اليه نابليون الثالث امداده بحملة عسكرية تقاتل فى حروب فرنسا ضد المكسيك على ان يكون افراد هذه الحملة من ابناء السودان، فاذعن سعيد لمطالب الامبراطور، وبادر الى تنفيذ رغبته بارساله فرقة سودانية بقيادة البكباشى جبره محمد ، وابحرت من ميناء الاسكندرية على بارجة فرنسية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢ .

وقد جرت العادة ان الباب العالى كان يطلب الى مصر نجدته بمدد من الجند فى حروبه وذلك باسم السيادة والتبعية، ولكن لم تجر العادة ان تستعين دولة اجنبية لا تربطها بمصر صلة بارسال فرقة تحارب فى بلد لا تهم مصر مطلقا ولم يسمع عنها احد من المصريين فى ذلك العصر .

• ● •

وكان لميول سعيد للاجانب تاثير عميق فى تشجيع جالتهم ومن ضاقت بهم اوطانهم للهجرة الى ارض النيل . يدفعهم الى ذلك سخاء الوالى وتبذيره وتيسيره سبل العيش لهم سواء باسناد مناصب الدولة اليهم مع حرمان ابناء البلد منها ، او مساعدتهم على استغلال مرافقها الحيوية .

وفى معرض تبذير سعيد واسرافه ، روى ان احد المقاولين الايطاليين قام بترميم بعض قصوره ، ثم طالبه بقرابة مائة الف ليرة ايطالية ، ولكن سعيد ابى الا ان يكتب على الفاتورة « تصرف القيمة بالليرات الانجليزية ! » . فهل كان هذا الوالى المتلاف لا يدرك بأن

الليرة الانجليزية تساوى خمسا وعشرين مرة الليرة الايطالية فى ذلك الوقت .

وكان من نتيجة ضعفه وتهيبه امام قناصل الدول ان عبر هو بلسانه يوما عن ذلك فقال : انى لاخشى ان ينظر جوادى شذرا الى احد الاجانب وهو يعبر شوارع الاسكندرية ، فيفد قنصله ويطالبنى بتعويض عن اهانة لحقته !

وكان للاجانب مناورات وحيل معه لابتزاز امواله . كانوا يزعمون بانهم قاموا بتوريد مهمات لمخازن الحكومة ويقدمون فواتير وهمية فيأمر هو بصرف قيمتها فى الحال ، وكانوا يعمدون الى مطالبته بتعويضات ضخمة فى مقابل خدمات خيالية أدوها للدولة ،فيسخو عليهم ليسكتهم .

حدث أن طلب زيزنيا قنصل بلجيكا تعويضا قدره ثلاثة ملايين فرنك لعدم تحقيق وعد شفوى بمنحه التزام الترانسيت .. وتاخر القطار مرة عن موعده بين السويس والقاهرة لسبب ما فطالبه الدكتور كاستيلانى بتعويض قدره سبعمائة الف فرنك لما لحقه من اضرار بسبب هذا التعطيل .

وفى عهد سعيد قامت شركات الاستغلال والاحتكار ، وضمن لها تعويضات سخية فيما لو اصابتها خسائر مادية . ومن بين هذه الشركات : سكة حديد الرمل ومياه الاسكندرية والمطاحن وبنك اوف ايجبت وغيرها من الشركات ذات رءوس الاموال الاجنبية .

لذلك كان الاجانب يوم وفاة سعيد يندبون حظهم ويصرخون قائلين : لقد تبخر بحر المال وتحول الى سراب . وآلت مواردنا الى الخراب .

هكذا ختم سعيد وثيقة حكمه على مصر بالذل والعار ، وحول بلادنا العزيزة الى اقطاعية فرنسية يرعى ابناء السين فيها . وهكذا كان سعيد اول حاكم فى مصر مد يده الى المرابين الاجانب يقترض منهم بفوائد باهظة . وهذه القروض هى المعول الاول الذى دك صرح استقلالنا وقوميتنا . فقد شجع بعمله هذا خلفه اسماعيل على ان يورط مصر فى ديون قضت على سمعتها، واتاحت الفرصة للمستعمرين لان ينشروا ظلهم الاسود على اطرافها ، وان ينشبوا مخالبهم فى جسدها وينهشوه نهشا .

الخديو الخليع

عقلية اسماعيل وصفاته ـ افراطه فى الانانية وسلبه حقوق المواطنين ـ فراره من مصر بسبب وباء الكوليرا ـ الحياة الداخليــة فى قصوره ـ افندينا فى مباذله ـ الامتيازات التى حصل عليهـا من الباب العالى ـ اشهر لص فى التاريخ ـ عزله وطرده من مصر

ورث اسماعيل الحكم بعقلية الشاب الطائش المستهتر الذى يرث ضـيعة عن ابيه ، فكان يتطلع الى مصر على انها اقطاعيـة يستغلها لمنفعته ، وتعود ثمارها بالخير على افراد اسرته ومن يلوذون به من ابناء جلدته ، ونظر الى الفلاحين الذين يعملون فى مزارعه نظرته الى الاجراء ورقيق الارض الذين يفلحون الارض بالسخرة لقاء لقيمات يتبلغون بها .

وهذا الحاكم هو شر مثال للرجل المبذر الخليع الذى يعصى خيال مؤلفى الروايات عن ان يرسموا صورة منه ، وكان اندفاعه فى طريق الخراب والاسراف يفوق سرعة الصوت ، ففى فترة حكمه استدان اكثر من تسعين مليونا من الجنيهات اى بمعدل ستة ملايين جنيه فى السنة، عدا اموال الضرائب العامة التى كان يسطو عليها وتقدر بمائتى وخمسين مليونا من الجنيهات ، وخيرات الاوقاف ، وما تدره عليه املاكه الواسـعة الاطراف ، فحب الترف والاغراق فى الشـهوات والمطامع ، والشغف بالمظاهر الكاذبة ، وحياة المجون ، كانت بمثابة مثله العليا فى الحكم .

قبل ان يوارى جثمـان سـلفه ـ الوالى سـعيد ـ فى مقبرته بالاسكندرية ، كان اسماعيل فى القـاهرة يتلقى التهـانى ويقيم الحفلات ويولم الولائم ، وكانت والدته خوشيار تنثر النضار ذات اليمين وذات اليسار على المهنئات والمهنئين .

وسار اسماعيل على سنة من سبقوه من الحكام ، اى من الانفراد بالحكم المطلق والاستئثار بكل كبيرة وصغيرة فى شـئون الدولة ، والتصرف فى ارواح المصريين وممتلكاتهم ، وكان وزراؤه لايملكون الا سلطات وهمية ، يدل على ذلك القروض التى استدانها فقدكانت

من الاسرار العليا المحجوبة عن الانظار ، بل كان هؤلاء الوزراء بمثابة موظفين فى دائرته ، فهو يوليهم ويعزلهم كيفما يشاء .

وكان اسماعيل بدوره من اشهر لصوص التاريخ ، اختلس لنفسه من الاراضى الزراعية خمسمائة الف فدان ، ومثلها لافراد اسرته ، اى ربع مساحة الاراضى المنزرعة فى الدلتا والصعيد ،وكانت هذه الارض معفاة من اية ضريبة ، وكان يعمد الى تسخير الفلاحين فى زراعتها بدلا من ان يؤجرها الى الذين انتزعت منهم .

ولم يكن يفرق بين امواله وبين اموال الدولة ، فهى جميعا ملك يمينه يتصرف فيها دون رقيب او حسيب ، فكان يغترف الملايين لا لينفقها على المرافق الحيوية للبلاد ولا الى ما يعود بالنفع على دافعى الضرائب ،بل ليشبع نزواته وينفقها على طغمة من حثالة الاجانب الملتفين حول عرشه ، وعلى اصحاب الصحف الافرنجية التى تحرق البخور ثناء على حكمه الفاسد ، وعلى رجال الباب العالى ليطلقوا يده فى موارد البلاد واذلال الشعب .

وكان فى الوسع ان ينشا بهذه الملايين التى بددها فى مباذله :

ستة الاف مدرسة ، وجامعتان وثلاثمائة مكتبة شعبية ، وستمائة مزرعة نموذجية ، وعشرات الملاجىء والمستشفيات ودور الحضانة للاطفال ثم يبقى بعد ذلك مال وفير .

كان اسماعيل اذا فجر وعربد لم يترك لفاجر بعده مجالا ، واذا قدم رشوة اغدق حتى يغرق ، واذا اراد البناء فانه يهدم حيا باكمله ليشيد عليه ما يريد،ويستغل الوف الايدى فى البناء بالسخرة، يعملون على ضوء الشمس نهارا ، وتضاء لهم المشاعل ليلا ، وعلى هذا المنوال قامت قصوره التى شيدها لحفلات المجون ، ووسعت الشوارع بهدم دورها ومنشئاتها ومساجدها لمرور موكبه ،واقيمت المسارح والمراقص والملاهى ودور الميسر ليرفه فيها عن نفسه وعن ضيوفه ومحظياته .

وكان فوق هذا وذاك محبا لذاته ، مفرطا فى الاثرة والانانية ، رقيقا فى الظاهر وقاسيا عاتيا فى الباطن ، يقدم مصلحته الخاصة على مصلحة الشعب ، ويترك النافع الضرورى ليشتغل بالكماليات . . اصيبت مصر بوباء الكوليرا فى بداية عهده بالحكم ، وحصد الوباء ارواح الالوف من المواطنين ، فبدلا من ان يعمل هذا الحاكم الفاسق على

تدبير الوقاية وتخفيف ويلات الوباء عن الشعب الذى يستنزف آخر قطرة من دمه ، تركه يسوده الذعر ويستبد به الخوف ، وفر الى عواصم اوربا وملاهيها ، يواصل حياة المجون ويقرضه المرابون ما يطلب من مال بفوائد باهظة ، وهذه القروض هى التى لانزال ندفعها الى اليوم من كدنا وعرقنا .

واقام لمناسبة افتتاح قناة السويس حفلات جنونية لم يرو التاريخ لها مثيلا فى الاسراف والتبذير ، فانفق مليونى جنيه ، واقام لضيوفه الاجانب المراقص والملاهى ومد الولائم وموائد الميسر ، واستقدم فرقا تمثيلية واخرى راقصة من عواصم الغرب ، وشيد قصورا خاصة ودارا للاوبرا ، ومد جسرا مؤقتا على النيل امام سراى الجزيرة كلفه الوف الجنيهات ليتسنى لضيوفه عبور النيل بمركباتهم لشهود حفلة راقصة ، وبينما ضيوفه الاجانب يرفلون فى مباذلهم بفضل اموال الضرائب العامة التى تغدق عليهم ، والموائد التى لا ينقطع مدها لهم ليل نهار ، والخمر التى تسيل كالانهار ... كان هناك شعب فى اقصى الصعيد يعانى مجاعة نتيجة فيضان النيل ، واتلاف محصولات الزراعة ، فتحصد الارواح حصدا ، ويعيش بقية الضحايا على حثالة القصب ويتغذون بالجيفة والاعشاب البرية ، ويلبسون العرى والخرق البالية .

وبينما تزداد البلاد فقرا على فقر ، وشقاء على شقاء ، ويعيش فلاحوها كالجرذان والضفادع فى الجحور والاكواخ ، كان اسماعيل على الرغم من الامراض الخبيثة التى اصابته ، غارقا فى مباذله ، لا يبرح الكاس الا الى احضان الساقطات ، وتلك كانت اخلاق اسرته جميعا من امه الى ابنائه وحفدته .

وكان وزراؤه من نوبار الى اسماعيل المفتش الى رياض على شاكلته ، لا يانفون من تقليد سيدهم فى قبول الرشاوى والنهب والسلب ، واستغلال النفوذ فى عقد الصفقات المريبة ، والعمليات التجارية المخزية ، لتفيض جيوبهم بالمال .

حدث ان حضر الامير فردريك ولى عهد المانيا حفلات افتتاح قناة السويس ، وعرج فى طريق عودته الى بلاده على استامبول لزيارة السلطان عبد العزيز ، فلما استقر به المقام فى برلين ساله صديقه « كفكن » عن رايه فى حكام البلاد الشرقية ، فاجابه :

ـ رايت السلطان عبد العزيز ، فوجدته حسن المعاشرة ، ويظهر على سيماه الاصل الطيب والنجابة ، وتدل احواله على انه سليل اسرة عظيمة ، الا ان فيه شيئا من التكبر ، ويظهر ان هذا ناشىء من قلة اختلاطه او عدم وقوفه على احوال العالم ... اما اسماعيل خديو مصر ، فيظهر ان الدهان المصبوغ به تاج سيادته لم يجف بعد ، وهو يشبه حاكما افريقيا او بنكيرا اتته الثروة فيما بعد ، وهذا هو الفارق بين الرجلين .

• ● •

اما الحياة الداخلية فى قصوره فكانت احلاما فى مخيلة التاريخ .. شيد ثلاثين قصرا متناثرة ما بين القاهرة والاسكندرية والجيزة والصعيد والوجه البحرى ليجعل منها اوكارا للسمر العابث ، ومنتدى للرقص الخليع والموسيقى الصاخبة وما يصحب ذلك من شراب وتفنن فى الشهوات . وانفق على هذه القصور ملايين الجنيهات فى سبيل تأثيثها وتجميلها بالنقوش والزخارف والتحف والاثاث ، واحاطها بالحدائق والبساتين وحمامات السباحة ، وملأها بالمحظيات والراقصات والمغنيات والجوارى والعبيد والخصيان ، الى حد ان سكان هذه القصور قدر عددهم عند عزله بعشرة الاف شخص ما بين رجل وامراة ، فكم كانوا يكلفون دافعى الضرائب من طعام وشراب ولباس ؟

وشيد قصر عابدين ليجعله مقرا لحكمه بدلا من القلعة ، وكذلك قصر الجزيرة لضيافة الامبراطورة اوجينى ، وقصر القبة لولى عهده . وبنى فى مدينة الاسماعيلية قصرا شاهقا ليحى فيه مرقصا ، واقام على ضفاف البوسفور قصر « ميركون ـ اى ـ سيد الشمس » وجمله بانفس صنوف الرياش ليدعو فيه البادیشاه عبد العزيز ، واستخدمت فى المادبة اوان وصحاف من الذهب المرصع باليواقيت والاحجار الكريمة ، وعقب المادبة بعث بالاوانى والصحاف هدية الى السلطان فى قصره .

وكانت موائده تمتاز بالاطعمة الفاخرة ، والشراب المعتق ، وكان اسماعيل وهو الوالى المسلم لا يانف من تقديم الخمور على موائده لمدعويه ، وقد حدث ان دعا ضباط جيشه الى مادبة ، فراعتهم

الكؤوس المصفوفة وقوارير الخمر المعتقة ، فانفوا من مشاركته معاقرة الخمر .

وكانت والدته خوشيار تعيش فى قصر « الزعفران » بالعباسية حياة كلها لهو وإثم وفجور . كانت لديها فرقة موسيقية مكونة من اربعين عازفة يرتدين السروال ، وجاكيته ذات ازرار ذهبية ، يضعن على رءوسهن الطرابيش ، وكانت عميدتهن برتبة «أميرالاى» فى الجيش ، عدا فرق اخرى من المطربات والراقصات والممثلات يرفهن عنها وعن مدعواتها .

وكم من روايات شاذة اذيعت عن « الزعفران » ومنها اقتناص اغوات القصر ليلا لشبان اقوياء البنية عند مشارف العباسية ، ووضعهم داخل مركبات مسدلة عليها السجوف ، والسير بهم الى مداخل القصر حيث تنقطع انباؤهم ولا يسمع احد عنهم بعد ذلك شيئا ، والشائع انهم كانوا يلقون فى جب بعد ايام معدودات ، وبعد ان يطلب اليهم تادية مهام خاصة .

وكان اسماعيل اذا ما اراد ان يخفف الضغط عن الحريم ، عمد الى تزويج « الجوارى الخديويات » برجال من الحاشية او الضباط او كبار موظفى الدولة ، بحجة انه يريد تحسين النسل فى مصر . وكان لا يكتفى بامهار الجارية المال الوفير بل يقطعها ارضا تتراوح مساحتها بين المائة فدان والخمسمائة فدان حسب مقام زوجها ، ويتكفل بجهازها وملابسها وحليها ، وينعم عليها بقصر او بمسكن فخم ، ومركبة بجوادين ، ويرتب لها مصروفا شهريا ، ويفضل زوجها على غيره فى الترقية الى المناصب العليا ويصبح من «محاسيب القصر » .

والغريب ان رجال الحاشية وكبار الموظفين كانوا يتنافسون على نيل هذا « الشرف » ومشاركة «ولى النعم» فى الاستمتاع بهؤلاء الجوارى اللواتى انتشرن ليحكمن مصر من وراء ستار .

والواقع ان الدولة كانت مسيرة للجوارى الفاتنات، وكن يجلبن من اسواق الرقيق فى استامبول وغيرها ، وكانت منهن النصرانيات والافرنجيات والشرقيات المسلمات . وكانت موارد الدولة والجهاز الحكومى تحت تصرفهن ، بفضل ارتباطهن بالقصر ، وكان الوزير لا يمكنه ان يخيب طلبا لواحدة منهن، ففضلا عن الانعامات والحظوة

فان الوف الفلاحين كانوا يحملون الى اراضيهن الزراعية للعمل فيها بالسخرة .

وفى عام ١٨٧٦ ارسل الخديو اولاده الى عواصم اوربا ، وعول على اكتساب عطف فرنسا بجعل باريس مقرا لدراسة نجلهحسين كامل ، ومن البديهى أن اى ملك يسر سرورا عظيما اذا ما راى ان احد الحكام الاجانب قد سلم اليه ابنه ليتلقى ثقافته فى مدارس بلاده وليتشبع باخلاقها .

وقد اشترط اسماعيل ان تكون سكنى الامير فى قصر فخم يطل على الشانزليزيه ، وان يؤثث القصر باثاث ملكى ، وان يعين رئيس خدم وعدد وافر من الخدم وثلاث مركبات « فيكتوريا وكوبيه ولاندو » وسبعة خيول ، ويمنح الامير مليون فرنك فى السنةلنفقاته الخاصة عدا ايجار القصر ونفقاته ومرتبات المربى والمدرسين واجور الخدم ، وان يسير فى دراسته على المنوال المتبع مع ولى عهدفرنسا فيذهب الاساتذة اليه فى القصر .

وبعث بابنه الثانى حسن الى انجلترا واشترط من حيث السكن والاشراف على المعيشة نفس الاشتراطات التى لابنه حسين . ومن الطريف ان الامبراطورنابليون احتج على ان الخديو ارسل اكبر انجاله الى لندن دون باريس ، فقام نوبار بمهمة افهام الامبراطور بان اكبر انجال الخديو وهو توفيق لم يبرح مصر ، والثانى فى باريس والثالث فى لندن .

وتلك كانت مشاغل الملوك !!

• ● •

واجتاحت مصر فى ذلك العصر موجة من التفرنج وتقليد الغرب فى متعه واسلوب حياته ... صرف اسماعيل همه الى قلبالقاهرة بغية أن يجعل منها باريس صغرى ، فخطط الاحياء واقام الجسور الجميلة على النيل وعبد الشوارع ونسقها وانارها بغاز الاستصباح ومد مواسير المياه الى البيوت ، وشيد الملاهى ودور القصفوالتمثيل وذلك فى الاحياء التى تقع فيها قصوره او التى تقطنها الجاليات الاجنبية ، اما الاحياء الشعبية فظلت على ما هى عليه من حيث الاكتظاظ بالسكان واهمال مرافقها ، ثم نصب التماثيل فىالساحات العامة ولكن لأفراد اسرته . وانشا ميدانا لسباق الخيل ليرفه عن

نفسه وعن ضيوفه ، ثم نهج نهجه الوزراء والاعيان فى المراهنة والمنافسة فى معاقرة الخمر .

وكان اسماعيل يعيش كملك اوربى فى مظهره ومأكله ، ويحاكى البلاط الفرنسى فى مظاهر مجونه وعبثه ... وتهافت باشواته على تقليده ، فشملتهم بدعة التفرنج ، واسرفوا فى المظاهر الاجتماعية وتقليد الغربيين فى المسكن والمأكل والملبس ، واحياء حفلات ماجنة تتخللها الموسيقى الصاخبة والوان الغناء والرقص الخليع ، واعداد الموائد على الطريقة الافرنجية ، وجلب الراقصات والمغنيات والغوانى من اوربا . وظهرت بدعة قضاء فصل الصيف فى فيشى وكرلسباد وافيان ،واستيراد الاثاث والرياش والتحف من باريس وروما ولندن، أى انهم اقتبسوا آفات اوربا وقشور حضارتها دون اللباب ، ولو اقتبسوا العقلية الاوربية كما نهجت بعض الدول الشرقية كاليابان لما انتكست مصر وحكمها هذا الطاغية حكما اوتوقراطيا فاسدا .

ووضع الخديو ثقته فى ابناء جلدته من العثمانيين ، فكانوا يانفون من الاندماج فى أوساط الشعب ، والتفاهم بلغته ، وتلقين اولادهم اللغة العربية ، وكانت حكومته خليطا من العثمانيين والجراكسة والارناؤود والارمن وحثالة الافرنج الذين ضاقت بهم سبل العيش فى اوطانهم ، ولم يكن بينهم من يتكلم بالعربية ، ومع ذلك كانوا يحكمون شعبا ويسوسون رعية . وكان على راس حكومته شخص ارمنى، هو نوبار يحذق التكلم والكتابة باحدى عشرة لغة دون ان يفكر فى تعلم لغة الشعب الذى يحكمه . وكذلك كان معظم الوزراء ورجال الحاشية وكبار القواد يسيطرون على مصائر شعب لا يتفاهمون بلغة اهله ، وكانت مكاتبات الدولة الرسمية والقوانين ومراسيم تشكيل الوزارة تجرى باللغة الفرنسية ، كأن اللغة العربية التى وسعت كلمات الله الكريم فى كتابه العزيز لا تفى بحاجات الدولة .

وهناك مصالح وادارات حكومية مثل الجمارك والسكك الحديدية والتلغرافات والمساحة والموانىء يديرها قوم من الاجانب ، ولكنها تعد نفسها مستقلة عن الجهاز الحكومى ، وكان قادة جيشه من الافرنج ، وهؤلاء القواد هم الذين خانوا مصر فى حروبها وسلموا أسرارها الى اعدائها ، ففى حرب الحبشة مثلا كان الجنرال لورنج متصلا بالجواسيس الفرنسيين المنبثين فى ارجاء البلاد لاستطلاع

حالة الجيش الفاتح ، فسهل لهم القائد الاجنبى مهمتهم وامدهم بالبيانات والارقام التى يتوقون الى الحصول عليها ، وكانت النتيجة أن أخذ جيش مصر على غرة وافنيت فرق باكملها وتكبدت مصر خسائر فادحة فى الارواح والاموال .

وكان هناك حزبان يتنافسان حول العرش ، أولهما الحزب التركى بزعامة محمد شريف ، وكان منقسما الى شعبتين : الجركسى والعثمانى ، وهم جميعا من سلالة العناصر التى وفدت على مصر طلبا للرزق ، فشغلوا المناصب الرفيعة فى الحكومة وفى الجيش ، وملكوا القصور والاراضى والسرارى والمحظيات ، واصبحوا يتيهون خيلاء على المصريين ولا يتنازلون الى التكلم بالعربية ، أما الحزب الثانى وقوامه المصريون فكان بزعامة اسماعيل صديق المفتش ، وكان لا حو ل له ولا حيلة سوى الرضوخ لسطوة الحزب الاول .

• ● •

لا تزال مصر تدفع ثمن اخطاء اسماعيل وتعانى الارزاء والمحن التى جرها عليه طيشه ومجونه ، واستخفافه بحقوق المواطنين ، وكان للمال الذى يغدقه على رجال الباب العالى تأثيره النافذ فى تعيين وزراء الدولة العلية وعزلهم والحصول على امتيازات عادت عليه وحده بالنفع الشخصى .

وفى مقدمة المسائل التى كانت تشغل باله مسألة تغيير نظام وراثة العرش وحصره فى اكبر ابنائه ، وهى مسألة لم تكن تهم مصر فى قليل أو كثير بل هى من المسائل الشخصية المحضة .

وقد سبق لاسماعيل أن تخلص من منافسه على الولاية وهو الامير احمد حين دبر مع نوبار مدير السكك الحديدية فى ذلك الحين مؤامرة لاغراقه . فقد حدث ان اقام الوالى سعيد مادبة فى قصره بالاسكندرية فى ١٥ مايو ١٨٥٨ دعا اليها الامراء ، وفى طريق عودتهم بالقطار ، لم يكن جسر كفر الزيات قد شيد بعد ، بل كانت مركبات القطار تعبر على ناقلة بخارية ما بين كفر العيس وكفر الزيات وتخلف اسماعيل عن ركوب القطار من محطة الاسكندرية بعد أن رسم الخطة مع نوبار وناظر محطة كفر الزيات اسماعيل الشيمى وهى ان يجعلوا القطار يسقط بمركباته فى النيل أثناء عبوره فوق

الناقلة البخارية ، وكان أخوه الامير احمد رفعت ارشد افـــراد العائلة سنا بعد سعيد ، فلما استقرت المركبات فوق الناقلة وسارت الى منتصف النهر نفذت المؤامرة بان دفعت المركبات لتسقط فى الماء ، وبذلك لقى أخوه مصرعه ، وكان بدينا فلم يستطع ان يقفـز من شباك المركبة وغرق والسيجارة فى فمـه ، واما الامير حليم فاستطاع ان ينجو بنفسه ، واخيرا آل العرش الى اسماعيل بوصفه اكبر افراد الاسرة سنا .

وبعد أن تولى اسماعيل العرش صـار نهبا للمخاوف ، اذ كان ينافسه عمه الامير محمد عبد الحليم اصغر ابناء محمد على ، وكان يعيش فى قصر باذخ فى شبرا حياة كلها ترف ولهو لا تقل شأنا عن مجون الخديو ... كان يخرج الى الصـيد فى ابهة وجلبة وحوله الكلاب السلوقية والبزاة والموسيقى ، مما يعيد الىالاذهان ذكـرى السلاطين المماليك حين خروجهم الى الصيد ، وكان ينظـر الى إنه احق بالجلوس على العرش من اسماعيل نفسه . اذ انه من صلب محمد على راسا على حين ان اسماعيل هو ابن ابراهيم الذىاغتصب العرش حالة كونه ربيب محمد على ... انعكست هذه الخواطر فى نفس اسماعيل فدبر مكيدة للخلاص من منافسه واتهمه بالتآمرعلى سلامته ، واضطره الى التنازل عن ممتلكاته ومبارحة قصره حيث اجبر هو وافراد اسرته على ركوب القطار من شبرا بعد ان وجهت اليهم الاهانات ونفوا من مصر .

وكان هناك منافس اخر على العرش هو اخوه مصطفى فاضل ، وليس بين مولديهما سوى ساعات ، فجرده اسماعيل من ممتلكاته ونفاه بدوره ، فاختار الاول استامبول والثانى باريس مقاما .

وانفق الخديو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى صورةهدايا ورشاوى الى الباب العالى حتى يحقق لنفسه نظام التوارثعلىالعرش يحصره فى اكبر ابنائه ، وصدر بذلك فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ ورفعتبمقتضاه الجزية السنوية الى الضعف .

وتلى ذلك عدة فرمانات استخدمت فى سبيل تحقيقها الوسائل سالفة الذكر ، اى الرشاوى والهدايا ، فحصل على فرمان ٨ يونيو عام ١٨٦٧ بتغيير لقبه لقاء مليونى جنيه ، وسعى فى بداية الامرالى اختيار لقب « العزيز » بدلا من « الوالى » فرفض السلطان اعتماد

ذلك اللقب لان اسمه « عبدالعزيز » وهذا معناه انه عبده . فضلا عن أن اسم العزيز من أسماء الله الحسنى ، وبعد مفاوضات وقع الاختيار على لقب «الخديو» وهى كلمة مشتقة من اللغة الفارسية بمعنى « الرب » . وكان غرض اسماعيل من ذلك الاختيال بهذا اللقب على بقية حكام الولايات العثمانية والتقرب الى القاب الملوك والسلاطين .

وصدر فرمان ٢٥ سبتمبر ١٨٧٢ الذى يخول له حق الاستدانة وعقد القروض دون تصديق الباب العالى . وانفق فى هذا السبيل فيضا من الرشاوى والهدايا للسلطان ولوالدته ولرجال حاشيته .

ولما كانت العملة تضرب باسم السلطان ، وكذلك الرتب والاوسمة تمنح بموجب فرمانات شاهانية . وكان محرما على مصر ان تبرم معاهدات تجارية مع الدول الاخرى او تعدل انظمتها القضائية ،فقد سعى الخديو الى استمالة رجال الباب العالى بالحصول على « فرمان جامع » فى ٨ يونيو ١٨٧٣ يطلق يده فى عقد المعاهدات التجارية والاتفاقات الجمركية وسن القوانين والانظمة وزيادة عدد رجال الجيش والبحرية .

ولم يكتف اسماعيل بالهدايا والاموال يواصل بها السلطان ورجال المابين لحل مشاكله . بل لقد اتى ما هو انكى من ذلك ، وكان لخبرته بالنساء تاثير فى حل الازمات التى تثار بين مصر والدولة العلية . حدث ان اوفد الى السلطان مرة غادة بديعة الجمال ، كان الباديشاه قد لمحها فى قصر اميركون واعجب بها . وكان لهذه الوساطة تاثيرها فى نفس السلطان الذى سرعان ما انهى خلافا كان قائما بين الخديو والباب العالى بجرة قلم .

وامتدت اطماع اسماعيل الى ما هو ابعد من هذا . . . كان الغرور يزين له ان ينادى بنفسه امبراطورا على افريقية تشبها بامبراطور فرنسا ، وكان نابليون الثالث يؤازره فى تحقيق اطماعه ، ومن ناحية اخرى سعى الى المناداة بنفسه خليفة على المسلمين بمصاهرة السلطان عبدالعزيز ، واوفد رسله وحوارييه الى استامبول وزودهم بالهدايا والاموال لاغداقها على رجال الحاشية ، ثم سافر فى اثرهم ومعه كريمته توحيدة وقدمها الى السلطان الذى كان على وشك

عقد قرانه عليها لولا تحذير الصدر الاعظم له من عواقب هذه الزيجة .

• ● •

وكان اسماعيل يأخذه الغرور فيتعلق بالقشور الزائفة التى اقتبسها عن الغرب ويزعم بأن مصر لم تعد فى افريقية بل انها اصبحت قطعة من اوربا . ولم يدر بخلده ان الاقدار ستسخر منه فتجعل من بلاده فعلا قطعة من اوربا ولكن تحت وصايتها واشرافها تستغلها على الوجه الذى يحقق اطماعها .

كان يسير فى ركاب السياسة البريطانية والفرنسية اللتين تتنازعان مصر ، فسلم مقاليد السلطة فى السودان وممتلكات مصر الشاسعة فى افريقية الاستوائية الى حكام من الانجليز يعملون جهرا وسرا لحساب الاستعمار البريطانى ، وباع اسهم قناة السويس الى حكومة بريطانيا التى نظرت الى الاسهم من الوجهة السياسية لا التجارية ، وبادرت الى دفع الثمن . وقبل دفع تعويض مالى الى شركة القنال التى احالت المنطقة الى اقطاعية فرنسية ، وسمح للبعثات الاجنبية بالتنقيب فى دفاتر حسابات الحكومة وسجلاتها بحجة تنظيم الميزانية ورصد الديون . وادخل وزيرين اوربيين احدهما انجليزى والآخر فرنسى فى وزارة مصرية يرأسها ارمنى مسيحى معروف بميوله الانجليزية هو نوبار ، وجعل هذه الوزارة غير مسئولة ، لا امامه ولا امام الامة . وسمح لهذين الوزيرين الاجنبيين بحق المعارضة « الفيتو » فيما يصدره من قرارات لا توافق مشربيهما ، وضحى بوزير ماليته اسماعيل صديق على مذبح الاستعمار الاوربى بتأثير ممثلى السياسة البريطانية . وكان اسماعيل صديق زعيم حزب يقاوم النفوذ الاوربى ، وعقب مصرعه بأسبوع واحد تقدم عملاء الاستعمار بمشروع يهدف الى تأليف لجنة دولية تقوم بفحص المالية المصرية وهو مشروع ينم عن تدخل سافر ، على الرغم من ان مصر كانت دولة شبه مستقلة ، وتابعة اسميا للدولة العلية . وكان غرض هذه اللجنة الخفى اعلان افلاس الحكومة ، واخيرا شحن وظائف الدولة ومرافقها بمئات من الموظفين الاجانب الذين يتقاضون

مرتبات باهظة ، وكان العمل الذى يسند الى اربعة منهم ، فى وسع موظف واحد ان يقوم به .

ومهد السبيل للاستعباد الاقتصادى بسماحه للاجانب بتاسيس شركات برءوس اموال اجنبية تحميها الامتيازات والحصانات ولا تخضع لاي لون من الوان الضرائب ، وسهل للغرب تصريف منتجاته فى الاسواق المصرية ، والقضاء على الصناعة المحلية وهزيمتها فى ميدان المنافسة .

وعهد للاجانب بالشئون السياسية العليا للدولة ، والتفاوض باسمها فى المحافل الدولية ، والبت بآرائهم فى كل شان من شئونها .

وكان يصرف لكبار الموظفين الاجانب مرتباتهم كاملة على الرغم من فداحتها . على حين كان الموظفون المصريون محرومين من مرتباتهم ، بل ان من بينهم من كان يسرح من الخدمة بحجة الوفر .. حدث مرة ان احد ضباط الجيش عجز عن دفع كراء مسكنه عدة اشهر ، فشكاه المالك الى وزارة الحربية التى نظرت الى الشكوى من زاوية اخرى وانزلته رتبة بعد تكدير ، ولم تفكر فى ان الضابط تاخر عن الدفع لان مرتبه لم يدفع اليه والى مئات غيره نحو عشرين شهرا .

وكانت المحاكم المختلطة التى بذل اسماعيل جهده فى انشائها بقصد اقرار العدالة شرا عليه ، فاصدرت احكاما ضده وضد افراد اسرته ، فمن ذلك ان احد محضرى محكمة مصر المختلطة توجه بناء على طلب احد الدائنين وتنفيذا لحكم صادر ، الى قصر الخديو للحجز على اثاثه ومحتوياته ، فماطل الخديو وذكر بان هذا الاثاث سبق له بيعه الى بعض افراد اسرته ولم يعد ملكا خاصا به ، فاى خزى واى عار !!

• ● •

وكان اسماعيل يعمد الى التخلص من خصومه بشتى الطرق ، ولا سيما كل من يجاهر براى جديد او ينقد فكرة عامة ، فهو يدعوه الى قصره ويقدم اليه فنجالا من « القهوة الخديوية » فلا يكاد الخصم يؤوب الى داره حتى يخر صريعا وقد تغلغل السم فى احشائه .

وكان الحجز على حرية الراى شائعا فى عصره ، فللمرة الاولى فى تاريخ مصر عطلت الاقلام وقبرت الكفايات والمواهب واغلقت دور الصحف والاندية وشرد رجال الفكر وصودرت برقيات وكالات الانباء التى ترد من عواصم الغرب ، وحرم ترجمتها الى العربية ، وكانت

النتيجة ان غمرت البلاد سيول من المنشورات السرية تصور مظالم الحاكم وتطالب بالحد من سلطانه المطلق ورفع معالم العسف والجور.
وقد وصفه الشاعر صالح مجدى بقوله :

رمى بلادكم فى قعر هاوية
من الديون على مرغوب جوسبار
وانفق المال لا بخلا ولا كرما
على بغى وقواد واشرار
والمرء يقنع فى الدنيا بواحدة
من النساء وهو لم يقنع بمليار
ويكتفى ببناء واحد وله
تسعون قصرا باخشاب واحجار
فاستيقظوا لا اقال الله عثرتكم
من غفلة البستكم ملبس العار

ومن احسن ما وصف به اسماعيل ما كتبه معاصره يعقوب صنوع عنه وهى قطعة من الادب الشعبى الرفيع فى الصحيفة التى كان يصدرها بباريس باسم « ابو نظارة » :

« دلوقت راحت السكرة ، واستيقظ الفلاح ، وجاءت له الفكرة ، ومن مدة كام يوم فاق وصحى من النوم ، وفهم ان رب العالمين خلق عباده حرين ، وجعل الملوك فى كل مكان على الرعايا كالرعيان ، يدلوهم على طريق الفضيلة ويعلموهم العلوم والفنون الجميلة ، موش زى « شيخ حارتنا » الظالم اللى ما يقدرش يشوف فى بلاده رجل عالم . الا وحالا يعميه ، وفى نهر النيل يرميه . تبقى عياله عليه مغمومة . واسماك النيل تعمل عليه عزومة . انت نسيت اسماعيل صديق ، وما جرى له ، وذل حال حريماته وعياله . وكم من اولاد حارتنا ياناس ؛ نعل ابو خاشهم واسقاهم كاس السم ، واحنا انذال قاعدين ساكتين ، ولاوامر الظلم ممتثلين .

« كفاك ان « شيخ الحارة » لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، ولا يوجد فى وقت الصلاة الا جنبا ، وفى رمضان الا مفطرا ، نعم يصوم ولكن عن الخيرات ، ويستقبل الفجر ولكن فى احضان الساقطات . فاجر يقتات بالكبائر ، ويتفكه بالصغائر ، ويروح الى مولاه شاكيا ، ولشيطانه شاكرا ، فكانه عاهد ابليس فلم يخن له عهدا ، ووعده ان يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعدا ، ان ذكر الاتقياء والاخيار

قال : : احضروا لى الطبيب ، وان سمع بالاشقياء الاشرار قال : غننى بذكرهم يانديم . فرعون بالنسبة اليه حاكم عادل . وابو جهل ان قيس به امام فاضل ، ويزيد لو مائله لما اضطربت الاقوال فى جواز اللعنة عليه . والحجاج لو شاكله لما اختلفوا فى نسبة الكفر والطغيان اليه . ولكنهم جميعا ليسوا اكفاء له . فانه هتك استارا ما هتكوها . وانتهك حرمات ما هتكوها . وظلم حتى اهل القبور ، وجار حتى على السمك فى البحور . فلو مسخه الله ذئبا لفتك بجميع انواع الحيوان . او حية لما بقى على وجه الارض انسان . وحسبك انه يحب المظالم حبه لاولاده واحبائه اللئام . ويبغض المراحم بغضه لاضداده واعدائه الكرام » .

• ● •

فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ وقع فى القاهرة حادث فريد لفت اليه الانظار ، اذ قام فريق من ضباط الجيش بمظاهرة احتجاجا على الحكومة . . كانت حالة هؤلاء الضباط سيئة من الوجهة المالية لتاخر صرف مرتباتهم نحو ١٨ شهرا ، وزاد نوبار والوزيران الاوربيان من آلامهم بان استدعوا فريقا من الضباط الانجليز فى جيش الهند للقيام بمسح الاراضى الزراعية فى الدلتا والصعيد ، ورأى الضباط المصريون ان هذا الامر لا يتفق مع مصلحتهم وانه اعتداء على كرامتهم ، لانهم اعرف بطبيعة بلادهم فوق ما هم فيه من ضنك ، فتجمهروا فى الطرقات والشوارع ، والتقى فريق منهم بنوبار رئيس الحكومة فى شارع محمد على فى طريقه الى مقر رياسة الوزارة ، فاحاط الضباط بمركبته وأوسعوه ضربا ومزقوا ملابسه والقوا بطربوشه الى الارض ، وحالوا دون ذهابه الى مقر عمله . وكذلك فعلوا برياض وزير الداخلية اذ أوقعوه على الارض وهو يحاول صعود الدرج الى مكتبه ، واعتدى فريق آخر على ريفرس ولسن وزير المالية ووجهوا اليه اهانات بالغة . وظل الضباط يهتفون بنداءات مختلفة فى مبنى وزارة المالية ، الى ان قدم الخديو بنفسه يصحبه عبد القادر حلمى باشا ، واستدعى حرسه الخاص من عابدين واخذ الجند يطلقون النار فى الهواء ، وخاف الخديو على مركزه فخاطب الضباط بقوله : بما اننى الحاكم الشرعى للبلاد فقد وجب عليكم طاعتى .

لم تقو الوزارة المختلطة على الصمود فى الحكم وفشلت فى اخماد

حركة التذمر فى صفوف الجيش ، فتخلت عن مهام الحكم وخلفتها وزارة برياسة الامير محمد توفيق ولى العهد ، ومن بين اعضائها الوزيران الاجنبيان اللذان كانا كل شيء فى الدولة . ودبر على الخديو ان يستل سلطته بعد ان كانت مطلقة ، فاوعز الى فريق من اتباعه اطلقوا على انفسهم اسم « الجمعية الوطنية » ومنهم : شاهين كنج باشا ، ومحمد شريف باشا ، وعلى البكرى ، وابراهيم المويلحى بكتابة عرض اعلنوا فيه انهم يضمنون باموالهم ديون الخديو الى جانب ضمان « الدائرة السنية » ويطلبون عزل الوزيرين الاجنبيين ، والغاء الرقابة المالية اكتفاء بما يقدمون من ضمان للدين العام .

على ان جمال الدين الافغانى فضح هذه المناورة المكشوفة التى دبرها الخديو وقام على راس وفد من الاحرار ، واتصلوا بقناصل الدول مطالبين بتخليص البلاد من الخديو وعزله .

ولم تستطع وزارة توفيق ان تقف وحدها فى وجه التيارات المعارضة ، فاستقالت واعقبتها وزارة محمد شريف التى تولى شاهين كنج فيها وزارة الحربية . واحس ريفرز ويلسن ودو بلنير حرج موقفيهما فبعثا باحتجاج الى الخديو حول الطلب المقدم من « الجمعية الوطنية » وذكرا بان العريضة ستحدث اضطرابا فى مصير الامور .

وفيما كان اسماعيل يفكر فى طريقة الرد على هذا الاحتجاج اذ وقع حادث فريد آخر ، فقد سرقت من محطة بولاق الدكرور ، وهى نهاية خط سكة حديد الصعيد ، متحصلات ضرائب الوجه القبلى وهى ٢٨٠ الف جنيه ، سرقت عند منتصف الليل . فقصد مسيو تريبو قنصل فرنسا الى قصر عابدين فى هذه الساعة المتاخرة من الليل ودار بينهما حديث عنيف لاح من غضونه ان القنصل يتهم الخديو شخصيا بسرقة هذه الاموال التى هى جزء من سداد الدين . وهدده بان فرنسا باتفاقها مع انجلترا وسائر الدول الغربية ستطلب الى الباب العالى عزله ، لان الحالة اصبحت لا تطاق . فجمع اسماعيل وزراءه وعرض الامر عليهم ، فكان من رأى شاهين كنج ان يرسل الخديو برقيتين احداهما الى الباب العالى يبلغه بان قنصل فرنسا اهان جلالة السلطان فى شخص ممثله ، ويطلب سحبه من مصر . والبرقية الثانية الى وزير خارجية فرنسا يطلب فيها بعد سرد ماحدث من القنصل سحبه فى الحال ويهدد بان مصر فى حالة الرفض ستضطر الى قطع علاقتها الديبلوماسية بفرنسا .

ولكن اسماعيل تردد ثم تقهقر ، فكان من نتيجة ذلك ان بيتت الدول الغربية النية على عزله . فوجهت فرنسا وانجلترا انذارا عنيف اللهجة فى ١٩ يونيو ١٨٧٩ جاء فيه : ان الحكومتين الفرنسية والبريطانية تشيران عليكم بالنزول عن العرش ومغادرة مصر . فاذا قبلتم المشورة تقررت مخصصات كافية لكم ولا يحدث خلل فى نظام توارث العرش ، كما ان رفضكم التنازل عن العرش سوف يحل الحكومتين من وعدهما لكم بالمخصصات ، ومن المحافظة على العرش لمصلحة الامير توفيق » .

واخيرا جاء امر العزل من السلطان نفسه ، بتوصية الدول الغربية التى كان اسماعيل يستعين بها على قضاء مآربه واذلال الشعب ، فلم يتورع الخديو من أن يجمع الصاغة فى قصر عابدين يواصلون الليل بالنهار فى نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل عليه نقلها والتصرف فيها . وجرد القصر من الرياش والتحف والاوانى الذهبية المرصعة باللالى والماس واليواقيت ، والطنافس واللوحات . والثريات مما ملأ به قطار بضاعة سبقه الى ميناء الاسكندرية . ووضع يده على ماكان موجودا فى خزانة الدولة من نقود واوراق مالية مما قدر بقرابة ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وسهل له ابنه توفيق عمليات السطو والاغارة ونقل هذه الكنوز الى الخارج ليحارب بها النهضة الوطنية من منفاه.

وقدرت لجان التصفية ممتلكاته الزراعية قبيل خلعه بنحو ستين مليونا من الجنيهات مع انها كانت قبل ان يلى الحكم لا تتجاوز بضعة مئات من الفدادين وكان ايراده السنوى لا يتجاوز الثلاثين الف جنيه سنويا .

وبعد أن وصل اسماعيل الى منفاه فى نابلى مشيعا بمظاهر السخط من الاحرار حاول ان يسطو على يخت المحروسة ، وهو من ممتلكات الدولة ، لولا ان هدده الدائنون الاجانب بمنع معاشه السنوى عنه ، فاكتفى بأن جرده من الرياش والاثاث والتحف وغنمها لنفسه واعاده الى الاسكندرية خاويا .

ولم يلجأ اسماعيل وهو قابع فى منفاه الى العزلة والاعتكاف والاستغفار عن ذنوبه ومآثمه ، بل ظل يوالى الدسائس ويساوم على مصر ، فيبعث بالرسل الى الساسة البارزين فى الغرب ، والى زعماء الحركة العرابية لعزل ولده الخديو توفيق واعادته هو الى العرش ، وانفق فى هذه السبيل ما سلبه من الشعب ، ولم يتورع ايضا عن ان يعد البريطانيين وعدا صادقا بتأييد احتلالهم وادى النيل احتلالا شرعيا

الفلاح والارض الطيبة

الحياة الاجتماعية ـ الحيــاة الاقتصادية ـ الصراع من اجل الخبز ـ سياسة الاحتــكار فى الزراعة والصــناعة والتجـارة ـ الضرائب واللصوصية السافرة ـ خراب مصر المــالى .

قبل التوسع فى عرض خصائص الحياة الاقتصادية ، يحمل بنا ان نلقى نظرة شاملة على حالة المجتمع فى ذلك العصر .. فقـد كانت تحكم مصر حكومة من غير اهلها ، على راسها وال عثمانى ، ويعاونه حكام من اجناس غريبة متنافرة ، لا تتخاطب باللغة العربية ، وقلما تستخدمها او تقيم لها وزنا ، او تتمسك بأهداب الـدين والشرع ، ونظرا الى ان هؤلاء الحكام كانوا اغرابا عن الشعب الذى يحكمونه ، فقد جعلوا من مصر مسرحا للمطامـع السياسية وميــدانا للفتن والدسائس والمشاحنات .

وكانت مصر تنقسم الى طبقتين اجتماعيتين : طبقة السادة وتتكون من العثمانيين واشياعهم ، والمماليك ، وعدد هؤلاء جميعا لا يتجاوز الاثنى عشر الف نسمة ، والثانية طوائف الشعب ويناهز عـددها الثلاثة ملايين نسمة .

فالعثمانيون يؤلف منهم ديوان الوالى وهيئة كبار الموظفين الذين كانوا يترفعون عن الاتصال بالمصريين ، ويصدفون عن النظر بعـين الانصاف فى شئونهم ، ويسومونهم سوء العذاب لابتزاز الضرائب ، دون ان يراعوا حرمة قانون او نظام .

وكان العثمانيون يسكنون القصور ويلبسون الديباج ، ويقتنون الجوارى والغلمان ، لا يشغلهم من شئون مصر سوى التماس الراحة والنعيم على الارائك الحريرية فى غرف الفسيفساء المموهة بالذهب ، وتحوط قصورهم حدائق غناء تزينها سرارى من بنات الكرج وممن يعرضن فى اسواق الرقيق .

ولم تكن لهؤلاء الاغراب دراية بالعلوم والفنون ، فوجهوا التفاتهم الى التدرب على اساليب القتال ورياضة الاجسام ، وبسطوا سلطانهم على الموارد الاقتصادية يبتزونها ، وعلى الدخل القومى يستنزفونه ،

اذ كانت الوان الترف التى تجرى فى قصورهم تتطلب نفقات باهظة تعجز عنها مواردهم الخاصة .

اما المصريون فهم الذين يؤلفون الطبقات الكادحة التى تعمل وتنتج وتزرع وتدفع الضرائب فى صبر دون اكتراث لغير مشكلة تدبير الطعام والكساء ومكافحة الاوبئة والامراض التى تفتك بهم فتكا ذريعا، والتحايل على تجنب الوان الاذى والتفنن فى رد المظالم التى تنزل بهم .

وقد احتفظ الفلاح وسط هذه العواصف والانواء والنزعات بالكثير من مظاهر سيادته القومية ، فبرزت من بين صفوفه طبقات العلماء ورجال الشرع والنقباء ، وخرج منها التجار والزراع والصناع والعمال ، ونشأت العصبيات الشعبية التى أرغمت الباب العالى على الاعتراف بقوة نفوذها فاشركت اقطابها فى عضوية المجلس الكبير الذى يعقد بديوان الوالى للفصل فى كبريات المسائل .

وكان مركز رب الاسرة فى القرية بمثابة مركز الزعيم فى القبيلة ، فهو يقيم مع اولاده وحفدته ونسائهم فى مسكن واحد يعرف احيانا باسم « البيت الكبير » ويتولى الانفاق عليهم جميعا ، ويتحمل المسئوليات امام الغير ، وكان يباشر زراعة الارض ويبيع المحصول ، وله أن يستعين بأفراد الاسرة بما فيها النساء فى شئون الزراعة دون ان يدفع اليهم اجرا . وقد يقع اختياره على احد ابنائه فيدفع به الى « الكتاب » ثم يبعث به الى الازهر ليغدو بركة تشمل الاسرة والقرية .

وكذلك كان بين المصريين الفقهاء والعرفاء، وفى ايديهم ادارة الاوقاف والاشراف على شئون المساجد والزوايا والاضرحة والمنشآت الخيرية ووجوه البر . وكانت معيشتهم غالبا فى ترف بالنسبة للمجموع ، وكانوا بصفة عامة يمثلون الارستقراطية الشعبية احسن تمثيل .

وكانت جباية الضرائب موكولة الى فئتين من المصريين هما : الروزنامجية وفى ايديهم تقاويم الارض وسجلات الاملاك ، وكانوا يمتازون عن مجموع الشعب من حيث المحافظة على انسابهم وعدم مصاهرتهم سوى طبقة معينة ، ثم الاقباط وكان عملهم مقصورا على ضبط الحسابات وجباية الضرائب ، وكان بين اليهود الصيارف والصياغ والمرابين فى المدن والعواصم .

اما الافرنج ومعظمهم من سكان حوض البحر الابيض المتوسط فكانوا من التجار وكانوا يقيمون فى العاصمة وثغور الاسكندرية

ودمياط ورشيد ، وكانوا يرتدون اللباس الشرقى ويتكلمون بالعربية ويصاهرون المسيحيين الشرقيين .

ومن الطبيعى ان الصورة البشعة التى كانت تحكم بها مصر تكفى لان تؤدى الى هبوط مستوى المعيشة ، والى نقص القوة الشرائية عند الافراد ، ثم الى انصراف الاذهان الى مقاومة حركات الظلم ومناهضة الاستبداد والنظم القاسية المفروضة على المجموع بقصد اذلاله واستنزاف قواه المادية والروحية .

ولا نغالى اذا ما وصفنا حالة الشعب فى هذه الفترة الحالكة من اريخه بانه كان فى شبه غيبوبة ، فقد عمه الفقر والجهل ، وتفشى المرض والخمول والكسل بين افراده . فانحطت قواه الذهنية والجثمانية ، واصيب بالكوارث الاخلاقية ، وسرت روح التهرب من المسئوليات والافتقار الى الشجاعة الادبية ، والاستخفاف بمطالب الحياة وعدم الحيطة للمستقبل .

اما الدين فقد شاعت فيه صنوف من البدع والاضاليل التى افسدت جوهره ، فانتشرت اساليب الدروشة ، وتعددت الفرق الصوفية ، وصار قوامها الشعوذة والاباطيل ، واستمد الدراويش الكثير من تقاليدهم : كطرق السير ، والاعلام ، والكاسات ، والدرجات من مريد الى نقيب الى خليفة الى نائب من بقايا نظم الجند عند الفاطميين .

ونظرا الى خوف طبقة العلماء من بطش الحكام وقسوتهم ،دبت فى نفوس اقلية منهم روح الرياء والمداهنة ، واضطروا الى تفسير آيات الكتاب الكريم وفق هوى الحكام واخضعوا هذه التفاسير لنظريات القضاء والقدر ، وتخلوا عن الاضطلاع بالمسئوليات واهمال الحقوق السياسية والواجبات الاجتماعية .

وحرص نفر اخر من العلماء على الجمع بين وظيفته الدينية وبين القاب مشايخ الطرق ليستكملوا بذلك اسباب الزعامة الدينية . فكانوا الى جانب ذلك يتمتعون بنفوذ روحى بين الطبقات ، وكانت لهم منزلة رفيعة عند الخاصة ، ومكانة مرموقة عند العامة ، فطالما لجأ المواطنون اليهم عند وقوع الملمات والكوارث لرفع حيف عن مظلوم او دفع اذى عن مكلوم باعتبارهم ممثليه الحقيقيين الذين يفهمون روحه حق الفهم ، اذ كان جميع الحكام اغرابا عنه ليست بينهم وبين

المحكومين من صلة سوى صلة جمع الضرائب والاتاوات كلما شعروا بحاجتهم الى المال .

وكان « بيت العالم » حرما لا يعتدى عليه مهما كانت البواعث الدافعة الى ذلك الى حد ان بعض ابناء المماليك كانوا يهربون من منافسيهم فيجدون فى دار العالم الامن والطمانينة والسلام .

والواقع أن المماليك كانوا اكثر الحكام الذين عرفتهم مصر اتصالا بأفراد الشعب ، فكانوا يشركونهم فى حفلاتهم وافراحهم ، ويحرصون على تبادل الزيارة معهم فى الاعياد وفى المواسم الدينية ، مما جعل الشعب يشعر نحوهم بعاطفة مشوبة بالود والتعظيم .

• ● •

منذ حقب موغلة فى القدم ، ونهر النيل يحمل ماءه وطميه الى الارض الطيبة والفلاح قائم على ضفتيه يحرث الحقل ويتعهد الزرع ويتجه بنظره الى السماء يدعو ربه ان يحرس محصوله وثمرة كده .

ولم تحو ذاكرة الفلاح ولم يتلق عن آبائه ان الطبيعة قست عليه ، أو ضنت عليه بخيراتها ، اما الحاكم المتجبر واعوانه وسدنته ، فقد كانوا هم زبانية القدر الذين يخشى بأسهم ، ويخاف على قوته وقوت عياله ، من زياراتهم المفاجاة فى مواسم الحصاد وجنى المحصول .

بعد أن فتح السلطان سليم مصر أصبحت الارض ملكا له بحق الفتح ، وذلك حسب نص الشريعة التى تقرر بأن الارض التى تغنم عنوة بحد السيف تكون حقا لفاتحها . على أن السلطان راى ان توزع الارض على الفلاحين لزراعتها فى مقابل دفع الضريبة المقررة عليها ، وبذلك أصبحت الارض شبه ملك لطائفة من الذين يتولون خدمتها ولورثتهم من بعدهم ، واستثنى من هذا النظام : أرض الوسية ، والوقف ، وارض « الرزقة » واعفيت ايضا من الضرائب .

وكان من عادة المصريين ان يقبلوا على وقف الارض خوفا من مصادرتها أو الاستيلاء عليها ، ولان الاراضى الموقوفة كانت معفاة نسبيا من الضريبة .

وتولى محمد على الحكم والفلاح يعيش فى سعة من الرزق ، اذ كانت مساحة الارض متعادلة تقريبا مع عدد السكان ، اى بنسبة فدان تقريبا لكل مواطن . وعلى الرغم من ان نظام جباية الضرائب عن طريق الملتزمين كان يثقل كاهل الفلاحين ، الا انهم اتفقوا على مر

الزمن الوسائل التى ينقذون بها حصة طيبة من انتاج الارض لانفسهم .

وبدا محمد على يرسم خطة واسعة النطاق لكى يمكن نفسه ويمكن خلفاءه من بعده من السيطرة سيطرة مطلقة على البلاد . وكان فى طليعة ما تذرع به من وسائل للتحكم فى الاغلبيـة واذلال المصريين ، السيطرة على منابع الرزق سواء فى الارض او الصناعة او التجارة ، وبهذا استطاع ان يضع اسس حياة سياسية كانت تنحصر فى الاسرة وفى الفرد وهى توجهه الى الاتجاه الذى يريده الحـاكم وصاحب الارض .

ففى عام ١٨٠٩ اعلن نظام الالتزام واستولى على ارض الوسـية التى كانت شبه احتكار للملتزم، وعمد الى الاستيلاء على عقود الالتزام واحراقها ، الى ان كان عام ١٨١٤ حيث اعلن بان الاربعة مليون فدان التى تزرع هى ملكه وحده ، وشب الصراع عنيفا بينه وبين القائمين على شئون الارض ، فمنذ عشرات السنين وهم اصحاب هذه الارض يخدمونها ويورثونها لابنائهم ولحفدتهم من بعدهم . وسلط عليهم امير الصعيد ابراهيم ان يفعل كل ما فى وسعه لتحطيم روح المقاومـة وانتزاع الارض بالقوة ، فكان القواصة يهبطون القرى ليلا بالسلاح وينصبون المشانق وادوات التعذيب فى الاجران لارهاب كل من تحدثه نفسه بالدفاع عن ارضه والتمسك بها . وزاد ابراهيم على ذلك بان انتزع معظم الاراضى الموقوفة على اعمـال البر ، فنزح الوف من الفلاحين الى العاصمة يشكون الى الوالى اعمال امير الصعيد ، فاحالهم عليه . وعاد ابراهيم الى الريف ليحاسب الفلاحين على شكواهم بان نصب ادوات التعذيب ، وسلط زبانيته ليذيقوا المدافعين عن الارض كؤوس الهوان .

هكذا انتصرت الدكتاتورية البربرية ... والغيت ملكية الاراضى الزراعية واستبدلت بها ملكية عامة لجميع الاراضى التى صارت من حق الحكومة ، ولم تكن هناك فى الواقع تفرقة بين ملكية الحكومـة وبين ملكية الحاكم . فصارت الارض ملكا خاصا به وحده ، مدعيـا التسلط عليها بحق الفتح احيانا وبحجة انه النائب عن الخليفة فى احيان اخرى .

وبديهى ان هذا النظام لم يدع مجالا لافراد الشعب حتى تنمـو ثرواتهم الشخصية وبذلك ضمن محمد على عدم قيام طبقـة من المصريين يؤهلها مركزها الاقتصادى لبناء مركز سياسى يهدد سلطة

الاسرة الحاكمة ، ثم اسندت المناصب العليا فى الدولة الى الغرباء الذين لا خوف منهم على العرش . فخلق هذا النظام هوة فسيحة بين الشعب وبين حكامه الغرباء الذين كانوا لا يفهمون روحه ولا يحسون الامه وامانيه .

وبعد ان ملك محمد على الارض اخذ يصادر ما عليها من انسان ودابة وادوات للحرث والحصاد ، وهنا ضاقت الارض بسكانها ، فهرب الوف الفلاحين ومعهم نساؤهم واطفالهم واخذوا يهيمون على وجوههم فى العراء ، ومنهم من اتجه الى ناحية المشرق حيث استقر فى حمى عبد الله الجزار حاكم جنوب الشام .

وراى محمد على ان يحيط نفسه بطبقة من صغار « اولياء النعم » فاخذ يقطع المقربين اليه مساحات شاسعة من الارض ، ويسوق الفلاحين اليها وهم مصفدون فى الاغلال يشقون الترع والمصارف اليها ويزرعونها لحساب الملاك الجدد ، وبلغت مساحة هذه « الابعاديات » التى وزعها على هؤلاء المحظوظين نحو ربع مليون فدان . وكان من بين هؤلاء المحظوظين افراد بطانته ومن يلوذ بهم من النوكى ، وطبقة من الافرنج على الرغم من ان القانون العثمانى كان يحرم على الاجنبى تملك الارض فى بلاد تخفق فوقها الراية العثمانية .

ولم ينس بطبيعة الحال افراد اسرته ومن فى حكمهم من الاصهار فاقطعهم بدورهم مساحات اخرى شاسعة من الاراضى ، تفوق فى مساحتها «الابعاديات» واطلق عليها اسم «الشفالك» .

وبعد ان ركز القوة الاقتصادية فى قبضة يده وايدى افراد اسرته وبطانته ، رسم خطة ثابتة لاحتكار محصول الارض ، مؤداها ان توزع الارض على الفلاحين بمعدل ثلاثة الى خمسة افدنة لكل فرد ، وكان الفلاح يخدم هذه المساحة الصغيرة من الارض بوصفه مستاجرا ، ويسقط حقه فى فلاحتها اذا ما عجز عن دفع الضريبة ، ويعطى البذور والمواشى وآلات الحرث على ان يؤدى ثمنها عند جنى المحصول .

وكان على الفلاح ان يزرع ما تفرضه الحكومة من انواع المحصولات مثل القطن والكتان والدخان والقرطم والحمص والنيلة ، ويعاقب كل من يخالف تنفيذ هذه السياسة او يحيد عنها بان يضرب خمسين سوطا او تصلم اذنه ، وفيما عدا الاكراه البدنى فهناك عقوبة السجن والاعدام .

ولم يكن من حق الفلاح ان يتصرف فى اى جزء من المحصول ، وانما

عليه ان يورده الى مخازن الحكومة ، فيوزن او يكال ، ويقرر لكل وحدة السعر الذى يحدده الحاكم ويخصم من الثمن : سدس المحصول بصفة مكافاة للفلاح ، ثم الضريبة وثمن المواشى والبذور والسماد وادوات الحرث ، واذا صادف ان احتاج الفلاح الى جزء من محصول الارض لاستهلاكه الشخصى فعليه فى هذه الحالة ان يبتاع حاجته من مخازن الحكومة وبالسعر الذى تفرضه ، كما كان عليه ايضا شراء منتجات مصانع الحكومه . مثال ذلك كان سعر شراء الاردب من القمح ٢٧ قرشا ، فاذا سمح للفلاح باسترداد شيء منه كان سعر البيع ٥٦ قرشا . وكان سعر الاردب من الارز ٩٠ قرشا ، وسعر البيع للفلاح ١٤٠ قرشا ...

ولم يكن للفلاح ان يقبض قيمة سدس المحصول نقدا وانما يعطى صكوك على خزانه الدولة ، ولم تكن هناك قيمة ما لهذه الصكوك ، فقد كانت بمثابة دين فى ذمة الدولة. وكان الموظفون يماطلون الفلاحين فى دفع القيمة ، فيزعمون فى كل مرة بانه لا توجد نقود فى الخزانة ، واخيرا يضطر الفلاح الى بيعها الى ملتزمين بنقص يبلغ احيانا اربعين فى المائة . ويجمع الملتزمون هذه الصكوك وفى ختام السنة يساومون الخزانة العامة على مبلغ من المال يدفع اليهم .

وقد حدث فى حفلة ختان سعيد بن محمد على ان قدمت فرقة من « خيال الظل » بعض العابها ، واتخذت موضوع « الصكوك » مادة للتنادر ، فكان الحوار التالى يدور بين « الخيال » و « طيفه » :

— انى افلست

— يجب ان تستدين

— واذا حل موعد الدفع فان الدائن يطالب بحقه

— اذا لم تدفع المبلغ فى المحكمة فان القاضى لا يحكم بافلاسك وهناك ٩١١ بابا لرشوة القاضى .

— ان الذى يدخل سجن القلعة يظل فيه الى ان تخور قواه فيكون مقامه الاخير فى القبر .

— آه ... انك بفضل افكارك « الحمارية » ستموت جوعا ! ولماذا الذهاب الى المحكمة فسجن القلعة ؟ اذا حل الموعد حول الدين على .

— وانت ؟

— احوله عليك

— وانا ؟

ـ تحوله على

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شيء ! تبلى الورقة فى يد الدائن مثل الحوالات والصكوك المصرية تماما .

وكان امير الصعيد يشهد هذا العرض التمثيلى فمال على اذن بوغوص وكيل الشئون الخارجية والتجارية وقال له :

ـ ان هؤلاء الناس يتندرون علينا ولم تبق لنا من حيلة سوى الغاء طريقة الصكوك على خزانة الدولة .

وروى ادوارد لين ، المؤلف الانجليزى الذى زار مصر ابان تلك الحقبة :

« ان احد الاتراك ـ وهو سليمان اغا السلحدار ـ وكان مديرا للغربية واشتهرت عنه القسوة وغلظة القلب ، مضى ذات ليلة الى شونة الحكومة فى طنطا والتقى بفلاحى الشونة نائمين هناك ، فسألهما من يكونا وما شأنهما فى هذا المكان ، فأجاب احدهما بانه احضر الى الشونة ١٣٠ اردبا من القمح من احدى قرى الناحية ، واجاب الثانى بانه احضر ٦٠ اردبا من محصول الارض . وعندئذ صاح المدير فى وجه الثانى قائلا : تبا لك ايها الوغد . ان هذا الرجل قد احضر ١٣٠ اردبا من اراضى قرية صغيرة وانت لم تحضر الا ستين اردبا من ارض فى ارباض طنطا . فاجاب فلاح طنطا بقوله : ان هذا الرجل يجىء بهذا القمح مرة فى الاسبوع اما انا فاحضره كل يوم . فانفعل المدير صائحا : صه . واشار بيده الى شجرة قريبة وامر احدحراس الشونة بشنق الفلاح على احد فروعها . ونفذ الامر فى الحال وعاد المدير الى منزله . وفى الصباح رجع المدير الى الشونة وابصر برجل يحمل كمية وفيرة من القمح . وعند ما سأل عنه اجابه جلاد الليلة الماضية :

ـ انه يا مولاى الرجل الذى امرتنى بشنقه فى الليلة الماضية ، وقد احضر اليوم ١٦٠ اردبا .

وصاح المدير فى دهشة :

ـ ماذا تقول ، هل دبت الحياة فيه .

فاجابه الجلاد :

ـ لا يا مولاى ... لقد شنقته بحيث لمست اصابعه سطح الارض ، وعند ما رحلت حللت وثاقه ، اذ انك لم تأمرنى بقتله .

فزمجر المدير التركى قائلا :

ـ آه ... الشنق والقتل شيئان مختلفان عندكم فى اللغة العربية، حقا انها لغة غنية . فى المرة القادمة سآمر بالقتل ... ولكن احذر غضب ابى داوود .

• ● •

وما ان خفت قبضة محمد على عن الفلاحين باختفاء شبحه من اريكة الحكم ، حتى تزايد هرب الفلاحين من الارض التى ولدوا فيها وعاش فيها وعليها اجدادهم ... وهال عباس الاول هذه الهجـرة الجماعية والمقاومة السلبية الصامتة ، فرای ان يتبع سياسة جديدة بأن يحتفظ بالشفالك وبالتفاتيش الخاصة لافراد اسرته ، وان يترك بقية الاراضى حرة .

وفى عام ١٨٤٦ اصدر قانونا يمهد به لتغيير نظام بدا يضمحل فعلا، ويتلخص هذا القانون فى النقاط التالية :

١ ـ يجوز لمستغلى الاراضى ان يتصرفوا فيها بالرهن او التنازل للغير عن حق الانتفاع على ان يثبت ذلك بحجة تكتب امام الشهود .

٢ ـ يعود حق الانتفاع بالارض للحكومة اذا اهمل الزارع زراعتها وهجرها ، ولكن للزارع حق استرداد ارضه عند اوبته .

٣ ـ يحرم الزارع من حق الانتفاع بالارض اذا توقف عن دفـع الخراج المفروض عليها .

ولكن هذا القرار لم يتبع بنصه بل قاومته الرجعية الجشعة . الى ان ولى سـعيد الحكم ، ورای الحقـول تغطيها طبقات من التراب ، والخزانة العامة خالية من المال لعدم دفع الخراج وبسبب قلة الانتاج الزراعى ، فاخذ يوزع الارض على الفلاحين لاستثمارها فى مقابل دفع الضريبة ، وان تحرر عقود شرعية بذلك تثبت فى سـجلات المحاكم الشرعية ، وان يورث الفلاح ابناءه وحفدته ارضه سواء اكانوا من الذكور ام الاناث وفق احكام الميراث الشرعى ، وبهذا حصل من كانت فى حوزتهم اراض من الفلاحين على ما بايديهم ، واشترط دفع رسم للتسجيل لا يتجاوز ٢٤ قرشا عن الفدان الواحد .

ولم تختتم هذه المرحلة من الشاقة من الكفاح لاسترداد الارض بهذا النص وحده ، ولكن اعفى الفلاحون من دفع المتاخـرات التى كانت عليهم ، والتى كان محمد على يطاردهم من اجلها مطاردة لا هوادة

فيها ، وقدرت هذه المتاخرات بقرابة المليون جنيه .

ولم يكد الفلاح يطمئن الى ان الارض اصبحت فى حوزته حتى اطل شبح حاكم ماجن ، من اشهر لصوص التاريخ هو الخديو اسماعيل ، فاخذ يبث اعوانه فى القرى يتخيرون له الاراضى الجيدة التربة ، الخصبة الطينة ، القريبة من موارد المياه . فاغاروا على الارض بغية انتزاعها من اربابها . وكانت عقود البيع تتم فى اشكال صورية ... كانوا يشترون الفدان الذى يساوى ثمانين جنيها بسبعة او ثمانية جنيهات دون ان يدفعوا الثمن نقدا ، بل يخصم الثمن من ضرائب وهمية مقررة على الارض ، ثم يعمدون الى تأجير الارض ذاتها لملاكها السابقين او لاغراب عن القرية بسعر الفدان سبعة جنيهات فى السنة .

وبهذه الطريقة تمكن الخديو من ان يستحوذ على خمس مساحة الاراضى الصالحة للزراعة ليطلق عليها اسم « الدائرة السنية » ، وان يركز فى ايدى بقية افراد اسرته الخمس الاخر .

وكانت الدائرة السنية تتكون من ٥١ دائرة منبثة فى جميع انحاء البلاد ، تشرف كل منها على مزرعة اومزارع تتراوح مساحة الواحدة منها بين الالفى والمائة الف فدان وتسيطر على ٩٥٠ الف فدان .

وكذلك كانت عبارة عن وزارة للزراعة قائمة بذاتها ، بل الاصح دويلة داخل الدولة . مقسمة الى تفاتيش ، وكان المفتشون القائمون على العمل لهم سلطة مطلقة على موظفى الدولة ونفوذواسع النطاق ، وكان للدائرة معاصر للقصب ومعامل للسكر ومجموعة خطوط حديدية ضيقة وخدمة تلغرافية وتليفونية خاصة بها .

ولم يقتصر اسماعيل على ان يحوز لنفسه هذا القدر الهائل من الارض ويخص افراد اسرته باضعافه ، ولكنه استانف سياسة جده من انتزاع الارض من ايدى الفلاحين ليمنحها فى صورة هبة او احسان الى اصحاب الحظوة عنده ، وقدرت هذه الهبات وحدها بنحو ٨٧٦ر٨٦٣ فدانا .

وظل الفلاح كما كان فى العصور المظلمة ، مشدودا الى الارض يفلحها من شروق الشمس الى غروبها . مضطرا الى العمل الشاق فيها والتفانى فى خدمتها ، وكانت ثمار كده وتعبه تؤول الى الاغراب دون ان يتبقى له منها غير ما يمكنه من معيشة الكفاف ، فيقطن كوخا مشيدا بالطين لا يمكنه ان يبيت بداخله ، فهو ينام واهله ببابه او

فوق سطحه ، وهو خال من الاثاث عدا صندوق خشبي به بعض الثياب ، وفي الحائط خزانة عبارة عن قدر من الفخار يحتفظ فيها ببعض القروش .

وتكاثرت الخطوب على الفلاح دون ان يجرؤ على المجاهرة بالشكوى ، وظل مسخرا بين عبوديتين : عبوديته لحاكم متفرنج هو اسماعيل حمله وحده نتائج ارتباكه المالي واسرافه وتبذيره . وعبوديته للدائنين الاجانب الذين يهبطون القرية ويعطونه الجنيه بفائدة ثلاثين في المائة ، ثم يحررون له سندا يوقع عليه بخاتمه ، آمنا ، جاهلا ما يخبئه له القدر ، فاذا حل موعد السداد ولم يدفع طرد من حقله .

وساد الذعر طبقات الفلاحين بسبب الكوارث المالية وانتشار الوان البؤس والفاقة ، ثم عم القحط على اثر هبوط النيل « عام ١٨٧٧ » ثم فيضانه في السنة التالية بشكل مروع . وكان عقاب الطبيعة لم يكفه ، فسلط عليه وزير المالية الاوربي الذي لجا الى اقسى الوسائل في جباية الضرائب منه لتوفية اقساط الدين العام ، والزم الحكام بان من لم يدفع الضرائب في الحال يباع محصوله ومواشيه .

لقد ظل الفلاح عهدا طويلا يمقت استبداد الاتراك واسلوب حكمهم ولكنه أضاف اليهم العنصر الاوربي الذي جاء يشجع الحكام الاغراب على ابتزاز مورد رزقه ، وارهاقه بمختلف الوان السخرة ، وفي الاجمال فقد كانوا سواسية في نظره ، اي اغرابا عن قومه وعشيرته وارضه .

والواقع ان الاحداث تعاقبت على الفلاح ، يحصد الموت اطفاله ومواشيه دون أن توجه عناية صحية اليه ، ويقتات اردا انواع القوت ، ويشرب الماء الملوث ، ويكتسي بالاطمار البالية ، ويوصم بالجهل .

وبعد أن صدر الفرمان السلطاني بجواز حيازة الاجانب الاراضي والعقار داخل الدولة العثمانية ، تكونت شركات عقارية برءوس اموال ضخمة ، وامكنها الحصول على مساحات واسعة من الاراضي ، بعضها منزرع والاخر من الاراضي البور القابلة للاستصلاح ثم تقسيمها الى قطع لبيعها للزراع ، وادى هذا النظام الى ان الاجانب اصبحوا يملكون حوالي عشر الاراضي الزراعية في مصر .

• • •

بيد ان الامر لم يقتصر على احتكار الزراعة وتقييد حرية الفلاح ،

بل تعداه الى الصناعة . فقامت الحكومة بانشاء مصانع فخمة قضت بها على الصناعات الصغرى . وبعد ان كانت الحرف وراثية فى الاسرة الواحدة تخضع لنظام الطوائف التى تعمل على حماية الانتاج ومراقبة حقوق العامل تدخلت الحكومة فى حقوق الطوائف فاهدرتها. وطبقت على المصانع الفردية نظام الاحتكار ، فكان على اصحابها ان يقوموا بالعمل فى مصانعهم الصغيرة لحساب الدولة، ويتقاضون اجورا تافهة. ومع ان الحكومة احتكرت زراعة القطن وغزله ونسجه ، ومع خفض اجور العمال فى المصانع ، فان اسعار المنسوجات القطنية كانت مرتفعة عن مثيلاتها التى ترد من انجلترا او من اى بلد فى الخارج ، وذلك بسبب سوء الادارة .

وحاول محمد على الذى قضى صدر شبابه يتعاطى تجارة الدخان فى قولة ، ان يطبق معلوماته السطحية فى التجارة على الدولة التى يحكمها ، فسعى الى تركيز التجارة الخارجية فى يده ، واحتكر محصول القطن والقمح والافيون ، وكان وهو الحاكم المسلم ونائب الخليفة فى مصر يسهم فى تجارة الخمور ، واحتكار صناعتى العرقى والدخان . وعمد الى تنقيص كمية الذهب من العملة مع ابقائها على قيمتها فى التداول ، كما خص امير الصعيد باحتكار صناعة السكر وبيعه على ذمته .

واعدت تسعيرة لانواع التموين غير المحتكر ، مثل اللحم والسمن والجبن ، وهى اسعار مخفضة جدا لا تعود على الفلاح بربح يذكر ، وهددت الحكومة التجار بالتنكيل والشنق وخزم الانوف ، فارتفعت الاسعار فى السوق السوداء واصبح وقت تداول هذه الاصناف فى جوف الليل سرا، اما الحكام فكانوا يحصلون على ما يريدونه بالتسعيرة أو بدون سعر على الاطلاق .

هكذا صار محمد على الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد فى ارض الكنانة ، وقضى بسياسته هذه على عنصر المنافسة، وعلى مجهودات التجار المصريين واغلق بيوتهم ومصانعهم . وادت هذه السياسة الخرقاء الى انعدام وسائل الابتكار والنشاط والقضاء على المجهود الفردى فى الصناعة واندثار المصانع الصغيرة .

واقدم عباس الاول على فتح الباب على مصراعيه للسلع الاجنبية التى غزت الاسواق ، ثم عمد الى غلق المصانع بناء على نصيحة مستشاره السياسى مستر مرى ، فسرح الوف العمال وانتشرت

البطالة واصيبت التجارة بالكساد .

اما سعيد الذى كان صديقا للاجانب فقد بدا يشجع الشركات الاجنبية على استغلال رءوس اموالها فى مصر مع ضمان الحكومة لخسائرها ، ولم تستفد الصناعة او التجارة بشىء يذكر من جراء قيام هذه الشركات اذ كانت فى الواقع شركات احتكار لاستثمار بعض المرافق العامة واستغلالها .

وسيطر الاجانب على الحياة الاقتصادية فى عهد اسماعيل ، واصبحت مصر حكومة وشعبا مستغلة لنفوذهم القوى ، فتاسست الشركات والمصارف المالية والبيوت التجارية وغيرها من المؤسسات التى زاحمت ما تبقى فى ايدى المصريين من صناعة او تجارة وقهرتهم فى ميدان المنافسة بطرق واساليب غير شريفة .

• ● •

وكانت الضريبة العقارية من الموارد الرئيسية للدولة ، يشرف على جبايتها الدفتردار ، ويعاونه الروزنامجية والسناجق والكشاف ، وكانت هذه الضريبة . تدفع اما نقدا او عينا ، فتؤدى منها الجزية ومرتبات الحامية العثمانية ، وينفق منها على اقامة الجسور لوقاية البلاد من غوائل فيضان النيل .

وكانت هناك مكوس الضرائب ، وضرائب النفوس والحرف والمنسوجات وهذه تجبى بوساطة الموظفين ومشايخ الطوائف وتورد الى بيت المال . وكانت مرصودة على دفع مخصصات الوالى ومرتبات الحكام ، وترسل منها اموال « الصرة » للانفاق منها على صيانة الحرمين الشريفين ومساعدة فقراء مكة والمدينة .

كان المصريون يبغضون من اعماق قلوبهم سياسة الضرائب التى يسلكها معهم الحكام ، فاضافت حكومة محمد على اليهاضرائب اخرى زادت من مقتهم وسخطهم ... كانت هناك الضرائب العشورية ، وضرائب النخيل ، والماشية ، من ابقار وجاموس وجمال ونعاج ، وعوائد الدخولية ، ورسوم التركات ، وعوائد الوكائل والاسواق ، ورسوم الصيد فى الترع والبحيرات ، وعوائد الراقصات والموسيقيين والحواة .

وكانت جميع القرى متضامنة فى اداء الضرائب ، بحيث اذا عجزت احداها اجبرت جاراتها على الدفع عنها . وقد نجم عن هذه الطريقة

المنافية لابسط المبادىء الاقتصادية ان تحملت بعض القرى اثقالا باهظة ، ونجم ايضا ان اخصب الاراضى الزراعية كانت لا تستطيع ان تسدد الضرائب المتراكمة فتعمد الحكومة الى ترحيلها من عام الى اخر .

فعلى عاتق الفلاح وحده كان يقع العبء الاكبر من الضرائب ، وفى اصغر القرى لم يعف متجر من اتاوة يؤديها ، حتى غذاء الفلاح وكسائه . وكانت تفرض الوان اخرى من الضرائب تحمل اشكالا متعددة كرسم الجهاد او اعانة الحرب ، ورسم الاشغال العامة .

ولقد حدث مرة ان كان هناك سد قائم فى اطراف احدى القرى وكان سكانها يصطادون السمك منه ، ففرضت على السد ضريبة .. وبعد سنوات ازيل السد وردمت الترعة ، ولكن الضريبة ظلت باقية مدى ربع قرن وموزعة على اربع قرى تتحمله بالتضامن .

وقد عبر الجبرتى اصدق تعبير عندما وصف سوء الحال الاقتصادية فى العاصمة بقوله : « اقبل عيد الفطر — ١٢٣٠ هـ — وكان عديم البهجة ، ولم يغير احد ملبوسه ولا فصل ثيابا مطلقا ولا شيئا جديدا ، ومن تقدم له ثوب وقطعه وفصله فى شعبان تأخر عند الخياط مرهونا على مصاريفه ولوازمه لتعطل الاسباب من بطانة وعقادة ، واذا مات شخص لم يدرك اهله كفنه الا بمشقة عظيمة ، وكسدت السوق فلا كعك ولا شريك ولا سمك مملح ولا نقل .. هذا فى الوقت الذى ارسل فيه الباشا الى دار السلطنة هدايا من الخيول والمهارى والسروج المكللة بالذهب واللؤلؤ والاقمشة الهندية المنوعة من الكشمير والمقصبات والتحف ، ومن الذهب المضروب أربعة قناطير ، ومن الفضة الثقيلة الوزن والعيار عدة قناطير ، ومن السكر المكرر والشراب ... الخ » .

وقال ايضا فى انباء سنة ١٢٢٢ هـ :

« فى التاسع من شعبان طلب محمد على الضرائب المختلفة من تحصيل اربع سنوات مضت . وفى اليوم التالى ، طلب الضرائب المقررة على السنة المقبلة ... وان لم يجد المعينون للطلب شيئا من الدراهم عند الفلاحين ، اخذوا مواشيهم وابقارهم ليأتى اربابها ، ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، او يتركوها للجوع والعطش . فعند ذلك يبيعونها للجزارين ويرمونها عليهم قهرا بأقص القيمة ،

ويلزمونهم باحضار ، الثمن فان تراخوا وعجزوا شددوا عليهم بالحبس والضرب » .

وروى بوجولا فى كتابه «رحلة الى آسيا الصغرى ومصر والعراق» حكاية مغابلته للخواجة ميخائيل سرور قنصل فخرى فرنسا فى دمياط ، وكيف جاءه احد الشيوخ واخذ يندد بسياسة محمد على الضرائبية ويقول : لعنه الله فى كل كتاب ، ان الكرباج يستخدم فى ارغام الفلاحين على دفع المتأخرمن الضرائب، وعلى غرس البذور ، وان الكرباج هو وسيلته الوحيدة لابتزاز القروش التى يحصل عليها الفلاح لتحويلها الى دار السلطنة . وان الوالى لم يكفه ثقل وطأة الضرائب الفادحة على الفلاحين فحرمهم ثمار غرسهم وغلال حقولهم .» .
وقص ايضا قصة صاحب مصنع كبير للحرير فى منوف وكيف اضطهده الوالى وفرض عليه دفع الوف الاكياس بصفة كلفة مما دفع الرجل الى غلق مصنعه . ومغادرة البلاد . وكيف فرض على تجار الصابون ان يقوموا بتقديم ما يلزم لقصوره بدون مقابل .

وكانت لابراهيم أساليب بربرية فى جمع الضرائب .. حدث ان سافر الى القليوبية والمنوفية والغربية لقبض الخراج عن مدة سنة، والمطالبة بمتأخرات السنوات الماضية وهى سبع سنوات ، فصار يطالب الفلاحين بسداد هذه الضرائب فى الحال . وحدد مهلة لا تزيد على ثلاثة ايام ، ففزع الفلاحون ومشايخ القرى وتركوا محصول القمح فى الاجران وخرجوا من القرى هائمين على وجوههم فى العراء فترصد بهم الحراس وصاروا يلقون القبض على كل من يصادفونه فى الطريق ويشدونه الى الات التعذيب .

وسمع محمد على ذات مرة ان مدينة دسوق تتمتع بخيرات مما تنتجه أرضها الخصبة ، فبعث برسله الى المدينة يستدعون شيخها لابتزاز المال منها ، فاستقبلهم الشيخ ببشاشة وقدم اليهم القهوة والطعام ، ثم سألهم عن حاجتهم ، فأجابوه : لا لشىء .. ان الباشا فى معسكره على مقربة من هنا وتطلب اليك ان تخرج معنا لمقابلته .. فامتعض شيخ البلد وقال لهم : ان كنتم تطلبون ضريبة او غلالا أو ماشية فاطلبوها ، واما مقابلتى للباشا فانها ليست بذات بال .. واذا اراد الباشا ان يلقانى فليحضر الى دارى وسوف ارحب بوفادته فاقدم اليه القهوة والطعام . اننى لست فى حاجة اليه ولكن على

ما يبدو لى انه هو المحتاج الى .

وظللت دسوق سحابة سوداء قاتمة ، وتجمـــع الفلاحون حول شيخهم يستطلعون هذه الانباء التى تنذر بعاصفة من الطغيان ، الا ان الشيخ اجابهم :

— لن اقول لكم شيئا .. ان حريتكم فى ايديكم وفى وسـعكم ان تدافعوا عنها وان تحموا ذماركم بسلاحكم .

وتجمع مئات الشباب والرجال والسلاح فى ايديهم ولا حديث لهم سوى الجهاد والدفاع عن الحريات . وجاءت رسـل الباشا لتؤدب سكان المدينة الذين لم يرضخوا لارادة الطاغية ، ونشب القتال بين الفريقين وكان مريرا قاسيا الى ان تغلب الغزاة ودخلوا المدينة يسبون نساءها ويأسرون فتيانها ويستبيحون دورها، وكان فريق من السكان قد لاذوا بمسجد السيد ابراهيم الدسوقى فلم يرع الجند حرمـة المسجد بل اقتحموه بخيولهم واسلحتهم واعملوا السيوف فى رقاب الفقراء الذين ذبوا عن حريتهم وانسانيتهم ، وتحولت دسوق الى ضيعة يملكها الباشا واتباعه ويعمل فلاحوها اقنانا فى الارض .

• • •

والواقع ان محمد على لم ينس حرفته القديمة عندما كان شـابا فى قوله يسطو على المراكب ويجردها مما تحمله من سلع ، فكان يعمد الى سلب التجار والموسرين اموالهم ولعل ابلغ شـاهد على ذلك مصادرته اموال نفيسة زوجة مراد بك حاكم مصر ايام المماليـك واغتصاب ما تملكه ، ثم سطوه على اموال وممتلكات الامراء المماليك الذين غدر بهم فى مذبحة القلعة ، وفرضه الاتاوات على التجـار والقوافل .

ومن آفات حكم هؤلاء الاغراب طريقتهم فى تحصيل الضرائب التى كانت تجرى دون قاعدة او قانون او مواعيد محـددة ، بل كانت لا تختلف فى صورها عما كان يشيعه امراء الاقطاع فى القرون الوسطى .

فقد كان اسماعيل كلما احتاج الى المال يامر وزيره بتحصيله فى صورة ضرائب وهذا يوعز الى المديرين بجمعه وهؤلاء الى المامورين فمشايخ القرى ، واخيرا يوزع المال المطلوب على المراكز والقرى دون عدل او انصاف . فاذا ما شرع جباة الضرائب فى تحصيله تبعهم جيش جرار من المرابين لاقراض الفلاحين المال المطلوب منهم بضمان المحصول او رهن الارض . فاذا لم يستطع الفلاح توفيـة الدين

وفوائده الباهظة استدان مبلغا آخر وهكذا ، الى ان يحجز على الارض ، وبعد اسابيع يفد على القرية محضر من المحكمة المختلطة حاملا صورة حكم محرر باللغة الفرنسية فلا يفهم الفلاح او احد سكان القرية مضمونه وبعد حين لا يشعر الفلاح الا وارضه منتزعة منه حيث يستولى المرابى الاجنبى عليها .

وكان المال الذى يجمع من الضرائب قلما يصل نصفه الى خزانة الدولة ، فان المأمور يستولى على جزء منه ، وكذلك المدير فوزير المالية فرجال الحاشية ، وعلى الرغم من هذه اللصوصية السافرة كان اسماعيل صديق المفتش يفخر بانه يحصل من الفلاحين مليونى جنيه سنويا زيادة على مقدار الضريبة المطلوبة منهم !!

وتفنن اسماعيل فى فرض الضرائب ، فكانت هناك ضرائب على الارض وعلى المبانى والمواشي والمصانع والعربات والمواد الاولية للصناعة وصكوك الزواج وشهادات الوفاة ، ثم تفنن فى الاحتيال على البسطاء لسلبهم اموالهم . . حدث ان قصد الى مدينة طنطا واولم وليمة دعا اليها الوجوه والعمد والمشايخ ، وكان قد احضر معه ثوبين من الجوخ احدهما أحمر اللون والاخر أخضر فاعملوا فيهما المقص واخرجوا منها قطعا فى استدارة الريال الفضى ، وفى نهاية المادبة خطب الخديو معلنا انه يريد « ان يحكم مع امته » وانه فى سبيل هذه الرغبة سيجعل مجلس شورى النواب مجلسا نيابيا يشترك مع الحكومة فى ادارة شئون البلاد . وهم الخديو بالانصراف وهرع المدعوون لتوديعه فوجدوا بالباب محمد ثابت باشا ومن خلفه خادم يحمل صينية عليها قطع الجوخ الاخضر ، ومحمد طلعت باشا ووراءه خادم يحمل صينية عليها قطع الجوخ الاحمر ، واخبرا الوجوه والعمد والمشايخ بأن الحصول على قطع الجوخ «شرف» وذكرى لحظوة دعوتهم الى وليمة الخديو الاعظم ! وان من يحصل على جوخة خضراء يدفع عنها عشرة جنيهات ، ومن يحصل على جوخة حمراء يدفع خمسة جنيهات ، وتمكن الخديو بطريقة الاحتيال هذه ان يسلب القوم بضعة الوف من الجنيهات !

ومن الاساليب البربرية التى كانت متبعة فى تحصيل الضرائب ، ان التقى جباة الضرائب ومعهم الجند فى ذات يوم بجنازة فى الطريق فامروا بانزال النعش من فوق اكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الفقيد . . ودفعت الشهامة احد المشيعين

فدفع المبلغ وبذلك اخلى الجند سبيل الميت !

وروى عبد الله نديم فى مذكراته : كانت طرق تحصيل الضرائب تقشعر لها الابدان ، قوامها الاذلال والاهانة والايلام . فاذا هبط المامور او المدير قرية ما لتحصيل الضرائب طلب سكانها واحدا بعد واحد فمن دفع نجا من عذاب اليم . ومن قصرت يداه القاه القواصة الى الارض وقطعوا اهابه بالسياط فاذا نجا من الموت اودع ظلمات السجن .

وقال : ورايت امراة فر زوجها من السجن فطلبها وكيل مديرية الدقهلية وامر بأن تضرب على كفيها ثمانين كرباجا ثم سئلت عن مقر زوجها فأجابت بانها لا تعلم . ثم القيت على الارض وضربت على سحرها ثلاثين كرباجا ثم سئلت عن زوجها فأكدت بانها لا تعرف له مقرا ، فامر بضربها على موضع العفة منها فماتت بين ايديهم . واخيرا سألت الصراف عن المبلغ المطلوب من زوجها فأجابني بانه ٦٠ قرشا .

وقال ايضا : شاهدت رجلا يبيع الكسب فوق حماره ، فطلبوا اليه ان يدفع ٤٥ قرشا عوائد الحمار فقال انه لا يساوى عشرين قرشا وانا متنازل عنه فخذوه . فلم يقبلوا واحضروه الى الحاكم خلف الله باشا فامر ببيع الحمار ثم ثياب الرجل فوصل الثمن الى خمسة عشر قرشا ثم احيل الرجل الى مركز البوليس ليضرب ويحبس بالباقى .

وكان يحدث ان يتفق الحاكم مع شيخ البلد على ان يدفع احد تجار الافرنج المستحق على القرية من ضريبة ، على ان يحصلها ابان موسم الحصاد وجنى القطن ليستولى على جميع ما ينتج من زراعة الفلاح ويقدر ثمن قنطار القطن بمبلغ بخس ثم يكون للشيخ حصة وللمأمور حصة من ربح التاجر . ويقف شيخ البلد على الميزان او المكيال فينقص المقدار ليكون الزائد ربحا له مع التاجر .

وكان هذا العذاب قاصرا على الفلاحين والكادحين من الضعفاء الذين لا شوكة لهم . اما من ينتمون الى الخديو من افراد اسرته وبطانته والوزراء والاقطاعيين والاجانب فكانوا لا يدفعون اى نوع من الضرائب .

وقد صدق مراسل التيمس فى القاهرة حين وصف هذه الكوارث فى رسالته بتاريخ ٥ ديسمبر عام ١٨٧٨ اذ قال : ان الحقيقة المرة التى لا يكاد العقل يصدقها هى ان الفلاحين الذين اخرجهم الفيضان من بيوتهم واهلك دوابهم واكتسح الاتهم وحطم ديارهم هم انفسهم

الذين كانوا يقاضون امام المحاكم ويعذبون لعـدم ادائهم الضرائب المتأخرة عليهم ، وان مصر لم تخسر مالها فقط وهو يمثـل عرق الكادحين مدى اجيال بل بدات تخسر ارضـها ، ذلك بأن الضرائب الثقيلة المنوعة التى بلغت ٣٣ نوعا القت بالفلاحين البؤساء فى احضان المرابين والمولين والقت بجزء كبير من الارض فى ايدى الاجانب وكانت النتيجة ان تحول معظم ملاك الارض المصريين اجراء للاجانب » .

وذكر تيودور روذتشتين فى كتابه «المسألة المصرية ـ خـراب مصر » ان مصر صارت اشبه بضيعة كبيرة يديرها الدائنون الاجانب ولكن مع هذا الفارق الكبير وهو ان الدائنين عادة يفهمون انه لا بد من انماء موارد الضيعة حتى يحصلوا على اموالهم . اما فى مصر فلا يفكر المرء الا فى تسليم واغتصاب الاموال ناسـيا انه على مر الايام يستحيل عليه ان يحصد حيث لم يزرع . ان الاحكام الصادرة على الحكومة باقية لم تنفذ ، والموظفون يقاسون الام البؤس والشقاء بسبب عدم دفع مرتباتهم اليهم منذ شهور ، وكل عمل منتج نافع معطل ، ودولاب الادارة واقف . ومعظم الفلاحين لا يملكون الاراضى التى يزرعونها بل ان طبقة المرابين تملك تسعة اعشار هذه الاراضى » .

السخرة والكرباج

السخرة مقام الخدمة العسكرية الاجبارية ـ الهجرة الجماعية من الارض ـ معارضة الباب العالي ـ المصريون يحفرون القناة ويدفنون تحت الرمال ـ اسماعيل يبطل النخاسة ويبيح استعباد المصريين .

السخرة هى اكراه المواطن على العمل بدون اجر فى حفر الترع والقنوات وتطهيرها من الطمى الذى يتراكم فيها ، وتقوية الجسور وحراستها درءا لغوائل الفيضان . ومد الطرق وتعبيدها ، واقامة القناطر وتشييد المبانى الحكومية والمنشآت الضخمة ، وكانت هذه السخرة تقوم مقام الخدمة العسكرية الاجبارية .

والى جانب هذه السخرة العامة ، كانت هناك سخرة خاصة حيث يستخدم الحاكم وافراد اسرته وبطانته وكبار موظفى حكومته ، المزارعين فى فلاحة الارض باشخاصهم ومواشيهم ، وارغامهم على ان يحملوا معهم طعامهم وادوات العمل من فؤوس ومقاطف وغذاء للماشية ، فيعملون فى حدة القيظ وزمهرير الشتاء دون ان يراعى صاحب الارض حفظ ابدانهم او يدفع اليهم ما يقوم باودهم وشئون اسراتهم .

ومن توابع السخرة ان يكلف الفلاحون بتقديم الدواب من الحمير والبغال والابل الى الدوائر الحكومية ، كما يقدمونها الى الاقطاعيين من اصحاب الارض . وكانت الدواب المطلوبة توزع على القرى كل منها بنسبة معينة ، فالقرية التى يكون زمامها الف فدان تكلف بتقديم عشرة جمال وستة حمير ، والقرية التى يزيد زمامها على ذلك ترفع تكاليفها من الدواب والمواشى .

وكان الكرباج هو الاداة الوحيدة لهذا اللون البشع من الاستغلال ، يلهب ظهور المواطنين الذين يعاملون معاملة العبيد ، اذا ما توانوا عن العمل .

فالسخرة اذن لا تختلف فى شىء عن طبيعة عمل الارقاء ، وهى اثر من آثار حقوق السيادة فى العصر الاقطاعى ، عرفتها مصر الفرعونية

حين شيدت الاهرام والمعابد والمسلات والمقابر ، وعرفتها اوربا فى القرون المظلمة ، فكان السادة يبيعون صكوك الاعتاق لاحلاس الارض. وكان هؤلاء الاحلاس يؤدون لسادتهم ثلاثة انواع من الضرائب : منها اثنان نقديان والثالث هو السخرة ، اى العمل بالمجان فى الارض ، او قرع مياه المستنقعات آناء الليل بالعصا لاسكات الضفادع التى تقلق رقاد سيدهم .

جاء الاسلام فنهى عن السخرة ، وقال عمر « ض » متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا . وشبت الثورة الفرنسية فكان فى طليعة ما نادت به واقرته الغاء السخرة باعتبارها آخر حجر فى صرح النظام الاقطاعى .

وكانت مصر تحت حكم محمد على ثم أولاده وحفدته عبارة عن ضيعة كبيرة فى انظارهم . بل انه فى الواقع لم يكن سوى سيد اقطاعى يدير مستغلا واسع النطاق ، ويستخدم فيه افراد الشعب جميعا ، كما كان السادة الاقطاعيون يستخدمون الاقنان واحلاس الارض . ومن هنا كانت السخرة ، وكان تجنيد الالوف من حفر الترع وتشييد القناطر واقامة الجسور باسم «تعمير منافع عمومية» . . كانوا يخطفون من قراهم مع اسرهم الى الاماكن النائية، يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، ويخوضون المياه والاوحال . فاذا حانت ساعة الغذاء الزموا بتناول الطعام وقوفا دون ان يؤذن لهم بالجلوس او الراحة . واذا جن الليل ادخلوا الى ساحة واسعة تحيط بها الاسوار او الاسلاك ، ولم يكن لها سقف ، فكانت السماء تصب عليهم مطرا او طلا . وقبيل طلوع الفجر يهبون من رقادهم فزعين مذعورين على نداء الناظر او سوط الخولى . وفى اثناء ساعات العمل يمر بهم القواص على جواده ، معلنا بان الحاكم او الكشاف سيفاجئهم ليتفقد سير العمل ، فيهرع الاتباع الى قطع الاغصان الغليظة من الاشجار ، وينزلون بها على هذه الجسوم العارية ، فلا تسمع سوى البكاء والصراخ والنحيب ، ولا يظهر من هذه الاجساد الملطخة بالطين سوى مواضع السوط .

وقد ورد فى احصائية رسمية فى عام ١٨٣١ ان عدد الرجال الذين يعملون فى السخرة ثمانمائة الف نسمة ، فاذا اضفنا الى هذا الرقم النساء والاولاد لتجاوز عددهم المليون اى ثلث سكان مصر .

وكان شيخ البلد وهو الموكل اليه بتوريد الرجال والشبان الذين

يصلحون للسخرة يخضع هذه العملية لهواه ، ورائده بطبيعة الحال أما الانتقام من خصومه او جمع ثروة يسيرة على حساب هؤلاء المظلومين .

واثبت المؤرخ مانجان عن حفر ترعة المحمودية ، ان عدد من مات فى حفر الترعة التى بدا العمل فيها عام ١٨١٧ آثنا عشر الفا ، دفنوا على ضفتى الترعة تحت اكداس التراب والطين الذى يرفعونه من قاعها . وترجع معظم الوفيات الى قلة الزاد والارهاق فى العمل والقسوة فى المعاملة ، وبلغ عدد الذين عملوا فى حفرها ٣١٣ الفا من الفلاحين سيقوا من مديريات الوجه البحرى والجيزة .

وروى الجبرتى ان الفلاحين سخروا فى حفر ترعة الاشرفية ، وكان اذا دنا موعد الحصاد رد الفلاحون الى الارض لجمع المحصول، فاذا جاء شهر « أبيب » ونودى بوفاء النيل امر محمد على حكام الجهات « بجمع الفلاحين للعمل » فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب ، وتعطلوا عن زراعة الدراوى الذى هو قوتهم ، وقاسوا الشدة عقب عودتهم من المرة الاولى ، وهلك الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ولو فيه رمق من الحياة ، ولما عادوا الى بلادهم للحصاد طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح فول واخذما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر . ثم لا يلبثون ان يطلبوا العودة الى العمل فى الترعة ، وحمل المياه التى لا ينقطع نبعها من الارض وهى فى غاية الملوحة . الى ان يقول الجبرتى : ان المرة الاولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر مع قلة المياه العذبة فينقلوها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة وتأخر رى الاسكندرية» .

وكتب فرنسوا شارل رو فى كتابة « انجلترا والحملة الفرنسية فى مصر » : بلغت أعمال الحفر من عام ١٨٠٥ الى عام ١٨٤٠ قدرا يقرب من ١٠٤٫٥٠٠٫٠٠٠ متر مكعب ، وكان المتوسط السنوى لاعمال الحفر والاتربة ٤٠ مليونا ونصف مليون متر مكعب . واشغال البناء لاكمال مجموعة الترع المحفورة ثلاثة ملايين من الامتار المكعبة، وقامت هذه الاعمال جميعا بسواعد الالوف من الفلاحين المسخرين وبتضحية عدد كبير منهم .

• ● •

وبعد ان استولى محمد على على الارض وصادر ما عليها من حرث

ونسل حشـــد لها الفلاحين من كل صوب لخدمتها وزراعتهـــا ، واستصلاح ابعاديات اولياء النعم الصغار من الاعوان واركان الحكم .

كان الفلاحون يساقون وهم مكبلون فى القيود والاصفاد ، وكان صوت الكرباج وانات الالم هى النغمات الوحيـدة التى تنبعث من الحقول .

وضاق الفلاحون ذرعا بهذا اللون من الســخرة ، ولم يكن بين ايديهم من وسائل المقاومة سوى الهرب والهجرة الجماعية من الارض التى ولدوا فيها وشب عليها آباؤهم واجدادهم ، فنزحوا الى الجسور وجوانب الطرق يقيمون فيها مع نسائهم واطفالهم اياما واسابيع ، ومنهم من اعتصم بالصحراء واتجه الى الشرق او هاجر الى الاراضى الحجازية .

واحس محمد على بوادر الخطر من هذه المقاومة الصامتة فاذاع تعليمات مشددة « بمنع انسحاب الاهالى للفرار من الزراعــة » . واجبر كل من غادر قريته خلال سنوات خمس بضرورة العودة اليها فورا ، وتوعده بالعقاب الصارم اذا خالف الامر . كما قــرر مجلس المشورة بان كل من يهرب من الفلاحين ويكون عليه دين يؤخذ دينه من ابنه او اخيه او احد اقاربه . فاذا كان الهارب من المشايخ يؤدب اولا ، وان هرب يرسل الى ميناء الاسكندرية مدة شهرين للشغل وان هرب ثالثا يعزل ويعذب . واذا كان الهارب من الفلاحين يؤدب ويحصل من شيخ القــرية التى كان بها ، المطلوب منه ، ولا يقبــل دخـــول اى شخص الى اية قرية الا اذا كان يحمل بطاقــة تثبت شخصيته .

وفى ذات يوم عزم محمد على ، على زيارة الاقاليم لتفقــد حالة الزراعة ، واذاع بهذه المناسبة تعليماته على مامورى الاقسام ومشايخ البلاد بان الفلاحين الذين يتوانون فى خدمة الارض وجنى المحصول يجمعون وسط الحقل وتحفر حفرة عميقة ويدفنوا احياء على رءوس الاشهاد !! وتوعد المامورين والمشايخ بان من يتساهل منهم فى تنفيذ هذه التعليمات سيؤدب تاديبا صارما قد يصل الى حد هدر الدماء .

ولقد حدث ان قدم اليه بعض سكان صهرجت مركز ميت غمر تظلما ذكروا فيه بانهم ينحدرون من سلالة السلطان برقوق ، وان شيخ البلد والقواص يسخرانهم فى حفر الترع واقامة الجسور وحرث ارض الشفالك ، بعد ان يصرفا لهم المقاطف والفؤوس ، وانهم لايملكون

ما يثبتون به انهم من سلالة ذلك السلطان العظيم ولا ما يتميزون به سوى كتاب وقف . فما كان من محمد على الا أن كتب الى عامله مدير الدقهلية يامره بان يحفر القبور على جوانب الطرق ارهابا لهؤلاء الفلاحين لانهم « قوم خليعو العذار » وان اصلاحهم لن يكون الا اذا دفنوا كما كن « يفعل قرقوش مع ابائهم » .

ومما يحسن سرده على سبيل التفكهة ان محمد على اصدر امرا الى حسن الانجير كوبلى باشا ليتولى منصب حاكم عام السودان ، فامتنع الرجل لجهله باللغة العربية وقال : كيف يمكننى ان اتولى امور قوم لا اعرف حرفا واحدا من لغتهم !

فاجابه الوالى : ليست معرفة اللغة مما تقتضيه ولاية الاحكام ولا هى لازمة للحكم يختل بفقدها ، وما عليك فى منصبك الا ان تكتفى بكلمتين اثنتين من العربية يجرى بهما لسانك : فلوس ... كرباج !!

وهال الباب العالى الوان القسوة التى يلقاها الفلاحون ـ وهم من رعايا السلطان خليفة المسلمين وامير المؤمنين ـ من جراء السخرة ، فوجه نظر الوالى الى ضرورة تنفيذ قانون التنظيمات الذى تضمنه « خط الكلخانة الشريف» ومنه ابطال السخرة ومنع الجلد والكرباج ، فتردد الوالى حينا واخيرا اضطر الى ان يستخدم «الجنود الامدادية» والبحارة دون الفلاحين فى تنفيذ الاعمال الانشائية ، ثم جاءت المادة ١١٠ من قانون « الجزاء العثمانى » فحرمت تحريما باتا سوق الرعية الى السخرة .

• ● •

وكان فردينان دى لسبس يعلم بأن القناة لا يتسنى حفرها الا بسواعد المصريين ، ابناء ذلك الشعب المجيد الذى شاد صروح العمران بفضل كده وجهده . وكان يدرك الى جانب هذا ان صديقه الوالى سعيد من أنصار النخاسة والسخرة التى فرضها على الوف المصريين وانه لا يتوانى عن ان يمده بما يحتاجه حفر القناة من سواعد مفتولة ، باجور طفيفة او بدون اجر . وكان ابرز شاهد لديه ما لمسه حين اعيد حفر ترعة المحمودية بسبب تراكم الطمى فيها ، وكيف ان الوالى حشد زهاء مائة الف فلاح وزعوا على جوانب الترعة البالغ طولها ثمانين كيلو مترا ، وانشاء طريق زراعى على ضفتيها

بعرض عشرة امتار . فاستطاع دى لسبس أن يحصل على اتفاق تتعهد الحكومة المصرية بموجبه بتقديم اربعة أخماس العمال للحفر، وان تبذل مساعداتها للشركة ، وتكليف جميع موظفيها ومستخدميها وعمالها فى جميع الدوائر بأن يكونوا رهن تصرف الشركة .

وجاء فى البند الثانى من اتفاقية ٢٠ يوليو ١٨٥٦ ان اجر العمال وغذاءهم تدفعه الشركة بمعدل قرشين ونصف قرش الى ثلاثة قروش فى اليوم الواحد مع وجبة غذاء ونفقات العلاج .

على ان الحقيقة هى أن الشركة كثيرا ما كانت تماطل فى دفع الاجر المستحق ، وكان العمال يعانون مشقة فى الحصول على مياه الشرب حيث يجلب اليهم على الابل من دمياط ، وكان نصيب العامل ثلاث جرعات فقط فى اليوم .

وانتشرت اوبئة التيفويد والتيفوس بين العمال ، وسرت العدوى من منطقة القناة الى صميم الريف ،فكان المئات يقعون صرعى فلا تتكلف الشركة مؤونة حملهم وتجهيزهم ودفنهم بل تهيل التراب وتودع اجداثهم تحت اكداس الحفر واكوام الطين .

والواقع ان المصريين عانوا من المتاعب والاهوال فى حفر القناة .. كانت الحكومة تجلبهم من قراهم النائية سيرا على الاقدام الى هذه البقاع المقفرة الجرداء ، حيث يواصلون الليل بالنهار فى الحفر ورفع الاتربة . وفى غضون شهر رمضان تضاء المشاعل لهم للعمل ، وكان مجموع الذين يسخرون فى هذه العمليات ستين الفا فى كل شهر ، عشرون الفا يقومون بالعمل فعلا ، وعشرون الفا فى الطريق ليحلوا محلهم ، وعشرون الفا بصفة احتياطى . اما الذين هلكوا تحت رمال الصحراء نتيجة المرض او الجوع او العطش او الارهاق فى العمل او ضربة الشمس فى فترة سنوات عشر ، فيبلغ عددهم سبعة وعشرين الف عامل .

•

ولم يظفر هؤلاء الابطال المجهولون والشهداء الابرار الذين شقوا هذا الطريق البحرى العالمى بأى تقدير او ثناء سوى الكلمة التى خصهم بها المونسنيور بوير فى خطبته التى القاها فى حفلة افتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ اذ قال : اولئك الذين قضوا نحبهم شهداء لانكبابهم على العمل ، فوارتهم الرمال التى كانت بالامس صحراء محرقة واصبحت بفضل جهودهم ربوعا غناء ...

وكانت السخرة التى اعلن الخديو اسماعيل يوم جلوســـه على العرش عزمه على ابطالها حبرا على ورق وذرا للرماد فى العيـون ، فظلت السخرة فى القناة سائرة على ما هى عليه لولا ان حفزته انجلترا الى مناهضة المشروع وناشدته باسم الانسانية ومحاربة الـرق ان يسعى الى الغاء السخرة فى حفر القناة ، وتذرعت فى طلبها بأن جلب هذا العدد الكبير من العمال اقرار فعلى بالسخرة وامر لا يتفق مع قوانين الدولة العلية .

ووجه وزير خارجية الباب العالى مذكرة فى ٦ ابريل ١٨٦٤ الى ممثليه فى باريس ولندن قال فيها : على الرغم من ابطال السخرة فى الدولة العثمانية فان اعمال الحفر فى قناة السويس تجرى بطـريق السخرة ، وان الباب العالى يشترط لموافقته على انشاء القناة الغاء السخرة ، وانقاص عدد العمال الذين تقـدمهم الحكومة المصرية من عشرين الفا الى ستة الاف شهريا .

وردد اســماعيل كالببغاء ارادة الباب العالى ونصـيحة حكومة بريطانيا فطلب الى الشركة تخفيف شروط الامتياز وانقاص عـدد الفعلة ، فرفضت الشركة هذا العرض ، ونشب نزاع بين الطـرفين تدخل فيه الامبراطور نابليون الثالث وقضى باعفاء الحكومة المصرية من تقديم العمال مقابل تعويض تؤديه للشركة ، قدره مليون ونصفه مليون جنيه ، واستند نابليون فى حكمه الى ان الحكومة المصرية بقبولها تقديم العمال فى عقد الاتفاق قطعت على نفسها عهدا الزاميا تقابله من جانب الشركة عهود اخرى .

وعمد الخديو اسماعيل الى احلال الجند الاحتياطى محل رجال السخرة ، فكانت الحكومة تفرز من بين المجندين عددا يتكون منهم احتياطى لاستخدامهم فى الاشغال العامة . غير ان السخرة لم تلبث ان اعيدت بصفة رسمية وشملت جميع المواطنين . ومنح المسخرون حق تقديم بدل عنهم او دفع « ضريبة بدل الســخرة » يؤديها من ينشد اعفاءه من العمل بدون اجر ، فكان الحكام يستولون على « البدل » ولا يتورعون عن تجنيد المسخرين على الرغم منهم .

وكان ضرب العمد والاعيان بالكرباج شائعا ، وكذلك حشر الفلاحين لشق الطرق والمصارف واقامة القناطر وتقوية الجسور ومد الخطوط الحديدية والتلغرافية وزراعة اراضى « الدائرة السنية » .

فالخديو الذى ابطل النخاسة والسخرة بين العبيد فى قلب القارة

الافريقية اباحها فى شمالها على زعم انها من « المنافع العمومية » .
وفى الوقت الذى كان يبذر فيه المال جزافا ، كان يبخل على الفلاح بشراء بعض الالات الحديثة لتنظيف الترع والاقنية وابطال السخرة فكان الالوف يساقون قسرا الى الخدمة فى مزارعه الواسعة ويتحركون كالحيوانات بالارادة فى حفر الترع وتطهير المساقى وردم الجسور الخاصة بتفاتيشه واذا جاء اوان جنى القطن وتنقيته او حصاد القمح هوت الاسواط على اجساد الصبيان والبنات .

وكان الفلاحون الذين يسخرون فى اراضى « افندينا » يضطرون الى ترك زراعتهم وهى فى حاجة طبعا الى السقى والحرث والحصاد.

وقد عبر عبد الله نديم حين وصف اسماعيل بانه كان يتلذذ بأنين المظلومين وتضرعهم ويبتهج بآلامهم ، وقال عن حكومته انها كانت اشبه « بليمان » اعد للمذنبين ، وان اسماعيل باشاعته ضروب السخرة والسلب اصبح يملك ربع الاراضى المنزرعة فى المساحة وخمسيها فى الزمام .

بين أنياب الاستعمار

الوادى هدف الاستعمار منذ أقدم العصور ـ على بك الكبير يعلن استقلال مصر ـ معاهدات مع المماليك لحماية تجارة الغرب ـ فرنسا وانجلترا تفرقان كلمة الزعماء ـ فرنسا تحتضن محمد على وانجلترا تؤازر محمد الالفى ـ اخفاق حملة فريزر ـ معاهدة لندن ـ انضمام عباس الى السياسة البريطانية وسعيد الى السياسة الفرنسية ـ موقف الدول الاوربية من مصر .

كانت مصر منذ فجر التاريخ محط انظار ذوى المطامع والاغراض، وموطن صراع بين الدول الاستعمارية ، وحجر الزاوية فى كل ما مر بالشرق من عواصف وازمات . وقد اخذ هذا الصراع على مر العصور اشكالا وصورا واضحة المعالم بين كل من فرنسا وانجلترا ، فكل منهما تنافس الاخرى للتدخل فى شئون مصر السياسية ، والحصول على امتيازات اقتصادية او ثقافية او دينية او حرية مرور السلع والبضائع ، وهذا التدخل ليس الا صفحة من سجل الحروب الصليبية والمسألة الشرقية .

واستطاعت كل من الدولتين ان تنفذ اغراضها خفية فى عهود كانت الكنانة تحكم فى خلالها بحكام اغراب ، لا هم لهم سوى استعباد شعبها والتكالب على ابتزاز الدخل القومى بمختلف السبل دون ان يبذلوا اية محاولة لتحسين الحالة اجتماعيا واقتصاديا وصحيا وثقافيا. ولذلك نجح الاستعمار فى بلوغ اهدافه ، ووجد فى وادى النيل لقمة سائغة ، يسهل عليه التهامها وهضمها بتأثير هؤلاء الحكام الاغراب .

ومنذ أن تمرد على بك الكبير على الدولة العلية ورفض السيادة الاسمية للباب العالى ، اعلن فى عام ١٧٦٩ استقلال مصر ، وسك العملة باسمه ، وامتنع عن دفع الجزية ، وحارب الاتراك فى الشام وسجل انتصارات رائعة ، واستولى على مكة ... وقد وعدته البندقية بصداقتها ، واظهر قائد الاسطول الروسى تأييده له، اما هو فقد عكف على تشجيع التبادل التجارى بين الغرب والشرق ، ودعم الامن والاستقرار فى الداخل ، الى ان سقط صريعا فى عام ١٧٧٣ ضحية مؤامرة دبرها خصومه ، وما لبث الفوضى أن سادت ارجاء البلاد وعادت مصر الى نفوذ الباب العالى .

وسرعان ماصارت ارض الكنانة ميدانا للمنافسة الدولية للسيطرة على طريق المواصلات الى الشرق ، وبدات فكرة استخدام مصر كطريق برى لتبادل نقل السلع والبضائع بين الغرب والشرق .
فاسرع جيمس بروس قنصل انجلترا فى الجزائر بعقد معاهدة باسم دولته فى عام ١٧٧٥ مع محمد بك ابى الذهب الغرض منها رفع الحجر عن تجارة الافرنج فى البحر الاحمر ، واباحة نقل البضائع والبريد والسماح للسفن الانجليزية بان تمخر عباب البحر الاحمر الذى كان الى ذلك الحين بحيرة اسلامية لايسمح بمرور البواخر الاجنبية فيه شمال جدة .

وعقد جورج بلدوين معاهدة اخرى مع ابراهيم بك ومراد بك للحصول على امتيازات اخرى خاصة بالمواصلات وحرية مرور التجارة والبريد بالاراضى المصرية .

وعقدت فرنسا بدورها معاهدات اخرى الغرض منها حماية تجارتها وسلامة مرورها بالاراضى المصرية . الا ان فرنسا اتهمت بعد حين ابراهيم ومراد بانهما اساءا التصرف مع الافرنج وتهجما على التجار الفرنسيين ورفعا الرسوم على البضائع المارة ، واهانا العلم الفرنسى ، ولم يستطع القنصل الفرنسى الصبر على هذه الاهانات فشخص بنفسه الى باريس ليبسط شكاوى رعايا دولته على حكومة الدير كتوار .

وعلى ضوء هذه الحقائق اخذت فرنسا تعيد دراسة موقفها مع مصر وترنو الى امتلاكها لرد هذا العدوان ، والقضاء على المماليك الذين ارتبطوا بامتن الروابط مع اعدائها الانجليز لعرقلة تجارتها
والواقع ان المسالة المصرية تحددت اوضاعها منذ ان استقرت بريطانيا فى الهند وغزت بتجارتها وانتاج مصانعها بلاد الشرق ، واحتلت بريم وباب المندب وعقدت معاهدة مع سلطان لحج . ولم تكن حملة نابليون بونابرت اول محاولة من نوعها لغزو مصر بل لقد سبقتها محاولات اخرى باءت بالفشل ، ومنها محاولة لويس التاسع التى انتهت بهزيمته واسره فى المنصورة . ومشروع الفيلسوف ليبنتز الذى عرضه على لويس الرابع عشر بقصد احتلال مصر للسيطرة على تجارة الهند وبسط سلطان فرنسا وسيادتها على الشرق .
وتصريح تيير الذى قال فيه : اذا اريد تقويض اركان الامبراطورية البريطانية فى الهند فلا مفر من احتلال وادى النيل . وتقارير الرحالة

الفرنسيين الذين كانوا يتجولون فى الشرق بين وقت وآخر ويحرضون دولتهم على غزو مصر لتكون ذات منفعة عظيمة لهم وتمنحهم تجارة الهنـــد .

وعندما اسندت قيــادة الحملة الفرنســية الى نابليون بونابرت اصـدر بيانا اشار فى مقـدمته الى البواعث الحقيقية لغزو مصر واحتلال اراضيها ، فقال : ان الحكومة الفرنسية لما رأته من ان البكوات المماليك الذين استولوا على مصر ، قد اتصلوا بأمتن الروابط مع الانجليز ، وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين .. واذا كانت الطريقة المنطوية على الغدر التى استولت بها انجلترا على طريق راس الرجاء الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية الى الهند محفوفا بالمصاعب فى الطريق المعتادة . فمن المهم فتح طريق جديدة لقوات الجمهورية فى سبيل الوصول الى الهند .

وعلقت حكومة الديركتوار على ان المحرك الاول للحملة هو الوصول الى الهند ، وعهدت فى قرارها الى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية الى مصر والاستيلاء عليها ، وطرد الانجليز من بلاد الشرق وهدم المراكز التجارية التى لهم فى البحر الاحمر ، والعمل على حفر برزخ السويس ، واتخـاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية حق امتلاك البحر الاحمر » .

• ● •

كسرت شوكت الامراء المماليك بعد الجـلاء الفرنسى وصاروا فى الصف الثانى من الاشتغال بالشئون السياسية العليـا . وقـد حاولوا ان ينهضـوا من كبوتهم اكثر من مرة ولكن يقظة القوميـة المصرية فوتت عليهم اغراضهم ، فقـد ظهر المصريون على مسرح السياسة واحسوا ان قيادة الامور قد القيت على عواتقهم ، وبلغ من قوتهم انهم جرأوا على المناهضة والتمرد والثورة وصاروا ينشدون الاستقلال ويفرضون ارادتهم على الباب العالى للموافقة على خلع الوالى وتولية بدله .

وفى غضـون هذه الفترة العصيبة اخذت كل من انجلترا وفرنسا تؤلب الامراء الممالك وتضرب بعضهم بالآخر لتتخذ من الاقوى تكتلة تنفذ عن طريقها مصالحها فى وادى النيل . فحمى الانجليز المماليك بسبب انهم خصوم طبيعيين للفرنسيين منذ ان قهروهم فى معركة الاهرام وطردوهم من الحكم . وانشأ الانجليز يوزعون المال بدون

حساب ويحتضنون محمد بك الالفى اقوى الامراء نفوذا ، فاستمالوه اليهم ودعوه الى زيارة عاصمة بلادهم ـ لندن ـ واحتفوا بمقدمه ، وعقدوا معه محالفة سرية ، وزودوه بالهدايا والاموال التى ينفقها فى شراء الانصار وتجميع قوى الاتباع ليغدو « شيخ البلد » .

اما فرنسا التى كانت تدرك خفايا السياسة المصرية اكثر من انجلترا نفسها بحكم بقائها فى مصر اعواما ثلاثة وخبرتها بمختلف الطوائف فيها ، فقد استقر رايها على ضوء التقرير الذى قدمته بعثة سيبستيانى التى زارت مصر فى سبتمبر ١٨٠٢ ان دولة المماليك وشيكة الزوال ولكنها لم تنفض يدها من امرائها نهائيا ، كان ماتيو دى لسبس يحول دار القنصلية الى حان ، فيدعو المماليك الى موائد الخمر ويبسطها لهم ، وينصحهم بترك محالفة الانجليز .

وكان لابد من ظهور رجل مخاطر جسور وسط هذه الفوضى الضاربة اطنابها ، فتقدم محمد على الصفوف ومن ورائه قنصل فرنسا دى لسبس وسفير فرنسا لدى الباب العالى الجنرال سيبستيانى يصطفيانه ويشدان ازره ، وياخذان عليه العهود والمواثيق لتنفيذ مطالب فرنسا فى مصر والشرق .

وبعد ان نجح محمد على فى الظفر بالولاية لم تفتا انجلترا تبث له الدسائس بين الصفوف ، وتتحين الفرص ، على الرغم من شواغلها السياسية ، لاذلال مصر ، الى ان كانت سنة ١٨٠٧ فبادرت بارسال قطع من اسطولها لمساعدة حلفائها المماليك واحتلال مصر . وما كادت الحملة العسكرية بقيادة فريزر تصل الى شواطىء الاسكندرية حتى استولت عليها بسهولة بتاثير خيانة حاكمها التركى ، ثم واصلت الزحف الى رشيد ، ولكن المصريين والبدو وحامية المدينة الصغيرة ، تصدوا لها وابادوها عن آخرها ، وامر شيخ الازهر الطلاب بترك الدروس والانخراط فى سلك المجاهدين ، وجمع السيد عمر مكرم الف كيس لنفقات الدفاع ، ودعا بنى قومه الى التطوع فى الصفوف .

ولو وجدت هذه الحملة استخذاء من الشعب او معاونة فعالة من المماليك لما انهزمت ونكصت على اعقابها . . ومن ناحية اخرى كانت انجلترا منصرفة الى تاليب دول اوربا على نابليون بونابرت بعد عقد معاهدة تيلسيت وقد اضطرتها هذه السياسة الى مصانعة روسيا وتاجيل المسالة الشرقية ، والتدخل فى شئون مصر ، فطلبت الى الحملة العسكرية الانسحاب من الاراضى المصرية ، لتتفرغ هى لمناهضة نابليون الذى كان قد وجه قواته لسحق بريطانيا .

ومنذ ذلك الحين اصبح محمد على يخطب ود انجلترا ويهاب سطوتها ، فحاول فى عام ١٨٠٨ ان يعقد معاهدة تحالف معها ، ولكن انجلترا اعتذرت برفض مقترحاته لارتباطها مع السلطان العثمانى بمحالفة .

وسهل محمد على لانجلترا تحقيق مطامعها بابقاء طريق المواصلات الى الشرق مفتوحة ومامونة امامها فرخص للضابط البحري توماس واجهورن بالحصول على امتياز بتنظيم قوافل تجارية تعبر الاراضى المصرية ، واحتكار « الترانسيت » ، واستخدمه فى انشاء الطريق البرى الذى يصل القاهرة بالسويس لنقل الركاب والبضائع والبريد الى الهند . ومنح انجلترا مفتاح التدخل الاقتصادى بزراعة القطن وتصريف محصوله فى الاسواق الانجليزية ، فاحتكرته انجلترا وحولت تصميمات مغازلها فى لنكشير وفق تيلة القطن المصرى .

وعرض الخطط الحربية التى رسمها لغزو جنوب جزيرة العرب على قائد بريطانى ندبه فريزر بعد ان غادر الاسكندرية ليكون فى خدمة الوالى .

واباح لمهندس قصوره ت. جالواى ان يفاوض البيوت المالية فى لندن لتمويل انشاء خط حديدى يربط الاسكندرية بالسويس ، وفعلا حصل جالواى على المعونة المنشودة وابتاع المهمات والمعدات التى وصلت ميناء الاسكندرية ولكنها ظلت متروكة على الشاطىء الى ان علاها الصدا بسبب معارضة الفرنسيين للمشروع .

وكان من الطبيعى ان ينشد محمد على معونة اولياء نعمته الفرنسيين ، فاستخدم مئات الخبراء والمهندسين والعسكريين والاطباء والمدرسين الذين سيطروا على الادارة والجيش ، وظلت مصر شديدة الاتصال بفرنسا لا سيما من الناحية الثقافية ، ونال ابناء السين امتيازات ومغانم وحقوق استغلال واحتكار .

وبلغ من قوة التحالف بينهما ان كلفته فرنسا بغزو دول المغرب لحسابها ، وكان محمد على على استعداد لان يرسل جيشا يغزو به شمال افريقية فى مقابل ان يمده الملك شارل العاشر باربع سفن وثمانين مدفعا وقرض مقداره اربعة مليون ريال . وفى الوقت ذاته اراد ان يعجم عود انجلترا ويجاملها فعرض عليها تفصيلات المشروع سرا فعارضت فى ارسال هذه الحملة . ومن هنا اخذ يسوف ويماطل ويقترح ان تتولى فرنسا غزو الجزائر ويفتح هو تونس فى مقابل منحه معونة حربية قدرها عشرة ملايين من الريالات .

وانتهت المسألة بان حول دفة الغزو والفتح على الشام فعاونته فرنسا سرا ولعبت فى الخفاء دورا خطيرا لتثبت اقدامها خفية فى الشرق .

احتلت جيوش محمد على الشام واخذت تتوغل فى بطاح الاناضول تعاونها هيئة اركان حرب فرنسية برياسة الكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوى » وفى ٢٢ فبراير ١٨٣٣ وصل الجيش المصرى الى بروسة العاصمة القديمة لآل عثمان . فاستنجد الخليفة العثمانى بدول اوربا لوقف هذا الزحف الذى يهدد عرشه . فهرعت روسيا تمد له يد المعونة ودخل اسطولها المياه الاقليمية التركية ، وعسكر خمسة عشر الف جندى روسى فى استامبول . وهنا بادرت انجلترا بالتدخل خوفا من نزول الاسطول الروسى الى مياه البحر الابيض المتوسط . واتفقت مع روسيا والنمسا والمانيا على توجيه انذار لمصر لاخلاء الشام فاحدث هذا الانذار دويا فى باريس ، ولم تستطع فرنسا مساعدة محمد على مساعدة سافرة لانها كانت غير مستعدة للدخول فى حرب دولية مرضاة له .

واخذت انجلترا تحقن « رجل اوربا المريض » بالمقويات لينهض من فراشه ، وحرضت سكان الشام على اعلان الثورة على مصر ، واقدمت فرنسا على خطوة ديبلوماسية لمصلحة محمد على ، فتعهدت للباب العالى بأن يخفض جيشه البرى والبحرى ، وان تضمنه فى مقابل ذلك بان يتمتع مدى الحياة بولاية مصر ولذريته من بعده تحت سيادة الباب العالى ، وان تزداد الجزية السنوية التى يدفعها .

وفى ١٥ يوليو ١٨٤٠ عقدت فى لندن اتفاقية دولية بين حكومات بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا من جهة ، والباب العالى من جهة اخرى « لاقرار السلام فى الشرق » منح محمد على بمقتضاها :

١ — حكم « باشاليك » مصر له ولذريته من الذكور .

٢ — باشوية عكا وتولية قلعتها ، وحكم جنوب الشام ابان حياته .

٣ — سحب جيوشه من جزيرة العرب ومن الحرمين واطنه وجزيرة كريت .

واعطيت له مهلة عشرة ايام لقبول هذه القرارات ، فاذا انقضى الموعد دون ان يجيب ، نزعت منه باشوية عكا ، وبعد عشرة ايام اخرى تمر من غير اجابة تعرض لفقد حكم مصر ، وتقطع المواصلات برا وبحرا بين مصر وسورية ويمنع ارسال الجند والاسلحة والخيل

والذخائر .. وقال بالمرستون معلقا على هذا القرار : بان محمدعلى كان يحارب لنفسه وليس من ورائه شعب يؤيده .

جن جنون محمد على عندما ابلغت اليه قرارات مؤتمر لندن ، ولم يلبث ان ركبه الغرور فهدد باعلان الحرب على دول اوربا قاطبة، وبهدم الدولة العلية راسا على عقب ، وبدفن نفسه تحت انقاضهما .

وتلقى فى اغسطس ١٨٤٠ كتابا من ابراهيم ، فى معسكره بالشام يقول فيه : فى حالة وقوع حرب ، فان فرنسا ستقدم الى مصر بحريتها ودبلوماسيتها على سبيل المعونة .

وفى ٢ نوفمبر تقدمت قطع من الاساطيل البريطانية والنمسوية والتركية امام عكا واطلقت النار عليها ، فاحدث الضرب ذعرا بين السكان ودمر نصف المدينة واضطر الجيش المصرى الى الجلاء عنها. وعمد اميرال البحرية البريطانية الى الاستيلاء على اثنتى عشرة قطعة بحرية مصرية فى ميناء بيروت ، واذاع نداء بين السكان ناشدهم فيه اعلان الثورة .

وعرض على مصر بعد ذلك الانسحاب من الشام على الفور دون قيد او شرط . وهدد الاسطول البريطانى بضرب الاسكندرية . فاذعن محمد على للقوة واصدر الاوامر بوجوب الانسحاب من الشام مكتفيا بالغنيمة الكبرى وهى ان يجعل حكم مصر وقفا عليه وعلى افراد اسرته من بعده .

وعلى ذلك صدر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ «الخط الشريف الهمايونى» من السلطان الى محمد على ونصه :

« لما راينا بسرور ماعرضتموه من البراهين على خضوعكم ، وتاكيدات امانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ، ولمصلحة بابنا العالى ، قررنا ما يلى :

١ — متى خلا منصب الولاية المصرية ، تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا العلية من اولادكم الذكور . واذا انقرضت ذريتكم المذكورة ، لا يكون لاولاد نساء عائلتكم حق ايا كان فى الولاية وارثها .

ومن يقع عليه الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم ، يجب عليه الحضور الى استامبول لتقليده الولاية المذكورة .

٢ — جميع احكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر فى كلخانة ، وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها تتبع فى مصر ، كما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب ، يجرى تحصيله

باسمنا . ولكى لا يكون اهالى مصر ، وهم من رعايا بابنا العالى ، معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية ، فينبغى ان تنظم تلك الاموال والضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الولايات العثمانية . وربع الرسوم الجمركية ، وباقى الضرائب ، يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ، ويؤدى الى خزانة بابنا العالى العامر . والثلاثة ارباع الباقية لولايتكم ، لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية ، ومصاريف الوالى ، واثمان الغلال المرسلة الى الحرمين .

ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية مدة خمس سنوات ابتداء من ١٢ فبراير ١٨٤١ .

٣ — لما كان من اللزوم ان يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود . اقتضت ارادتى السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية باسمنا الشاهانى ، معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة باستامبول ، سواء من جهة عيارها او من قبيل هيئتها وطرازها .

٤ — يكفى ان يكون لمصر فى اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية البلاد ، ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر معدة لخدمة الباب العالى ، فيسوغ ان يزداد هذا الرقم فى زمن الحرب .

٥ — يجب الا تختلف هيئة الملابس والشارات العسكرية والرايات عن مثلها فى الجيش العثمانى .

وللحكومة المصرية ان تعين ضباطا بريين وبحريين حتى رتبة الملازم . اما من كان اعلى من هذه الرتبة ، فالتعيين راجع لارادتنا الشاهانية .

٦ — ان حالة الامتياز الممنوح بوراثة ولاية مصر ، خاضع للشروط الموضحة اعلاه . وفى حالة عدم تنفيذ احد هذه الشروط يبطل الامتياز ويلغى فى الحال .

وعليكم ان تقدروا انتم واولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعنون باتمام الشروط المقررة وتحمون اهالى مصر من كل فعل اكراهى وتكفلون امنهم وسعادتهم .

• ● •

كان موت محمد على فرصة طيبة لانجلترا التى لم تتوان عن توطيد علاقاتها بالوالى عباس الاول وعرض خدماتها عليه بغية

الحصول على امتيازات وفى مقدمتها مد طريق حديدي يصل البحر الابيض بالبحر الاحمر ، وتقويض سياسة فرنسا فى مصر مع الحيلولة دون تنفيذ مشروع حفر القناة .

وكان لكفاية مستر مرى القنصل البريطانى دخل فى الموضوع .. كان هناك شبه فتور بين عباس الاول وبين الباب العالى . وقد حاول رجال الدولة العلية ان يطبقوا على مصر « قانون التنظيمات » فكان عباس لنزعته الاستبدادية يحاول التملص منه . ثم استعان بصديقه القنصل البريطانى الذى وسط سير سترانفورد السفير باستامبول لكى يحمل رجال الباب العالى على تغيير سياسته نحو مصر ومنع رجال الدولة العلية من التدخل فى شئونها الخاصة . فلما نجح القنصل فى مهمته انتهز هذه الفرصة واخذ يزين للوالى مد الخطوط الحديدية المقترحة ، على ان تستغلها الحكومة المصرية وتستولى على ايرادها ، وقدم اليه جون بيرى احد مديرى شركة الملاحة الشرقية اقتراحا بمنح شركته امتيازا للترانسيت وآخر بانشاء الخط الحديدى ، وبذلك وضحت نيات بريطانيا فى التدخل فى شئون مصر .

ولم يكن عباس الاول واسع المعرفة ولا كثير الادراك ، وكان يميل بطبيعته الى كراهية الاجانب واحتقارهم بما فى الوسع لا سيما الفرنسيين الذين اقصاهم عن دوائر الحكومة . وبدات السيطرة الانجليزية تتحكم فى سياسة مصر بنفوذ القنصل البريطانى الذى اصبح بمثابة مستشار سياسي للوالى يدير شئونه .

الا ان عباس الاول كان يخشى سطوة فرنسا ، فاراد ان يعجم عودها اولا ، وكلف مسيو ليموان ان يوجه اليها خطابا باسمه يسالها فيه عن نوع المساعدة التى يمكن ان تقدمها اليه فى حالة انشاء خطوط حديدية .

وكانت المباحثات بين الوالى وبين القنصل تجرى سرا فى الليل فى قصر « الدار البيضاء » على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ، وكان لا يشهد هذه المباحثات سوى ريكاردوس المترجم بالقنصلية ، وكان شخصا فضوليا عجيب الشان ، اعتنق الاسلام فيما بعد وتسمى باسم الحاج عبد الله اغا الانجليزى ، وظفر بثقة عباس حتى وهبه قصرا والف كيس ، وعينه فيما بعد مديرا عاما للسكك الحديدية وانعم عليه برتبة الاميرالاى .

تقدمت المباحثات بين الوالى وبين القنصل وانتهت بوضع المشروع فى صيغته النهائية ، ثم وفد على مصر روبرت ستيفنسن فى اكتوبر ١٨٥٠ بقصد النزهة والسياحة ، اما فى الباطن فلتقديم مشورته الفنية وتوقيع عقد الاتفاق ، وكان هذا المهندس العالمى عضو مجلس العموم البريطانى قد زار مصر قبل ذلك لدراسة مشروع حفر برزخ السويس الا انه عارضه فى النهاية واشار بضرورة مد خط حديدى تموله انجلترا وتحتكره .

على ان اقدام عباس على الرضوخ لارادة انجلترا قد اغضب الباب العالى ، فاستاء مر الاستياء . واعترض على انه برهن على عدم احترامه نصوص الفرمان الممنوح اليه . وان نتيجة ارتباطه مع شركة انجليزية لا يوافق مصلحة مصر فى المستقبل . الى ان وجه اليه انذارا فى ٤ سبتمبر ١٨٥١ يقول فيه : « اننا نؤمل كل الامل بانكم تعترفون بوجوب طلب الاذن رسميا فى هذه المسألة وبوجوب تأكيد ذلك لنا » .

وتخوف عباس من تهديد الباب العالى لا سيما ان الصدارة العظمى قد اثارت فى جلستين متعاقبتين مسألة خلعه ، فأوفد نوبار الى استامبول ليكرر مسعاه لدى السفارة البريطانية تارة والباب العالى تارة اخرى ، محاولا اقناع ولاة الامور بفوائد هذا المشروع الذى لا يقصد منه سوى خدمة التجارة والبريد .

ولقى المشروع مناهضة فرنسا وثارت الصحافة ثورة صاخبة ، لان مد خط حديدى يصل البحرين الابيض بالاحمر معناه القضاء على نيتها المبيتة فى حفر برزخ السويس والسيطرة على طريق المواصلات بين الغرب والشرق ، وان انجلترا بهذا العمل سترفع علمها فوق ارض الفراعنة بعد ان طردت منها مرتين .. وهتف المحامى باروش قائلا : ان هذه الخطوط سوف تكون بمثابة سيوف نارية فى احشاء فرنسا ، وان المحطات والورش ستكون بمثابة مستعمرات بريطانية وخلايا للجاسوسية فى منطقة الشرق الاوسط .

وردد قنصل فرنسا للوالى بأن المشروع معناه وضع عنق مصر تحت اقدام انجلترا التى سوف تطالب فى المستقبل بتمرير جيوشها عبر الدلتا فضلا عن ان المؤسسات التى ستصحب تنفيذ المشروع ستكون انجليزية بحتة . فأكد له الوالى بأن ادارة السكك الحديدية ستكون مصرية بحتة . ولن تمتد اليها الايدى الانجليزية الا فى الاعمال

الفنية ، وان الترانسيت والبريد لن يعطى امتيازهما لدولة اجنبية .
استخذى عباس لمشيئة انجلترا ويسر لها سبيل احتكار طريق المواصلات الى الشرق والسيطرة عليه ، واغلق مصانع الغزل والنسيج لتجد مصر حاجتها من الأقمشة من الاسواق الانجليزية ، واوصد باب المدارس لينشر الجهل رواقه ، وعادى فرنسا ، مجاملة لانجلترا واغترارا بوعودها الجوفاء لتعترف بابنه الهامى وليا للعهد وتسعى الى حمل الدول — وبالاخص الباب العالى — على أن تنهج نهجها .
وركب الوهم عباس فاوفد رجالا رسميين سرا وعلانية الى استامبول والى عواصم الغرب للسعى فى تحقيق حلمه بتنصيب الهامى وليا للعهد ، ومنهم نوبار الذى زوده بالهدايا والعطايا الى رجال المابين والى رئيس الدولة الفرنسية والى ملكة بريطانيا ، ومنهم عبد الله اغا الانجليزى الذى اوفده فى سفارة سياسية مع ولده الهامى الى لندن للسعى فى الاعتراف به وليا للعهد ،ولو اضاع فى سبيل ذلك مصالح مصر الحيوية وفتح الباب على مصراعيه للاستعمار .
وجاء سعيد فاذعن لمشورة فرنسا وسار فى ركابها . ولا يخفى ان فرنسا عاونت سعيد معاونة فعالة فى ارتقائه العرش . فانه لما قدم الى القاهرة عقب مصرع ابن اخيه عباس وجد القلعة موصدة الابواب فى وجهه ، فما كان من قنصل فرنسا الا ان ابلغ محافظ القاهرة المتمرد وقادة الجند بأن دولته لن تعترف بالهامى ، فحفظ سعيد لفرنسا حسن صنيعها ، وفضلا عن هذا وذاك فقد كانت نشأة سعيد وتربيته فرنسية محضة . وبتاثير ذلك منح امتياز قناة السويس دون رضاء انجلترا . فكانت النتيجة ان البت عليه الباب العالى الذى حاول ان يخلعه وان يستدرجه الى ميناء بيروت للقبض عليه والتشهير به لخروجه عن طاعة السلطان ، وهددته انجلترا بارسال قطع حربية من اسطولها للقيام بمظاهرة بحرية امام الشواطىء المصرية .

• ● •

ولم تكسب التسوية التى اجريت مع محمد على مصر شخصية دولية وانما ظلت ولاية عثمانية ، يدل على ذلك ان السلطان كان يصف نفسه فى الاوامر الشاهانية بانه « سيد مصر » وبأن المصريين « رعايا » . وكان العلم العثمانى هو علم مصر ، وجيشها جزء من الجيش العثمانى ، والضرائب تجبى باسم السلطان ،والعملة

تسك برسمه ، ومع ذلك كانت الحكومة المصرية تتمتع ببعض مظاهر الشخصية الدولية لا سيما فى عهد اسماعيل ، مثل عقد القروض الخارجية ، والاتفاقات الجمركية ، والمعاهدات التجارية ، وتنظيم شئون الاجانب وقيام وزارة خارجية بها ، والاتصال رأسا بالدول الاجنبية .

وكانت سياسة اوربا عامة فى غضون الفترة التى سبقت عهد اسماعيل ، هى المحافظة على وضع مصر السياسى بموجب اتفاقية لندن . على ان فرنسا وانجلترا كانتا تتدخلان من حين الى آخر لدى الباب العالى للاستزادة من حقوق مصر او الانتقاص منها حسبما تمليه الاهواء والمآرب . وقد راينا كيف انه عندما اقدم عباس على السماح لشركة انجليزية بمد خطوط حديدية فى قلب اندلتا احتجت فرنسا واوعزت الى الباب العالى بالاعتراض على ذلك . وعندما رخص سعيد لفرنسا بحفر برزخ السويس ناهضته انجلترا واستعانت بالباب العالى لعرقلة المشروع . فالمسألة اذن كانت سباق بين الدولتين الاستعماريتين لتحقيق مطامعهما فى وادى النيل .

واخيرا وجدت انجلترا ان اوربا لا تقف موقف المعارضة لسياستها فى مصر بعد أن كسرت شوكة فرنسا فى موقعة سيدان وانكمش صوتها فى المحافل الدولية . فان المانيا بزعامة بسمارك دعت كلا من انجلترا وفرنسا الى تغلغل نفوذهما على حساب ممتلكات تركيا سواء فى شمال افريقية أو فى وادى النيل ، وتقسيم تركة « رجل اوربا المريض » . وكان بسمارك يفكر جديا فى ان تكون مصر من نصيب انجلترا كتعويض لها فى حالة امتداد مطامع روسيا الى بحر مرمرة . وبعد مؤتمر برلين اتفقت انجلترا وفرنسا على ان يتساوى نفوذهما فى وادى النيل وعلى منع اية دولة من ان تشاركهما هذا النفوذ .

والآن ما هو موقف اسماعيل فى هذا الجو الدولى الملبد بالغيوم .

كان اسماعيل يسعى الى التخلص من سيطرة الباب العالى والانفصال عن الدولة العلية لا ليصل الى مرتبة الملوك كما كان ينشد ولكن ليقع تحت وصاية الدول الاوربية . وكانت وسيلته فى الاولى لتحقيق هدفه الرشاوى والهدايا للاستزادة من الحقوق والمزايا . اما فى الثانية فكانت وسيلته القروض واستخدام كبار الموظفين والقادة الافرنج ، وفتح ابواب البلاد للافاقين من الغرباء الذين ينشرون بغيهم تحت ظلال الامتيازات الاجنبية وحمايته لهم .

وقد ظهر ميل اسماعيل الى فرنسا بحكم نشأته الباريسية ، واعجابه بقشور الحضارة ،وميله الى تقليد البلاط الفرنسى فى مظاهر مجونه وعبثه ، واستخذائه لنصائح المستشارين الفرنسيين الذين استخدمهم فى دوائر الحكومة .

عندما ارتقى اسماعيل العرش طلب الى قنصل فرنسا فى الاسكندرية تأييد دولته وقال له : « اننا نذكر ما ندين به لمعاونة فرنسا وما خصتنا به دائما من رعايتها » . وفى الاسبوع الاول من ارتقائه العرش تعرض ثلاثة من بقايا الجند الارناؤود لاحد الرعايا الفرنسيين فى مدينة الاسكندرية وانهالوا عليه ضربا ، وطوقوا رقبته بحبل وسحبوه فى شوارع المدينة محاولين قتله . فهب قنصل فرنسا يحتج لدى الحكومة على هذا العمل . وخشى اسماعيل ان تضيع صداقة فرنسا منه فحكم بنفى المعتدين بعد تجريدهم من رتبهم العسكرية ، واوفد شرذمة من الجند الى دار القنصلية وتقديم التحية العسكرية الى العلم الفرنسى ، فكانت هذه الخطوة من جانبه لارضاء فرنسا على هذا النحو موضع نقد وتجريح .

وجاءت مشكلة قناة السويس . فقابل اسماعيل فردينان دى لسبس وقال له على مسمع من وزرائه ورجال بلاطه «انني قناليا اكثر منك » وكان يرمى بهذا الى المضى فى تنفيذ المشروع لولا ان لوحت له انجلترا بالمعارضة وحرضت الباب العالى على ان يؤازرها فى مطلبها . وعند ما ثار الخلاف بين الخديو وبين الشركة ارتضى تحكيم امبراطور فرنسا وسحب القضية من المحاكم ، ولا يخفى مقدار الغبن الذى لحق بمصر جراء قبولها نصوص التحكيم .

اما موقف انجلترا من مصر ، فقد مهد لها اسماعيل تحقيق مآربها ، بالتدخل وبسط نفوذها منذ ان قبل مشورتها فى مشكلة القناة ، فسمح بتعيين حكام انجليز فى جنوب الوادى ، ومنهم صمويل بيكر حكمدار خط الاستواء ،وجوردون حاكم عام السودان، وتخويلهما سلطات واسعة النطاق مكنتهما من دق اسفين لمصر فى القارة الافريقية .

وبعد ان افتتحت القناة للملاحة،واستحوذت بريطانيا على الاسهم التى باعها اسماعيل لدزرائيلى صارت انجلترا اكثر تطلعا لمصر بوصفها مفتاح الهند ، وخوفها من ان تقوم على ضفاف النيل دولة قوية

تحول بينها وبين مستعمراتها فى الشرق ، وتم احتلال مصر فعلا عقب افتتاح القناة باثنى عشر عاما ، وبسبعة اعوام بعد حصولها على الاسهم .

وبدات هذه المؤامرة المحبوكة الاطراف بالوصاية على شئون مصر المالية بحجة حماية اموال المرابين الاجانب ، مع ان القروض التى ماطلت الدول الاوربية المفلسة فى سدادها عند نهاية القرن التاسع عشر كانت أكثر من اربعمائة مليون جنيه ، ومع ذلك لم تتخذ دولة ما القوة ذريعة للتدخل فى شئون الدولة المفلسة .

استهلت انجلترا خطتها بتحويل ديون اسماعيل التى عقدها بصفته الشخصية الى قرض باسم الحكومة لاضعاف مركز مصر المالى وارباك ميزانيتها ، ثم اوعزت الى سفيرها فى استامبول هنرى اليوت ، أن يقنع الباب العالى باصدار فرمان يطلق به يد اسماعيل فى جميع الشئون بما فيها عقد القروض .

واقدمت فى عام ١٨٧٥ على امر يعد بمثابة مرحلة انتقال جديدة للتدخل بصفة رسمية فى شئون مصر ، فعقب شراء اسهم قناة السويس ، تطفلت تطفلا غريبا فى بابه بارسالها لجنة مالية برياسة كيف لانقاذ الخديو من ورطته المالية ، اما فى الباطن فكان لبسط حماية مقنعة على الوادى .

وتقدم بعض المولين الفرنسيين بعرض لانشاء مصرف وطنى يديره مندوبون دوليون ، وينظمون مسالة وفاء الخديو بالتزاماته من دفع الاقساط والفوائد ، الا ان انجلترا رات ان ذلك العمل سيدعو الى انقاذ مصر من ورطتها المالية ، ويترتب عليه نبذ مقترحات اللجنة البريطانية ، التى تتولى الاشراف على الشئون المالية ، فعارضت فى ذلك ، وبعد أن عكفت اللجنة على البحث والاستقصاء والتنقيب فى سجلات الحكومة وجمعت ما شاءت من المعلومات . ووعدت بأن يكون تقريرها ومقترحاتها سرا مطويا ، فاجأ لورد دربى الراى العام بنشر تقرير اللجنة للقضاء على سمعة مصر المالية .

وراى اسماعيل اذعانا لنصائح انجلترا التخلص من وزير ماليته اسماعيل صديق المفتش لمعارضته فى وجود اللجنة المالية الثانية برياسة جوشن ، فقتل الرجل غيلة وغدرا . وبعد اسبوع واحد اعلن اسماعيل قبوله مشروع جوشن ، وتاليف لجنة دولية تفحص المالية المصرية لتعمل على التوفيق بين مصلحة حملة السندات

ومصلحة الحكومة ، وبذلك استطاعت بريطانيا ان تبسط وصايتها على مصر بصورة مكشوفة .

وكانت الخطة الثانية التى وضعها الاستعمار لتنفيذ مآربه ، هى قيام وزارة أوربية — او مختلطة — لحكم البلاد ، وقد سماها المؤرخون المزورون بالوزارة المسئولة على انها فى الواقع لم تكن مسئولة لا امام الخديو ولا أمام الامة ، ولم يحدث فى اى بلد من بلاد العالم — ولو كان محتلا — ان يلى وزارته أجانب يتمتعون بسلطات مطلقة للتصرف والتحكم فى شئونه .

وبدات تظهر مشكلة توزيع الاسلاب والغنائم ، فبريطانيا رشحت ريفرز ولسن وزيرا للمالية، فلما اتصل ذلك بفرنسا عدت مسعى انجلترا للاستئثار بادارة مصر امرا غاية فى الوقاحة ، وطالبت بان يكون لها وزير الاشغال الذى عين فيه دوبلينير ووسعت دائرة اختصاصه بان صوت مسموع فى الشئون المصرية ، فعرضت عليها انجلترا منصب اضيفت الى الوزارة مصالح السكك الحديدية والبريد والموانىء والمنائر ، وجاءت النمسا فطالبت بوزارة العدل ، وايطاليا بوزارة المعارف ولو تحققت هذه الرغبات لكان الامر مهزلة .

وبعد أن تولى ولسون — اوفلسن — وزارة المالية بضعة اشهر حرم فى خلالها على الخديو حضور جلسات مجلس الوزراء ومنح نفسه حق الفيتو فيما يصدره المجلس من قرارات ، وبعد ان نهب أموال الخزانة العامة باليمين وبالشمال ، وارهق الفلاح بمختلف الضرائب ، أعلن فى النهاية افلاس مصر ووجوب مقاضاتها كما يقاضى المفلسون .

وكانت هذه الوزارة الاوربية بمثابة آخر مسمار فى نعش اسماعيل، فبعد أن أسقط الخديو هذه الوزارة اخذت كل من انجلترا وفرنسا تسعيان لدى الباب العالى الى عزله ، فوافق الباب العالى على ان يكون الامير عبد الحليم خلفا له على العرش ، ولكن الدولتين تمسكتا بتوفيق ولى العهد ، لما لمستا فيه من خنوع وخضوع لرغباتهما .

قنـــاة السويس

نبذة عن ترعة السويس قديما ـ خطط فرنسا فى الشرق ـ فردينان دى لسبس وصداقته للوالى سعيد ـ الحرب الباردة بين انجلترا وفرنسا ـ عقد الامتياز مصر تكتتب فى نصف راس مال الشركة ـ الخلاف بين الحكومة والشركة ـ تحكيم نابليون الثالث ـ حفلات افتتاح القناة ـ خسائر مصر فى القناة

ان فكرة زواج البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ، او بالاحرى وصل النيل بالبحر الاحمر لاختزال شقة السفر بين الشرق والغرب وبالعكس ، هى فكرة قديمة كل القدم ، حاول تنفيذها الفراعنة والبطالسة والرومان والعرب .

ففى عهد الاسرة السادسة شرع الملك مربرع فى شق قناة تمتد من فرع النيل عند بوبسطة وتصل الى البحر الاحمر ، وهى القناة التى عرفت فيما بعد باسم « سيزوستريس » واستخدمت فى الملاحة زمنا ، ثم هجرت وطمرتها الرمال والاتربة ، الى ان تجددت فى عهد الملك نيخاو .

وعندما احتل الفرس ارض النيل عمد الملك دارا الاول الى اعادة حفر هذه الترعة وتعميقها لانها تساعد على تيسير الاتصال بين فارس ومصر .

وفى اثناء الفتح العربى اراد عمرو بن العاص حفر ترعة من الفرما الى السويس ، الا ان الخليفة عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك بحجة ان وجودها يفتح طريقا لمراكب الروم ، تهدد بها الحرمين الشريفين . فعدل عمرو عن ذلك الى فكرة اخرى ترمى الى اعادة حفر الترعة القديمة واطلق عليها اسم « خليج امير المؤمنين » ، وظلت هذه الترعة تستخدم فى شئون الملاحة وفى نقل الغلال الى الحرمين الى اوائل حكم العباسيين ، الى ان امر ابو جعفر المنصور بردمها سنة ٧٧٠ م ليحول دون نقل القمح والمؤن الى الثائرين عليه فى الحجاز .

واستعيض عن هذا الطريق المائى بطرق برية للقوافل تربط اوربا بالشرق ومن اهمها : طريق قنا ـ القصير ، واسوان ـ عيذاب ، وعين شمس ـ السويس .

وهذه الطرق كانت تعبرها القوافل حاملة تجارة الهند والشرق الاقصى من اقمشة وافاوية وتوابل وطيوب الى الغرب ، وترسل اوربا عن طريقها بضائعها الى الشرق .

وعندما وصل نابليون بونابرت الى مصر كان يحمل فى ذهنه مشروع وصل البحرين الابيض بالاحمر ، فقد اظهرت خطط فرنسا ان طريق راس الرجاء الصالح لم يعد يلائم الظروف والملابسات الدولية ، وان مصر وهى بمثابة الجسر بين البحرين الابيض والاحمر ذات مركز خطير ، اذا قبض عليه عدو لانجلترا . وكانت تصحب الحملة الفرنسية بعثة علمية من اقطاب الفكر والعلم والهندسة ، فسافر نابليون برفقتهم الى برزخ السويس لمعاينة مشروع حفر القناة ، الا انه اضطر الى العدول عن تنفيذه بسبب جسامة النفقات من ناحية ، والى ان المهندس لابير من ناحية اخرى بنى تقديره على اساس غير سليم ، اذ قرر ان البحرين لا يستويان وان سطح البحر الاحمر يعلو على الابيض بقرابة تسعة امتار .

وعرضت فكرة حفر القناة على محمد على فكان يتلون لها تبعا للظروف السياسية ، قيل انه كان يخاف على مصر من شقها بسبب عبور السفن الدولية الاراضي المصرية ، وروى انه كان يخشى ان تتحول التجارة عن الاسكندرية وتؤثر فى محيط الدخل القومى اذ ان البواخر كانت تنزل مشحوناتها فى ميناء الاسكندرية ثم تحمل البضائع فى النيل عن طريق العطف الى ميناء بولاق ومنها تعبر الصحراء على الابل الى السويس الى ان تشحن على مراكب الى الشرق ، وبطبيعة الحال كانت مصر تستفيد من مرور هذه البضائع بأراضيها .

وجاء فى تعليمات بعث بها الوالى الى سر عسكر ابراهيم أثناء رحلته الى اوربا فى غضون عام ١٨٤٥ :

« اذا سافرتم الى فرنسا والتقيتم بوزرائها وساستها وسالوكم عن أحوال مصر فقولوا : ان والدى يدرك منذ ن ولى الحكم درجة محبة الفرنسيين له ، وانهم لم يضنوا عليه بتقديم المساعدات ، وانه لا يفتأ يقدم فروض الشكر فى كل مناسبة ولا يألو جهداً فى توصية أفراد أسرته واتباعه وقرابته بأن يقدروا قيمة حسن معاملة الفرنسيين لمصر .

واذا فاتحوكم فى مسألة قناة السويس فقولوا لهم انه ليست هناك صعوبة فى حفرها . وقد اضطررنا الى تأجيل شقها الى الوقت المرهون ونحن نرغب فى حفرها من كل جانب . ومتى تم انشاء القناطر الخيرية فلا ضير على مصر لتقوم بحفرها » .

ويتبين من هذا انه مناقض تماما لما اثبته المؤرخون من ان محمد على كان يعارض فرنسا فى شق برزخ السويس . وعلى كل حال فمن المقطوع به أن محمد على جمع مستشاريه ومهندسى حكومته من الفرنسيين وفى طليعتهم لينان دى بلفون ووجهم الى منطقة السويس لمعاينة مناسيب المياه فى البحرين ، فخرجت هذه اللجنة من دراساتها بتصحيح الخطأ الذى وقع فيه لوبير وهو ان منسوب المياه لا يزيد على ٣٢ س.م

وفى غضون عام ١٨٣٣ كان لينان قد فرغ من وضع تقريره الشامل عن مشروع القناة ، وقدم صورا منه الى : قنصل فرنسا فى القاهرة ، والى شركة الملاحة الشرقية ، P. & O. والى حكومة الهند ، والى حكومة باريس . وعلى اثر ذلك اهتمت أوربا قاطبة بأبحاث لينان . فقدمت الى مصر بعثة من الرهبان العلماء ، من طائفة السيمونيين ، وكان افرادها من دعاة المشروع ، وبعد أن قضت فترة طويلة من الزمن فى منطقة القناة عكفت فى خلالها على دراسة المشروع على الطبيعة ، تقدمت الى محمد على لتحصل منه على حقوق الامتياز .

وتكونت لجان عالمية من خيرة المهندسين والفنيين . وسعت الى منطقة القناة وقتلت المشروع بحثا وتمحيصا ، ومنها بعثة روبرت ستيفنسن الذى اقترح الاستعاضة عن حفر القناة بمد خط حديدى يصل الاسكندرية بالسويس ، الا أن عهد محمد على كان قد اوشك على الافول ، وبدأ النفوذ البريطاني يتغلغل فى ارجاء وادى النيل فى عهد حفيده عباس الاول، فحاربت انجلترا مشروع القناة لتحل محله مشروعا تحتكره هى لربط البحرين بالخط الحديدى المقترح . وفعلا حصل ستيفنسون على ترخيص من الوالى بذلك وبدأ العمل فعلا ، وفى الوقت ذاته رصف الطريق الصحراوى بين عين شمس والسويس وهو الطريق الذى تسلكه مركبات الامنيبوس والبريد والقوافل التجارية .

• ● •

خدم عباس الاول بريطانيا بأن سهل لها مد خطوط حديدية فى قلب الدلتا وذلك فى سبيل سعيها الى حمل الباب العالى على الاعتراف بابنه الهامى وارثا للعرش ، وكذلك خدم سعيد فرنسا بسماحه لها بشق برزخ السويس فى سبيل الاعتراف بابنه طوسون وليا للعهد، فقد كان الهامى كما كان طوسون معبود ابيه ، وقد نشأ كلاهما مدللا،

منعما ، وقد اقدم كل من عباس وسعيد على خدمة المصالح الاستعمارية لكى يضمنا تايد الراى العام الاوربى ويهىء كل منهما لولده وراثة حكم مصر .

واراد عباس أن يصادر ممتلكات افراد اسرته لا لشىء الا ليجعلها وقفا على الهامى ، واوصى له بثروته المنقولة وكانت قرابة مليونى جنيه. اما سعيد فمنح ولده طوسون اقطاعيات واسعة النطاق الى حد ان ثروته كانت تفوق ممتلكات اسرة محمد على مجتمعة ؛ فالمسالة اذن كانت سباق وتنافس وتكالب على جمع الثروة بالطرق المشروعة وغير المشروعة . ثم ضياع استقلال البلاد .

وكان فى جملة اصدقاء سعيد فردينان دى لسبس .. كان ابوه ماتيو قنصل فرنسا فى مصر واليه يرجع الفضل فى اسناد الولاية الى محمد على بحمل الباب العالى على الموافقة على قرار الزعماء والعلماء ورجال الشرع،أما فردينان فقد استهل حياته فى السلك الدبلوماسى وكان فى وقت ما نائبا عن القنصل الفرنسى فى الاسكندرية ،واستطاع فى غضون هذه الفترة ان يظفر بثقة الوالى ووطد علاقته به . فعهد اليه بان يكون رائدا ومدربا لولده سعيد الذى كان يبلغ من العمر اربعة عشر عاما وكان فردیناند محدثا لبقا ، ووصوليا من الطراز الاول ، وزير نساء ، فاستطاع سعيد ان يجد فى صحبته ما يرضى نزواته وشهواته ، وكان يجد فى داره الطعام المطهو على الطريقة الباريسية وانواع الانبذة والوان النساء التى يهفو اليها شاب فى مثل سنه ، وفى عام ١٨٤٨ فر سعيد من مصر بسبب اضطهاد عباس له ولجأ الى باريس وهناك التقى بصديق الصبا وقضى معه اياما كلها لهو وفراغ ومفسدة .

وكان فردينان قد طالع اشتاتا عما كتب عن مشروع حفر برزخ السويس،وبالاخص ما ورد عنه فى الموسوعة المعروفة باسم « وصف مصر « التى اشترك فى وضعها علماء الحملة الفرنسية ، وجمع طائفة اخرى من المعلومات والتقارير وفى طليعتها تقارير : لوبير وموجيل وجماعة السيمونيين ، واستهوته بصفة خاصة ابحاث لينان دى بلفون . وفى ذات يوم من ايام شهر سبتمبر ١٨٥٤ طالع مصادفة فى احدى صحف باريس . وكان مقيما اذ ذاك فى الريف الفرنسى ، نبأ مصرع الوالى عباس واسناد الولاية الى سعيد . وكانت غبطته عظيمة وهو يطالع هذا النبأ فقفزت الى ذهنه فى الحال فكرةمشروع حفر برزخ السويس ، ووجدها فرصة مواتية لاستغلال صداقته

القديمة لسعيد وحمله على تنفيذه، وبادر لتوه بان كتب الى سعيد مهنئا ومبديا رغبته فى القدوم الى مصر ، فرد عليه الوالى يدعوه الى زيارته ومشاطرته فرحته وحدد له موعدا اوائل نوفمبر ثم طوى الرسالة على حوالة بريدية بخمسين الف فرنك .

زايل فردينان فرنسا الى الاسكندرية حيث وصلها فى الاسبوع الثانى من نوفمبر ووجد فى استقباله فى الميناء مندوبا من قبل الوالى واحدى المركبات الفاخرة ، فارتدى ملابسه الرسمية ووضع اوسمته على صدره حيث اقلته المركبة الى قصر القبارى وهناك اكرم سعيد وفادة صديقه وخصه بالكثير من التفاته ورعايته .

واتفق ان قام الوالى فى اليوم التالى برحلة الى الصحراء الغربية ، مصطحبا الجيش كعادته باسلحته وعتاده الى ان حطوا الرحال فى بقعة متاخمة لمريوط . وكان فردينان مغرما منذ حداثته بالجياد العربية، ماهرا فى العدو والقفز بها ، فبعد ظهر احد الايام امتطى صهوة جواد اصيل وصار يعدو به فى الصحراء ويقفز ويتخطى الحواجز على مشهد من الضباط ورجال الحاشية الذين اعجبوا ببراعة وفروسية صديق ولى نعمتهم .

واقام سعيد مسابقة فى الرماية باطلاق النار على هدف معين ، فاخطأ الضباط اصابة المرمى ، الا ان فردينان تناول احدى البنادق واصاب الهدف اصابة موفقة ظفر من اجلها بهالات الاعجاب ، وعلت اسارير سعيد الفرحة من مهارة صديقه فقبض على يديه مهنئا ثم اختلى به فى خيمته يتذاكران ايام الصبا وليالى باريس .

كان فردينان كما بينا وصوليا من الطراز الاول ومغامرا جسورا، فانتهز فرصة اعجاب الضباط ورجال الحاشية بمهارته ، واستغل حسن الوفادة التى لقيها من الوالى ، وفى هذه الخلوة بالخيمة ، فاتح سعيد فى الموضوع الذى يشغل باله وهو حفر قناة تصل البحرين الابيض بالاحمر ، وبسط له الموضوع دون ان يدخل فى التفاصيل ، واستطاع ان يقنعه بالفوائد التى تنجم عن تنفيذه وكيف انه سيتوج اسمه فى ثبت التاريخ ، وتكون القناة مفخرة لمصر وللملاحة البحرية .

ومع ان هذا الديبلوماسى الماكر لم يكن مهندسا ولا يدرى شيئا عن الملاحة البحرية الا ان صداقته للوالى غيرت مجرى التاريخ ، وكانت بمثابة نقطة تحول فى السياسة المصرية بل العالمية .

وانقاد سعيد الى اغراء صفيه فاستدعى قواده وبسط الفكرة لهم ، وكانت عقلية هؤلاء القادة لا تختلف فى شىء عن عقلية ولى نعمتهم ، وسرعان ما وافقوا بالاجماع دون تمحيص او دراسة او نظر فى العواقب ، ودون ان يكون لهم سابق المام بالمشروع او تقدير خطورته ، بل كانوا لا يزالون متاثرين ببراعة ذلك الفرنسى فى الفروسية ، وحكموا من الظواهر على انه رجل ممتاز لا يحمل بين جنبيه سوى الخير لمصر .

ولما كان سعيد متقلب الاهواء فقد خشى فردينان ان يرجع الوالى عن الوعد الذى قطعه على نفسه ، فعرض عليه وهو لا يزال فى مخيمه فى الصحراء ، التخطيط الاول لمشروع اتفاقية القناة ، فطمأنه سعيد بقوله : انه موضوع مفروغ منه وفى وسعك الاعتماد على .

واتجه الوالى بجيشه الى العاصمة الى ان وصلها فى ٢٤ نوفمبر ، واستضاف صديقه فى « قصر المسافرين » ومن غرائب الاتفاق ان هذا القصر كان مخصصا ايام الحملة الفرنسية لاجتماع اعضاء لجنة بحث مشروع حفر برزخ السويس برياسة لبير .

وفى الغداة وفد قناصل الدول بملابسهم الرسمية على ديوان القلعة لتهنئة الوالى بوصوله العاصمة ، ولنترك دى لسبس يقص علينا نبأ هذا الاجتماع التاريخى من مفكرته فى ٢٥ نوفمبر اذ قال :

« لم يكد قناصل الدول يجلسون على ارائك الديوان ويقضون واجب التحيات حتى فاجاهم عزيز مصر وفاجانى انا ايضا باعلانهم انه قد عزم على شق برزخ السويس وحفر قناة بحرية الملاحة ، وعلى انه يفوض الى تكوين شركة من ممولى جميع الامم بمنحها امتيازا بتنفيذ هذا المشروع واستغلاله ، ثم التفت الى وقال : أليس هذا ما سنفعله ؟ فالقيت عندئذ كلمة موجزة اوضحت فيها ماذكره الوالى وعزوت اليه فضل ابتكار هذا المشروع والعناية بتنفيذه مجتنبا فى قولى كل ما يحرك شجنا فى نفوس ممثلى الدول الاجنبية ، وكان يبدو على القنصل البريطانى شىء من الارتباك » .

وفى اقل من اسبوع كان عقد الامتياز الابتدائى فى جيب دى لسبس

ووضع الوالى تحت تصرفه لجنة من خيرة مهندسى الحكومة وفى طليعتهم موجيل ولينان دى بلفون ، وسافر برفقتهم فى ٢٣ ديسمبر الى السويس لوضع التصميمات والخطوات التمهيدية .

وبعد ان قطعت اللجنة شوطا بعيدا فى دراساتها ، استقدم دى لسبس لجنة دولية ، يصحبها مهندسون من البحرية الفرنسية

لوضع التفصيلات الفنية الدقيقة ، وكان دى لسبس خالى الوفاض فدفع اليه سعيد كل ما فى خزانة الدولة من مال للانفاق منه على الدراسات التمهيدية وعلى المهندسين والمحامين والكتاب والصحفيين الذين جندهم للدعاية للمشروع ، وكان هذا المال قرابة خمسمائة الف ريال ، وخص دى لسبس براتب شهرى قدره ثلاثين الف فرنك .

وما ان فرغت اللجنة الدولية من مهمتها ووافقت على المشروع حتى اصدر الوالى وثيقة فى ٢٥ يناير ١٨٥٦ صدق بها على الامتياز السابق ، وجاء فى البند الاول منها : ان تقوم الشركة المؤسسة بمعرفة صديقنا مسيو فردينان دى لسبس بناء على عقد الامتياز الممنوح له فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ على نفقتها الخاصة وتحت مسئوليتها وحدها بجميع ما يلزم لاجل حفر قناة ملاحية بين السويس وخليج بيلوز ، وحفر ترعة للرى والملاحة النهرية تربط النيل بالقناة ، وانشاء فرعين من هذه الترعة للرى ولتوصيل المياه العذبة الى السويس والى بيلوز ، ويجب اتمام هذه الاعمال فى مدة لا تتجاوز ست سنوات .

وجاء فى البند الثانى ان للشركة الحق فى تنفيذ الاعمال المنوطة بها بمعرفتها او بوساطة مقاولين ، وفى كل هذه الحالات يكون اربعة اخماس العمال من المصريين .

وفى البند الثالث ان عمق القناة الملاحية وعرضها يجب ان يكون مطابقا لبيانات اللجنة الدولية ونص البند السادس على تحويل بحيرة التمساح الى ميناء صالحة لرسو اكبر السفن البحرية حمولة ويجوز للشركة انشاء ميناء عند مدخل القناة فى بيلوز ، وتحسين ميناء وحوض السويس الحاليين وان تكون صيانة القناة والموانىء والترع على مصاريف الشركة .

وجاء فى البند العاشر ان الحكومة تمنح الشركة بدون مقابل وبدون ضرائب كل الاراضى اللازمة لانشاء الترع والقناة وكذلك جميع الاراضى الصحراوية القابلة للاستصلاح الزراعى على الا تحصل ضريبة عنها لمدة عشر سنوات ، وبعد انتهاء مدة عقد الامتياز يحق للشركة او لممثليها الاحتفاظ بهذه الاراضى مع حق اخذ المياه اللازمة لريها مقابل حصول الحكومة على ١٥ ٪ من قيمة الارباح الصافية

للشركة ، وان تسلم الحكومة للشركة الاراضى المملوكة للغير والتى تلزم لتنفيذ المشروع على شرط أن تدفع الشركة للاهالى التعويض اللازم عن املاكهم .

ونص البند الثانى عشر على ان تمنح الحكومة الشركة الحق فى استغلال المناجم والمحاجر بدون ثمن أو اية ضريبة أو اى تعويض لاستخراج المواد اللازمة لاعمال المبانى وصيانة المنشآت ، وان تعفى الشركة من الضرائب الجمركية المقررة على جميع الالات والمهمات التى تستحضرها .

ونص البند الرابع عشر بان القناة والموانىء الخاصة بها مفتوحة دائما وقت السلم وكذلك فى وقت الحرب كممر دولى محايد لكل المراكب التجارية .

اما مدة عقد الامتياز فهى ٩٩ سنة واشترط الوالى تعليق اعتماد العقد على موافقة السلطان .

• ● •

هكذا عرف دى لسبس كيف يستغل صداقته للوالى الضعيف المغرور ، وان يظفر منه بامتياز اعظم مشروع هندسى ، ووقع سعيد على العقد دون ان يتروى او يفحص شروطه ومحتوياته او يستشير احدا بشأنه .

وكان عقد الامتياز فضيحة له ووثيقة عار تنازلت الحكومة بموجبه عن حقوقها فى السيادة ، وكان هذا التنازل شؤما على الكنانة وخطرا على كيانها واستقلالها ، وفتح الباب على مصراعيه للاستعمار الاوربى وللاستعباد الاقتصادى، فقد نص فيه على أن تتنازل الحكومة عن ملكية الاراضى الشاسعة التى تستصلحها الشركة للزراعة ، وان تعفى هذه الاراضى من اية ضريبة لمدة عشر سنوات وان تقوم الشركة ببيع مياه النيل من الترعة التى تحفرها لابناء النيل ، وان تعفى من دفع اية رسوم جمركيه ، وان تخول حق الانتفاع بما تحويه المناجم التى قد تكتشفها ، وان يوضع جهاز الدولة باكمله تحت تصرف الشركة ، وان يكون أربعة اخماس العمال — مهما بلغ عددهم — فى خدمة الشركة تسخرهم فى اعمالها بمعرفتها وتحت ادارتها وفى اية صورة تشاء .

وكان الحصول على عقد الامتياز بمثابة ضربة لانجلترا ومصدر قلق لها ، فعملت على احباط المشروع وناصبته العداء ، فقد خشيت

ان يزداد نفوذ فرنسا فى مصر وتهدد الاستعمار البريطانى فى الهند والشرق الاقصى وتقضى على اسواقها التجارية هناك . ثم ان انجلترا كانت تنشد الاستئثار بالسيادة البحرية ولا تحب لغيرها التقدم ، مع انها تملك اهم المواقع البحرية فى العالم كجبل طارق ومالطةوجزر الارخبيل وعدن وسنغافورة .

ولم يهدأ بال انجلترا فالبت الباب العالى على المشروع لعرقلة تنفيذه ، وانذرت السلطان العثمانى بانه فى حالة الموافقة عليه فانها تنفض يدها من مد يد المساعدة للمحافظة على امبراطوريته ، ولكن فرنسا استطاعت ان تحصل على موافقة روسيا والنمسا وبذلك تركت انجلترا وحدها فى الميدان تصول فيه وتجول .

وبدا دور الكفاح السياسى فسافر دى لسبس الى استامبول فى فبراير ١٨٥٥ ووجد دوائر الباب العالى تنظر بعين الريبة الى المشروع وتحاول ان تتملص منه ، وتبين له ان سير ستراتفورد دى رد كليف سفير بريطانيا هو صاحب الكلمة المسموعة وانه يستمد معارضته للمشروع من لورد بلمرستون وزير الخارجية ، فراح يقرع باب السفير الذى لقيه فى جفاء ودارت بينهما مناقشة شديدة اللهجة حول الخطر الذى تلوح به فرنسا لتطويق المشرق ، فرد عليه دى لسبس بأن اوربا باسرها ستفرض تنفيذ المشروع فى المستقبل .

واخيرا ايقن دى لسبس بان لندن هى المرجع الحقيقى وان القضية هى قضية سياسية لها علاقة بنفوذ انجلترا فى الشرق ، وما كاد يصل الى لندن حتى وجد ان انجلترا تستند فى معارضتها المشروع على اسس خمسة :

١ — انه مشروع خيالى لا سبيل الى تحقيقه .

٢ — ان نفقات المحافظة على القناة وصيانتها تزيد على كل الارباح المنتظرة .

٣ — ان القناة ستفصل مصر عن الدولة العلية وتمكن مصر من اعلان استقلالها .

٤ — ان فى القناة تهديد مباشر لطريق المواصلات الى الهند والخطر على مصالح بريطانيا السياسية والتجارية .

٥ — ان تحقيق المشروع خطر على مصر نفسها ، اذ قد يجبر انجلترا على احتلالها على حين انها لا تريد ذلك ولا يهمها من مصر الا ان تكون طريقا تجتازه نحو ممتلكاتها الى الشرق .

وراح دى لسبس يدحض هذه المزاعم ويفند هذه الحجج ، ويحاول أن يكسب الراى العام الى صفه عن طريق الخطابة والصحافة وتوزيع النشرات والاتصال بشركات الملاحة والصناعة والغرف التجارية وأعضاء البرلمان مبينا الفوائد التى ستعود على الامبراطورية من جراء تنفيذ المشروع .

وكان سعيد يشد ازر صديقه ولا يبخل عليه بالمال الذى ينفقه فى الدعاية للمشروع ، وكذلك كان الامبراطور نابليون الثالث يعطف عليه بسبب علاقته بسمعة فرنسا ومصالحها فى الشرق ، وكانت تربط دى لسبس بالامبراطورة اوجينى صلة قرابة ، وقيل بانه كان خطيبها قبل أن تزف الى نابليون .

واصر الساسة الانجليز على مقاومة المشروع بحجة انه خيالى محض ولا يمكن تنفيذه وعلى فرض نجاحه فان ذلك لا يتم الا بعد بذل المال الوفير الذى لا يتناسب والدخل المنتظر الحصول عليه ، فالمشروع من الوجهة المالية خيالى بحت ، وعلى ذلك فان غرض فرنسا الحقيقى منه هو سياسى محض .

ولم تكن هذه الحجة الا جوابا ظاهرا ينطوى على مقاومة لدعاية دى لسبس التى اخذ يبثها فى كل ركن من اركان الجزيرة البريطانية ومحاولة لجذب الراى العام الى صفه . اما الدافع الحقيقى فهو لان القائمين على المشروع فرنسيون وبخاصة انه مقدمة لتبسط فرنسا نفوذها على وادى النيل .

وفى خلال هذه الحرب الباردة القائمة بين الدولتين ثبت لدى الانجليز ان المشروع يمكن تنفيذه ، ففى عام ١٨٥٧ نشبت ثورة فى الهند ازهقت فيها أرواح الالوف من البريطانيين ، واستعانت انجلترا بالوالى سعيد الذى سمح بمرور خمسة الاف جندى بريطانى بضباطهم عبر الاراضى المصرية بطريق السكة الحديدية من الاسكندرية الى السويس لاخماد الثورة ، وحاول دى لسبس ان يستغل ذلك للدعاية لمشروعه قائلا : لو كانت القناة قائمة لاسرعت القوات البريطانية بالوصول الى الهند بدلا من انفاق الوقت والجهد والمال للمرور عن طريق راس الرجاء الصالح .

ولكن الانجليز اصروا على موقفهم ونبتت لديهم فكرة استخدام طريق الفرات البرى للوصول الى الهند والشرق الاقصى مع مقاومة فرنسا فى حالة نجاح مشروعها وقبضها على مصر .

وفى ٥ نوفمبر ١٨٥٨ تألف الشركة الدولية لقناة السويس وجعل مقرها فى بادىء الامر مدينة الاسكندرية . ثم طرحت الاسهم وعددها ٤٠٠ الف سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك للاكتتاب العام اى ان راس المال ٨ مليون جنيه .

فاكتتبت فرنسا فى ٢٠٧ر١١١ سهما ، واسبانيا ٤٠٤٦ وهولندا ٢٦١٥ وبلجيكا ٣٢٤ والدنيمرك ٧ ونابلى ٧ وروما ٥٤ والبرتغال ٥ وبروسيا ١٥ وتونس ١٧١٤ وبيمونت ١٣٥٣ وسويسرا ٤٦٠ وتوسكانيا ١٧٦ وتركيا ٩٦٥١٧ ،واحتفظ دى‌لسبس بنحو ٨٥٥٠٦ سهما لبيعها لا نجلترا وامريكا فلما اخفق فى ذلك اوعز الى سعيد بابتياعها وحمله تبعة الفشل فى تصريفها ، وبذلك اصبحت مصر تملك ٤٤ ٪ من الاسهم اى قرابة نصف راس المال ، واضطر سعيد الى التورط فى عقد قرض ليعاون صديقه معاونة فعالة فى شراء نصف الاسهم ، وكان من جراء عقد هذا القرض ان ارتبكت مالية البلاد .

واخذت صحافة لندن تناهض المشروع وتتناوله بالتسخيف ، واتهمت دى‌لسبس بالدجل واطلقت عليه لقب «سيزوستريس القرن التاسع عشر » وتهكمت على عملية الاكتتاب وذكرت بان البوابين وخدم المقاهى والقسس والسذج هم الذين اقبلوا على شراء الاسهم بسبب انهم خدعوا بالدعاية الجوفاء .

وخطب كبير وزراء بريطانيا فى البرلمان وقال ان الاكتتاب فى اسهم الشركة هو اكبر عملية نصب يرويها التاريخ .

وتوترت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا الى حد انه لما تقدمت سيدة فرنسية للاكتتاب سالها الموظف المختص : هل تعرفين فيم تكتتبين ؟

فقالت : فى اسهم حفر نفق فى سويسرا .

فقال لها : ان المشروع ليس لحفر نفق بل لحفر قناة فى السويس وليس فى سويسرا . فاجابته :

ـ لا يهمنى ان يكون فى سويسرا او السويس مادام المشروع يغيظ الانجليز .

وفى صبيحة ٢٥ ابريل ١٨٥٩ وقف دى لسبس فى خليج بيلوز ـ مكانه بور سعيد الان ـ ومعه اعضاء مجلس ادارة الشركة والمهندسون وخمسون بحارا وبعض العمال وضرب المعول الاول فى حفل عام فجرى العمل فى الحال لحفر الخندق الاول .

وجن جنون انجلترا من هذا التحدى السافر فأوعزت الى الباب العالى أن يصدر اى امر الى والى مصر بوقف العمل فى الحفر الى ان تصل الموافقة من السلطان ، وحاربت المشروع هذه المرة باسم السخرة مع ان مشروع مد الخط الحديدى من الاسكندرية الى السويس استخدمت فيه السخرة ولكن انجلترا لم تهاجمه لانه يخدم مصالحها فى الشرق .

واضطر سعيد بسبب مخاوفه الى وقف العمل فى ٩ يونيو فبعث شريف وزير الخارجية باحتجاج الى دى لسبس يقول فيه ان الوالى اذن له باجراء مباحثات تمهيدية وليس الشروع فى حفر القناة وانه يجب عليه أولا الحصول على الموافقة النهائية من الباب العالى ، فهدد دى لسبس بانه سوف يقاضى الوالى ويطالب بتعويض المساهمين . ثم قرر ان يرجع الى الامبراطور لحمله على التدخل فى الموضوع . وتمكن توفنيل السفير باستامبول من ان يقنع الباب العالى بضرورة استئناف عمليات الحفر اذ ان الامر يمس مصالح فرنسا بالذات ، الا ان الباب ظل كعادته يسوف ويماطل ، فلجأ دى لسبس مرة اخرى الى الامبراطور الذى كتب الى سعيد فى ٧ فبراير ١٨٦٠ يقول : « يمكنك الاعتماد على حكومة فرنسا فلا تخشى ملاما ، ولا تظهر اى تردد » .

وعلى ذلك استؤنف العمل ، فثارت ثائرة حكومة لندن واستمرت الحرب الباردة قائمة بين انجلترا وفرنسا دون هوادة ، وصار مشروع القناة موضع مناقشات فى مجلس العموم ، ودافع بعض الاعضاء واستشهدوا باضطرار الحكومة الى ارسال الجنود عن طريق السويس لاخماد ثورة الهند ، ولكن الحكومة ظلت على موقفها من المعارضة ، ولم يعبأ دى لسبس بالخطب التى القيت فى مجلس العموم ولا بكلمات الاحتجاج التى صدرت عن الوزراء ، وسار فى طريقه ، وجرت عمليات الحفر دون اذن الباب العالى او الوالى بل فى ظل الامتيازات الاجنبية وجعل الجميع امام الامر الواقع ، الى ان وصلت مياه البحر الابيض الى بحيرة التمساح فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ ، واصدر دى لسبس صحيفة « برزخ السويس » وصار يذيع على صفحاتها جميع أوجه النشاط فى عمليات الانشاء والتعمير .

وحين ارتقى اسماعيل العرش كانت مشكلة القناة لا تزال على حدتها ، ومعارضة انجلترا قائمة ، وتمثل فى خاطر الخديو كيف

حاول الباب العالى خلع سلفه باستدراجه الى زيارة بيروت للقبض عليه بعد ان يشهر بتمرده وعصيانه ، وكيف بعثت انجلترا باسطولها الى الاسكندرية لتهديد سعيد والاقلاع عن المضى فى تنفيذمشروعه. مرت بذهن اسماعيل هذه الصور فخاف على العرش أن يفلت من بين يديه وشيكا ، ووقف الى جانب انجلترا بل انه صار آلة طيعة فى يد بالمرستون يحركه كيفما شاء .

والواقع ان انجلترا هى التى دفعت اسماعيل الى محاربة المشروع منذ البداية ، ومعاداة فرنسا ، على الرغم من ان الخديو كان يود من صميم فؤاده ان يتم المشروع على يديه وقد سبق له ان صارح دى لسبس بقوله : اننى قناليا أكثر منك .

ووصلت الى اسماعيل ثلاثة مطالب من الباب العالى ان لم ينفذها هدد بالعزل ، وهذه الشروط هى :

١ ـ جعل الملاحة فى القناة للاغراض التجارية فقط ومنع مرور البوارج الحربية او اقامة استحكامات على الضفتين .

٢ ـ منع الشركة من الاستيلاء على الاراضى الواقعة على ضفتى القناة .

٣ ـ منع استخدام السخرة .

وقامت معارضة اسماعيل للمشروع على المسائل الشكلية ومنها : ابطال العمل بالسخرة،وان يكون شق الترعة العذبةعلى جانب الحكومة وليس على حساب الشركة ، ثم الغاء ملكية الشركة للاراضى الزراعية التى تنوى استصلاحها دون دفع تعويض وذلك ارتكازا الى أن القانون العثمانى لا يبيح التنازل لاجنبى عن ملكية الاراضى المشمولة برعاية السلطان الا بموجب فرمان .

ووقف العمل فى حفر القناة ووقع اسماعيل فى مشاكل قضائية مع الشركة انتقلت الى محكمة السين ، وانقسمت الصحافة والراى العام فى اوربا الى معسكرين احدهما يحبذ المشروع والاخر يعارضه.

وخشى اسماعيل سطوة فرنسا فطلب تحكيم نابليون الثالث للفصل فى موضوع النزاع ، مع علمه بان الامبراطور لا يمكن أن يكون الا الى جانب هذه الشركة الفرنسية .

واصدر نابليون الثالث امره بأن تنفذ الشركة طلبات الخديو بشرط ان يدفع لها تعويضا عن :

١ ـ عدم الزام الحكومة المصرية بتقديم الفعلة بطريق السخرة.

٢ ـ عدم احتكار الشركة حفر ترعة المياه العذبة .

٣ ـ اعادة ستة الاف فدان من الارض التى استولت عليهاالشركة بوضع اليد .

وكان فى عزم دى لسبس او يحول ١٤٫٣٠٠ فدانا من التى استولت الشركة عليها الى مستعمرة فرنسية وتنصيب الامير عبد القادر الجزائرى حاكما عليها .

٤ ـ الزام مصر بأن تدفع ٨٤ مليون فرنك بصفة تعويض .

اى ان مصر دفعت ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيها مع ان راس مال الشركة هو ثمانية مليون من الجنيهات . على أن الرقم الحقيقى لخسارة مصر بلغت اضعاف هذا المبلغ ، فقد قدر مجموع ما دفعته مصر فى القناة بسبعة عشر مليونا من الجنيهات ، ويشمل هذا الرقم مبلغ التعويض سالف الذكر ونفقات التحكيم ومقاضاة الشركة ، وشق الترعة الحلوة ، وحفلات الافتتاح ، ثم ثمن الاسهم التى باعها الخديو .

وعلى ذلك استأنفت الشركة العمل فى حفر القناة وحصلت على « فرمان » من الباب العالى بالموافقة على قانونها . وفى غضون عام ١٨٦٨ اختلطت مياه البحرين وعزم الخديو على أن يحتفل بافتتاح القناة احتفالا فريدا فى نوعه ، فشخص بنفسه الى اوربا يدعو ملوكها وامرائها وعظمائها للقدوم الى مصر لمشاركته فى هذاالاحتفال .

واذيع فى انحاء العالم بان القناة ستفتح للملاحة الدولية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وارسلت الوف من بطاقات الدعوة الى انحاء الغرب كافة ، ولبى الدعوة لفيف من العظماء وعلى راسهم : امبراطورة فرنسا أوجينى ، وامبراطور النمسا فرنسوا جوزيف ، وولى عهد بروسيا ، وامير هولندا واميرتها ، فضلا عن الوزراء والساسة والسفراء ورجال الملاحة ، ونخبة من الكتاب والصحفيين ، وبلغ عدد المدعوين الرسميين ستة الاف شخص ، وجىء من الخارج بالف خادم وخمسمائة طباخ ، وتالف الاسطول الذى اجتاز القناة من مائة باخرة من بينها ٥٠ سفينة حربية ومئات من الزوارق الصغيرة ورفعت على ضفتى القناة اعلام جميع الدول ، ودخل جزء من السفن من الشمال ومن الجنوب والتقت السفن فى بحيرة التمساح .

ونزل المدعوون فى الاسماعيلية وفى المساء اقام الخديو مرقصا فى قصره شيده خصيصا فى المدينة الجديدة التى تحمل اسمه ، ثم استأنف المدعوون السفر فى القناة الى السويس ومنها قدموا الى القاهرة بالقطار حيث اقاموا بها اياما فى ضيافة الحكومة .

وتغير موقف انجلترا فجاة وبدات تعطف على المشروع بعد أن كانت تعارض فيه ، فبعث وزير خارجيتها برسالة تهنئة باسم حكومة الملكة الى دى لسبس يقول فيها : من حسن طالعى ان اتقدم اليكم بالنيابة عن الحكومة البريطانية بآيات التهانى على ذلك المشروع الجليل الذى ربط الشرق بالغرب والذى سيكون له نتائج سياسية وتجارية ذات شان .

واهدته الملكة فيكتوريا وسام الاستحقاق مع نجمة الهند ووهبت له حرية مدينة لندن .

افتتحت القناة للملاحة الدولية رسميا ولكن السنوات التى تلت فترة الافتتاح كانت سنوات قلق واضطراب واوشكت الشركة على الافلاس . فالسفن البخارية كانت قليلة العدد ، والشراعية تواصل رحلاتها الى الشرق عن طريق راس الرجاء الصالح ، ودعت هذه الحال الشركة الى اصدار سندات لانقاذ ميزانيتها من التدهور .

وفى نوفمبر ١٨٧٥ اراد الخديو ان يبيع الاسهم التى تملكها الحكومة المصرية ومقدارها ١٧٧٦٤٢ سهما وحاول دى لسبس ان يحمل حكومته على شرائها ففشل ، وعلم صحفى بريطانى هو فردريك جرينوود محرر « البال مال جازيت » بأن ازمات الديون قد الجات الخديو الى المساومة فى بيع ما تملكه الحكومة من اسهم القناة . فبادر الى الاتصال بدزرائيلى رئيس الوزارة الذى نظر الى الصفقة من الوجهة السياسية قبل الناحية التجارية ، ودفع فيها اربعة ملايين من الجنيهات ولم ينتظر عرض الموضوع على البرلمان والحصول على موافقته ، اذ كانت الدورة البرلمانية مؤجلة بسبب عطلة الخريف ، وتحمل المسئولية وحده ، وبذلك صار لانجلترا الحق فى الاشراف على القناة وزاد عدد الانجليز فى مجلس ادارة الشركة الى الثلث ، وعدت انجلتر هذه الصفقة فوزا عظيما لها وهزيمة ساحقة لفرنسا فى الشرق وتصدعا لهيبة مصر المالية ، واضاع اسماعيل راس مال عظيم القيمة وجعل استقلال مصر هدفا للمخاطر .

وكان فى عقد الامتياز نص يبيح للحكومة حق الاستيلاء على ١٥٪ من صافى ارباح الشركة ولكن هذا الحق رهنته الحكومة فى مقابل دين اقترضته ، ثم ابتاعته شركة فرنسية فيما بعد ، كما خسرت مصر ارباح الاسهم التى باعتها ، وصارت هدفا لاطماع الدول اذ أن من يحتل مصر يسيطر على القناة ، شريان المواصلات الحيوى الى الشرق .

خراب مصر المـالى

اسماعيل الثانى ـ ارتباك الحالة المالية ـ التدخل الاجنبى ـ محاولة بائسة لمواجهة العاصفة ـ بعثة كيف ـ القبض على المفتش ـ اعدامه دون محاكمة ـ مصادرة ثروته ـ صندوق الدين ـ بعثة جوشن ـ لجنة التحقيق الاوربية .

ابتليت مصر فى عصر واحد باسماعيليين ، احدهما الخديو والآخر اسماعيل صديق المفتش ناظر ماليته والامين على خزائنه . .

لم يكد اسماعيل الاول يتولى العرش حتى الفى نفسه امام التزامات مالية ، منها : توفية الديون التى خلفها سلفه سعيد ، ودفع المرتبات المتأخرة للموظفين ، ودفع اقساط الجزية الى الباب العالى ، والانفاق على الحملات العسكرية لمساعدة الدولة العلية ، هذا الى ما اشتهر عنه من الانفاق والبذخ ودواعى الترف .

راعته هذه الالتزامات واضرابها . . وفيما هو فى حيرته يضرب اخماسا لاسداس اذ همس اسماعيل المفتش فى اذنه : اذهب الى روتشيلد وهو يريحك !!

وكان اسماعيل صديق المفتش يتمتع بحظوه عند الخديو دونها مكانة جعفر البرمكى عند الرشيد . . كان صاحب الكلمة المسموعة ، والراى النافذ ، الى حد ان افراد الشعب كانوا يخلطون بينه وبين حاكم البلاد ، فكلاهما اخ للآخر فى الرضاعة ، وصنوه فى الخلاعة وفى الشهوات ، وقد ظل المفتش امينا على خزائن مصر يتصرف فيها نحو سنوات ثمان ، وهى السنوات العجاف التى جرت الخراب المالى ومهدت السبيل الى الاحتلال والاستعمار ، واخيرا دنت نهايته ، وكانت لا تختلف فى شىء عن خاتمة الوزير البرمكى .

وقد ولد اسماعيل صديق من أبوين فقيرين ، وكانت امه مرضعة للخديو اسماعيل ، وبعد أن تلقى تعليما بسيطا وظف فى تفتيش اسماعيل وظفر بعطف ولى نعمته ، الى ان اسند اليه منصب مفتش عام الدائرة السنية ، ثم منحه الخديو رتبة الباشوية ووكل اليه منصب مفتش عام الاقاليم وهو منصب يوازى مركز « الدفتردار » ومن هنا غلب عليه اسم « المفتش » ثم ولى وزارة المالية ، ولم يكن قد درس اصول المالية ولا الاقتصاد او تحضير الميزانية ، ولكنه عرف كيف يستعين بخبرة نخبة من الاخصائيين الاجانب .

وعرف عن المفتش بانه كان يناوىء الوزراء جميعا ، ويستأثر بالسلطة دونهم ، ويعمل مستقلا فى الراى لحظوته فى نفس مولاه .
وكان افراد الشعب يطلقون عليه « اسماعيل الثانى » ويلقبه الاجانب « بالخديو الصغير » ومع ان الامير محمد توفيق كان فى فترة ما وزيرا للداخلية فقد كان المفتش فى الواقع هو وزير الداخلية ،يولى الحكام والمديرين وكبار الموظفين ويعزل منهم من يشاء ، وكانوا يفرغون المال فى جيوبه ، ويملأون قصوره بمختلف أنواع الهدايا .
وكانت ثروته تلى ثروة الخديو مباشرة ، فاستطاع عن طريق استغلال النفوذ ان يجتلب الجاه والثراء العريض ، ويحوط نفسه بمظاهر العظمة والوان الترف والنعيم الى حد أنه كان موضع حسد الامراء انفسهم ، وكانت قصوره معارض للجمال الجركسي والحبشى والسودانى ، تقيم فى كل قصر منها حوالى خمسين محظية ما بين راقصة وعازفة ، ولكل منهن مجوهراتها واموالها وحليها وحشمها ، وكانت قصور الاسماعيليين مفتوحة الابواب لكل منهما ،يفد عليها فى اى وقت يشاء ، ويتلذذ بما فيها وبمن يهواه دون رقيب اوحسيب، وكانت النتيجة ان تبارى الرجلان فى افلاس مصر .
وكان المفتش هو المرجع الاول والاخير فى جميع القروض التى حفرت الهاوية تحت اقدام مصر ، وكان ذهنه يتفتق عن حيل غريبة لاستخلاص المال من مخابئه ، ولكن هل كان هذا المال ينفق على المرافق العامة وصالح المجموع ؟ هذا ما سوف نرى .
اما الخديو نفسه فكان آية فى التبذير والاسراف ، لا يقدر للمال قيمته ، وحين ينشط الى الاستدانة يلقى صدورا رحبة من المرابين الذين يقرضونه بشروط سهلة فى الظاهر ، فلا يناقشهم فى مقدار الفائدة ، بل كان همه منصرفا الى الحصول على المال ، ولم يكن يفرق بين دخله الخاص وبين ايراد الخزانة العامة ، بل يغترف المال من اى طريق ، ويمد يده الى الاوقاف الخيرية ويضعها فى جيبه ،ويحرم منها جهات البر والارامل واليتامى وبيوت الله لينفقها على الغوانى والمحظيات .
وكان من المألوف ان يجد المرء مكاتب الوزراء غاصة بالدائنين الذين قدموا بوسائل مغرية لكى يقدموا الى الخديو ملايين الجنيهات بفوائد باهظة تحرمها قوانين العقوبات فى بلادهم .
والواقع ان الديون التى اقترضها الخديو لم تكن مصر بحاجة اليها ، ولم تعد بالخير والمنفعة عليها ، بل انفقها فى عواصم الغرب

وعلى ضفاف البسفور وعلى بناء القصور واقامة الحفلات والولائم وتقديم الهدايا والرشاوى فى سبيل تحقيق مطامعه ، وقد عقدها بصفته الشخصية وباسمه وليس باسم الدولة ، ولكن الاستعمار الاوربى الذى كان يسعى الى اضعاف مركز مصر المالى ، استطاع بتآمره مع الخديو ان يحول هذه القروض باسم الحكومة المصرية ، وقد شرح سفير انجلترا فى استامبول لحكومته فى تقرير رسمى كيف يمكن اغراء الخديو بالاقتراض فقال : ان ما ناله الخديو اسماعيل من حرية مطلقة فى شئون مصر الداخلية لا قيمة له اذا لم تطلق له حرية الاقتراض من الاسواق الاجنبية للحصول على الاموال التى يحتاج اليها فى المشروعات النافعة لتنمية موارد بلاده .

ومن الغريب ان اسماعيل الذى استهل حكمه بالتندر على سلفه سعيد واسرافه واستدانته لم يتورع عن استدانة قرابة مائة مليون جنيه ، وكان اول قرض عقده تحت ستار دفع ديون سلفه والنهوض بالوعى الصحى فى البلاد ، بيد ان هذه الحجة كانت ذرا للرماد فى العيون ، فلا هو سدد ديون سعيد ولا الحال الصحية ارتقت عما كانت عليه ، بل ازدادت سوءا وظلت الاوبئة تحصد ارواح افراد الشعب وتفتك بمواشى الفلاحين فتكا ذريعا ، دون أن يمد اليهم يد المساعدة حتى انه تبرع مرة بمائة الف فرنك لمساعدة منكوبى المجاعة فى كريت عام ١٨٦٩ دون أن يفكر فى دفع غوائل الجوع عن أبناء الصعيد الذين نزل بهم القحط نتيجة فيضان النيل .

واذا كانت الرعية على دين ملوكها فقد اسرف بقية افراد اسرته فى مضمار الاقتراض والمنافسة والتبذير ، وكان اذا سمع احد رجاله عن مدفع جديد اخرجته مصانع الغرب فانه لا يطلب واحدا منه بصفة عينة ليجربه وانما يطلب عشرين او ثلاثين . وكانت زوجات الخديو وسراريه يسرفن عن سعة فى اقتناء المجوهرات والحلى والملابس ، وقد دفعت مرة زوجته الثانية ١٥٠ الف فرنك ثمنا لفستان ابتاعته من احدى خياطات باريس ، واقامت احدى سراريه حوضا للسباحة لم تملأه بالمياه وانما بالطيوب والعطور ، وغرست على حوافيه شتى انواع الزهور .

وانفق هو ملايين من الجنيهات فى حفلات قران انجاله التى استمرت اربعين يوما وليلة متوالية ، وعلى حفلات افتتاح قناة السويس .

• ● •

بعد ان لقى عباس الاول مصرعه ، وكان يمقت الاجانب ولاسيما الافرنج ، هرع الوف من الاجانب ، ولا سيما اليونانيين الذين كانوا قد طردوا من مصر، ليعيشوا فى كنف خلفه، ويعرضون عليه مشروعات وهمية بقصد ابتزاز اموال الدولة ، وكان سعيد متلافا ، مبذرا ، ينفق عن سعة على مجونه وملاذه ويسلس القياد لحاشيته ، وكانت فرنسا تحبوه بعطفها لتضمن تأييده لمشروع القناة وتغريه بعقد قروض مع البيوت المالية فى فرنسا لتوطد بذلك اقدامها فى مصر .

ففى يونيو ١٨٦٠ اوفد الوالى احد رجال حاشيته وهو باولينو الى باريس ليقترض باسمه ٢٨ مليونا من الفرنكات فعقد اول قرض مالى فى تاريخ مصر مع شارل لافييت وضمنت الحكومة الفرنسية هذا القرض على ان يسدد فى باريس بفائدة ٩ ٪

وفى يوليو ١٨٦١ عقد قرضا آخر مع المصرف نفسه بفائدة ١٢ ٪ بخلاف سمسرة الوسطاء وقدرها ٦ ٪ وبضمان ايراد الجمارك وممتلكاته الخاصة .

وفى العام التالى عقد قرضا ثالثا مع مصرف فى مرسيليا بفائدة ٨ ٪ لكى يفى بالتزاماته قبل شركة قناة السويس ورهن لهذا المصرف ضرائب الاطيان فى مديريات الدلتا .

وفى ١٨ مارس ١٨٦٢ عقد قرضا مع بنك اوبنهايم ، وهو مصرف مالى بروسى الاصل ، بمبلغ ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه بفائدة ٩ ٪

وبلغ مجموع هذه الديون ١١ مليونا من الجنيهات ، منها الدين السائر ومقداره ٧٫٧٦٨٫٠٠٠ جنيه ، ثم الدين الثابت وهو ثلاثة مليون جنيه . وكان سعيد يخفى امر هذه القروض لان شروط الولاية كانت تمنعه من عقد اية قروض لا باسمه ولا باسم الحكومة ولذلك عقدها بصفته الشخصية واخفى امرها عن الحكومة وعن الباب العالى .

ثم جاء اسماعيل واوفد نوبار فى يونيو ١٨٦٤ الى عواصم الغرب للبحث عن ممول تقرضه بضعة ملايين من الجنيهات ليبتاع منها قصرا على ضفاف البسفور ويشيد مجموعة من القصور فى القاهرة والجيزة ، فاتجه نوبار اولا الى انجلترا يفاوضها فى عقد قرض حتى يضمن تأييدها لولى نعمته وأن تسنده عند الباب العالى ، واخيرا وفق الى عقد اول قرض مع مصرف فروهلنج وجوشن بلندن ومقداره ٥٫٧٠٤٫٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ تدفع على ١٥ قسطا بضمان ايرادات مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة .

وفى اكتوبر ١٨٦٦ عقد قرضا مع مصرف اوبنهايم بثلاثة ملايين جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ بضمان ايرادات السكك الحديدية .
وفى عام ١٨٦٨ كان الخديو فى حاجة الى المال ليدفع منه هبات وهدايا الى رجال الباب العالى للحد من تدخلهم فى شئون مصر ، ولانشاء مضمار لسباق الخيل فى القاهرة ، وتشييد قصور : عابدين والقبة والزعفران والاسكندرية وتأثيثها وزخرفتها والانفاق على حملة صمويل بيكر الى السودان والاستعداد لحفلات افتتاح القناة ، وقد رفضت المصارف فى اوربا اقراضه ما يطلبه من المال ، الا انه تساهل معها فى الشروط ، فعقد قرضا مع مصرف اوبنهايم مقداره ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ بضمان ايرادات الجمارك وعوائد الكبارى والملح ومصائد الاسماك .
وهناك القرض الكبير مع مصرف اوبنهايم ايضا بمبلغ ٣٢ مليون جنيه انجليزى بفائدة ٧ ٪ وبضمان ايرادات السكك الحديدية والضرائب غير المقررة ، ولم يصل من هذا الرقم الى الخزانة العامة سوى مبلغ ٢٠ مليون وثلاثة ارباع المليون جنيه . وقد ظل وسطاء الخديو يجوبون اطراف اوربا من يونيو ١٨٧٣ الى مايو ١٨٧٤ يبحثون عن ممولين الى ان استطاعوا الحصول على القرض المطلوب وضاع منه ١٢ مليون جنيه انفقت على الوسطاء ورشوة السماسرة وكذلك الارباح المستترة .
واخيرا قرض سنة ١٨٧٤ مع مصرف الانجلو اجبشيان بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه انجليزى وبفائدة ١٤ ٪
هذه هى القروض التى عرضت موارد الدولة ضمانا لسدادها .
اما القروض التى ضمنتها املاك الدائرة السنية فهى :
قرض عام ١٨٦٥ من مصرف الانجلو اجبشيان بمبلغ ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٧ ٪
وقرض عام ١٨٦٧ مع المصرف العثمانى بمبلغ ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٩ ٪
وقرض عام ١٨٧٠ مع مصرف بيشو فشيم بمبلغ ٧٫١٤٢٫٨٦٠ جنيه انجليزى وبفائدة ٧ ٪
ولم يكتف اسماعيل بهذه القروض بل لجأ الى وسائل قاسية لابتزاز الاموال من مختلف طوائف الشعب ، فعندما رفضت المصارف الاجنبية فى عام ١٨٦٨ اقراضه ، اوعز الى ناظر ماليته اسماعيل صديق المفتش بعرض الامر على مجلس شورى النواب

الذى اقترح العدول عن القروض الخارجية بعقد قرض داخلى مقداره ثلاثة ملايين من الجنيهات بفائدة ١٠ ٪ تسدد فى مدى سنوات ثلاث ، ولكن هذه الفكرة فشلت وعدل عنها باصدار ضريبة اضافية على الاراضى الزراعية بلغت حصيلتها مليونى جنيه .

وافتتح الخديو دورة مجلس شورى النواب فى ٨ يناير ١٨٦٩ بخطاب وضعه المفتش كله معلومات مضللة شرح فيه حالة مصر المالية ، فذكر الخديو بأن عمه سعيد خلف عند وفاته دينا مقداره ٢٢ مليون جنيه « الحقيقة ١١ مليونا فقط » وان الدين المصرى الى السنة الماضية لا يتجاوز ١٧ مليون جنيه « الحقيقة انه كان ٣٠ مليونا » وان الحكومة انفقت هذه المبالغ فى سبيل العمران كانشاء الطرق والسكك الحديدية وتوسيع نطاق التجارة والزراعة والغاء السخرة واصلاح شئون القضاء،ثم خرج من ذلك الى التقدم باقتراح الى الحكومة بأن تعين مرتبا ثابتا لنفقاته الشخصية .

ولم تمض بضعة اسابيع على القاء هذا الخطاب حتى وجد خزائن وزارة المالية خاوية ، فما كان منه الا ان طرح فى السوق بيع خمسمائة الف اردب بذرة قطن تملكها الحكومة وتسلم بعد خمسة اشهر — وكان المحصول لا يزال فى باطن الارض — فتربص المشترون ريثما تنقضى اشهر المهلة . وكم كانت دهشتهم بالغة اذ وجدوا ان شون الحكومة خالية من البذرة والقطن . واتضح بأن وزير المالية باع المحصول مرتين . ولما ضيقوا عليه الخناق واراد هو الخروج من المازق تحايل على الدائنين بأن اعطاهم صكوكا على الخزانة بفائدة سنوية مقدارها ١٨ فى المائة .

ووصلت انباء هذا التحايل المالى الى رجال الدولة العلية ، فاصدر الباب العالى قرارا فى نوفمبر ١٨٦٩ يحظر فيه على الخديو عقد قرض جديد لمدة خمس سنوات . ولكن المفتش لم يستسلم الى اليأس فاقترح عقد قرض برهن ممتلكات الدائرة السنية ، ثم اذاع بأن من يدفع للحكومة مبلغا من المال يعادل قيمة ما يدفعه من الضريبة العقارية ست مرات سواء كان دفعة واحدة او على اقساط متتابعة لمدة ست سنوات علاوة على الضريبة السنوية المقررة فانه يتمتع بالحصول على سند تمليك ارضه ملكية مطلقة ، وعرفت هذه الضريبة باسم « ضريبة المقابلة » وبمقتضاها استطاع الخديو ان يحصل على مبلغ ٢٣ر٥ مليون جنيه . ولجأت الحكومة فى تحصيل هذه الضريبة الى وسائل الضغط والاكراه .

واصبحت الدوائر المــالية تتوقع من حين لآخر شــهر افلاس الحكومة ، فقد كانت القروض تعقــد ثم يحل موعد دفع الاقســاط والفوائد فلا تجد الحكومة فى خزائنها شيئا من المال .

واخيرا اصغى الخــديو الى نصيحة قنصل بريطانيا فطلب الى دولته ايفاد خبراء يدرسون شئون المالية ويتقدمون اليه بالمشورة التى تسير الدولة على هديها .

وفى ديسمبر ١٨٧٥ وصلت الى القاهرة بعثة مالية على راسها ستيفنسون كيف عضو مجلس العموم ومن الاخصائيين فى شئون المال والاقتصاد ، واقبلت البعثة تغربل حسابات الحكومة ودوائر الخديو للوقوف على صورة صحيحة من الدخل والمنصرف والديون المستحقة ، وبعد مضى شهرين استطاعت البعثــة ان تضع تقريرا مفصــلا لم ينشر فى مصر بل رفع توا الى الحكومــة البريطانية ، واقترحت فيه عدة حلول لاصلاح المالية ومنها : انشاء ادارة للرقابة على الايرادات . تخصيص حصيلة قرض المقابلة لتسديد القروض القصيرة الاجل التى عقدت فى سنوات : ١٨٦٤ و ١٨٦٥ او ١٨٦٧ . وتحويل القروض الطويلة الاجل الى قرض موحد قدره ٧٥ مليون جنيه لمدة خمس سنين بفائدة سبعة فى المائة ،والا تعقد الحكومة قرضا جــديدا انقاذا للموقف ، وقدم اقتراح آخر مؤداه ان تأخذ الحكومة البريطانية على عاتقها توحيد القروض وتتولى هى السداد فى مقابل ان تتنازل مصر عن سككها الحديدية ومينائى الاسكندرية والسويس .

وفى غضون هذه الفترة العصيبة كان اسماعيل صــديق المفتش يتفنن ويتحايل على المرابين لاخراج النقود من خزائنهم ، فاهتدى الى طريقة اصدار اذونات على بياض بفائدة عشرين فى المائة سنويا . فوقع فى هذا الشرك كثير من الافاقين المــاليين وتمكن الوزير بهذه الطريقة من دفع اقســاط شــهر مارس من الدين العــام ، وتمادى المفتش فى اصدار الاذونات على بياض وهو بذلك يحفر هاوية تحت الخزانة المصرية .

وفى ابريل ١٨٧٦ توقفت الحكومــة تماما بل عجــزت عن دفع الاقساط المستحقة عليها وبلغ مجموع الدين ٧٦٫٧٤٦٫٨١٢ جنيها ، واوصدت الابواب المالية جميعا فى وجه الخديو .

وبدا هياج الخواطر فى دوائر البورصة ، والقيت خطب ذهبت احداها الى وجوب خلع الخديو ، وعلقت اعلانات كبيرة الحجم على

حوائط الاسكندرية تحمل هذا المعنى ، وانتزعت صورة الخديو المعلقة فى صدر البورصة من موضعها ، واصبح الدائنون يهددون الحكومة والخديو بنفس الوقاحة التى نعهدها فى الدائنين اذا افلس مدينهم .

وفى ٢ مايو ١٨٧٦ تأسس « صندوق الدين » باشراف وعضوية لجنة من الاجانب وخصص لدفع اقساط الدين ايراد بعض المديريات وعوائد الدخولية ورسم الدخان والملح ومصائد الاسماك ودخل الجمارك والدائرة السنية .

ووحدت الديون القصيرة منها والطويلة وصارت دينا موحدا قدر بواحد وتسعين مليونا من الجنيهات وبفائدة قدرها سبعة فى المائة .

• ● •

على ان الخواطر كانت لا تزال مضطربة والنفوس هائجة ، والحكومة تتوقع شهر افلاسها المالى بين وقت وآخر . ولما كانت انجلترا تطمع فى التدخل باية صورة من الصور فى شئون مصر والوصاية عليها ، ولم يرضها باى حال نظام انشاء صندوق الدين ، فقد اوفدت بعثة مالية اخرى برياسة جورج جوشن ، وبعثة فرنسية برياسة جوبير ، ووصلت البعثتان الى القاهرة فى اكتوبر ١٨٧٦ ، بيد ان اسماعيل صديق المفتش وضع العراقيل فى سبيلهما ، واوعز الى موظفيه بالا يعرضوا عليها البيانات الصحيحة ، وتحفز افراد الاسرة الخديوية لمناصبة وزير المالية العداء ومصارحة الخديو بان بقاء المفتش فى منصبه ضار بمصالح الدولة وبالخديو نفسه .

والتف خصوم المفتش الذين يتمنون زوال نعمته حول جوشن وامدوه بالبيانات والارقام الصحيحة التى تدك نفوذ الوزير المكروه ، وهنا اشتد النزاع بين جوشن وبين المفتش واخذ كل منهما يحاول التغلب على الآخر .

ما هو موقف الخديو امام المعسكرين المتطاحنين ؟

لقد طلب الى وزير ماليته ان يصارحه بحقيقة تصرفاته ، فاضطر المفتش الى ان يعترف بالحقائق كلها فيما يتعلق بالميزانية والديون ، واوقف ولى نعمته على اسرار ادارته . فما كان من اسماعيل الا ان اشار عليه بان يسلس القياد لجوشن ريثما تمر العاصفة وتجد البعثة حلولا وسطى لورطة الحكومة . بيد ان المفتش اخذ يكابر ويحتج بانه ليس من مصلحة الخديو ان يقف اعداء مصر على الحقيقة المرة المذاق ، لان مآلها تقييد سلطة الخديو واذلاله .

وفى اليوم التالى لهذه المقابلة دعى مجلس خاص من المديرين والحكام الى الانعقاد بعابدين برياسة الخديو ، وابدى المجتمعون رايهم بصراحة وهو وجوب الوقوف فى صف جوشن . ولكن المفتش لم يتحول عن رايه ، بل راح يهدد ويثور ويزعم بأن سلطة الخديو سوف تكون مقيدة ويده مغلولة الى عنقه ، وأن مصر فى النهاية ستضع رقبتها تحت اقدام الدائنين الاجانب او بالاحرى الحكومة البريطانية .

وتقدم انجال اسماعيل : توفيق وحسين وحسن واحتجوا على تصريح وزير المالية فما كان منه الا أن سخر من احتجاجهم بقوله : انكم لا تزالون « عيالا » وليس فى وسعكم أن تحكموا على الامور حكما صحيحا .

وهنا نهض الامير حسين كامل غاضبا وصفع المفتش على وجهه صفعة لوت سلك منظاره . ولم يثر الوزير أو يحتج بل راح يهذب سلك منظاره فى هدوء وقال :

— انا اتكلم فى سبيل المصلحة العامة ولو كانت المسألة شخصية لقدمت استقالتى على الفور . وان قناصل الدول وكذلك رجال البعثة يتدخلون لمصلحة الدائنين الافاقين وتقرير جوشن يذهب الى الغاء وزارة المالية بوصفها وزارة مصرية خالصة .

وانفض المجلس بأن وضع المفتش استقالته بين يدى الخديو الذى تردد فى قبولها ثم اشيع بأن الامير حسين كامل هو المرشح لوزارة المالية .

وفى مساء اليوم التالى دعى المفتش الى مقابلة الخديو فى قصر عابدين ، فاستقبله فى بشاشة وأمر بالا يدخل أحد عليهما ثم سأله :

— ماذا انت فاعل غدا ؟.. اننى اطلب اليك استفسارا لا بوصفك وزيرا بل صديقا واخا فى الرضاعة .

فأجابه المفتش بقوله :

— ليسمح لى مولاى أولا بأن اصارحه بأن التاريخ لم يرو أن ملكا ضحى بوزيره لينقذ نفسه ، وأن انقاذ البلاد من الورطة المالية لن يتأتى الا ببقائنا متحدين . فكما انه ليس بوسعى أن انجو بدونكم فان مولاى ليس فى استطاعته أن يخرج من المأزق بدونى .. ولا ينسى مولاى اننى احمل رتبة « المشيرية » وأن محاكمتى لن تكون الا امام دوائر الباب العالى ، فتصور مقدار الفضيحة التى تنتظركم فيما لو جرت محاكمتى هناك .

وادرك اسماعيل بأن وزيره يلعب بآخر ورقة فى يده وانه يلوح بتهديده من طريق خفى فأجابه :

ـ اننا لم نبلغ هذه الحالة بعد ، ومع ذلك فهل لديك وسيلة ناجحة للخروج من المازق ؟

ـ يعلم مولاى ان كتاب الله الكريم ينهى عن الربا وينذر المتعاملين به بعقاب شديد . فماذا لو اذعنا فتوى شرعية بأن الضرائب والاتاوات التى يدفعها افراد الشعب تؤول الى جيوب الاجانب بوصفها ربا للاموال والقروض التى قدموها الينا من تلقاء انفسهم وبذلك نقضى على جشع الدائنين فيسعون هم الى تخفيض الديون والفوائد المستحقة عليها .

وبادر الخديو بأن دعا اليه علماء الازهر ورجال الدين ومنهم المفتى وقاضى القضاة وشرح لهم فكرة وزير ماليته ، واشار من طريق خفى الى ان الغرض منها هو اهاجة الراى العام وبث الفتنة والفرقة بين الصفوف .

وكان ان تقدم احد العلماء الذين رسمت لهم خطة موضوعة وقال :

ـ نحن نعلم بأن الافرنج اصدقاء مخلصون لسموكم وان الاموال هى اموال سموكم ، واننا جميعا بأموالنا ونسائنا واولادنا عبيد لكم . والعبد وما ملكت يداه لمولاه . ولكن اسماعيل صديق وقد تخلت عنه النعمة ، اصبح من الخونة وانه بغرضه هذا يرمى الى تحريك الفتن فى البلاد ، والفتنة اشد من القتل .

فابتهج الخديو فى قرارة نفسه من هذا المنطق الذى جاء وفق الخطة المرسومة وقال :

ـ اذا كانت هذه أفكاركم جميعا فأريد كتابة بها منكم .

فجهزوا له فى الحال الفتوى المطلوبة ومهروها بتوقيعاتهم فتناولها منهم وصرفهم .

وعند الصباح بعث الخديو الى المفتش يدعوه الى مقابلته ، بعد ان قضى ليلته مؤرقا يدبر مؤامرة للقبض عليه ومحاكمته والتخلص منه بالقتل ، وسنده فى ذلك الفتوى الشرعية التى بين يديه . وكان المفتش بدوره قد قضى ليلته مؤرقا مضطربا يفترض اسوأ الظنون ، فلما واتته دعوة ولى نعمته هدأت اعصابه وزالت مخاوفه وايقن بأن النصر فى جانبه . . . وتلقاه أخوه فى الرضاعة بالبشاشة واجلسه الى جانبه ثم قال له :

ـ لقد تأكدت بعد انعام النظر والتروى بأن الآراء التى ابديتها هى فى الواقع آراء سديدة . بيد اننى اشعر الساعة بصداع طفيف اثر السهاد ، فهلم بنا نخرج الى النزهة سويا .

وغمرت الفرحة اسارير المفتش وشكر لولى نعمته هذه الثقة الغالية ، وتصور الناس وهم يرونه يمرق الشوارع الى جانب الخديو وقد اخذ الحنق نفس جوشن . وعرجت بهما المركبة على قصر المفتش وطلب الخديو رؤية ابنائه كأنما يريد ان يتملىالمفتش بنظرات الوداع لفلذات كبده قبل ان يلقى مصيره . وبعد ساعة استأنفت المركبة سيرها الى قصر الاسماعيلية ، وما ان ترجل الخديو منها حتى اشار الى الحراس بالقبض على ضيفه .

وحسب المفتش ان الامر لا يعدو ان يكون مداعبة من مولاه ، ولكن الحراس نفذوا الامر فى صرامة ، فامسك الجند بتلابيب المفتش وهو يصرخ : يا افندينا .. انهم يقبضون على وانا ضيفك .

وانتشرت الشائعات فى انحاء العاصمة وفى الاقاليم . وحملت الصحف نبأ القبض على وزير المالية لتآمره على ولى نعمته ونوهت بانه سيقدم الى المحاكمة قريبا ... ووردت الوف البرقيات المصطنعة تؤيد الخديو فى موقفه وتندد بخيانة المفتش ، وابرق القنصل البريطانى الى وزارة الخارجية فى لندن يقول : وقعت البارحة حادثة فاجعة من الحوادث الخاصة بالحياة وبالتاريخ الشرقيين ، فقد القى القبض على وزير المالية وسجن بتهمة اثارة فتنة فى الراى العام وتدبير مؤامرة ضد الخديو وتصويره فى صورة الحاكم المسئول عن نكبة مصر المالية » .

واجتمع المجلس المخصوص برياسة الخديو وعرضت عليه فتوى العلماء واقتنع الاعضاء بادانة المفتش وثبوت تهمة الخيانة عليهوحكم عليه المجلس غيابيا بالنفى الى اعالى النيل .

ونشرت صحيفة الوقائع المصرية البيان الرسمى التالى : « ان اسماعيل صديق باشا ، وزير المالية السابق ، سعى الى تدبير مؤامرة ضد سمو الخديو ، باثارة عواطف الاهالى الدينية ضد المشروع الذى اقترحه المستر جوشن والمسيو جوبير . فاتهم الخديو ببيع مصر الى الاجانب ، واقام نفسه مقام المدافع عن الدين ومصلحة البلد . فابلغ مفتشو الاقاليم العموميون ورجال البوليس سر هذه المساعى . وأيدتها عدة عبارات وردت فى كتاب ارسله صديق باشا عينه الى سمو الخديو يرفع به استقالته . فلدىتلقى

الخديو انباء خطيرة كهذه طرح الامر على مجلسه الخصوصي ليرى رايه فيه ، فحكم المجلس على اسماعيل صديق باشا بالنفى الى دنقله ، وسجنه هناك سجنا سحيقا » .

وبعث الخديو بقرار المجلس الى دوائر الباب العالى ، ولكن القرار لم يصل الا بعد اسبوع او اكثر ، فأبرق الباب العالى بضرورة ارسال المفتش الى استامبول ليحاكم هناك . ولكن الخديو لم يرد على هذا الامر الا بعد اسبوعين اى بعد تنفيذ مؤامرته ، وقال ان المفتش لقى حتفه فى دنقله من فرط انهماكه فى احتساء الخمر .

اما هذه المؤامرة فقد نفذت على مراحل .. فانه عقب القاءالقبض على المفتش بنحو ساعة ، دعى ضابط جركسي من ياوران الخديو اسمه اسحق،كان معروفابقوته البدنية الخارقةالى الفرفةالتىاعتقل فيها المفتش بقصر الاسماعيلية . ثم قاد الوزير الى المركب « طير البحر » فما كاد المفتش يهبط اليه حتى مر بذاكرته حادث مصرع المعلم غالى فى مركب والقاء جثته فى النيل ، وكان المعلم غالى يشغل منصبا يعادل منصبه ، وتذكر ايضا مصرع احمد الخازندار بك وكيف لقى حتفه فى المركب نفسها لاتهامه بوجود علاقة عاطفية بينه وبين احدى نساء اسماعيل .

وظل المفتش سجينا فى المركب الى ان وفد عليه بعد يومين مصطفى فهمى باشا محافظ العاصمة ، وابلغه حكم المجلس المخصوص فاحتج امامه بأن الحكم صدر غيابيا وكان فى الوسع استدعاؤه ليدافع عن نفسه ، ثم انه يحمل رتبة المشيرية ولا تجوز محاكمته الا امام الباب العالى ، ثم طلب ورقا وحبرا ليحرر صيغة احتجاج الى السلطان . الا ان المحافظ افهمه بلباقة بان السلطان بعيد وان الخديو قريب ، فاين يد جلالته التى تحميك من يد سموه . فأجهش فى البكاء وصرخ فى ثورة عاطفية : اين حرمة الضمانات الممنوحة لمنصبى ، ان ما يجرى على سوف يجرى عليكم غدا . هل من المعقول ان اتآمر على الخديو ؟ ثم ثروتى واملاكى ، انى لم احصل عليها باستغلال سلطة منصبى او الاختلاس او الرشوة ، وانما بمضاربات خاصة ، واذا كان هناك اختلاس فى اموال الدولة فلست انا اللص ، وانما اللص غيرى والخديو يعلم ذلك حق العلم ... والله على ما اقول شهيد .

وما كاد المحافظ يغادره حتى وقع المفتش فى هم لم يفرجه عنه الا طلبه الطعام وزجاجة من الخمر وبعد أن ثمل اقتحم غرفته

الضابط اسحق وكمم فمه بيده اليسرى ثم حاول ان يغتاله بأن يسحق خصيتيه بيده اليمنى ، فقاوم المفتش مقاومة عنيفة وتمكن من ان يعض ابهام يد الضابط الايسر عضة قوية بترته . فاستنجد الضابط بالحرس فاقبل الجند ووضعوا الحبل فى عنق المفتش وخنقوه ثم وضعوا جثمانه فى غرارة وضمت اليها المثقلات،وطرحت الجثة فى النيل قبالة جزيرة الروضة اى فى الموضع نفسه الذى طرحت فيه جثة احمد الخازندار بك منذ اعوام . ووقف « طير البحر » عند مرسى مصر القديمة وهبط منه المحافظ والضابط اسحق ثم واصل السير الى الشلال ، وهنا نشرت « الوقائع المصرية » فى عددها الصادر فى ٤ ديسمبر ١٨٧٦ تقول : ان وزير المالية السابق لقى حتفه فى منفاه بدنقله على اثر افراطه فى تناول الخمر .

وعقب اذاعة هذا النبأ المختلق اشار الخديو بالقاء القبض على خدم المفتش وحشمه وعددهم مائة شخص ونفوا الى مصوع غير ان انباءهم انقطعت وهم فى الطريق ، ثم صودرت املاكه ومنها: ثلاثين الف فدان ، ثلاثة قصور فخمة فى القاهرة وهى التى تشغلها الآن وزارات المالية والعدل والداخلية ، وقصر على ضفاف المحمودية فى الاسكندرية . ومجوهرات وتحف ومصوغات قدرت قيمتها بستمائة وخمسين الف جنيه ، واسهم وسندات واوراق مالية بنصف مليون جنيه ، وعدد من السرارى والجوارى اختير اجملهن للخديو والامراء واهدى البعض منهن الى كبار رجال الحاشية .

واقيم مزاد فى قصور المفتش لبيع الرياش والمجوهرات والاوانى الذهبية والفضية والسجوف والسجاجيد والرياش المصنوع على الطراز الفرنسى واستمر المزاد بضعة اسابيع ،وكان الارقاء يتجولون بين جمهور المشترين بصوانى صفت عليها هذه المجوهرات واللآلىء والتحف .

• ● •

اما لجنة جوشن فقد واصلت عملها وعكفت على دراسة الازمة المالية من شتى نواحيها وخرجت من هذه الدارسة بعدة حلول منها : جعل الدين العام ٩٥ مليون جنيه انجليزى بدلا من الدين الموحد وقدره ٩١ مليون ، وفصل دين الدائرة السنية وقدره تسعة مليون جنيه عن دين الحكومة وفصل الديون القصيرة الاجل

وتسديدها من حصيلة المقابلة . واصدار قرض جديد مقداره ١٧ مليون جنيه بضمان ايراد السكك الحديدية وميناء الاسكندرية على ان يعهد بادارة مصلحة السكك الحديدية والميناء الى هيئة وصاية اجنبية .

وفى اواخر عام ١٨٧٧ تدهورت الحالة المالية تدهورا ينذر بالخطر، فاصدر الخديو امرا فى ٢٧ يناير ١٨٧٨ بتاليف لجنة تحقيق عليا مكونة من فردينان دى لسبس رئيسا وعضوية : ريفرز ولسن ومصطفى رياض ودو بلنيير وبارنج وفون كريمر وبارافللى وجعل مهمتها معالجة الازمة المالية بالطريقة التى تقرها ، وبذلك سلم الخديو مقاليد الامور فى البلاد الى الاجانب . فكان اول ثمرة للجنة التحقيق هو اقامة الحجة على فساد حكم اسماعيل وطالبته بالتخلى عن سلطته المطلقة لا لنواب الشعب ولكن لوزارة يراسها فى الظاهر مصرى هو نوبار المعروف بميوله الانجليزية . ويحتل الوزارات الهامة فيها اجانب ، اى وزارة غير مسئولة لا امام الامة ولا امام الخديو نفسه .

ووافق اسماعيل فى ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ على تشكيل هذه الوزارة الفريدة فى نوعها ، وكانت اول ضربة سددتها الوزارة المختلطة الى الخديو ان قضت بتنازله هو وافراد اسرته عن ممتلكاتهم الزراعية الى الحكومة . واصدار قرض مالى قيمته ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه بفائدة ٥ ٪ لتسوية بعض المشاكل والديون الصغيرة

وفى ٣٠ يونيو ١٨٧٩ استقل الخديو القطار بعد ان اجبر على التنازل عن العرش ، وكان فى وداعه فى محطة القاهرة نجله الخديو توفيق وافراد اسرته والوزراء والقناصل وكبار موظفى الدولة . وكان الموقف مؤثرا بالنسبة لهم فلم يتمالك اسماعيل نفسه من ان يذرف دموع التماسيح ، واذا بمجموعة زغاريد تموج فى الافق ، وعبارات تهكم وسخرية تودع الخديو المخلوع ... كانت هذه الزغاريد واصوات الشماتة صادرة عن نساء وسرارى اسماعيل صديق المفتش اللواتى أردن الانتقام من الخديو المخلوع .

الوعى الدستورى

اشراك الشعب فى الحكم بوساطة نوابه فى ديوان الوالى ـ الفرنسيون يدعون الى مبادىء الثورة ـ الديوان العالى ومجلس المشورة ـ مجلس شورى القوانين ـ نمو روح المعارضة بين النواب ـ الجلسة التاريخية التى رفض فيها وكلاء الشعب فض المجلس ـ الدستور الاول لمصر ـ تعطيل المجلس .

يخطىء من يظن ان الشعب المصرى كان منحى عن التدخل فى الشئون السياسية العليا فى فترة الحكم العثمانى . والواقع انه كان فى ابان تلك الحقبة ممثلا تمثيلا واقعيا فى الاشتراك فى الحكم والاضطلاع باعباء الحياة النيابية عن طريق نخبة من العلماء وحملة الشريعة والوجوه والتجار فى «الديوان الكبير» الذى كان يعقد بين يوم وآخر للنظر فى تسيير دفة الحكم واقرار المسائل العامة .

كان هناك ديوانان : الديوان الصغير ومقره القلعة ويؤلف من مندوبين عن الوحدات العسكرية ومن كبار الموظفين وكان بمثابة مجلس وزراء مصغر .

والديوان الكبير ومقره القلعة ايضا ويؤلف من رؤساء الحامية العسكرية وبعض كبار الموظفين وقاضي القضاة ورؤساء المذاهب الاربعة ، والعلماء والاشراف ، للنظر فى الشئون الرئيسية للدولة ويعقد يوميا تقريبا .

وكان الشعب عند ما تشتد وطأة الحكم عليه يتحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته ، فيلجأ الى وكلائه اعضاء الديوان يبثه آلامه ويطالبه بالذياد عن هذه الحقوق .. فمثلا نسمع ان التجار اصابهم غبن بسبب تزييف النقد فعقدوا اجتماعا وانطلقوا الى الازهر وشكوا امرهم الى العلماء والزموهم بالذهاب معهم الديوان . فامر الوالى بعقد الديوان للتشاور ووضع خطة حازمة تحفظ مصلحة المجموع .

وعندما اشتد النضال بين الامراء المماليك وبين الوالى فى اواخر القرن الثامن عشر بسبب حملة عسكرية اراد الباب العالى توجيهها الى مصر ، جمع الباشا اعضاء الديوان للنظر فى وسائل الدفاع عن العاصمة فاستشاط الشيخ العروسى غضبا وصاح : لا يهمنا ان يكون الحاكم هذا الامير او ذاك وانما الذى يهم الشعب من يرعى مصالحه وييسر حاله .

والواقع ان الشعب كان ممثلا فى « الديوان » الذى كان بمثابة برلمان مصغر ، وكان صوت وكلائه واضحا مجلجلا ، وهؤلاء الوكلاء هم العلماء وحملة الشريعة اى الطبقة المستنيرة ، وكان الحكام من المماليك على شدة بأسهم وقوتهم لا يستطيعون مقاومة الشعب او الوقوف فى وجهه ، فكثيرا ما حرص اعضاء الديوان على تلبية نداء الواجب ، والدفاع عن مصلحة المجموع دفاعا حارا ، وهددوا الحكام باسم الشعب ، اذ كان هؤلاء الحكام يخشون الشعب خشية كبيرة ، ولا يسمحون للامور بأن تتأزم وتتفاقم بل يعالجونها اولا بأول ،ومن اجل ذلك لم تنشب فى عهود المماليك ثورات دامية .

وفى ايام الحملة الفرنسية حل نابليون محل الوالى وشيخ البلد واصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد وخالف سنة العزلة التى اتبعها العثمانيون فراح يشهد حفلات الشعب الدينية ويشاركه افراحه واتراحه ويختلط بالطبقات الشعبية ويصغى الى شكاواها، وعمد بعض العلماء من رجاله للدعوة الى المبادىء التى قامت عليها الثورة الفرنسية وحقوق الانسان ، فتنبه المصريون الى حقوقهم المهضومة وسعوا للحصول عليها فيما بعد بل انهم ثاروا ضد الفرنسيين انفسهم عندما ادركوا ان الفرض من احتلالهم هو غرض استعمارى بحت .

وكانت « الدواوين » التى انشاها الفرنسيون « لتعويد الاهالى على مبادىء الحياة النيابية » تتالف من « الديوان الخصوصى » وقوامه تسعة من العلماء والاعيان برياسة الشيخ عبدالله الشرقاوى ويجتمع كل يوم تقريبا ويؤخذ رايه فى كثير من الشئون ، وقد افصح نابليون مرة عن الغرض من انشائه بقوله : هؤلاء المصريون لا بد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، ولا بد ان نقيم رؤساء عليهم والا اقاموا هم رؤساءهم بانفسهم ، وقد فضلت العلماء وفقهاء الشريعة فى عضوية الديوان لانهم بطبيعتهم رؤساء ، ولان للعلماء خلقا لينا ، واكثر اهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يمتطون جوادا ولا قبل لهم باى عمل حربى ، وقد افدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب » .

والف الفرنسيون « الديوان العام » فى القاهرة والاسكندرية والاقاليم وقوامه العلماء والوجوه والتجار ، بقصد الوقوف على آراء اعضائه بشان الانظمة الادارية والتشريعية والملكية وضبط المواريث ثم عدل نظام الديوان العام فيما بعد فصار يتالف من ٢٥ عضوا منهم

٩ عن القاهرة وعضو عن كل مديرية او محافظة على ان يكون الثلث من العلماء والثلث من الاعيان والثلث الباقى من التجار ، ومن بين اعضاء الديوان العام ينتخب اعضاء الديوان الخصوصى .

ولم تكن هذه حياة نيابية بالمعنى المعروف ، ولكن الفرنسيين حددوا مهمة هذه الدواوين بأنها لتنفيذ اوامرهم تحت مراقبة مندوبيهم ، وكانت التعليمات الصادرة الى الحكام توحى بانتخاب — أو بالأحرى تعيين — اعضاء الديوان من بين الوجوه والعلماء الذين يتمتعون بنفوذ قوى بين السكان مع ملاحظة ميولهم للفرنسيين . مما يدل دلالة واضحة على أن الغرض الاصلى من وراء هذه التشكيلات والتنظيمات هو الافادة من سلطان هؤلاء النواب على الشعب لتنفيذ مآرب الفرنسيين بعد التأكد من خضوعهم للادارة الفرنسية .

• ● •

وقد جمع محمد على كل السلطات فى قبضته بسبب ميوله الدكتاتورية وكان شعار حكمه : الطاعة العمياء ، ولكنه انشأ الى جانب ذلك مجالس خاصة كانت رايها استشاريا محضا ، فألف مجلس « الديوان العالى » ومقره القلعة برياسة الكتخدا للتداول فى شئون الدولة قبل تنفيذها وكان هذا المجلس اشبه بمجلس الوزراء ، ثم قامت دواوين مماثلة منها ديوان الجهادية وديوان البحر وديوان المدارس وديوان التجارة ... الخ .

وفى عام ١٨٢٩ انشىء «مجلس المشورة» من كبار موظفى الحكومة والعلماء والاعيان برياسة امير الصعيد ومقره « القصر العالى » وعددهم ١٥٦ عضواً . ثم انشىء بعد ذلك بسنوات خمس « المجلس العالى » من مديرى المصالح الحكومية واثنين من مشايخ الازهر واثنين من التجار واثنين من الاعيان عن كل مديرية . وكانت سلطته استشارية محضة ومشورته مقصورة على المسائل الادارية وكانت لغة التداول والمناقشة هى التركية .

على ان هذه الهيئات والمجالس كانت بعيدة كل البعد عن الانظمة الدستورية ، ولم يقصد بتكوينها الا ان تكون اداة للمشاورة فقط ، وقد عطلت هذه المجالس فى ايام عباس وسعيد ، وحكما حكما مباشرا ظاهره الرجعية وباطنه الاستبداد .

• ● •

ولم يكن مجلس شورى النواب الذى شكله اسماعيل فى بداية حكمه وافتتح فى ١٩ نوفمبر ١٨٦٦ خليقا بأن يحمل هذا الاسم ، بل كان صورة ممسوخة ومظهرا من مظاهر التقليد للانظمةالاوربية ، ولم يكن لاعضائه من الحقوق والسلطان ما يجعلهم يمارسون حقوقهم ويؤدون رسالتهم على وجه صحيح بوصفهم « وكلاء الشعب » .. كان محرما عليهم المناقشة او الادلاء براى فى سياسة الدولة او الادلاء براى فى شئونها المالية أو قروضها او محاسبة الوزراء عن تصرفاتهم ، وفيما عدا ذلك كانت قرارات الاعضاء بمثابة « رغبات » ترفع الى الخديو للموافقة عليها او وضعها على الرف .

والحق ان هذا المجلس لم يخرج عن كونه « منحة » من الحاكم المطلق اذ لم يظفر به الشعب نتيجةحركة كفاح دستورية وقد نصت لائحته التاسيسية على انه « مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية . والتصورات التى تراها الحكومة انها من خصائص المجلس تصير المذاكرة واعطاء الراى عنها وعرض جميع ذلك على الحضرة الخديوية » .

كان المجلس يتكون من ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم العمد والمشايخ فى الاقاليم ، والاعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، ثم يجتمع المجلس شهرين من كل سنة ، وجلساته سرية ، ونص فى لائحته الداخلية على « وجوب الاصغاء للرئيس وحضور الاعضاء الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة ، وجلوسهم بهيئة الادب » .

ولم يشترط فى الاعضاء الالمام بالقراءة والكتابة ولم تكن لهم اية مزايا بل ان هذا المجلس الذى خلا من الطبقة المفكرة والصفوة الممتازة لم يخرج عن كونه مجلسا للاعيان والعمد ومشايخ القرى والدساكر . وللدلالة على انه لم تكن له قيمة ادبية او معنوية انه فى الوقت الذى كان فيه اسماعيل يلهب ظهور رعاياه بالسياط ويستنزف اموالهم وثمرة كدهم ويعقدالقروض التى كبل بها مصر ويحفر تحت اقدامها هاوية الخراب والافلاس المالى . لم يتقدم نائب واحد بتوجيه سؤال عن حالة مصر المالية او اعترض على فرض ضريبة او غرم ، بل كان النواب يقابلون هذه التصرفات المشينة بالهتاف صائحين : فليحى الخديو المعظم وانجاله الكرام ولتحى الحرية فى ظل رعايته وحمايته .

اما الاقتراحات التى كان يتناولها أعضاء المجلس المناقشة فهى : التخفيف من وطأة نظام السخرة . تقسيط الضريبة المفروضة على الاراضى الزراعية . انشاء مدرسة ابتدائية فى عاصمة كل مديرية . منع مجازاة العمد بالضرب ، تحسين وسائل الرى .. وكانت الحكومة تجيب على هذه المسائل بانها « موضع نظر ولى النعم » .

واصاب التعطيل المجلس فى غضون عامى ٧٤ — ١٨٧٥ دون مسوغ ، فقد كان اسماعيل غارقا فى الارتباكات المالية ، وما جرته تصرفاته على مصر ، ولو كانت نزعته شورية ، غير استبدادية لدعا ممثلى الامة الى التشاور معهم فى النكبات والكوارث التى حلت بالبلاد بدلا من استئثاره وحده بالامر .. وزاد هذا التعطيل من ايمان المصريين بضرورة المناداة بحياة نيابية صحيحة مبرأة من العيوب لتكون اساسا للحكم .

ثم دعى المجلس الى معاودة الانعقاد فى عام ١٨٧٦ وظل يتابع عقد دوراته الى عام ١٨٧٨ وامتازت هذه الحقبة من حياته بظهور روح المعارضة تسرى بين اعضائه والشعور بنمو روح القومية ، وكان اتجاه المعارضة ايذانا بتكوين الراى العام واقبال الصحف على معالجة الشئون السياسية والمالية التى تشغل الاذهان وظلت الفكرة القومية تنمو بين الصفوف بنمو حركة المعارضة وهكذا اخذ هذا المجلس المحدود الاختصاص يوسع من سلطته ويثبت وجوده . وبمرور الزمن انقلب الى برلمان يشعر الاعضاء بواجبهم ويقدسون الرسالة الملقاة على عاتهم ، مسترشدين بالمبادىء الدستورية السليمة ، واصبح شعار النواب « مصر للمصريين » .

جاءت الوزارة المختلطة ، وتبرم الشعب بمسلكها فى الحكم ، وكان من الطبيعى ان يتجاوب صدى التبرم والسخط فى نفوس النواب ، فحمل أعضاء المجلس على الوزارة حملات شعواء ، وتداولوا الراى فى الاحداث الجسام التى تمر بالبلاد ، ردوا على خطاب العرش بقولهم : نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، المطالبون لمصلحتها .

واخذت الوزارة تتهرب من عرض المسائل المالية على مجلس النواب . فوقف النائب محمود العطار وهاجم رئيس الحكومة نوبار بقوله : كيف يخفى على دولتو رئيس النظار ان للامة المصرية نوابا ، كيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيها نيل كمال حريتها وغاية حقوقها ، .. ان كل دولة تقدمت كان اساس تقدمها اشتراك النواب فى امثال ذلك ...

وكانت هذه الحملات تجد استجابة فى نفس الخديو ، فهو ينظر الى المسألة من زاوية اخرى ، زاوية شخصية محضة ، هى التخلص من الوزارة المختلطة التى قيدت سلطته وغلت يده عن التصرف فى اموال الدولة والضرائب العامة ، واراد ان يتملق الراى العام فكتب الى وزيره الاول يقول : اريد عوضا عن الانفراد بالامر ، سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح بمعنى انى اروم القيام بالامر من الان فصاعدا باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه .

ولو ان هذا التنازل كان صوريا الا انه وضح انه كان نتيجة من نتائج كفاح الاحرار ويقظة الفكرة القومية وتغلغلها فى نفوس المواطنين، وان الدولة لا يجب أن تظل مؤلفة من رعية مصرية « فلاحين » وراع عثمانى ، بل من هيئتين متضامنتين فى الحكم هما : مجلس الوزراء ومجلس النواب .

وخلفت الوزارة المختلطة ، وزارة محمد توفيق ، ولى العهد ، فادرك الخديو ان سلطة النواب قد جاوزت حدها ، وان « وكلاء الشعب » باتوا خطرا عليه ، وخشى وزير داخليته رياض من ناحية اخرى ان يؤدى الوعى الدستورى فى البلاد الى حدوث ازمة ، فمضى فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ الى مجلس النواب يبغى فضه ، فأبى النواب على الحكومة ان تبطش بهم وتعبث بالدستور ، وانبروا يتنافسون فى اظهار الادلة على حيويتهم واستقلالهم والمحافظة على كرامتهم . وصعد عبد السلام المويلحى على منبر الخطابة يعارض ممثل الحكومة الوزير رياض . وسرعان ماهب النواب يلتفون حوله ويؤازرونه فى موقفه كما سبق لنواب الشعب الفرنسى ان التفوا حول خطيبهم ميرابو يؤيدونه فى موقفه فى يوم فرساى .

ونظرا الى ان هذه الجلسة البرلمانية تعد من الاحداث الخطيرة فى تاريخ الحياة النيابية فى مصر ، وهى صفعة للمؤرخين الذين حاولوا النيل من قوة الراى العام ورميه بالغفلة ، ننقل ما دار فيها من مناقشات للدلالة على نمو الوعى الدستورى منذ ثمانين عاما :

احمد رشيد رئيس المجلس : عطوفتلو افندم رياض باشا ناظر الداخلية شرف الجلسة حاملا امرا عاليا سيتفضل بتلاوته عليكم .

رياض باشا : قبل ان اتلو على حضراتكم الامر العالى الصادر من مولاى ومولاكم اقدم لحضراتكم جزيل تشكرات الحكومة على ما ابداه المجلس من النشاط فى نظر المسائل التى عرضت عليه وانى اتلو على حضراتكم الامر المشار اليه وهو يقضى بفض المجلس .

عبد السلام المويلحي بك : لا ارى معنى لتشكرات الحكومة لنا فاننا لم نقم بعمل الى الان يكون له ولو شبه فائدة قد عادت او ستعود على البلاد . فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس .

رياض : مستحيل ... ينفض المجلس ، ماذا تقول حضرتك ؟ مستحيل فض المجلس . كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد امر خديوينا المعظم . هل حضرتك فاهم جيدا قيمة مسئولية ما تقوله الان ؟

عبد السلام المويلحي بك : نعم انا فاهم وفاهم جيدا جدا ما قلته، ومقدر مسئولية ما اقوله تماما .

رياض : هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط ، وهل اخوانك يوافقونك على هذا الكلام ، ما اظن ان حضراتهم يوافقونك على ذلك مطلقا .

محمود العطار بك : موافقون البك المويلحى على ما قاله .

عثمان غزالى : انا والله موافق المويلحى بك بجوارحى على اقواله

عبد الشهيد بطرس : اوافق عبد السلام المويلحى بك على ما قاله وما سيقوله مقدما .

رياض : اذ ان انتم جميعا عصاة .

عبد السلام المويلحى : حلمك يا باشا لا تغضب سريعا ، والان الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة اخوانى لاقوالى وهم يعرفون كلهم مقدار المسئولية التى قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق قدرها . فاعلم يا عطوفة الناظر ان من الغريب ان تحمل لنا امرا عاليا اليوم يقضي بفض المجلس وهذا الامر العالى مبنى على غلطة جوهرية فاضحة لانها فى الواقع مغالطة ومزية من الحكومة السنية لمجلس نواب امتها . وهى كيف جاز للحكومة ان تبنى الامر العالى بفض المجلس على ان مدة انعقاده وهى ثلاث سنوات قد انقضت . ومع ان الحكومة تعلم والنواب يعلمون جميعا ان تاريخ الديكريتو الذى صدر بانعقاد هذا المجلس وبتعيين سعادة احمد رشيد باشا رئيسا هو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ فلم يمض اذن على دورة المجلس سوى سنة وثلاثة اشهر ، فكيف اصبحت هذه المدة على حساب الحكومة ثلاث سنوات .

رياض : اما حساب عجيب وغريب يا حضرة النائب . . . ان مدة انعقاد المجلس هى بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا

الخديو المعظم فى حفلة طنطا ، فاحسب حضرتك تجد ان المدة فاتت وزيادة .

عبد السلام المويلحى : ما هذا الكلام يا عطوفة الباشا .. حفلة طنطا ؟ وما هى حفلة طنطا ؟ وما لنا وحفلة طنطا الان ؟ وما هو مقدار رسمية حفلة طنطا ... وما قيـل من الخطب ردا على ما فاه به سمو الخديو المحبوب فى تلك العزومة لحضرات المدعوين اليها ، ان القريب والعجيب هو حساب الحكومة لا حسابنا .. عزومة شرفها سمو الجناب العالى وتناول الطعام مع المدعوين اليها ، وقيل فيها كلام او خطب من سموه ومن المدعوين ولم يدون منها حرف واحد على الاطلاق لا بطريقة رسمية ولا شبه رسمية ، تفيد ان كلام سموه فيها كان امرا عاليـا له قيمة القانون ويؤثر فى مـدة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة . اليس اذن هذا الكلام عجيبا وغريبا من عطوفتكم لأمتنا .

ابراهيم الوكيل : عجيب جدا ... بالله اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها وخلوا على راى المثل العامى « زكايب الهم مقفولة » .

رياض : يعنى حضراتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا عـلى حكومتهم .. والا يعنى حضراتكم الان بعمائمكم وجببكم مثل نواب اوربا وامريكا .

احمد على العوسى بك : يا باشا انت الان شتمتنا .. ما هـذا الكلام ؟ يعنى عطوفتك شتمت نواب امتك التى تعطيك انت وغيرك مرتباتكم الشهرية .

عبد الشهيد بطرس : انا اعتبر هذه العبارة اهانة من ناظر الداخلية للمجلس واطلب اثباتها فى المحضر ، واقول لعطوفتك ان كلامك هذا وقاحة وان المجلس لا يقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها اليـه .

شيخ العرب احمد الصوفانى : اوافق حضرة العضو على رد هذه الاهانة للناظر واطلب من المجلس ان ينظرها فيمـا بعـد ليحاسب عطوفته ، ان فى البلاد امة حية ولها نواب احياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم .

عبـد السـلام المويلحى : اسمعت يا باشا ؟ ارايت عاقبة تسرع عطوفتك بالكلام وعدم ضبطك لعواطفك كما قلت فى اول كلامى .. يا باشا ، اعـلم ان المسالة ليست مسالة زى وثياب بل المسـالة مسالة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الامة التى انابتهم عنها .

واعلم يا باشا ان اهل وطنك ليسوا باقل شعورا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الامم الاخرى التى هى فى الواقع اقل منا كثيرا فى المكانة المالية والعمرانية كصربيا وبلغاريا وغيرهما ، ثم ثق ان كنت تعتقد ان مصر لم تتمخض ولم تلد سوى عطوفتك من عهد رمسيس الى الان ... انك غلطان جدا والف غلطان يا باشا . الم يكن من العيب الكبير وانت وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسى وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة، ثم تجمع امس مساء امام هذين الوزيرين الاجنبيين اصحاب الجرائد وهم ميخائيل عبد السيد وتقلا واديب اسحق وسليم النقاش وغيرهم وتقول لهم ان الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غدا فالحذر كل الحذر من ان تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لانهم اناس جهلاء وهمج .. تقول ذلك يا باشا عن نواب بلادك مصر العزيزة ولا تزن قولك قبل صدوره منك ، ولا تتالم فى نجواك من صدوره عنك ثم تكرره امامنا اليوم . يا باشا اننا جميعا درسنا فى الازهر الشريف وفى غيره ، درسنا المعقول جميعه من علوم البلاغة والادب والفلسفة والاصول والمنطق، وكذلك قرانا المنقول من تفسير وحديث وفقه وتوحيد ، ولكن خبرنى بالله عطوفتك ما الذى قراته وتعلمته انت من كل ذلك ، واين كنت تدرسه وتتعلمه ؟

الشيخ الصباحى : تعلم ودرس فى اورطة المفروزة(١) ؟ !

رياض : هذه وقاحة ، هذه اهانة لا اقبلها ولا اسمح بها لاحد .

حسن عبد الرازق : ان ما قاله حضرة عبد السلام المويلحى بك هو اعراب عن افكارنا ومطابق مطابقة تامة لآرائنا ، ولا يشذ عنه اى فرد منا . وكلنا متحملون مسئولية هذه الاقوال مهما عظمت ، اليس كذلك يا اخوانى ؟

الاعضاء جميعا وفى صوت واحد : نعم ... نعم ... نوافق على جميع ما قيل من اخواننا النواب فى هذه الجلسة .

رياض : اذن انا منسحب ، انتم عصاة ... انتم ثوار .

عبد السلام المويلحى : يا مصطفى باشا وهبى ، بصفتك سكرتير عام المجلس ، لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى كتابة المحضر حتى

---

(١) يقصد الكتيبة التى انشاها الوالى عباس الاول باسم «المفروزة» وكان رياض برتبة ملازم اول فى موسيقاها .

اذا نقلته جرائد اليوم علمت الامـة والناس جميعا من هم الهمج ، النظار ام النواب ؟

ثم طلب عبد السلام المويلحى الى هيئة المجلس قرارا باستمرار الجلسة منعقدة ليل نهار . فوافق الاعضـاء بالاجماع ، واستمر وجود الاعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع ، واتفقوا على ان يكون ثلث الاعضـاء بالتناوب ، ليبقى فى المجلس ليلا ويبيت به ويحضر بالنهار سائر الاعضاء ، وتستمر الجلسة منعقدة ، وكذلك اتفقوا على احضار طعام العشاء ليلا لمن يكون عليهم الدور من زملائهم فى المبيت.

ومن الطريف ان نسجل هنا مارواه يعقوب صنوع على صفحات جريدته الهزلية « ابو نظارة » باسـلوبه التهكمى اللاذع ، عن هذه الجلسة التاريخية تحت عنوان : البارلمنتو المصرى ، اذ قال : « صار فتح البارلمنتو اللى هو مجلس النواب وتليت فيـه مقالتين(١) طز فش ، واحدة من شيخ الحارة والثانية بصفة جواب لها من رئيس المجلس ، وكلمتين من احد الاعضاء علموهم له قبل دخول المجلس ، اما اغلب الاعضاء فهم جدعان احرار لا يباعوا ولا يشتروا ، والظاهر انهم اتفقوا على رأى واحد ، بالتكلم بغاية الحرية فى المجلس موش زى زمان اللى كانوا دائما يقولوا : اى نعم . اى نعم راى سعادة الرئيس فى محله وما اشبه . واليك ما دار فى الجلسة الاخيرة :

الرئيس : « يوجه نظر الاعضـاء وينف ويبزق ويقول » سعادة ناظر المالية ارسل لنا افادة رسمية باللغة الانجليزية لاجل الضرائب الميرية لسداد الديون المصرية ، وتحصيل الاموال المتاخرة لغاية ثمانية وسبعين افرنجية ، ودفع المتاخر من المـاهية ، والذى يتاخر عن السـداد بالطريقة الحسبية يعامل بالقـوة الجبرية وتباع اطيـانه وموجوداته ، بمعرفة المديرية ، وافندينا اقر هذه القضية ، فكل منكم يبدى رايه بالحرية للمداولة ولا تخافوا من شىء بالكلية .

ابو جموس : ان كانت المادة نفاق فاحنا نقر بالوفاق وان كانت حرية نبدى افكارنا القلبية .

الرئيس : شوف ياشيخ عبدالعال ، انا لا اعرف النفاق ولا المحال ، وانا احب الحرية فتكلم بخلوص نية وسلامة طوية .

ابو جموس : المادة ليست حاوجة مداولة ولا كثرة محاولة ، احنا

---

(١) المقالة ــ خطبة العرش

قبلنا كل النوايب اللى مرت علينا مع جميع المصايب ، وبعنا ماورانا وما قدامنا ، ولا بقاش حاجة امامنا ، ده احنا كان عشمنا من سى فلسن(١) والجماعة الاورباوية ان يخلصونا من العبودية ،وسمعنا انهم ناس طيبين يكرهوا الظلم المبين ، ولكن بسلامتهم ما فلحوش ، ربنا يغنينا بفرجه العميم ويولى علينا رجل كريم حليم(٢) ، ويعتقنا من جور «شيخ الحارة» اللعين ، اللى سخمط وش الحمارة طين .. وانا وحياة راسك مفيش فى بيتى ولا كيلة غلة ، ولا جاموسة ولا عجلة ، ولا قرص جلة ، فيكفانا ظلم وخساير ، والله اعلم بما فى الضماير ، وما تنطوى عليه السراير .

الرئيس : وانت قولك يا شيخ محمد ؟

الشيخ محمد : احنا لا نعرف مدير مالية ولا ناظر خارجية ،دول ناس ملاعين ، يرطنوا بلسانهم الاعوج ، وهم لا بسين بتوع طوال اسمها برانيط ، راخيين شعورهم زى الـ ... وبدردعوا نبيذكتير ويتغدوا بلحم الخنزير . واما احنا ناس هوارة ، نعرق طيب فى قنابة الفرس والحمارة ... واعرف سعادتك اننا ما نقبلش زيادة ضرايب ولا كترة مصايب ، وعاوزين تخفف المربوط ولا تسال عن دبلنير ولا مربوط . والا ان كان القصد بحضورنا الآن يضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنين ، وان كان عاوزين النياشين بتوعكم خدوها ، والفلاحين اهى قدامكم كلوهم ، لان بلدنا وحياة راسك بعد ما كانت حايزة كمال اللطافة ، اصبحت من كثرة المظالم كوم شقافة ، والله يجازى ابن الحرام .

وهكذا يمضى الصحفى البارع فى تصوير خلجات النواب وهى صدى لما كان يعتمل فى صدور ابناء الشعب ، ثم يمضى فى سردمظالم الحكومة ومصائبها بطريقة فيها شيءمنالتورية احيانا ،ومن الصراحة فى مواقف اخرى .

• ● •

لم يجد رياض مناصا ازاء اصرار النواب على عدم مبارحة دار المجلس الا ان يعرض الامر على الخديو ، وان يضع تحت نظره رسالة بعث بها النواب اليه يطالبون فيهاباطلاق حرية القول والخطابة

---

(١) مستر ولسن وزير المالية وتغيير الاسم فيه تورية .

(٢) يقصد الامير محمد عبد الحليم المنافس على العرش .

وفرض الضرائب على الاجانب اسوة بالمصريين ، والاحتجاج على مسلك الوزارة من امتهانها حقوق النواب والاستخفاف بكرامتهم ، ثم ذكروا فى الرسالة بان المشروع المالى الذى اعدته الوزارة يعد بمثابة شهر افلاس الحكومة .

واخيرا اضطرت وزارة محمد توفيق الى الاستقالة ، واتجهت الانظار الى محمد شريف ليقود السفينة ويخلص البلاد من الورطة التى اوقعها فيها الخديو ، فقبل شريف الحكم على اساس الابقاءعلى مجلس شورى النواب ومنحه سلطة معترف بها كالمجالس النيابية .

والواقع ان مصر كانت تجتاز فى غضون هذه الحقبة العصيبة من حياتها ، فترة حالكة مظلمة ، وكانت البوادر تدل على ان هذهالفترة هى التى تسبق عادة كل تطور سياسى وتهيىء الشعب للانتقالالى عهد جديد ...

كان الشعب يرزح تحت اثقال القروض ونير الوصاية الاجنبية ، وكانت اداة الحكم تسير من سىء الى اسوأ ، فانطلقت الالسن من عقالها تردد صيحات مكبوتة واشرق فى النفوس فجر الاصلاح .

لم تعد مصر هذا الشخص المريض الذى يتفنن الاجانب فىاهانته واذلاله ، بل نهضت تطالب بما لها من حقوق ، وتكافح الظلم الذى ران عليها منذ ابادة زعامتها الشعبية ، وهبتتطالب بوجوب اشراكها فى الحكملتدفع النير عن نفسهابوساطة ممثليهافى مجلس النوابقبل ان تقع فريسة للاهواء والمطامع . ورأى الخديو ان هناك اعتبارات قد تحول دون تحقيق هذه المطالب :

فهناك تركيا وعلى راسها حاكم مستبد هو السلطان عبدالحميد ، وقد سبق ان اعلن الحرب على كل حركة تقدمية ونكل بمدحتباشا الذى قام يطالب بالدستور .

وهناك الدول الاجنبية التى اعلنت وصايتها على البلاد لاستيفاء ديونها المالية ومن الطبيعى ان تحارب اى نظام نيابى صحيح يقوم فيها .

وكان على الخديو ان يختار بين امرين :

اما اجابة مطالب الشعب وتأسيس مجلس نواب حر يدعمه دستور صحيح وبذا يغضب تركيا ويستهدف لنقمة الاوصياء الاجانب ، فضلا عن ان عرشه سيصبح مزعزعا نتيجة رقابة نواب الشعب على اداة الحكم .

واما ان يرفض مطالب الشعب فتشب الثورة ، كما شبت من قبل فى ارجاء العالم معلنة مبدا : الامة مصدر السلطات .

وعهد الى محمد شريف بمعالجة الازمة على اساس حل وسط يرضى الجميع ، فاخذ الوزير الاول على عاتقه الاعتراف بمجلس شورى النواب واستمرار انعقاده ثم اعتبار هذا المجلس بمثابة جمعية تاسيسية يقدم اليها نصوص الدستور .

وهنا تبدو لنا عبقرية هذا السياسى المحنك كحاكم من الطراز الاول . كان فى وسع امثاله من حكام القرن التاسع عشر ان يستغلوا سلطانهم وان يشبعوا ميولهم الاستبدادية الى اقصى حد . ولكن الرجل كان واسع الافق ، بعيد النظر ، يعتقد بأن الحكم تقليد لا تخليد ، ووسيلة لا غاية ، ولم يكن من الذين تسكرهم خمر المناصب فيدوسون باقدامهم على كل شىء فى طريقهم ولو كان حقوق الوطن وكرامته . كان الحكم فى نظره اداة لتحقيق آمال الامة وحمايتها من المطامع الاجنبية ، فما ان تقلد الحكم حتى شرع فى وضع نصوص الدستور .

واجتمع مجلس شورى النواب فى ١٠ ابريل ١٨٧٩ ثم قدم اليه محمد شريف فى جلسة ١٧ مايو : نصوص الدستور ولائحة الانتخابات ولائحة المجلس للمناقشة فيها وتعديلها او اقرارها بعد ان ذكر للنواب بانهم بمثابة جمعية تاسيسية .

وقد جاءت هذه التشريعات الثلاثة مماثلة للتشريعات المعمول بها عند الدول الراقية ، ونص فيها الى جانب المسئولية الوزارية حق الخديو فى حل المجلس ، وخول للشعب السودانى حق انتخاب ممثلين عنه فى المجلس ، شانه شان سكان الوادى جميعا ، وجاء هذا برهانا ساطعا على ان مصر تنظر الى السودان كقطعة من ارض الوطن ، وحدد عدد النواب بما لا يزيد على مائة وعشرين من بينهم نواب الجنوب .

وخلع اسماعيل عن العرش فى ٢٦ يونيو ، ولم يكن الوقت قد اتسع امام النواب للنظر والمناقشة فى مواد الدستور ، وجاءت جلسة ٦ يوليو ١٨٧٩ وفيها فض الخديو توفيق دورة المجلس ، او بالاحرى عطله الى اجل غير مسمى .

الحياة العقلية

القاهرة ترث بغـداد ــ مظاهر الثقافة ــ رسالة الازهر ــ التاثير الفـكرى للحملة الفرنسية ــ تنظيم صـلة مصر بالغرب ــ النهضة التعليمية ــ البعـوث الترجمة ــ رفاعة الطهطاوى ومدرسته ــ دور الازهر فى النهضـة ــ على مبارك واعلام الفكر فى عصره ــ الطباعة ــ الصحافة .

كانت القاهرة التى احتلت مكانة بغـداد العلمية بعد ان خربها التتار واحرقوا مكتباتها قد صارت قاعدة الحياة العقلية فى الشرق وكعبة للعلماء وملجأ لائمة الفلسفة والفقه واحرار الفكر من الذين فروا أمام غزوات المغول فى العراق وايران وسورية وخراسان .

وكان الشعور الدينى قد دفع هؤلاء العلماء النازحين الى حاضرة الاسلام الى اعادة التراث العلمى الذى كانت تزخر به خزائن بغداد فنشطوا الى قطف ثمار العـلم ، وتفرغوا للتاليف ، يسـاعدهم فى مهمتهم عطف السلاطين البحرية والبرجية ووجود جامعة اسلامية عظيمة ممثلة فى الازهر .

لكن هذه الشعلة المقدسة خبت فى العصر العثمانى وركدت سوق الادب وانصرف الناس عن تحصيل العـلم فانحط معيار الثقـافة ونهبت خزائن الكتب ، وانفضت صناعة الوراقين والنساخين نتيجة فتور الهمم عن التاليف والتدوين ، ثم استبدلت بالعـربية اللغـة التركية وفرضت على المكاتبات الرسمية ، وغزت اللغة العربية الكثير من الكلمات الدخيلة والتعابير الاعجمية والتراكيب الركيكة ، فانحط اسلوب الكتابة وصـار اقرب الى العاميـة وفشى بين الادباء طابع الصناعة وسـلكوا فى كتاباتهم مسـلكا شاذا من حيث التكلف والاستعارة والتلاعب بالالفاظ البراقة المنمقة واختفى جيل العلماء الاعلام الذين حفلت بهم مصرفى عصورها السالفة .

وكان فى القاهرة ديوان يعرف باسـم « ديوان الانشاء » يرجع تاسيسه الى ايام احمـد بن طولون ، وكان هذا الديوان من جملة البواعث التى ساعدت على انهاض اللغة ، وانعاش الحركة الفكرية، وكانت مهمته صياغة المكاتبات والولايات والمنشورات والنظر فيما يعود بالنفع على العلم .

ولقد عاشت اللغة العربية فى بعض الاوسـاط وبقيت تناضل وتكافح فى الوقت الذى اندثرت فيه معالم الادب، وكانت ارقى الاساليب

التى عرفت منحصرة فى فئة من كتبة الدواوين ، ولكن حظهم من النبوغ والابتكار فى الكتابة كان ضئيلا ولم تتخط اسماؤهم حدود أسوار الدواوين . ونال بعض هؤلاء الكتبة شهرة ضيقة النطاق بفضل ملكة الكتابة التى مرنوا عليها وبتأثير اطلاعهم على ما كتبه الاقدمون . اما الاقبال على مطالعة الكتب وتقليب الذهن فى محتوياتها فكان مقصورا على طبقة محدودة من الخاصة ، وكانت الطباعة العربية التى عرفت فى ذلك العصر فى سورية والاستانة ومالطة وروما وفى الدوائر العلمية فى أوربا لا تزال مصر محرومة منها بسبب عزلتها وقلة احتفال حكامها بجلب أمثال هذه الكتب .

كانت الكتب اذن نادرة الوجود ، قليلة الانتشار وهى من المخطوطات النفيسة الباهظة الثمن ، وقد ظهر افتقار مصر الى الكتب العلمية بوضوح وجلاء لاسيما بعد ان جرد العثمانيون مكتبات القاهرة من محتوياتها العلمية ونقلوها الى دار الخلافة .

وكذلك كانت المعارف ضئيلة الاثر ، ووسائل تحصيلها شبه معدومة فلم تكن هناك سوى مجموعة من الكتاتيب الملحقة بالزوايا وافنية المساجد يتلقى الصغار فيها مبادىء القراءة والكتابة وقشورا من علوم الدين .

وكانت مصاطب الكتبة الاقباط ومراكز طائفة القبانية بمثابة مدارس للناشئة من الذين يرغبون فى تلقى أصول الحساب . كما أن معظم الكنائس كان ملحقا بها كتاتيب يتلقى النشء فيها أصول دينهم ومبادىء الكتابة والحساب . وكانت هناك مدارس اخرى للاقباط مقامة فى الاحياء النائية أو أقبية المنازل ولا تختلف طريقة التعليم فيها عند المسلمين . وكانت الاديرة مصدر ثقافة خاصة بالاقباط وكانت خزائنها حافلة بالمؤلفات وبالموسوعات التى تتناول تاريخ الكنيسة أو الطقوس الدينية .

وكان الاثرياء يستقدمون الى دورهم مدرسين سبق أن درسوا فى الازهر لتربية أولادهم واقاربهم ، أما غلمان المماليك فكانوا يثقفون فى قصور الامراء ثقافة خاصة تغلب عليها الصبغة العسكرية مع تلقينهم مبادىء الفلسفة والفقه والعلوم ، وكانت دورهم مزودة بخزائن كتب نهبت محتوياتها من مساجد الشام .

وزالت امجاد معاهد التعليم والمدارس التى كانت فى وقت ما مهبط العلم والعرفان منذ عصر الايوبيين واهمل شأنها متأثرة بما

أصاب مصر من تفكك وانقسام ، ثم طمع الحكام فيما بعد فى أوقافها التى استولوا عليها .

ولم يبق قائما من المعاهد العلمية التى كانت منتشرة فى العواصم والمدن سوى الازهر فقد كان للازهر من اوقافه التى حبسها عليه الخيرون ومن الارزاق التى تجرى عليه ما يغنيه عن مد يد السؤال الى الحكام فاستمر موضعا للتقديس ومركزا للثقافة الدينية وملاذا لعلوم الفقه واللغة .

حمل الازهر عبء المعارف القديمة على مر العصور وظل قائما على حفظ التراث الاسلامى وصيانة آداب العرب ، وكان نور العلم يشع من رحابه الى ارجاء العالم الاسلامى فيجذب اليه نوابغ العلماء والطلاب الذين ينقطعون بين جدرانه للدرس والعكوف على التحصيل .

وكان للازهر تأثير دينى فى محيط التثقيف الشعبى ، فطالما جلس علماء الدين فى رحابه ، يعقدون المجالس ، ويتعهدون العامة بالموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، ويشرحون لهم المسائل الدينية ويتبسطون معهم فى الحديث عما أغلق عليهم فهمه من شئون المعاملات الدنيوية .

وكانوا اذا ما لمسوا اعوجاجا فى سير احد الحكام ، ولو كان من ذوى البطش والقوة ، دسوا بين دروسهم النقد اللاذع لاسلوب حكمه وساقوا معانى العدل والمساواة وواجبات الحكام حيال المحكومين .

والواقع أن المسجد لم يكن مكانا للعبادة فحسب ، وانما ظل الى جانب ذلك بمثابة حلقة للدرس وينبوع روحى لتفقيه المسلمين شئون الدين والدنيا .

• ● •

ثم قدمت الحملة الفرنسية الى مصر . . تظاهر نابليون بونابرت بأن هذه الحملة لم تهبط ثرى الكنانة لتغزوها بسلاح الحرب وحده وانما بأسلحة من العلم واستقامة الفهم ، اذ كان يرى فى هذه الحملة تألق نجمه ليس من الوجهة العسكرية فحسب بل من الوجهة العلمية ايضا بغية اكتساب عطف علماء اوربا ومفكريها ، فصحب الحملة هيئة موقرة من ١٤٦ عالما من أقطاب الفكر والعلم والفن ليرصدوا جهودهم للكشف عن معالم مصر التى كادت تطمس تحت رمال الزمن .

وكان مما جهزت به الحملة مطبعة حروف عربية هى أول مطبعة قامت فى مصر بطبع الكتب والصحف ، ثم أضيف اليها كافة الكتب والمراجع عن مصر مما عثر عليه فى فرنسا وايطاليا وكون بها مكتبة زاخرة بنفائس الكتب ، وبعد ما استتب الامر لنابليون كان فى جملة المشروعات العلمية التى فكر فيها تاسيس « مجمع علمى فى القاهرة » على غرار المجمع العلمى الفرنسى بباريس ففى ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ أصدر امرا بتأسيس « المجمع العلمى المصرى » وجعل شعاره : التقدم والاتحاد . اى العمل على تقدم البحوث العلمية الخاصة بمصر كالتنقيب عن الآثار ودراسة طبيعة الارض ومجرى النيل والتطور الاجتماعى وترقية الحياة الاقتصادية والسعى الى ادماج الثقافة الشرقية فى الثقافة اللاتينية .

استوطن المجمع دار حسن كاشف فى الناصرية ، ثم الحقت بالمجمع القصور والدور المحيطة به واعدت لسكنى الاعضاء ، وعين العالم مونج رئيسا للمجمع واكتفى نابليون بأن يكون وكيله ، وافتتح المجمع فى حفلة حوت كل مظاهر العظمة واشتركت فيها وحدات من الجيش ، وحددت المسائل التى يتناولها الاعضاء بالدراسة والبحث وهى : الرياضة والطب والعلوم الاقتصادية والسياسية والفنون والاداب والموسيقى وكل ما يتعلق بتاريخ مصر .

واشترط ان ينشر المجمع ابحاثه مرة كل ثلاثة اشهر وتشمل مذكرات الاعضاء وتقارير اللجان وان تمنح جوائز للابحاث المتعلقة بتقدم الحضارة والمدنية فى وادى النيل . وسعى المجمع الى تاليف لجنتين للتنقيب عن الاثار والبحث عن مخلفات الحضارة الفرعونية ورسم هذه الاثار ودراستها . فشخص اعضاء اللجنتين الى الوجه القبلى وبذلوا جهودا فى البحث والتنقيب وكشف الستار عن عظمة مصر القديمة ، على حين جاب فريق آخر من العلماء المدن والقرى لدراسة طبائع الحيوان والنبات وقياس اعماق النيل ودراسة طميه وتحليل التربة وتخطيط المدن ، ودراسة المناخ وترقية وسائل التجارة ونموها وانتشارها .

وكانت الصبغة الغالبة على اعمال المجمع هى الصبغة العلمية . أما الجانب اللغوى فكان يتبع فى الاهمية القسم العلمى ، وكان يضم علماء بارزين اشتهروا بتفوقهم فى اللغات الشرقية ، وكانت اعمالهم منحصرة فى ترجمة منشورات واوامر القيادة العسكرية واستغل

البعض منهم اوقات فراغه فى ترجمة المؤلفات العربية ودواوين الشعراء وفى الاجمال كان هذا المجمع على حد قول مؤرخ عاصر الحملة : عادت الفنون الى الظهور فى وطنها الاصلى ومنبتها القديم واعتلى رواد العلم والادب منابرهم فى مدرسة البطالسة .

وأسس المجمع مكتبة تحوى انفس الكتب التى جلبوها من اوربا أو التى حصلوا عليها من المساجد وبيوت المماليك ، وكانت المكتبة تفتح ابوابها يوميا لاستقبال طلاب العلم ويعرضون عليهم ما تحويه من ذخائر ادبية وعلمية ، وافردوا قاعة خاصة للمطالعة يجتمع فيها هواة البحث والمراجعة ، وقاعة يجرون فيها بعض التفاعلات الكيماوية امام المتعلمين .

وكانت الطباعة شيئا غريبا لم يألفه المصريون وان كان البعض منهم قد سمعوا عنها او شاهدوها فى استامبول ، فتقاطر على دار « المطبعة الفرنساوية العربية بمصر المحروسة » مشايخ الازهر واعضاء الديوان وتطلعوا بشغف الى عمليات الطباعة التى اجريت امامهم واخذوا يمطرون رؤساءها بالاسئلة عن آثار الطباعة فى مدنية الشعوب وعن جهد فرنسا فى نشر هذه الصناعة بين ربوع الغرب ، وتمنوا انتشارها فى بلادهم ليعم نفعها بين العامة والخاصة .

وكما كانت المطبعة شيئا جديدا بالنسبة المصريين ، كذلك كانت الصحافة ، ولم تكن رواية الخبر المطبوع واذاعته قد عرف بعد فى البلدان الشرقية ، وقد جرت العادة أن الحكام اذا راوا اذاعة نبأ ما تولى مهمة تبليغه الى الجمهور : المؤذنون من شواهق المآذن ، والمنادون يطلقونهم فى الشوارع والاسواق ، وكذلك مشايخ القرى ولكن نابليون اضاف الى هذه التقاليد المتبعة طريقة طريفة لم تكن مألوفة من قبل وهى لصق اوراق مطبوعة فى مفارق الطرق وبأبواب المساجد ورءوس الشوارع . ثم تطورت الفكرة الى انشاء صحيفة شبه رسمية تكون بمثابة لسان حال القيادة هى « رائد مصر » . والى اصدار مجلة تنشر على صفحاتها خلاصة ابحاث ودراسات أعضاء المجمع العلمى هى « العشرية المصرية » وكان فى النية اصدار جريدة باللغة العربية باسم « التنبيه » يسند تحريرها الى الشاعر اسماعيل الخشاب ولكنها لم تصدر .

وفى غضون السنوات الثلاث التى قضاها الفرنسيون فى مصر ، احتك رجال الحملة بالمصريين واختلطوا بصفوة مفكريهم وبطائفة من

كبرائهم ، وظهرت الجهـود العلمية لرجال البعثة فى اثرين بارزين أولهما كتاب « وصف مصر » الذى يعد أعظم موسوعة علمية عن تخطيط مصر ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وقد حوت هذهالمجموعة كل ما يتعلق بمصر من تاريخ وعلم وفن ونصوص جغرافيةورسوم اثرية ، ويتمثل ثانيهما فى تمهيدهم السبيل الى حـل رموز الخط الهيروغليفى الذى يعد بمثابة مفتاح الحضارة المصرية القديمة .

وتأثر بالفرنسيين صفوة من المفكرين والعلماء الذين اختلطوا بهم ونفعوهم بعلمهم ومنهم : الجبرتى ، نقولا الترك ، العطار ، الخشاب، فقـد برزوا فى وقت ركدت فيه النهضة العلمية ركودا تاما ولعبوا دورا هاما فى حياة مصر السياسية والعلمية .

فأولهم عرف بلقب « مؤرخ عصره » وقد اتصل بالفرنسيين وعاشرهموافاد منهم فى الحصول على الوثائق والاسانيدوالاحصاءات التى ضمنها كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » ولكنه برغم هذا حمل بقوة وعنف على الفرنسيين وعلى اسلوب حكمهم . حمل عليهم لجورهم فى جمع المـــال والتدخل فى حياة المواطنين وشهر باساليب قادتهم للتقرب من المصريين ومحاولتهم ارضـائهم ، ولم يخدع بمنشورات نابليون التى كان يمالىء بها المصريين ويتملقهم ، ولم يخدع بالديوان الذى انشاه بدعوى اشراك المصريين فى الحكم . وكذلك حمل على الحكم الفرنسى لما نشره جنود الاحتلال من الوان الخلاعة والمجون وسريان هذه العدوى الى أولاد البلد .

ومع ذلك فان الجبرتي منصـف ، لم تمنعـه كراهيته للحـكم الفرنسى من اعجابه بتفوق الفرنسيين فى علومهم ، فاختلط بطائفة من علمائهم ، وبدا اعجابه بما حمـله الفرنسيون الى بلده من الوان الثقافة وضروب التمدين ، فوصف دار الكتب التى اسسوها وأتى على ما تزخر به من صنوف المخطوطات والمعاجم والمؤلفات العربية المنقولة الى لغتهم ، ثم عرج على دار الكيمياء وعطف على رسـوم الآثار والحيوان ومناظر الثورة الفرنسية وصور الشيوخ من اعضاء الديوان ودقق النظر فى وصف كل ذلك وصفا صادقا .

وثانيهم كاتب سورى نزح الى مصر للعمل بصفة مترجم فى الحملة فخالط اهلهـا وعاشر ادباءها ، وخلف من آثاره كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والديار الشامية » وكذلك عدة قصائد سجل فيها الاحداث السياسية التى عاصرها .

وثالثهم عالم تثقف ثقافة ازهرية ، ولكنه برع فى الفنون الادبية واشتهر بالنظم حتى لقب « بشاعر عصره » . وقد اتصل بدوره بالفرنسيين وافاد منهم فائدة علمية فى مقابل تدريسه ادب اللغة العربية للمستشرقين . وظهر التأثير الفرنسى فى تفكيره فكان يتحمس ويقول : « لا بد ان تتغير احوال مصر ويتجدد ما بها من المعارف » . ثم يعجب بما وصلت اليه الامة الفرنسية من انتشار العلوم وضروب الثقافة ووفرة الكتب والمراجع وطريقة تاليفها وتقريبها الى الاذهان ، وانشأ الشيخ العطار فى داره مكتبة على النمط الفرنسى زودها بكل ما وقع له من كتب حصل عليها من مصر أو من سياحاته فى ربوع الشام والاناضول .

ورابعهم شاعر كان يتكسب من صناعة الشعر فاستخدمه الفرنسيون كاتبا فى الديوان وعاون المستشرق مارسيل فى طبع ونشر عدة مؤلفات ومخطوطات مثل « تاريخ مصر من الفتح العربى الى الحملة الفرنسية » و « وصايا لقمان الحكيم » و « متنوعات من من الادب الشرقى » و « حكايات الشيخ المهدى » الذى كتبه على نمط « الف ليلة وليلة » .

وهناك طائفة اخرى نشأت فى كنف الفرنسويين وتحت رعايتهم وقد استعان بهم علماء الحملة على تفهم اسرار اللغة العربية وعلى تنقيح بعض المؤلفات التى وضعوها فى أصول هذه اللغة وآدابها .

وصفوة القول ان مصر افادت من الناحية العلمية فائدة لا تنكر وفى الامثلة التى قدمناها ما يعطينا فكرة عامة عن بعض العوامل التى احدثت اثرا مباشرا أو غير مباشر من ناحية الانتفاع بثمرات الحضارة المدنية وتقدير قيمة تحصيل العلم .

• ● •

بعد أن تم التخلص من بقايا المماليك فى مذبحة القلعة وانفرد محمد على بالحكم ،قدمت اليه فرنساطائفة من الخبراءوالاخصائيين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى ادخال النظم الادارية والعسكرية والثقافية الى مصر ، والنظر فى تنفيذ ما يمكن تنفيذه من المقترحات التى خلفها علماء الحملة الفرنسية للنهوض بمستوى الحياة العامة واستغلال الموارد الاقتصادية وتحسين طرق النقل والمواصلات والعمل على نمو الصناعة وتنظيم التجارة بين مصر وموانىءالبحرين الابيض والاحمر وافتتاح سلسلة من المعاهد العلمية .

ونبتت فكرة تكوين جيش نظامي موحد قوامه الفلاحون بدلا من الجنود المرتزقة والعناصر الدخيلة الذين طالما تشابكت مصالحهم وتعقدت مشاكلهم وجاهروا بالتمرد والعصيان ، وكان لابد لهذا الجيش من ضباط واطباء وبيطريين ومهندسين وموظفين مدنيين. فوقع الاختيار على خمسمائة من ابناء المماليك وارسلوا الى اسوان حيث اسس لهم اول معهد عسكرى فى سنة ١٨٢٠ يتلقون فيه تعليمهم على ايدى مدربين اوربيين .

على أن مدير المعهد — الكولونيل سيف — لقى صعابا وعقبات فى تدريب أولئك الشبان الساخطين على الاساليب العسكرية الحديثة التى تفرض الطاعة والامتثال والنظام . فالمماليك منذ نشأتهم فطروا على الاعتداد بالنفس وقضوا حياتهم فى اجواء من الصخب والجلبة ولم يألفوا من فنون القتال سوى حركات الكر والفر والفروسية ، هذا الى انهم وجدوا فى تعليمهم على ايدى ضباط من الافرنج حطة لشأنهم واحتقارا لماضيهم العسكرى ولمنبتهم الاصلى الذى خرج منه فحول القواد العسكريين الذين سيطروا على العالم كجنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو ، لذلك بادروا بالتمرد والعصيان وامتنعوا عن تلقى الدروس وكادوا يفتكون بمدير المعهد غيلة وغدرا .

وكان هذا الحادث سببا فى التفكير فى افتتاح سلسلة من المدارس والمعاهد العسكرية التى تلقن الطلاب فنون الحرب وما يتصل بها من مواد الرياضيات والهندسة واللغات وتدريبهم على الانظمة العسكرية واعدادهم لتولى مقاليد الجيش الحديث . فكانت أولى المدارس العسكرية التى انشئت لهذا الفرض — بعد معهد اسوان — مدرسة اعدادية فى قصر العينى تؤهل طلابها للالتحاق بالمدارس العسكرية والبحرية « ١٨٢٥ » ثم تبعها تأسيس مدرستى المشاة واركان الحرب فى الخانقاه ، فمدرسة الفرسان فى الجيزة ، فمدرسة المدفعية فى طره ، فمدرسة الموسيقى العسكرية ، فالمدرسة البحرية ومدارس الاسطول فى الاسكندرية .

وعلى الرغم مما لاقته حركة تجنيد المصريين من نفور وسخط بين الطبقات ، ومع لجوء الحكومة الى القبض على الفلاحين فى القرى بأساليب بشعة وسوقهم قسرا الى المعسكرات فى المدن ، فقد اثمرت هذه الحركة فيما بعد ، ولم يلبث ان الف المصريون حياة الجندية لما تحمله فى طواياها من مظهر خلاب وحياة رغدة .

وكما ان مصر سبقت البلدان الاسلامية الى تأسيس جامعةلعلوم الفقه والدين ودراسة اديبات اللغة العربية ممثلة فى الازهر ، كذلك سبقتها الى انشاء طائفة من المعاهد العلمية والمدارس الراقية المؤسسة على الطراز الغربى ، وتحت الاشراف الاوربى المباشر ، فكانت هذه المدارس تسير فى نظمها وفى مناهجها وفق الاساليب العصرية .

كانت اولى هذه المعاهد مدرسة الهندسة « الدرسخانة » التى فتحت ابوابها للطلاب فى غضون عام ١٨١٦ ، وكان الفرض منها اعداد طبقة من الشبان المتعلمين للقيام بتنفيذ مشروعات الرى ومرافق العمران وتغذية دور الصناعة بعنصر صالح يتلقى معلومات وفق المبادىء العلمية .

وفى عام ١٨٢٧ خطت نهضة التعليم خطوة موفقة بانشاء مدرسة الطب التى وكل امرها الى الدكتور كلوت بك الفرنسى . وكان الفرض من انشاء هذه المدرسة سد حاجة الجيش من اطباء وجراحين ، وكانت اهم عقبة اعترضت مدير المدرسة جهل الاساتذة — وكانوا من الفرنسيين والايطاليين — باللغة العربية ، اما الطلاب الذين وقع الاختيار عليهم فكانوا من بين طلاب الازهر وكانوا يجهلون اية لغة اخرى سوى العربية . لذلك استعان كلوت بك بطائفة من المترجمين ليكونوا واسطة بين الاستاذ والتلميذ ، فيتلقون عن الاستاذ الدروس والمحاضرات بالفرنسية او الايطالية ثم ينقلونها بدورهم الى الطلاب بالعربية .

وكان المترجمون خليطا من السوريين والارمن والمتمصرين ، وقد عانوا الكثير من الجهد والمصاعب للاضطلاع بمهمتهم ، نظرا الى انه لم تكن لهم دراية سابقة بالعلوم التى يعهد اليهم بنقلها الى العربية ، واخيرا رئى أن يعاونهم فريق من علماء الازهر ، فكانوا يقومون بتصحيح الدروس من الوجهة اللغوية ويمدون المترجمين بخبرتهم فيما يشكل عليهم استيعابه وما يغلق عليهم فهمه من المفردات والمصطلحات . وكان جل اعتماد هؤلاء المحررين على مفردات ابن البيطار والقانون لابن سينا وكليات بن رشد وتذكرة داوود ، وعلى طائفة اخرى من الكتب العلمية فى عصر العباسيين ، لاستخلاص المصطلحات الطبية والعلاجية . وليس من شك فى أن هؤلاءالمترجمين واولئك المحررين لم يقتصر عملهم على الوساطة بين الاساتذة والطلاب ، بل انهم تعاونوا معا على احياء المصطلحات العربية

القديمة ، ووضعوا مرادفات اخرى مشتقة من الالفاظ الافرنجية ، ثم تكونت فيما بعد لجنة من بينهم أخذت على عاتقها تسهيل ترجمة المؤلفات الطبية ووضعت معجما يربو عدد كلماته على ستة الاف كلمة ، بل أن بعضهم قاموا بترجمة طائفة من المؤلفات فى الطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والرياضة وذهب بعضهم الى ابعد من هذا فقام بتأليف الكتب العلمية والتدريس بها .

وفى فترات متباينة ، انشات الحكومة طائفة من المعاهد العلمية مثل « مدرسة المارستان » لاعداد طلاب يصلحون للالتحاق بمدرسة الطب ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة البيطرة ، ومدرسة الادارة ، ومدرسة الالسن ، ومجموعة من المدارس الفنية والزراعية والصناعية ، ثم مدرسة الولادة التى الحق بها فى بادىء الامر عدد من الجوارى الحبشيات والخصيان ثم تهافتت على دخولها طائفة من الفتيات المصريات .

اما المدارس الابتدائية فكان عددها يتراوح ما بين ٤٥ و ٥٠ مدرسة منتشرة فى المدن وعواصم الاقاليم ، وكانت هناك مدرستان ثانويتان فى كل من القاهرة والاسكندرية ، وعشرات من المدارس الاولية التى قامت فى القرى والدساكر لنشر الوان العلم بين الصبيان وتهيئة المبرزين منهم للالتحاق بالمعاهد العالية .

وكانت الحكومة تجرى على سياسة جمع الطلاب لمدارسها بالطريقة نفسها التى تعبىء بها الجنود لتكوين القوات العسكرية .. كان الجيش فى نظر الشعب يمثل الغربة والبعد عن الاهل ويصور حياة الاذلال والطاعة العمياء . وكذلك المدارس ، كانت الحكومة تجمع الطلاب لها ، فتخصص لكل اقليم تقديم عدد معين من الطلاب وتعهد الى رجال الادارة جمعهم ونزعهم من احضان ذويهم ثم تدخلهم الى المدارس قسرا وتخضعهم لنفس النظام الذى تعامل به جنودها ، فتتولى طعامهم وكسائهم والاشراف على صحتهم ، وتدريبهم على النظم العسكرية ، وتمنحهم مرتبات شهرية وتميز المبرزين منهم بالشارات والالقاب العسكرية . ومن هنا كان فريق من المصريين يحجمون عن الحاق ابنائهم بالمدارس ، ولم يتقدموا الى التعليم الحديث عن رغبة وطواعية الا حين ادركوا ان الغرض منه هو تولى المناصب وكسب الجاه والزهو بالمعرفة .

فنهضة التعليم اذن كانت نهضة قومية بحتة ، قامت على عاتق الشعب ، وكانت ترمى الى ترقية المدارك وتوسيع آفاق الفكر ونشر ضروب الثقافة .

وقد ازالت النهضة التعليمية الفوارق بين الطبقات وعممت روح المساواة ، فقد كان ابناء الاثرياء يتلقون دروسهم الى جانب ابناء الفقراء ، وكان المسيحيون والمتمصرون يتعلمون مع المسلمين والمصريين ، والذين انحدروا من بيئات عثمانية او ارستقراطية لا يأنفون من الجلوس الى جانب غيرهم من الفلاحين .

وبعد ان كانت شئون التعليم تتبع « ديوان الجهادية » فى القلعة نظرا الى أن الباعث الاول على انشاءالمدارس كان حربيا بحتا ، كما ان الصبغة الغالبة عليه هى الصبغة العسكرية . صار التعليم يتبع ادارة جديدة مستقلة هى « ديوان المدارس » بقصر الدفتردار بالازبكية ، ونيط بهذا الادارة الجديدة مهمة نشر الوان العلم ووضع لوائح التعليم وتحديد خطط الدراسة ومكافحة الامية وتعيين الاماكن للطلاب والاشراف على الامتحانات .

وعلى اثر ابرام معاهدة لندن وتحديد مركز الدولى وانقاص عدد الجيش اغلق الكثير من المعاهد العلمية وتضاءل عدد المدارس الى حد لم يصبح فيه سوى مدرسة ابتدائية واحدة ومدرسة ثانوية ، والمدرسة الحربية فى القلعة ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة ومدرسة بحرية فى الاسكندرية وكانت جميعها فى حالة من الفوضى والاهمال. وما لبثت الرجعية أن نشبت أظافرها فى النهضة التعليمية ووجدت مرتعا خصيبا لنفث سمومها اذ انها عدوة الجهل ، حليفة الجهل والجمود .

وكان لرواج الحالة الاقتصادية وتدفق الثروة نتيجة ارتفاع أسعار القطن على اثر نشوب الحرب الامريكية الاهلية واستيطان الجاليات الاجنبية وادى النيل اثرها فى اعادة افتتاح دور العلم والتوسع فيها وخلق بيئة صالحة من صفوة المتعلمين . فخطت نهضة التعليم خطوة موفقة وتناولت جميع المظاهر من من التعليم الدينى الى التعليم العصرى فى مدارس الحكومة والاوقاف وقامت الجمعيات والافراد بتأسيس مدراس للبنين والبنات على نسق ماانشأته الحكومة منها ، وعنيت الطوائف الدينية والارساليات التبشيرية والجاليات الاجنبية بتأسيس مدارس لها فى انحاء البلاد كافة .

على انه كان للاضطرابات المالية التى رزئت بها مصر تاثير سلبى فى نشر أنواع التعليم اذ تضاءلت الاعتمادات المرصودة على هذه الغاية ، وبعد أن كانت ميزانية التعليم نحو ٨٢ الف جنيه اخذ النقص يتسرب اليها حتى هبطت فى بعض السنوات الى نصف هذا المبلغ ، وكان من بواعث هذا النقص انصراف الحكومة عن الاهتمام بشئون التعليم .

وقد انشئت مدرسة للغات القديمة — او — اللسان المصرى ، فى عام ١٨٦٩ لتعليم اللغات المصرية القديمة والحبشية ، والكتابة الهيروغليفية والحضارة القديمة . وكان مقرها سراى الشرقاوى ببولاق ، ودعى لفيف من جهابذة علماء المصرولوجية للتدريس بها وعلى راسهم هنرى بروختشن الالمانى ، وكان من اساتذتها المعلم ميخائيل القبطى مدرس اللغة الحبشية ، وقد تخرج فى هذه المدرسة طائفة من نوابغ الاثريين الذين كشفوا النقاب عن مصر القديمة وفى طليعتهم احمد نجيب واحمد كمال من علماء الآثار .

وكذلك انشأ على مبارك مدرسة دار العلوم « ١٨٧٢ » لرفع مستوى تعليم اللغة العربية وتخريج فئة من المدرسين المتشبعين بمبادىء التدريس على النمط الحديث ، وروعى ان يختار طلبتها من بين المتقدمين فى الازهر ، وان يزودوا فى دراستهم بالعلوم العربية والشرعية والعلوم الحديثة كالرياضات والتاريخ والجغرافية مع التوسع فى دراسة علوم الازهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه ليجمعوا بذلك بين قديم العلم وحديثه .

ويعد انشاء هذه الدار من الخدمات الجليلة التى اسداها على مبارك لاحياء اللغة العربية وآدابها ، فقد انبث خريجوها فى المدارس يلقنون النشء مبادىء اللغة وادبياتها وانتشروا فى المنتديات والمدارس ودور الصحف ، يعلمون ويكتبون ويخطبون وينظمون الشعر ، وعلى أيديهم تخرج مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتبة الدواوين ، وما من كاتب أو شاعر او خطيب الا وهو غرس ثمارهم ونتاج جهودهم ونشاطهم ودأبهم .

• ● •

وكان للبعوث العلمية مظهر سام وصفة منظمة فى تاريخ مصر الحديث ، وفى الوسع أن نتبين مدى اهميتها فى تكوين اصول الثقافة

اذا رجعنا الى الرسائل التى قدمها شباب العلماء الى الجامعات لا سيما الفرنسية منها ، واذا القينا نظرة فاحصة على جهود نخبة الاطباء والمهندسين والمعلمين والضباط الذين عادوا من ربوع الغرب وتوفروا على ترجمة المؤلفات القيمة فى مختلف العلوم والفنون والآداب .

كان الباعث الذى حدا بالحكومة الى ايفاد الطلاب الى جامعات الغرب ماظهر من عقم الطريقة التى اتبعت فى مدارس الطب والهندسة والمحاسبة وغيرها من المعاهد العالية ، اى الاستعانة بمترجمين يتولون نقل محاضرات الاساتذة ودروسهم الى الطلاب ، فقد كان يعتور شروح هؤلاء المترجمين اخطاء وعيوب فنية لجهلهم المادة التى يترجمون دروسها ، وكان الاستعانة بمصححين من الازهر من الامور التى لم يحمد عقباها نظرا للتفاوت بين الافكار . ومن الطبيعى ان مثل هذه الحالة لم تؤد الى الغاية المنشودة من التعليم لفقد الصلة العقلية بين الاساتذة والطلاب .

لذلك رات الحكومة بناء على مشورة العلامة جومار الفرنسى ضرورة ايفاد بعثات الى الجامعات الاوربية ، تتلقى مبادىء العلوم وتتزود من ثقافة الغرب وتحذق فنونه ومعارفه وتتجانس عقلية افرادها مع عقلية المتعلمين الاوربيين ، ثم تعود الى مصر لتحل محل المدرسين الاجانب وتشترك فى توجيه جهاز الدولة وتسهم بنصيب فى النهضة الثقافية .

وكان اول ما اتجه اليه التفكير ايفاد بعثة من طلاب الازهر ومن ابناء المماليك والمتمصرين الى ايطاليا ، فقد كانت الثقافة الايطالية متفشية فى مصر ، وكان للايطاليين مناطق نفوذ فى الشرق منذ عصر جمهورية البندقية ، وكانت اللغة الايطالية تدرس فى بضعة معاهد عالية فى القاهرة وتتداولها السنة الطلاب ، وكان اساتذة الرياضة والعلوم والفنون فى هذه المعاهد من عنصر ايطالى . بل ان الادارة الصحية والمدربين العسكريين فى الجيش المصرى كانوا من ايطاليا ، هذا الى ان المؤلفات الايطالية كانت فى مقدمة ما نقل الى العربية فى ذلك العصر .

لهذه الاسباب ولغيرها اوفدت البعثة المصرية الاولى الى ميلانو « ١٨١٣ » وكان من ابرز اعضائها نقولا مسابكى ومعه ثلاثة آخرون مارسوا دراسة فن الطباعة علميا وعمليا ثم عادوا الى مصر بعد سنوات اربع ومعهم آلات طباعة وقوالب حروف عربية .

ولكن الفرنسيين لم يلبثوا ان تغلبوا على الايطاليين واحتلوا المركز الثقافى الذى يشغلونه ، وسرعان ما انكمش النفوذ الايطالى وتقلص ظل الثقافة الايطالية ، وحلت محلها الثقافة الفرنسية وجعلت اللغة الفرنسية من المواد الاساسية فى برامج التعليم وتحولت ميول الجيل الجديد الى التزود من معين هذه الثقافة ، وزاد من شانها ان مصر كانت مقبلة على اقتباس الكثير من النظم السياسية والادارية والاقتصادية عن فرنسا .

وعلى هذا الاساس اوفدت البعثة الثالثة الى فرنسا وهى تعد اخطر البعثات العلمية شانا فى حياة المجتمع المصرى ، فقد كانت تضم ٤٤ عضوا سافروا الى باريس « ١٨٢٦ » وخصصوا لدراسة مختلف العلوم والفنون والاداب ، فمنهم من اختص بدراسة الترجمة او الطباعة او الكيمياء او التاريخ الطبيعى او الادارة او الفنون العسكرية او الطب .

وقد هبط افراد هذه البعثة ثرى فرنسا ولم يكن بينهم من يحسن التكلم باللغة الفرنسية ، فافردت لهم مدرسة خاصة عرفت باسم « المدرسة المصرية بباريس » حيث تلقوا فيها مبادىء اللغة الفرنسية ودرسوا موادا فى التاريخ والحساب والهندسة . ومما يدل ابلغ الدلالة على اهتمام حكومة فرنسا بهذه المدرسة انها جعلتها تحت رعاية وزير حربيتها واشراف العلامة جومار الذى عرفته مصر صديقا لها منذ ايام الحملة الفرنسية .

وتوالى ايفاد البعوث العلمية عقب ذلك فمنها ما كان يحل بالمانيا او ايطاليا او فرنسا ، ومنها بعثات صناعية وعسكرية اوفدت الى النمسا واخرى بحرية وفنية درس افرادها فى انجلترا .

وليس من شك فى ان هؤلاء المبعوثين الذين عبوا من ينابيع الثقافة الغربية واشربت نفوسهم صفات الجد والعزم ، وتمسكوا بحرية الفكر التى امتاز بها رجال اوربا ، كانوا نواة النهضة وقادة الراى وطليعة الجيل ، فقد آبوا من ربوع الغرب ، وصقلوا افكارهم بما درسوه وحذقوه من العلوم والفنون ، فنفثوا فى المجتمع قبسا من روحهم واغدقوا عليه فيضا من علمهم ونشروا بين طوائف الشعب تعاليم اوربا وانماطها فى العلم ومنهجها فى الدرس ونظمها فى الادارة ، وكانوا اشبه بمنار يتلقى ضياءه من الغرب ويعكسه على وادى النيل .

والواقع ان هؤلاء المبعوثين كانوا بمثابة برزخ بين الحضارتين الشرقية والغربية ، وهمزة الوصل بين القديم والجديد ، فقد

استروحوا نسمات الحياة فى ربوع وطنهم ورضعوا لبان المجتمع الاسلامى والشرقى فحافظوا على تقاليده واستمسكوا بفضائله ، ثم نزحوا الى الغرب فنهلوا من ورده وافادوا من تجاربه وكشفوا عن بواعث رقيه ونهضته وتسابقوا فى مضمار التقدم العلمى والاجتماعى ، فلما انفسح المجال امامهم كانت تجاربهم فى الحياة قد نضجت فاستطاعوا ان يوفقوا بين الحضارتين وان يصطنعوا من هذا المزيج خميرة الثقافة العربية الحديثة .

وكان من اثر هذا المزج ظهور مدرسة جديدة فى الفكر المصرى ، تلك المدرسة القائمة على ثقافتين اصيلتين ، احداهما تمثل الثقافة العربية وقوامها النقاش والجدل والاستناد الى اصول الدين وعلوم العرب وجامعة الاسلام ، والاخرى تمثل الثقافة الغربية القائمة على التفكير المنظم والتبويب العلمى والمنطق الصحيح ، ومحاولة تمثيل الحضارة الغربية لتحويل الصالح منها الى كيانهم الاجتماعى .

وكانت هذه المدرسة المصرية الصميمة اول من نادت بفكرة تأسيس امبراطورية عربية تكون القاهرة قاعدتها واحياء القومية المصرية ، كما كانت الصلة التى ربطت بين مصر العربية الى تستمد حياتها الثقافية من معارف الاولين وبين مصر الحديثة التى ترنو بابصارها نحو المستقبل وتشق طريقها الى الحياة بعزم صادق وقدم راسخة .

• ● •

واتخذت الترجمة كوسيلة من وسائل احياء الثقافة وتنمية المدارك والافهام . وقد كانت الترجمة ولاتزال عنصرا من عناصر الحياة الفكرية فى وادى النيل ، وبرزت جهود هذه المدرسة فى حلبة النقل والمحاكاة والاقتباس اكثر منها فى مضمار التاليف والابتكار .

والواقع ان الذين توفروا على نقل آثار الغرب وعلومه وفنونه ، افادوا الحركة العلمية بطريق غير مباشر ، فقد كانت المؤلفات المترجمة بمثابة الينابيع الرئيسية التى انتشرت معها الافكار الاوربية ، وكان من المحتم ان تتجه ميول اشتات المترجمين من أعضاء البعوث العلمية الى الثقافة الغربية وتأثرهم بالحركات السياسية والاجتماعية التى لمسوها فى ربوع الغرب ، وقوى فيهم هذا الميل اطلاعهم على لباب الادب الفرنسى وعلى الحركات الديمقراطية التى قامت فى فرنسا فى سبيل الحرية والمساواة ، فهم كانوا طلاب اصلاح سياسى واجتماعى الى جانب التطور العقلى المنشود .

وقد ارتبطت حركة الترجمة بنشر التعليم والطباعة . وبدأت هذه الحركة فى اواسط عام ١٨٢٠ حين ارادت الحكومة تزويد الرجال العسكريين بالمؤلفات التى تبحث فى شتى الفنون الحربية ، ثم انتقلت هذه الحركة الى مدرسة الطب فالهندسة فالمعاهد العلمية الاخرى .

ولمدرسة الالسن التى اشار بتاسيسها رفاعة رافع الطهطاوى الفضل فى بعث حركة الترجمة وتركت آثارا بارزة فى التطور العقلى الذى تمتعت به مصر زمنا .

وقد عرفت هذه المدرسة فى بداية امرها باسم «مدرسة الترجمة» ثم استبدلت باسمها الذى اشتهرت به فيما بعد . وفتحت ابوابها للرعيل الاول من الطلاب وعددهم ٥٠ طالبا ، اما الغرض من تأسيسها فهو اعداد طبقة من المترجمين يعملون فى دواوين الحكومة ويحلون محل الاجانب ، ويضطلعون باعباء نقل العلوم الحديثة وآدابها ، وتزويد المدارس بطائفة من المدرسين الذين يصلحون لتدريس مادة الترجمة .

وكانت المواد التى تدرس فى هذه المدرسة هى : التاريخ والقصص والادب والجغرافية والرياضة ، واللغات : العربية والفرنسية والايطالية والانجليزية والتركية والفارسية .

وانشئت بها عدة شعب منها : شعبة لدراسة الفقه والشريعة لتخريج طائفة من القضاة . وشعبة لدراسة الادارة الملكية ، كما الحقت بالمدرسة مكتبة حافلة بشتى الوان الكتب .

وقد قام بتدريس اللغة العربية فريق من علماء الازهر كالشيخ محمد قطة العدوى واحمد عبد الرحيم الطهطاوى وعبد المنعم الجرجاوى والدمنهورى وحسانين الغمراوى وعلى الفرغلى الانصارى . وتولى تدريس الشريعة الشيخ خليل الرشيدى ومحمد المنصورى . واخذ رفاعه الطهطاوى على عاتقه مهمة تدريس فنون الادب والقاء دروس فى المقارنة بين الشريعتين الاسلامية والغربية .

ونحن نفهم ان تدريس اللغات الاوربية كان يحتل الصدارة من اهتمام القائمين بالامر نظرا لحاجة المدارس الى طائفة من كتب المواد الحديثة ، وحاجة الجيش والمدارس العسكرية الى المؤلفات التى تبحث فى الفنون الحربية ، وحاجة المصانع الى كتب الكيمياء حتى يكون الصناع فى مستوى ارقى بكثير من غيرهم . اما تدريس اللغتين

التركية والفارسية فلم يكن لهما ارتباط البتة بالغرض الاساسى الذى انشئت من اجله مدرسة الالسن ، وانما تقرر تدريسهما بالنسبة الى أن اللغة التركية كانت لغة الهيئة الحاكمة والطبقة العالية ، وكانت المكاتبات الرسمية تحرر بها ، كما كانت دار الطباعة ببولاق تقوم على طبع الكثير من مؤلفاتها ، وكانت صحيفة الحكومة الرسمية « الوقائع » تحرر موادها بها ، لهذا احتلت اللغة التركية مكانة خطيرة فى برامج الدراسة وعنى بدراستها عناية ملحوظة .

أما الفارسية فهى متصلة بالتركية بصلات لغوية وثقافية وتاريخية ، فقد كان العثمانيون ومن يمت اليهم بوشيجة من العرق والنسب تلوك السنتهم الفارسية ، وكانوا يفرضون على ابنائهم دراستها ويحثونهم على مطالعة فرائدها .

والواقع أن كلا من الثقافتين الغربية الحديثة والشرقية التقليدية التقيتا فى « مدرسة الالسن » وكان طلابها انفسهم مزيجا من هاتين الثقافتين .

وفى غضون عام ١٨٤١ أنشئت شعبة فنية عرفت باسم « قلم الترجمة » والحقت بمدرسة الالسن لغرض تزويد دور العلم والمدارس بما تحتاجه من كتب المواد الحديثة . وقسمت هذه الادارة الفنية الى اقسام أربعة :

الاول لترجمة العلوم الرياضية .. والثانى لترجمة العلوم الطبية والطبيعية . والثالث لترجمة الادبيات كاسفار التاريخ والقصص والقوانين والجغرافية . والرابع خاص بالترجمة التركية .

وكان عدد المترجمين فى هذه الادارة يتراوح ما بين الاربعين والستين مترجما ، يعاونهم نفر من المصححين والنساخين ، واستقبلت مصر بفضل تعاونهم وجهودهم المثمرة اشتاتا من المؤلفات فى العلوم والآداب .

وقد تبع حركة الترجمة حركة أخرى تهدف الى وضع سلسلة من المعاجم اللغوية ، فاستهل هذه الحركة رفاعة الطهطاوى حين اخذ يذيل معظم الكتب التى يقوم على ترجمتها بجدول ابجدى يشرح فيه غوامض الالفاظ الافرنجية الواردة فى صلب الكتاب ، ويتولى شرحها شرحا مبسطا ، ثم حذا حذوه بقية تلاميذه فى الكتب التى تولوا نقلها الى اللغة العربية .

• ● •

تعد شخصية رفاعة الطهطاوى من ابرز الشخصيات العلمية فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهو بحق امام النهضة العلمية والادبية وزعيم من زعماءالاتجاه الجديد ، ومن الافراد القلائل الذين حملوا الى ربوع وطنهم رسالة فكرية سامية تفيض بالحياة وبعناصر القوة والنضوج .

وقد جمع رفاعة بين ثقافة الشرق الاسلامى وبين العقليةالغربية المبوبة ، فطوى صدر شبابه فى الازهر ، يستقى من معين الثقافة الشرقية ، وتلقى العلم عن أديب عصره حسن العطار شيخ الازهر ، ثم اتجه بتفكيره الى دراسة العلوم العصرية المتصلة بالادب كالتاريخ والجغرافية ، وامتاز فى مراحل دراسته بالدأب على التحصيل ، وتفتحت آفاق ذهنه على شتى الصور والفنون الادبية .. ثم تهيأت الاسباب ليكون اماما للبعثة العلمية الثالثة التى اوفدت الى فرنسا ، فلم يقنع بهذا المنصب كغيره من الأئمة الثلاثة الذين زاملوه ، بل راح يستثمر مواهبه وينمى محصوله الفكرى ، فتعلم مبادىء اللغة الفرنسية حتى برز فيها ، واكب على العلوم يعب من ينابيعها ، واتجهت ميوله الى دراسة الادب الفرنسى والفلسفة والاجتماع فاصاب منها حظا وافرا ، ثم تخصص فى فن الترجمة ونقل الى العربية عدة رسائل كانت محور الامتحان الذى نال به درجته الجامعية من باريس .

وانتهز رفاعة فرصة السنوات الست التى قضاها فى فرنسا ، فطوف بشتى أنحائها ، وتفقد مؤسساتها العلمية ودور كتبها ومسارحها وساجل علماءها ، وعكف على دراسة النظم الاجتماعية فيها ، وبواعث نهضة الغرب ومدى تقدمه فى مضمار العلوم والفنون ، ثم راح يوازن بين حالة الغرب والحالة التى كان عليها العرب فى ابان مجدهم وفتوحاتهم ، وكان ذهنه دائما مشغولا بكلمات خمس : مصر ، العرب ، الاسلام ، فرنسا ، النصرانية ، يستخدمها فى نظراته واحكامه .

وفى اثناء اقامته فى باريس تعرف الى طائفة من المستعربين ومنهم البارون سيلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال وافاد منهم فائدة تجلت آثارها فى دراسته وفى بعض المشروعات الادبية التى أقدم على تنفيذها ، كما انتفعوا هم من علمه ومن معلوماته الثمينة فى الادب العربى .

كان رفاعة يقدر لهؤلاء المستعربين خدمتهم اللغة العربية وهم ليسوا من ابنائها ، وكان معجبا بما يقومون على طبعه ونشره من امهات الكتب والمراجع والمظان التاريخية والادبية . وقد اثمر هذا الاعجاب بعد حين ، حين هيات له الظروف أن يؤسس « القسم الادبى » ، بمطبعة بولاق ، وهو القسم الذى اخرج باكورة الاسفار التاريخية وكتب الفقه واللغة والادب والمعاجم .

ولقد بقى رفاعة متأثرا بكل ما هو فرنسى ، وظهر انطباع الثقافة الغربية فى كل ما ترجمه ونشره فى الادب مثل « اندروماك » او فى الشعر مثل « نشيد المارسيلييز » ، على أن هذا التأثر لم يتعد طور الاخيلة وبعض الافكار ، فقد ظل ينظم الشعر العربى التقليدى ويجرى فى اسلوبه ومنهجه على نمط القدماء . ولمس وهو فى باريس اعظم حركة قامت فى الادب الفرنسى وهى حركة الرومانتسم ولكنه لم يعن بها بحيث لا نجد لها اثرا فى كل ما كتبه ، وكانت ثورة سنة ١٨٣٠ تجتاح فرنسا ، والابحاث الدستورية والمبادىء الديمقراطية تشغل الاذهان ، و « الاوامر » التى اصدرها شارل العاشر ملك فرنسا من الشئون التى اقلقت البال ، وكان من الطبيعى أن نجد اثر ما لمسه وشاهده بعد أن يدرسه ويستقصى اصوله ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك .

وحين عاد رفاعة الى مصر اصبح عاملا قويا فى الحركتين التعليمية والادبية ، كانت رسالته الكبرى أن يغزو الجهل ويمحو الامية ويسمو بالنهضة الثقافية الى الاوج . وهنا يبدو لنا اثره كامام من ائمة التعليم ، فقد زاول تدريس اللغة الفرنسية لطلاب المدارس العالية ، وعمل مترجما فى مدرسة الطب ، واستطاع أن ينفخ فى الطلاب روحا وثابة احسوا اثرها ، فالتف حوله امثال محمد على البقلى الذى اصبح من اعلام الطب ، وانتفعوا بثمرات علمه وأدبه . ثم نقل الى مدرسة المدفعية فى طره ، وعهد اليه بترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية،ثم نقل الى المدرسة التجهيزيةفىابىزعبل

ووجد رفاعة أن مصر بحاجة الى طبقة من العلماء الاكفاء فى الآداب والفنون ، يحلون محل الاجانب الذين يجهلون روح مصر الحقيقية وعاداتها وتقاليدها ويتعامون عن مقاصد الحكومة الناشئة

وقد يضعون العراقيل فى سبيل تقدمها ونهوضها ، فضلاً عن انهم لا يتفاهمون بلغة اهلها . ففكر فى تربية نخبة صالحة من المصريين تؤهلهم مداركهم للاضطلاع بالاعباء العامة ، وان يكونوا فى المستقبل واسطة فى نقل الاساليب العصرية واقتباس علوم الغرب وفنونه وتطبيق الصالح منها على وطنهم ليصبح فى مصاف الدول العظمى ، وعلى هذا تقدم بمشروع انشاء « مدرسة الالسن » التى لم تكن فى الواقع سوى كلية للاداب والحقوق .

كانت سنى حياة هذا العالم مملوءة بالانتاج الخصب والعمل المتواصل ، فتفرغ للكتابة والتاليف ، وساعد على نشر افكار الحضارة والرقى وتثقيف الجيل الجديد ثقافة صالحة، وخدم الحركة الادبية عن طريق ترجمة طائفة من الكتب الشائعة فى عصره .

وقد تقلب فى عدة مناصب واسندت اليه شئون خطيرة تتعلق بنشر الثقافة ، وتنقل بين مختلف البيئات ، فكان مديرا لقسم الترجمة ومحررا لصحيفة « الوقائع المصرية » نحو خمسة عشر عاما استطاع فى خلالها ان يفرض شخصيته على الصحيفة الرسمية وان يصبغها بطابع مصرى ، ثم تولى التفتيش على المدارس والاشراف على تنقيح برامجها وامتحاناتها ، واسس دار الكتب الملحقة بمدرسة الالسن ، وفى الاجمال فقد وجه مصر من النواحى التعليمية والثقافية توجيها مثمرا .

وبدت جراته ومبلغ تاثره بما لمسه فى ديار الغرب حين جاهر بضرورة تعليم المراة لتكون اما فاضلة وزوجة رءوم ، واوضح ماينبغى عليها ان تقوم به من نصيب فى المساهمة للنهوض بالمجتمع .

وقد اسس رفاعة اول مدرسة فى الفكر المصرى الحديث ، وانتشر تلاميذه ومريدوه فى كل ركن من اركان البلاد يبثون تعاليمه ويذيعون رسالته وينهجون نهجه ويضع كل منهم لبنة فى صرح النهضة ، وليس من شك فى ان الكتب التى الفوها او ترجموها هى خميرة النهضة وشارة رقيها .

وكان لاتباعه اثر عميق فى تيار الحركة الفكرية ، فقد شغلوا مناصب التدريس فى المدارس والمعاهد العلمية واسندت اليهم وظائف مترجمين فى الدوائر الحكومية وعين البعض منهم قضاة ، وتكونت منهم الشعبة الفنية التى عرفت باسم « قلم الترجمة » .

ومن اتباع رفاعة الجدير التنويه بهم : خليفة محمود الذى صار

رئيسا للشعبة الخاصة بترجمة كتب الادب والتاريخ والقصص والجغرافية فى قلم الترجمة . واحمد عبيد الذى صار رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية . وابراهيم مرزوق الشاعر . وعبد الله ابو السعود الذى صار فيما بعد من اعلام الادب والصحافة فى عصره ، والسيد صالح مجدى الساعد الايمن لرفاعة فى تحرير صحيفة « روضة المدارس » ومترجم طائفة من المؤلفات العلمية فى الهندسة والفلك والرياضيات والقانون . ومحمد قدرى الذى نبه ذكره فى ترجمة قانون العقوبات وتقنينه ما فى الشريعة الاسلامية من نظم وقوانين فى الاحوال الشخصية والاوقاف الى غيرها من المؤلفات التى لا تغيب عن ذاكرة محام او قاض او رجل من رجال الشرع .

وهناك فئة اخرى تجلت مواهب افرادها فيما بعد ومنهم : محمد مصطفى البياع ، ومحمد عبد الرزاق ، ومصطفى سيد الزرابى .

ورأى عباس الاول ان يبعد رفاعة عن مصر على اثر ظهور طبعة من كتابه « تخليص الابريز » الذى يحوى آراء ومبادىء لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، فنفاه الى الخرطوم بحجة الاشراف على انشاء مدرسة ابتدائية بها ، واختار محمد بيومى استاذ الرياضيات فى مدرسة الهندسة ليعاونه فى مهمته ، وبعد ان قضى رفاعة سنوات ثلاثا فى السودان شغل نفسه خلالها بانشاء المدرسة وترجمة طائفة من المؤلفات الفرنسية عاد الى مصر عقب مصرع عباس واسترد زعامته العلمية وواصل تادية رسالته .

• • •

لم تتناول يد الاصلاح الازهر ، فظل قائما على نظامه العتيق ، محتفظا بشخصيته المستقلة وبمبادئه الخاصة فى التفكير ، بعيدا عن حركات التجديد والانشاء والتعمير . وقد انكرت النهضة حظ الازهر ولم تعطف عليه فتضاءل نفوذ شيوخه وزالت هيبتهم وضعفت كلمتهم واقصوا عن الاشتراك فى حركة التقدم والاصلاح .

وقد كان الازهر موطن النهضة القومية ومصدر الزعامة الشعبية وموئل الحياة الدينية ومنبع كل حركة ثقافية فى العالم الاسلامى ، وقد برزت قوته فى كل حالة احتكت فيها مصر بالاجنبى . وفضلا عن هذا وذاك فقد غذى الازهر النهضة العلمية فى بداية نشوئها وأمد الكنانة بطائفة من زعماء الاصلاح الذين شيدوا صرح النهضة القومية ،

وكان طلابه نواة مدارس الطب والهندسة والالسن ، وكان منهم شباب البعوث العلمية الذين قامت على اكتافهم دعامة مصر الحديثة، بل ان الذين اضطلعوا بقسط وافر من ترجمة المؤلفات الطبية الهندسية والفنية ، والذين اسهموا فى بعث التراث العربى واخراج الموسوعات والكتب والمراجع التى تولت مطبعة بولاق نشرها من رجال لازهر .

وكان نظار المدارس ومدرسو اللغة العربية وعلوم الدين والحساب ينتخبون من بين رجال الازهر ، وقد ظل تاثير الازهر الروحى مسيطرا على دور التعليم الحديثة ، فان كتب تعليم اللغة وقواعدها من نحو وصرف وبيان واصول الدين كانت هى نفسها الكتب التى تدرس فى الازهر .

هذا الى ان الازهر كان لا يزال يجذب اليه مئات الطلاب لا من مصر فحسب ، بل من ارجاء العالم الاسلامى ، تستهويهم الثقافة الدينية الخالصة ويلقون فى رحابه من الحرية الشخصية ما لا يجدونه فى المدارس حيث كان النظام السائد فيها لا يختلف عن النظام العسكرى .

ثم ان الازهر يحمى طلابه من الجندية ، وقد كانت الجندية بغيضة الى قلوب السواد الاعظم من الشعب ، وطالما عمد الفلاح الى سمل عينيه او كسر اصبعه او تشويه عضو من اعضاء بدنه حتى لا ينجح فى الكشف الطبى للانخراط فى سلك الجندية .

هكذا تضاءل نفوذ الازهر واختفت زعامته من الميدان ، بسبب انتقال مركز الثقافة الى المدارس التى اخذت تمد البلاد بطبقة من المتعلمين الذين اضطلعوا بأعباء الحياة العامة ، وظل الازهر على حاله ملازما جموده دون أن تبدو من رجاله بادرة توحى بمسايرة النهضة مسايرة تذكر .

ويبدو لنا انه كان لشخصية كل من الشيخين العباسى والعروسى دخل فى التغيير الذى طرأ على الازهر . ففى عام ١٨٧١ استصدر شيخ الازهر قانونا قصد به رفع مستوى الاساتذة والطلاب والزامهم بترقية مداركهم ومعلوماتهم توطئة للسير بهم فى مضمار الحياة الاجتماعية . واهم ما حواه هذا القانون : تحسين حال الاساتذة بتقرير رواتب ثابتة لهم وتعديل برامج الدراسة بادخال العلوم العصرية ، واداء الطلبة لامتحان عند اتمام الدراسة ومنحهم شهادة العالمية .

وأراد الشيخ العباسي ان يبعد عن الازهر العناصر التى لا تتميز بالكفاءة والجدارة ، واخذ التنافس والتشاحن على الامور التافهة يتلاشى بعد ان كان شائعا بين الطوائف الازهرية وتركزت الادارة فى يد شيخ الجامع ، بيد انه قام خصم عنيد قوي لحركة الاصلاح ، ذلك هو الشيخ محمد عليش فرفع لواء المعارضة والتف حوله خصوم الاصلاح ، وكانت حجتهم أن الاصلاحات القليلة التىادخلت الى الازهر مدنسة لحرمة هذا المكان المقدس .

وعلى الرغم من هذا وذاك فقد اقصى الأزهر عن محيط النهضة وتحرر التعليم الحديث فى المدارس من نفوذه ، فلم تعد الحكومة بحاجة الى خريجيه لتعليم النشء قواعد اللغة ومبادىء الدين فى المدارس ، واسست معهدا راقيا هو « دار العلوم » وجعلته بعيدا عن نظام الازهر وتقاليده ليكون منه مدرسين للغة والدين وقضاة فى المحاكم الشرعية . وبدأ خريجو دار العلوم يزاحمون الازهريين فى وضع كتب النحو والدين باسلوب يتفق وحاجة العصر فى التربية ، ويشغلون مناصب ، محررين ومصححين فى المطابع ، وبذا انقطعت الصلةبين الازهر وبين التعليم الحديث .

• ● •

ولم تلتفت مصر الى احياء فن الطباعة ، واستخدامه فى نشر الوان المعرفة الا بعد عشرين عاما من استرداد الحملة الفرنسية لأدوات الطباعة التى جلبتها معها الى مصر . ففى نهاية عام ١٨١٩ اسست مطبعة بولاق لنشر ما يحتاجه الجيش من كتب التعليم والتدريب ، واذاعة القوانين واللوائح العسكرية والادارية ، ثم اتسع نطاق العمل شيئا فشيئا فبدىء بطبع مجموعة من الكتب التركية والفارسية ، ثم توسعت دار الطباعة فى نشر مؤلفات شتى فى قواعد اللغة العربية والطب والصحة والرياضيات والطبيعة والكيمياء والزراعة والنبات والتاريخ والجغرافية والفلسفة والمنطق والفقه والدين .

ووقع الاختيار على طائفة من علماء الازهر بصفة « مصححين » لمراجعة هذه الكتب قبل الطبع وضبط الفاظها ومصطلحاتها وتقويم اسلوبها ، وليس من شك فى أن هؤلاء المصححين امتازوا فى عصرهم بثقافة أوسع من معاصريهم ، وقد اقتضاهم عملهم بين الكتب والمحابر والاقلام الاطلاع على اشتات من الكتب المترجمة فى شتى الفنون ومراجعة الكتب المخطوطة فى التاريخ والادب واللغة والفقه

او نسخها وتصحيح ما حرف منها عند النسخ ، فاتسعت بذلك آفاقهم وتنورت مداركهم ، وقد دفعهم هذا العمل الى ان يذيلوا خاتمة كل كتاب بتعليق او نظم قصيدة فى الغرض الذى وضع الكتاب من اجله ، فجرت بذلك اقلامهم ومرنوا على الانشاء والكتابة فى عصر عز فيه الادب وندر فيه الكاتب النابغة . وقد جاهد هؤلاء المصححون فى نشر اشتات من المخطوطات القيمة ، ولقوا فى تصحيحها ونسخها عنتا وعناء .

وكان انتاج مطبعة بولاق فى بادىء الامر عسكريا وتعليميا ، ثم تدرج الى نشر بعض الكتب الموضوعة واحياء التراث العربى ، وكان لمدرسة الالسن الفضل الاكبر فى تغذية دار الطباعة بطائفة من الكتب المترجمة ، منها ما يبحث فى تاريخ اوربا او احوالها السياسية والاجتماعية او نظمها الادارية ، ومنها كتب اخرى فى شتى الفنون والمعلومات العامة . اما اسفار الادب والموسوعات وامهات المظان والمراجع وكتب الفقه ودواوين الشعراء فقد تاخر طبعها . ويمكن ان تعد سنة ١٨٣٣ بداية نشر وتداول هذه الاسفار والكتب .

وفيما عدا مطبعة بولاق كانت توجد مطابع متناثرة هنا وهناك تملكها الدولة منها : مطبعة المدفعية فى طرة ، ومطبعة مدرسة الطب فى ابى زعبل ، ومطبعة الفرسان فى الجيزة ، ومطبعة القلعة ، ومطبعة راس التين بالاسكندرية وعدة مطابع حجرية بعضها تابع لوحدات الجيش والآخر للوحدات العسكرية .

وليس من شك فى ان ادخال الطباعة الى مصر قد احدث اثرا ولكن ليس كالاثر الذى احدثته المطبعة فى الغرب ابان عصر النهضة ، ولم تزد المطبعة على ان يسرت للدولة نشر الوان التعليم بين العسكريين وطوائف المدنيين فى المدارس ، وعممت التوسع فى العلم لطبقات الراغبين فى الاستزادة منه ، وحفظت للتاريخ اخبار الوقائع والاحداث الجارية ، ومهدت السبيل الى مطالعة مؤلفات بعضها فى الفقه والتفسير والآخر فى الادب والقصص حتى احس القراء ان وراء المخطوطات الضئيلة العدد التى كانت متداولة بين الخاصة منهم ؛ عالما يمور بالصور والافكار والالوان بعثته المطبعة فمنهم من ساير النهضة وآزرها بكل ما يملك من شباب وقوة ، اذ ادرك انها ستكون اداة فى نشر الوان المعرفة ووسيلة للتطور الذهنى ، ومنهم من وقف حائرا متشككا .

وفى وسعنا ان نحكم بوضوح على فضل الطباعة على الادب اذا

عرفنا انه للمرة الاولى فى تاريخ العربية، صار الادب قديمه وحديثه فى متناول راغبيه ، ونعنى بذلك ان الفنـــون الادبية أصبحت دانية القطوف بعـد ان كانت مؤلفاتها نادرة الوجـود ، باهظة التكاليف والثمن ، أكثرها من المخطوطات التى تقتنيها طبقة خاصة .

وبدلا من أن تكون المطبعة اداة فى فقد التوازن بين الافكار التقليدية الشائعة وبين فكر مستقيم منظم يمثه احياء تراث العرب وظهور طائفة من المؤلفات العلمية والادبية وغيرها مما نقله شباب العلمـاء مع ما نقلوه من الوان الحضارة الغربية ، فان المطبعة أسرفت فيما بعد فى نشر الأدب الوليـد الذى توفر اصحابه على صـناعة جمع الكلمات وتفريقها ورص الالفاظ على طريقة الرموز والطلاسم .

وكانت الصبغة التى اتسمت بظهور المطبعة توفر لفيف من الكتاب المقلدين على الانتاج التافه ، وهؤلاء الكتاب اخذوا يستمدون قوام حياتهم الادبية من بطون الكتب وصحف الاولين ، مرددين النغمـة نفسها دون ابتكار او توليـد حتى قضى اتصالهم بالادب القـديم وخضوعهم لتقاليده على كل نهضة فكرية تحريرية كان من المنتظر تحقيقها كما جرى فى الغـرب عقب انتشار الطبـاعة وازدهارها .

ولكن ليس هذا معنـاه ان المطبعـة وادت المـواهب وقضت على الكفايات أو انها صرفت الشباب عن استغلال المحصول الفكرى الذى حصلوا عليه من معاهد الغرب . كلا ! بل ان البعض منهم حين نقل الى العربية عشرات الكتب والاسفار احدث انقلابا طفيفا من الوجهة التفكيرية واكتسبت اللغة من المعانى والالفاظ ومن حرية ابداء الرأى ما صقل بعض المعتقدات وهذب من حواشيها .

واصلت دار الطباعة ببولاق تأدية رسالتها ، ولقيت عقبات فى ايام الوالى سعيد وعطلت اعمالها الى أن وهبها هدية الى أحد موظفيه ـ عبد الرحمن رشدى مدير الوابورات الميرية فى البحـر الاحمر ـ بما فيها من الآلات والادوات والورق والحبر . بيد ان هذا الموظف لم يحسن استغلالها فأعادها الى الدولة . ثم تقدمت دار الطبـاعة فيما بعد وادركت شأوا بعيـدا حتى اصبحت تضارع مثيلاتها فى الغرب حين تولى ادارتها حسين حسنى الذى كان له الفضل فى النهوض بها ، واستيعابها طبع كل ما تحتاجه الوزارات والمصـالح الحكومية والمدارس الى جانب تلبيتها طلبـات الجمهـور . واسس حسين حسنى الى جانبها مصـنعا للورق يغذى دوائر الحكومة ويصـدر الفائض منه الى الشام والحجاز والهند .

وتوسعت المطبعة فى متابعة اخراج اسفار الادب والتاريخ والفقه، كما كانت هناك هيئة ادبية باسم « جمعية المعارف » تضم ٦٦٠ عضوا من علماء الازهر ورجال الادب والعلم والصحافة بقصد احياء آثار الادب العربى القديم وتيسير نشره بين القراء واليها يرجع الفضل فى تغذية دار الطباعة ببولاق بنحو ثلاثين سفرا من امهات المراجع والمظان وكتب اللغة والادب .

واقدم الانبا كيرلس بطريق الاقباط على تاسيس مطبعة فى عام ١٨٦٠ جلب ادواتها من اوربا واختار لها بضعة شبان تدربوا على فنون الطباعة بمطبعة بولاق ، واحتفل بوصول ادوات هذه المطبعة الى القاهرة فى احتفال شائق فحملت على الاعناق فى موكب سار فيه القسس والشمامسة بالشموع . واطلق عليها اسم « المطبعة الاهلية القبطية » وخصصت للمطبوعات الدينية ثم للكتب الادبية والصحف .

على ان الاقدام الشخصى لم يلبث ان برز فى الميدان ، فتاسست مطبعة جريدة وادى النيل فى عام ١٨٦٦ وكانت تطبع فيها الى جانب الجريدة مجلة روضة المدارس ومجلة اركان حرب الجيش ، ثم تعددت المطابع على اثر اطلاق حرية المطبوعات فقامت فى القاهرة مطبعة جمعية المعارف والمطبعة الوهبية ، ونشرت الكثير من المؤلفات والصحف والمجلات .

• ● •

واسس على مبارك دار الكتب المصرية على نسق المكتبة الاهلية بباريس وسن لها اللوائح والقوانين التى تكفل بقاءها ونموها، واقام الى جانبها مطبعة حجرية ، واشتغل هو ومن معه فى التاليف والترجمة وتغذية هذه المكتبة وتلك المطبعة بثمرات قرائحهم .

ولم يكن فى مصر قبل ذلك دور عامة للكتب ، ولكن كان فى كل مسجد مكتبة خاصة تحت اشراف شيخ المسجد ، فمكتبة الازهر مثلا كانت تشمل عدة آلاف من المؤلفات الدينية ، وكذلك كان الحال فى المكتبات الملحقة بمساجد ابى الذهب وازبك وشيخون ، وكانت جميعا تستخدم فى الدرس والتدريس .

وكانت هناك مكتبات خاصة أكثر منها عامة مقرها ديوان المدارس وفى دور التعليم لكنها كانت موضوعة لمنفعة المدرسين والطلاب ، فلما انشا على مبارك دار الكتب المصرية فى سراى درب الجماميز نقل اليها اشتاتا من الكتب والمخطوطات التى كانت متناثرة

فى المساجد والتكايا وخزانة الاوقاف الاهلية وما عثر عليه فى مستودع للكتب تملكه الدولة فى بيت المال وبعض المكتبات الخاصة، وفتحت الدار ابوابها لعشاق البحث فى ٢٤ سبتمبر ١٨٧٠ ويسرت لهم الاطلاع والمطالعة .

وعلى مبارك يعد بحق ابا للمعارف المصرية وباعث نهضة التعليم، ومع انه لم يدرس على نظام مدارس المعلمين فقد خلق بفطرته مربيا للجيل ، فجاهد فى سبيل تكوين ثقافة قومية وترقية البيئة ،وكان يميل الى اساليب التعليم الغربى فاقتبس النظم السائدة فى مدارس فرنسا وعمل على تمصيرها ففاقت خطاه جميع الذين سبقوه وعاصروه .

وكان على مبارك ساخطا على نظم الازهر ، نافرا بطبعه السليم من اساليب التعليم فيه ، وشاركه سخطه عبد الله فكرى وعثمان جلال ،فاقدم على تأسيس « دار العلوم » ودعا الازهريين المستنيرين الى الالتحاق بها ليتفقهوا ويتزودوا من العلم على الطريقة العصرية ثم يتخرجوا ليعلموا النشء تعليما خاليا من الخرافات ، وليكون لهم حظ موفور فى تهذيب البيئة ونشر الفصحى بين المتعلمين .

وكان مؤمنا بضرورة التاليف والتوسع فى استيعاب المعارف العامة ، فاستخدم مواهبه فى تنفيذ هذه الرغبة وتحقيقها ، وكانت داره بمثابة ندوة يؤمها الكتاب والشعراء والطبقة المستنيرة ، فاخذ يبث فيهم النزعة العلمية والطموح الى المجد ، ويحضهم على تاليف الكتب وتصنيف الموسوعات ويشرف على التنفيذ اشرافا اقرب ما يكون الى تدوينه بنفسه فخلق بذلك مدرسة للفكر وللتاليف فى مختلف فروع الآداب والفنون .

ولم يكن على مبارك من كتاب الانشاء حتى يخشى ان يضيع مجهوده فى تصيد الالفاظ المهجورة واحتذاء اساليب الاولين وانما كان رجلا عمليا منتجا ، له نظرات صائبة فى التجديد وفى اقتباس العلوم العصرية كما يتضح فى مؤلفه الموسوم بعنوان « علم الدين » الذى يجمع الى الاسلوب العلمى والاخلاقى نخبة صالحة من المعلومات والمعارف العامة .

على ان عمله لم يقتصر على نشر روح العلم بل تعداه الى وضع موسوعة بعنوان «الخطط التوفيقية» جمع فيها تاريخ مصر وآثارها وجغرافيتها فى العصور القديمة والحديثة . ويعد الكتاب من هذه الناحية تكملة لخطط المقريزى ولكتاب « وصف مصر » الذى وضعه

علماء الحملة الفرنسية . فضلا عن انه يحتوى على اوصاف شاملة لمدن مصر وعواصمها وقراها فى اطوارها التاريخية ، ثم بيان ترعها وسواحلها وتخطيط كامل لاحياء القاهرة والاسكندرية مع تدوين تراجم البارزين من الوجوه والحكام والشعراء والادباء فهو من هذه الناحية ايضا تتمة لكتاب الجبرتى فى تاريخ مصر .

وكان أثر زميله عبد الله فكرى فى اصلاح التعليم اعظم من انتاجه فى مضمار الادب ، فعالج النقص المتفشى فى المدارس ، واشترك فى وضع لائحة التعليم ، وتوفر على وضع طائفة من الكتب المدرسية التى جمع فيها فصولا تهذيبية راقية . وعلى الرغم من ان له آثارا فى الشعر والنثر ، غير ان نبوغه كشاعر يشار اليه ويحتذى به لم يظهر ظهورا واضحا اذ كان شعره ضعيفا فاترا ، يكثر فيه الجناس والتورية والمحسنات اللفظية ، اما نثره فينسب الى المدرسة الديوانية ، تلك المدرسة التى قامت دعوتها على التبشير بالاساليب الانشائية والرسائل الاخوانية والمقامات الوصفية ، فنهضت باسلوب الكتابة الرسمية ، واصلحت لغة الدواوين ، واصبحت رسائلها قدوة مرموقة لكل أديب يتطلع الى مراكز التحرير والانشاء فى دواوين الحكومة ويبتغى الحظوة عند الحكام ، كما كانت نموذجا لما يجب ان يتميز به الاديب من الاحتفال للمعنى وتركيب اللفظ وتوشيته.

• ● •

ولم يكن للمسرح شان يذكر الا فى محيط الترجمة والاقتباس والتمصير ، ولم يعتبر مظهرا جديا من مظاهر الثقافة الا بفضل الجهود التى بذلها محمد عثمان جلال ؛ اذ اتجه بتفكيره نحو الاقتباس عن الادب الفرنسى وثابر على تمصير بعض مسرحيات موليير فى لهجة مبسطة لتكون أدنى الى الافهام .

كان محمد عثمان جلال ابن المدرسة الحديثة ، فلم يتتلمذ فى الازهر ، وانما تلقى علومه فى المدارس ، ثم التحق بمدرسة الالسن وتتلمذ بصفة خاصة على ناظرها رفاعة الطهطاوى ، ثم استهل حياته الادبية على صفحات مجلة « روضة المدارس » تحت اشراف على مبارك فعهد اليه بتحرير قسم عنوانه «كتاب النكات وباب التياترات» وكانت فيه نزعة فطرية لخدمة الادب ، فتفرغ لنظم الشعر ، وساعده على ذلك تعمقه فى اللغة الفرنسية ، واطلاعه الواسع على آدابها ، على تهذيب اسلوبه العربى .

وكان يميل بفطرته الى فن الرواية والمسرح ، فهجر الشعر وانصرف الى صياغة القصص ، ويبدو لنا انه لم تكن لديه القدرة على الابتكار فى التاليف ، فاستعاض عن هذه الموهبة بترجمة نخبة صالحة من عيون الادب الفرنسى ، فاقتبس عن موليير وراسين ولافونتين واسبغ على آثارهم مسحة مصرية خالصة ، فقد كان الى جانب براعته فى فنون الادب ملما باخلاق مختلف طوائف الشعب ، بصيرا بعوائد الطبقات وتقاليدها ، فجاءت مسرحياته قطعة حية من المجتمع المصرى ومن البيت المصرى .

وقد يعاب على عثمان جلال اختياره اللهجة الدارجة اداةللتعبير ، ولكن الواقع ان الفنان يرىاللهجات امامه كالالوان ياخذ منها مايروقه وما يعجبه وما يمكنه ان يؤدى بها آراءه ويبسط بها وجهة نظره .

وعلى الضد من نزعة عثمان جلال العصرية ، نجد الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى يمثل الشق الآخر من الحياة العقلية ، كانت ثقافته ازهرية خالصة ، فتجلى نشاطه فى دائرة العلوم اللغوية والفقه والادب ، وقد تصدر التدريس فى الازهر زمنا وحاول ان ينفخ فى طلابه قبسا من روحه ليناهضوا معهد دار العلوم ، ويعيدوا الى الجامعة الاسلامية المصرية سؤددها ومجدها ، وكانت شخصية الابيارى الادبية اقوى من تفكيره ، فذاعت شهرته فى البلاد العربية وراسله ادباؤها .

ويعتبر المرصفى صاحب الوسيلة الادبية حلقة الاتصال بين القديم والجديد ، ورسول التوفيق بين المحافظين والمجددين ... كانت له اليد الطولى فى تكوين بيئة ادبية راقية ، فوجه الاذهان الى تراث العرب ، وهدى مريديه الى الموازين الصحيحة لفن النقد ، والى اصول الذوق الادبى ، وكان لا يفتأ يحضهم على وجوب الاحتفال للمعنى اذ ان اللفظ مجرد اداة لا ينبغى ان يستهلك المعنى فى سبيله .

والى ابراهيم المويلحى امام المجددين فى عصره ، واحد مؤسسى « جمعية المعارف » يرجع الفضل فى تغذية النهضة بالمعانى المستطرفة ، وبعث افانين البلاغة ، وتجديد ما درس من معالم البيان .

وقد نما ميل المويلحى الى الادب والشعر بين مشاغل السياسة والادارة ، وتقلب فى أعمال مختلفة بين تجارية وعلمية وصحفية ، بيد انه استطاع أن يشق لنفسه طريقا وسطا ، يعاونه فى ذلك

سليقة مكتسبة وموهبة نادرة ، فشرع اسلوبا لم يكن للجيل عهد به ، ونهج فى تدبيج المقالات نهجا مبتكرا ، وعلم الادباء كيف يرقون بلغتهم الى مرتبة رفيعة من مراتب البلاغة والانشاء ، وكيف يودعون كتاباتهم اسرار البيان والبديع .

وكان قلم المويلحى كالسوط اللاذع ، فنقد المجتمع بقسوة ، وتحامل على حكومة السلطان عبد الحميد ، وحمل حملات شعواء على سياسة الدولة العثمانية .

• • •

وفيما عدا الطباعة التى ساعدت على غرس البذرة الاولى فى محيط التثقيف الشعبى فان الصحافة الدورية مثلت دورها فى تكوين الثقافة وتنشئة الراى العام .

ولم تستطع صحيفة « الوقائع » التى صدرت فى ٣ ديسمبر ١٨٢٨ أن تؤدى رسالتها الصحفية الا بعد سنوات حين تولى تحريرها رفاعة الطهطاوى يعاونه نخبة من فحول المنشئين كالشيخ احمد عبد الرحيم واحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين ، وبدأت الصحيفة تتمصر بعد ان كانت تركية الصبغة ، وتتخذ لونا مبتكرا مشوقا اقرب ما يكون الى الصحيفة اليومية ، وبعد ان كانت تصدر فى صورة مضطربة صارت تصدر اسبوعية وتشمل موضوعات فى الادب والعلم والسياسة وتوسعت فيما تنقله عن صحف الغرب .

ثم عطلت الوقائع فى عهدى عباس وسعيد ، واصدر عبد الرحمن رشدى لحسابه الخاص بضعة اعداد منها الى ان عاد احمد عبد الرحيم الى رياسة تحريرها بالاشتراك مع مصطفى سلامه ومحمد عبده وسعد زغلول وصارت تصدر مرتين فى الاسبوع وتهتم بنشر محاضر مجلس شورى النواب والانباء الداخلية وحفلات سباق الخيل والانباء الخارجية وترجمة برقيات وكالات الانباء .

واصدرت وزارة المعارف صحيفة « روضة المدارس » فى بداية عام ١٨٧٠ لغرض احياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة بين الطلاب ، واسند تحريرها الى رفاعة الطهطاوى يعاونه نخبة من اعلام الفكر والادب ومنهم : على مبارك وعبد الله فكرى ومحمد قدرى واحمد ندا ومحمد عثمان جلال وحسونه النواوى وحمزة فتح الله وعبد الهادى نجا الابيارى وصالح مجدى . وصارت هذه الصحيفة صورة ناطقة للحياة العقلية ومثالا واضحا لجهد طائفة من العلماء كانوا يتبارون فى مضمار الرياضيات ، وقد ساعدت على بث

روح البيان فى نفوس النشء ، وظهرت باكورة انتاج المدرسة الحديثة فى الشعر على صفحاتها ، كما كانت تقوم على نشر ما يهم المدارس من الانباء فتذيع أسماء نوابغ الطلاب والتقارير عن حالة التعليم .

ونهض الافراد باصدار الصحف السياسية التى تولى تحريرها طائفة من العلماء والمفكرين والادباء . ولا يخفى ما كان لهذه الصحف من الفضل فى انارة البصائر والافكار وتوجيه الانظار الى العناية بالشئون العامة ونقد الاعمال الضارة التى تصدر عن الحكومة ومناهضة التدخل الاوربى فى الشئون المالية والداخلية ، فكانت بهذا وبغيره اداة لظهور الراى العام ومن العوامل التى ساعدت على نمو حرية التعبير فى الامور السياسية ، كما كان لها الفضل فى نشر العلوم والمعارف وتهذيب لغة الكتابة .

وفى طليعة الصحف التى اصدرها المصريون : وادى النيل فى عام ١٨٦٧ لصاحبها عبد الله ابو السعود وكانت فى حجم المجلات الشهرية . والوطن فى عام ١٨٧٧ لصاحبها ميخائيل عبد السيد ، ونزهة الافكار فى عام ١٨٦٩ لصاحبيها ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال .

ومن العوامل التى تعزى الى انتشار الصحافة بين مختلف طبقات الشعب ، انه لما نشبت الحرب بين الامبراطورية العثمانية وروسيا « ١٨٧٧ » وجد الجمهور لذة فى الاطلاع على انباء هذه الحرب وتطوراتها للاطمئنان على موقف الدولة صاحبة السيادة الروحية والسياسية عليهم من دولة اخرى لا تمت اليهم بصلة من الصلات . وانقسم المواطنون بسبب هذه الحرب الى فريقين : الناقم عليها والمناصر لها . وكثر الجدل والنقاش حول ذلك فى المجتمعات والاندية وهو امر كان الشعب يتهيبه من قبل ولا يجرأ على المكاشفة او المصارحة به فى الجهر .

وسهل جلب صحف اوربا الى مصر ووجود جاليات اجنبية بها تهافت الصحف المحلية على نشر الانباء والتعليقات المختلفة عن هذه الحرب ، فاقبلت صحف الاسكندرية على تغذية قرائها بالانباء . ولما كانت معظم هذه الصحف اسبوعية فقد عمدت الى اصدار ملاحق يومية تفيض ببرقيات وكالات الانباء حتى يقف الراى العام على اهم الاحداث العالمية .

على ان المهم ان الصحف العربية لم تقتصر على سرد انباء الحرب وحدها بل ان البعض منها تمادى فى التعليق عما عليه سائر الامم والشعوب من الوان الحكم واساليب الحياة وخلصت من ذلك الى

المقارنة بين ما عليه حال الامة المصرية ونقد احوال الحكومة المالية والادارية ، ثم خرج الاحرار من ذلك الى اعلان تبرمهم بسياسة الخديو فى سلسلة نشرات تروى فضائحه ومباذله .

والواقع ان سنة ١٨٧٧ كانت نقطة التحول فى تاريخ حرية الرأى العام . اهتم المصريون بالحرب التركية — الروسية لانها كانت تهدد سلامة الامبراطورية العثمانية التى تدخل مصر ضمن دائرتها . وكان من المفهوم بداهة أن اقل هزيمة تصيب الدولة العلية ستفضى حتما الى الاعتداء على مصر وتغيير مصيرها السياسى . . ووعت الطبقة المثقفة آراء الافغانى التى ترمى الى تحديد مركز الحاكم وتسفيه الفكرة الشائعة من ان الشئون الخاصة والعامة هى ملك الحاكم المطلق ولا ينازعه فى سلطته احد ، وهضم المتعلمون ما تلقوه فى المدارس ومعاهد الغرب وما طالعوه من اشتات المؤلفات الاجنبية ، فنشأت من ذلك حركة قوية اصطدمت فيها افكار مصرية تقف موقف الدفاع عن وطنها بافكار اوربية استعمارية تقف موقف الطمع والهجوم ، وكان سلاح كل من الفريقين الصحف ، يدافع بوساطتها عن نظريته ويبسط فكرته .

ومن الصحف التى آزرت الشعب فى مواقفه وفى كفاحه المجيد جريدة « مصر » لسان حال الوطنيين لصاحبها اديب اسحق فى عام ١٨٧٧ وقد عرفت بمقالاتها الحماسية الضافية فى تعريف معنى « الوطنية » وبيان مزايا الحرية ، وهى الصحيفة الاولى التى وردت فيها عبارة « مصر للمصريين » . وكانت هى وشقيقتها « التجارة » من اركان النهضة الانشائية فى الصحف ، وقد اديا اجل خدمة للحركة القومية . وتقريبه الى الافهام ، وقد احتذاهما الكتاب ونسجوا على منوالهما وكان القائمون على تحريرهما يعنون بتهذيب العبارة واتساق المعنى فتحرروا من التعقيد والسجع والتوشية الى الاسلوب المبسط ، وانتقلوا من العبارات الركيكة الى الرشاقة والطلاوة فاحدث ذلك حركة فى الافكار وحرية فى التعبير لم تكن معروفة من قبل . وكانت هذه الصحيفة تنقد بصفة خاصة سياسة وزير الداخلية مصطفى رياض نقدا عنيفا فوجهت الحكومة اليها الانذار تلو الآخر واخيرا عطلتها واضطر صاحبها الى مغادرة مصر الى باريس .

وليعقوب صنوع المعروف باسم « ابو نظارة زرقاء » اثر بالغ فى حركة الكفاح الشعبى ... استطاع ان يصور بقلمه مدى الظلم والعبث بحياة الافراد والجماعات ويحمل على الفساد والرشوة

والمحسوبية ويقدم صورا فاضحة من الحكومة التى تسيطر على شئون المواطنين ، ويبين اوزار الخديو وبطانته التى انتهت بانهيار اقتصاديات البلاد ، ثم لا يفتأ بشن حملات جريئة على تكميم الافواه ومصادرة الحريات .

وقد ولد يعقوب صنوع فى القاهرة وتلقى تعليمه فى ايطاليا وتأثر بروح الحرية وأساليب الحكم فى الغرب . فلما عاد الى وطنه عكف على تدريس اللغات الحية فى مدارس الحكومة ، والموسيقى والادب والرسم فى قصور العظماء والاعيان .

واخذ يجرب قلمه فى معالجة التمثيليات ، وعزم على أن يقيم مسرحا قوميا وهو عمل فنى لم يسبقه اليه احد فى مصر ... كان ذلك فى عام ١٨٦٩ اى فى العام نفسه الذى انشئت فيه دار الاوبرا ، فكون اول جوق مصرى من الهواة ووضع سلسلة مسرحيات قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحينا شعبيا ، ومثلها امام باشوات القصر والوجوه فضحكوا لها من اعماق قلوبهم وشجعوه على ان يعرضها على مسرح اقيم فى الهواء الطلق بحديقة الازبكية .

وكان انشاء مسرح عربى فى ذلك العصر يعد مجازفة خطرة بسبب تفشى العناصر الرجعية وتزمت المتدينين ، ولكن مصر فى غضون هذه الحقبة كانت مقبلة على عصر جديد وكانت تسير فى ركاب الغرب وتصطنع حضارته وتقتبس فنونه ، فقام مسرح صنوع الانتقادى بعرض اثنين وثلاثين تمثيلية فى خمسمائة حفلة ، وكان صنوع هو المؤلف وناظم الاغانى والملحن والموسيقار والمخرج والملقن .

على أن الخديو وان ابدى اعجابه بالمسرح الوليد وخاطب صاحبه بقوله : نحن مدينون لك بانشاء مسرحنا الوطنى .. ان كوميدياتك وتمثيلياتك قد أوضحت للشعب ما هو الفن المسرحى » ولقبه بموليير مصر « وان اسمه سيخلد » . الا انه لم يمهله طويلا بسبب غمزات صنوع لمساوىء الحكم ومعالجة المشكلات الاجتماعية التى تعانيها مصر .

والواقع ان هذا المسرح كان المتنفس الوحيد للاحرار ، وكان يختلف اليه جمهور الساخطين المتبرمين بسياسة الطغيان ، فضاق الخديو ذرعا بهذه الدعاية المسمومة واصدر امر باغلاق ابواب المسرح والقضاء على « الكلمة المجسمة » التى تنبعث من فوق خشبته .

وظلت الافكار حبيسة فى صدر صنوع وعز عليه ان يعطل قلمه ولسانه ، وكانت حركة الافغانى قد نمت واتت اكلها وامتدت جذورها فى اعماق المجتمع ، فاتصل صنوع بزعامة الراى العام .. كان يدرك قيمة الكلمة المطبوعة وتأثيرها فى العقول ، فاتفق مع الافغانى ومحمد عبده على اصدار صحيفة باللهجة الدارجة التى يستوعب الشعب معناها ومرماها ، وتنطق بلسان الطبقات الشعبية وتدافع عن حقوقها وتعمل على تنوير افكارها .

وهكذا صدرت صحيفة « ابو نظارة زرقاء » الواسعة النفوذ والانتشار ، وتجلت على صفحاتها مقدرة صنوع الصحفية ونقده اللاذع لمساوىء الحكم وتصويره مدى الظلم والعبث بحياة الافراد والجماعات والتنديد باعمال الحكومة : من تفشى الرشوة والمحسوبية وتغلغل الفساد فى جهاز الدولة ، ومعالجة المسائل العامة ، باسلوب يفيض سخرية وتهكما .

وقد انزعج الخديو وبطانته وتبرموا بمسلك هذه الصحيفة لا سيما وان نقدها كان يجد استجابة وهوى فى نفوس مختلف طوائف الشعب ، مما حمل الخديو على أن يدبر مؤامرة لاغتيال صنوع تحت جنح الظلام ، فلما فشل فى ذلك حاول ان يعصف بالصحيفة، الا ان صاحبها كان قد اتخذللامر عدته فتجنس بالجنسية الايطالية واحتمى بظل الامتيازات الأجنبية . ولم يكن صنوع بأول صحفى احتمى بدولة اجنبية ، بل لقد سبقه الى ذلك صحفيون كثيرون حتى يأمنوا بطش الخديو وبطانته وحكومته . واخيرا راى الخديو أن يطلب الى حكومة ايطاليا نفى صنوع من مصر ، فغادر القاهرة فى اواخر يونيو ١٨٧٨ الى ايطاليا ففرنسا ، ومن غرائب الاتفاق انه تنبأ بعزل الخديو بعد سنة ، فعزل ونفى من مصر فى اواخر يونيو ١٨٧٩ .

حط صنوع رحاله فى باريس ، واتجه الى الصحافة يواصل رسالته من منبرها فكتب فى صحف عربية منها : ابو نظارة وابو صفارة وابو زمارة والحاوى والثرثار والنظارات المصرية الخ . وكان يحمل على صفحاتها حملات شعواء على الخديو ويتعقبه فى منفاه بنشر مخازيه ومآثمه ، وهاجم حكم توفيق لان عزل سلفه لم يقض على المفاسد والشرور والاثام اذ احتفظ العهد الجديد بكل شرور ومفاسد وآثام العهد القديم .

وصار صنوع يتحايل على ادخال صحفه الى مصر بطرق ملتوية. اذ كانت الحكومة قد اصدرت امرا بمعاقبة كل من توجد فى حوزته نسخة منها بالسجن والغرامة ، ولكن على الرغم من عيون الحكومة كانت صحفه تصل الى قرائها ، وكان الاحرار يتلقفونها فى شوق ولهفة ويتهافتون على مطالعتها زرافات ووحدانا . وكان يتناول على صفحاتها نقد مساوىء الحكم فى قالب محاورات شائقة ونوادر ومقالات لاذعة موضحة بالرسوم الهزلية ، ويعمد احيانا الى الكناية والتورية ، فاطلق على الخديو اسم « شيخ الحارة » وعلى السلطان العثمانى « شيخ التمن » وعلى رياض رئيس الوزارة « ابو ريضة » وعلى نوبار « غوبار » وعلى الخديو توفيق «توقيف» واحيانا « الواد الاهبل » وعلى الفلاح « ابو الغلب » وعلى وادى النيل « وادى الدموع » .

ظل صنوع فى ديار الغربة ٣٢ عاما يواصل رسالته ويكافح حكم الطغاة المستبدين ويندد بالاستعمار ويأخذ بناصر الاحرار ، وكان لا يفتأ يردد بأن مصر للمصريين ولا ينى يكرر بأن صحفه هى لسان حال الامة المصرية الحرة ، الى أن كف بصره فاوقف اصدار صحفه ثم لحقت به الشيخوخة فالامراض فلفظ الروح فى عام ١٩١٢ ودفن بباريس ، بعيدا عن مصر التى اخلص لها ووقف عليها قلمه ولسانه وخطرات فكره .

• ● •

وكان اديب اسحق عقب نفيه واغلاق جريدتيه « مصر ـ والتجارة » قد لزم باريس بدوره واستأنف منها اصدار صحيفة « مصر القاهرة » وجعل شعارها : حرية ـ اخاء ـ مساواة . ونشر على صفحاتها سلسلة مقالات حوت الكثير من حدة مزاجه ويقظته الذهنية ، كما كانت تحمل طابع حماسته وتبرمه بسوء الاحوال فى مصر ، فتابع على صفحاتها نقد سياسة رياض ، واطماع الدول الاجنبية ودسائسها فى وادى النيل ، وحمل حملات شعواء على من اسماهم «ولاة النظام» ، واخذ يثير بقلمه الحمية الاسلامية والنخوة العربية فى نفوس المصريين ويرفع عن عيونهم الغشاوة التى تركها حكم الولاة المستبدين « حتى يعلم اهل مصر بأن لهم حقا مسلوبا فيلتمسونه ومالا منهوبا فيطلبونه ، وليخرجوا عن خطة الخسف ، وينبذوا كل ظالم يغتال حقوقهم » . وكانت هذه الصحيفة تعبر عن آراء رجال الحزب الوطنى بزعامة محمد شريف وتفصح عن امانى الاحرار فى مصر .

البعث القومى

شخصية مصر نتاج النيل ــ بين الوجدان الدينى والعاطفة الوطنية ــ مبدا الدفاع المشترك ــ الجنرال يعقوب يضع اول مشروع لاستقلال مصر وسلخها عن الدولة العلية ــ دور المراة فى الكفاح ــ خصوم الامة وخونة الشعب ــ السيادة والاذلال ــ جمال الدين الافغانى ــ دور الصحافة الحرة ــ انتصار الحرية على الاستعباد

استكانت مصر زمنا للحكم الاجنبى وتعاقبت عليها الوان من الحضارات والتقاليد ، الى جانب ما ابتليت به من الرزايا وما لحقها من المحن ، ولكن شخصية مصر القوية كانت تطوى الغريب تحت جناحها وتخضعه لعظمتها ، وتصقله بطابعها الخاص ، فلايلبث ان يصبح اسيرا لها بعد أن جاءها غازيا ومغيرا .

والامة المصرية فى كل عصر من عصورها هى نتيجة تطور اجتماعى واندماج بين سلالات امم غالبة ومغلوبة ولكنها برغم هذا الاختلاف فى النشأة اخذت تتأقلم وتتحد وتتجمع فى اوقات الشدة تحت راية موحدة وعقيدة راسخة ثابتة ، وتؤمن بمصلحة قومية مشتركة ، فمن العبث اذن ان نضع فواصل تاريخية او عنصرية ، فان مجرى الحياة مستمر يمتزج فيه القديم بالجديد ، ويرتبط الماضى بالحاضر .

وقد انتقل العثمانيون ، ومن قبلهم الفرس والرومان الى ضفاف النيل ، وكذلك انتقلت معهم التقاليد والطقوس والاوضاع الاجتماعية الخاصة بهم ، بيد انها لم تؤثر تأثيرا مباشرا فى جوهر الحياة المصرية ولا استطاعت ان تصبغها بصبغتها ، اذ لم يكن هناك سوى شخصية مصرية مستقلة اخضعت الغزاة والفاتحين لسلطانها وبهرتهم بقوتها وجبروتها ، وهذه الشخصية هى نتاج النيل ، وثمرة هذه الارض الخصبة الغنية التى يأتيها النماء فى اوقات محددة ، وفوق هذا فهى اثر من اثار هذه الشمس المتألقة والسماء الصحو ، الصافية الاديم التى تظلل وادى النيل .

وجاء القرن التاسع عشر ، فكان فجره عصر النمو القومى وازدهاره لا فى مصر وحدها ، بل فى كثير من البلدان الشرقية ، فان الانسلاخ تدريجيا عن الدولة العلية ، صاحبة السلطة الروحية والسيادة الزمنية ، ثم انتشار التعليم باللغة العربية واقتباس الاساليب والانظمة الغربية فى السياسة والادارة والتشريع والاقتصاد ، وتسرب المبادىء

الديمقراطية ، وانتفاء روح التعصب الديني والعنصري ، كل ذلك كان في طليعة البواعث التي مهدت السبيل لانبعاث الشعور القومي ..

على ان اليقظة القومية على ضفاف النيل كانت اقوى منها في اى بلد عربي اخر ، فقد ترعرعت هذه القومية ونمت شيئا فشيئا .. غذتها الارزاء والمحن والنكبات التي نزلت بالوادي ، وقوتها الفتن والانقسامات والمشاحنات التي كانت تنشب من وقت لاخر بين المصريين وبين العناصر الدخيلة التي تتزعم الحكم ، ووطد دعائمها ضعف هذه العناصر نتيجة التكالب والتنافس على السلطان .

* * *

نعمت مصر زمنا طويلا بالاستقرار تحت ظلال الحكم العثماني اللهم الا بعض انتفاضات قام بها العلماء ورجال الدين ، ولكنها لم تكن ذات اثر حاسم في تغيير مجريات الامور ، وكانت لا تلبث ان تخبو أو تنفض بصلح او ترضية ثم تمر العاصفة وليس فيها صفة المقاومة الجماعية .

ولم يثر المصريون ثورات دامية على حكامهم العثمانيين او المماليك لا عن استكانة او رضوخ ، ولا رضاء بالهوان ، ولكن لان الحكم العثماني لم يكن شديد الوطأة عليهم ، ولم يكن حكما مباشرا يمس حياة المصريين بسوء ويتدخل في شئونهم الخاصة ، فالحكومة لا تضع يدها على كل شيء بل هي تترك للمواطنين من الحقوق والواجبات ما اكتسبوه على مر الزمان ، ولكل طائفة شيخها المسئول عنها ، فهو يحميها ويحسم مشكلاتها ويدافع عن حقوقها ، والحكومة لا عمل لها سوى جمع الضرائب والاتاوات المقررة وضبط الامن وحماية ارض الكنانة من غوائل فيضان النيل ومن اى اعتداء خارجي .

وفضلا عن هذا وذاك كان للوازع الديني المقام الاول ، فكانت مصر تعيش في ظلال الخلافة وتتكتل تحت رايتها ، والنزعة الغالبة على تفكير المواطنين هي العاطفة الدينية والرابطة الاسلامية ، وكان المصريون يحترمون اوامر الخليفة ويوقرون اتباعه من رجال الباب العالي اذ ان طاعة الخليفة وتأييده معناهما تأييد الاسلام واعلاء شأن الشريعة والوقوف صفا واحدا في مواجهة الغرب ، او بالاحرى النصرانية فقد كانت الخصومة بين الاسلام والنصرانية خصومة تقليدية لا ينقطع اوارها ، وكانت من التراث الذي خلفته الحروب الصليبية .

اما المماليك فهم قوم انقطعت صلتهم بمنبتهم الاصلي منذ عشرات

السنين ، وصارت مصر بمثابة وطنهم الذى لا يعرفون سواه فتاقلموا واندمجوا شيئا فشيئا فى المجموع ، وصارت عادات مصر وطقوسها وتقاليدها وثقافتها ، هى عاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم وثقافتهم ، حتى ان الجبرتى لا يطلق عليهم الا «الامراء المصرلية» وانما الذى كان يميزهم عن عامة الشعب احتكارهم سلطة الحكم وقبضهم على زمام القوات العسكرية التى تذود عن البلاد ضد اى خطر قد يداهمها فى الظلام .

ومع ذلك نسمع بثورات صغيرة محلية قامت فى وجه هؤلاء الحكام ، فرض الشعب خلالها ارادته وذب عن حقوقه واستبسل فى الدفاع عن كرامته ، فمن ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة ١٢٠٩ من ان سكان احدى القرى فى بلبيس قدموا الى الشيخ الشرقاوى ليشكوا محمد الالفى بك ، فقد حاق بهم ظلم من اتباعه . وطالبوهم بما لا قدرة لهم عليه ، فانتفض الشيخ ونهض ليجمع العلماء ورجال الشرع فى الازهر ثم اوصد ابواب الجامع وامر التجار بغلق المتاجر والاسواق .

وعقد العلماء اجتماعا اخر فى بيت الشيخ السادات واكتظت الطرق والشوارع بالالوف ، فلما بلغ ذلك الاجتماع ابراهيم بك اوفد وكيله ايوب الدفتردار الى العلماء والمشايخ فوقف بين ايديهم وسالهم عن مرادهم ، فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال المغارم والتكاليف التى ابتدعتموها وطوقتم بها الاعناق .. فاجابهم بان من الصعب تلبية هذه المطالب دفعة واحدة والا ضاقت المعايش والنفقات علينا ، فانبرى احد المشايخ وخاطبه بقوله : ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والامير يكون اميرا بالعطاء وليس بالاخذ

وانفض المجلس وعاد العلماء والمشايخ الى الازهر ، واجتمع سكان العاصمة وقضوا ليلتهم فى الجامع ، وخشى ابراهيم عواقب هذا التمرد فارسل الى المشايخ يعضدهم فى موقفهم ويقول لهم : انا معكم وهذه الامور على غير خاطرى ومرادى ، وانذر شريكه فى الحكم مراد بك بسوء العاقبة ، فبعث مراد بك الى العلماء يقول لهم : اجيبكم الى مطالبكم عدا مكوس ميناء بولاق والتجاوز عن المنكسر من الجامكية وتبطل ما عدا ذلك من التكاليف والوان الظلم وندفع لكم جامكية سنة واحدة . ثم طلب اربعة من المشايخ فمضوا اليه فى قصره بالجيزة

وظل يلاطفهم ويلتمس اليهم السعي فى الصلح .

ورأى الوالى العثمانى فى المسألة انذارا بهبوب العاصفة فنزل من مقرده فى القلعة الى قصرابراهيم بك واجتمع به وبالامراء المماليك ودعوا العلماء الى الاجتماع فحضر المشايخ : السادات والشرقاوى والبكرى والامير ونقيب الاشراف وجرى نقاش طويل حاد بين ممثلى الشعب الذين دافعوا عن حقوقه وذبوا عن كرامته ، وبين الحكام ، ولم يقبل العلماء التنازل عن شرط واحد من مطالبهم واخيرا وجد الحكام الا مفر من قبول هذه المطالب والا انتفض الشعب وقام بثورة عارمة ، فحنوا رءوسهم للعاصفة ، واملى ممثلو الشعب شروطا تعد بمثابة وثيقة دستورية واول اعلان لحقوق الانسان .

ومن بين هذه الشروط : ان يسير الحكام بين المواطنين سيرة حسنة وان يكفوا اتباعهم عن امتداد ايديهم الى اموال الشعب ، ويرفعوا المظالم والاتاوات والتكاليف التى طوقوا بها الاعناق ، ويدفعوا مبلغ سبعمائة وخمسين كيسة ، ويرسلوا الغلال واموال الصرة والمرتبات المقررة الموقوفة على الحرمين ، وكذلك غلال الشون والاموال المحبوسة على الرزقة .

وحرر قاضى القضاة حجة شرعية بما جرى فى هذا الاجتماع التاريخى المشهود وقع عليها مراد بك وابراهيم بك وبقية الامراء المماليك و «فرمن» عليها الباشا ، اى صدق الوالى عليها ، واتخذت صورة الفرمان .

وبذلك انتصر الشعب انتصارا باهرا وانجلت الفتنة ، وكانت هذه المطالب بمثابة طلائع الحرية واعلاء كلمة الشعب واقرار سيادته والاعتراف بكيانه ورد ما انتقص من حقوقه .

وعاد العلماء الى الازهر ، وحولهم الوف المواطنين وهم يتصافحون ويتبادلون التهانى بيوم الخلاص وعيد الحرية ، ويهتفون وينادون فى الشوارع والاسواق بان جميع المظالم والاتاوات والتكاليف قد رفعت عن كاهل الشعب «حسب ما رسم سادتنا العلماء» ثم فتحت المتاجر وعادت الحياة سيرتها الاولى .

اذن فما هو الباعث على ثورة المصريين الدامية على الفرنسيين دون العثمانيين والمماليك ؟

الواقع ان حملة نابليون بونابرت كانت اشبه بصاعقة هوت من السماء ، وهز الجيش الفرنسى مصر من اقصاها الى اقصاها ، فهب

المصريون من غفلتهم ودهشوا مما وقعت عليه ابصارهم ، ودهشة الغافل هى اول مظاهر يقظته والتفاته .

كان المصريون يظنون بانه لا توجد قوة حربية تغلب قوة المماليك وان جيشهم هوفى مقدمة جيوش العالم مناعة وقدرة ، وان مصر بعيدة عن منال اية دولة اجنبية ما دامت مستظلة بحماية الخليفة كما انه لا توجد علوم او معارف الا فى الازهر ، فلما شاهدوا الجيش الفرنسى وعتاده وعدده وتفوقه فى معظم المعارك التى خاضها والتحم فيها مع المماليك ، وعندما لمسوا اثار علماء الحملة سواء فى انشاء المجمع والمكتبة والمطبعة ، امنوا بان هناك قوة خارقة مصدرها الغرب مما قوى فى النفوس الوقوف على ماهيتها .

بيد ان هذه الغشاوة لم تلبث ان انقشعت وانقلب الهدوء والاستقرار الى ثورات متصلة ، وتحول الفلاحون والتجار والصناع والعمال الى قوات للمقاومة والفداء ، فتكتلوا تحت راية واحدة ، واعلنوها حربا لا هوادة فيها على الدخيل ، ولم يهدا لهم بال اثناء السنوات الثلاث التى اقامها المستعمرون بين ظهرانيهم برغم وسائل الزلفى والتقرب الى العلماء والتودد الى افراد الشعب وتظاهر القواد باعتناق الاسلام ، وبرزت من خلال هذه المعارك الطاحنة معالم القومية المصرية واضحة جلية .

ولم تكن الثورة التى قامت فى القاهرة والاقاليم سوى ثمرة الاحساس بالظلم سنوات طوالا ، ورغبة المصريين فى اقصاء قوم دخلاء يختلفون عنهم فى الدين والتقاليد والاخلاق ، هذا الى فداحة الضرائب والتكاليف التى ناء الشعب تحت اثقالها ، وجورهم فى ابتزاز خيرات المصريين والتنكيل بالزعماء واستباحة دمائهم ومنهم محمد كريم الذى قتل غدرا وغيلة وطوف براسه فى انحاء العاصمة ، فاذا اضفنا الى هذه المظالم عوامل استفزازية اخرى كتدنيس حرمة الجامع الازهر بربط الخيول فى صحنه وامام القبلة وهدم منارات المساجد وازالة بوابات الحارات والتدخل فى الشئون الخاصة وشرب الخمر وبهرجة النساء واقدام ضباط وجنود جيش الاحتلال على التزوج من فتيات مصر واغتصابهن قسرا ، لحق لنا ان نقرر بان هذه المظالم تحولت الى مشاعر وتحركت هذه المشاعر بالدعايات الروحية والقومية الى ثورة عارمة .

فمن ذلك يتضح ان الشعب المصرى هو الذى قام بالثورة وتحمل اعباءها ، وان الواعز اليها لم يكن بتاثير دعاية اجنبية او اثارة مشاعره

عن طريق تحريض عناصر اخرى ، فقد كان افراد الشعب يتلاقون على غير سابق معرفة ويتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة والفناء فى سبيل مصر .

واذن لم يكن الوعى القومى وليد الحملة الفرنسية ولا نتيجة مباشرة لها ، بل كان مستكنا فى الصدور خلف ستار رقيق من المعتقدات الدينية والوراثات الاصيلة والفضائل العالية ، ولا يمكن ان نذهب مع بعض المؤرخين من ان انشاء الديوان هو الذى اوجد هذه القومية او انه «كان فيه رحمة لاهل مصر» على حد تعبير الشيخ الشرقاوى ، بل ان هذه القومية اصيلة فى النفوس ، انبعثت فى صورة واضحة منذ اليوم الاول الذى وطئت فيه اقدام الفرنسيين ثرى النيل . اما الديوان فكثيرا ما اثار الاحرار الشكوك حول مسلك اعضائه واتهموهم بالتحيز الى جانب الفرنسيين وممالاتهم ، وفى اثناء ثورة القاهرة الثانية خرج الشعب على العلماء ومشايخ الازهر واعضاء الديوان الذين حملوا اليهم رغبة المحتلين فى عقد الهدنة واعتدوا عليهم بالضرب ووجهوا اليهم شتى الاهانات بسبب توسطهم فى الصلح مما يبرهن على ان الوجدان القومى تغلب على الوازع الدينى

وقبل قدوم نابليون عارض المصريون نلسن عندما اراد ان يرسو باسطوله على شواطىء الاسكندرية فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ بحجة الدفاع عن مصر ضد الجيش الفرنسى المرتقب وصوله ، فقد اراد قائد الاسطول البريطانى ان يوهم المصريين بانه قدم حليفا يريد الدفاع عنهم ، فاجابه محمد كريم حاكم الثغر «هذه ارض السلطان» وطلب اليه مغادرة المياه الاقليمية على الفور ، وكان هذا الرد بمثابة اول رفض لمبدا الدفاع المشترك بين المصريين والبريطانيين .

وقد برزت خلال السنوات الثلاث التى قضتها الحملة الفرنسية شخصية جديرة بالتنويه ، تلك هى شخصية المعلم يعقوب القبطى او الجنرال يعقوب ، وسواء كان الرجل صنيعة الفرنسيين او مخدوعا فيهم فانه دون شك اول مفكر عملى نشد استقلال مصر .

كان المعلم يعقوب ملحقا بحملة الجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد ، وكان موكولا اليه تدبير المؤن وتحصيل الضرائب ، ثم جند كتيبة من شباب الاقباط الحقها بالجيش الفرنسى وارتدى افرادها الزى العسكرى لجيش الاحتلال ، وقد كافاه الفرنسيون برتبة

«جنرال» واهدوه سيفا وجعلوه مستشارا للشئون المالية ومشرفا على جمع الضرائب ، ولم يكن باول من زود الجيش الفرنسي بالرجال من مصر ، بل لقد سبقه الى ذلك عمر القلقجي الذى حشد الشبان المغاربة حيث امر نابليون بتدريبهم على الفنون العسكرية وكون منهم كتيبة الحقها بجيش الاحتلال .

ورأى المعلم يعقوب فى الاحتلال الفرنسي بداية حياة جديدة لوطنه وتخليصه من براثن الحكم العثمانى ، وكان مؤمنا بقوة العلم الاوروبى فاستمع الى احاديث علمائهم واصغى الى ارائهم ، ثم تولدت عنده آمال واسعة للنهوض باحوال بلاده السياسية والقومية ، فاستوعب الوسائل التى تذرع بها الغرب لسيادة العالم ، وتحمس للانتفاع باثار الحضارة الغربية حتى يرى من مصر قطعة تماثل فرنسا .

وعندما ابحرت الحملة عائدة الى فرنسا سافر الجنرال يعقوب برفقتها ، على ظهر المركب الحربى البريطانى «بلاس» بغية ان يبسط قضية مصر امام العالم المتمدين ويستعين باساطين «الحرية والاخاء والمساواة» على تحرير وطنه ، وجعله فى مصاف الامم الناهضة ، ووضع مشروعا اطلع عليه صديقه لاسكاريس والقبطان ادموندس لاستقلال مصر بضمان الدول الاوروبية ، وتكوين جيش وطنى لصد اى عدوان عن الكنانة ، ولكن الاجل لم يمتد به ليشهد ثمار جهوده فمات فى ١٦ اغسطس ١٨٠١ وهو فى عرض البحر ودفنت اماله معه .

* * *

وفى اعقاب الجلاء الفرنسي برزت القومية المصرية واضحة جلية على المسرح السياسي ، ولعب الزعماء دورا خطيرا فى تقرير مصير وطنهم وانتهاج سياسة قومية بحتة ، وقاوم الشعب اعتداءات الجند العثمانيين مقاومة باسلة ، وهب الفلاحون فى وجوه جباة الضرائب ، ولاننسى ثورة فلاحى قليوب عندما مضى اليهم الجند الدلاة بقصد جباية «حق الطريق» وسلبهم المحصولات الزراعية وسبى النساء والبنات ، فقد تصدى الفلاحون لهم واشتبكوا معهم فى قتال مر المذاق ، وقتل المئات من الفريقين « حتى تمنى الناس وخصوصا الفلاحين منهم احكام الفرنساوية » .

وكان للوعى القومى أثره فى ثورة الشعب على البرديسى حتى اضطروه الى التنازل عن الحكم والفرار من القاهرة فكان يوم فراره آخر عهد المماليك بالحكم .

وجلجل صوت الشعب عند ما جاهر بالتمرد والثورة على الوالى المعين من قبل الخليفة ، وانتشر المواطنون فى شوارع العاصمة وهم يهتفون ويصيحون « يارب يا متجلى اهلك طائفة العثمانلى » مما يدل على أن الوجدان القومى تغلب هنا على العاطفة الدينية والرابطة الاسلامية ، ثم حاصروا القلعة واجبروا الوالى على التنازل عن الولاية واصروا على اختيار محمد على واليا بشروط فرضوها عليه .

وعلى الرغم من الحجاب والقيود التى فرضها المجتمع على المراة فقد وقفت جنبا الى جنب مع الرجل فى ادوار الكفاح الشعبى ، فكانت النساء فى القرى يحاربن مع الرجال ، ويمددن المجاهدين بالماء والمؤن ويقاومن جنود الاحتلال الفرنسى مقاومة باسلة . وكذلك اشتركن فى ثورة الشعب على البرديسى وصبغن وجوههن بالنيلة وتظاهرن فى الشوارع وصحن بعبارات كلها تهكم وسخرية بالحاكم . وفى بداية عهد محمد على بالحكم لجأ النساء اللواتى اغتصب الوالى اراضيهن الزراعية الى الازهر لرفع ظلامتهن الى العلماء ، وصحن فى وجوههن وابطلن الدروس ، وهددن المشايخ بأنهن سيفدن فى كل يوم لابطال الدروس وتمزيق الكتب حتى ينلن حقوقهن .

وكان محمد على يقدر الوعى القومى ويخشاه ويلجأ الى الزعامة الشعبية ليشاورها فيما يعن له من كبريات المسائل ويرجع اليها فيما يشكل عليه من الاحداث، ويستعين بنفوذها على اقرار السياسة الادارية والاصلاحات الضرورية ، فلما اختفت الزعامة الشعبية من الميدان ونحى المصريون عن الاشتغال بالمسائل السياسية اصبحت حرية الشعب مهدورة . فاعوان الحاكم يراقبون الافراد والجماعات، ويرصدون حركاتهم ويتتبعون اقوالهم ، والجاسوسية فى حركة دائبة لتشعر المواطنين بان عينها ساهرة لا تغفل عن مراقبتهم ، وخصوم الامة وخونة الشعب يوغلون فى الايقاع بالاحرار واستغلال مظاهر الحكم لمصلحة الحاكمين .

كان الاحرار اذا ما نادوا براى او نقدوا امرا معينا نالوا من اذى الحاكم وبطانته الوانا من البطش . وكانت المناقشة العلمية تؤول بانها اعتداء صارخ على حرمة الدين وتدخل فى نطاق الزندقة والتجديف، وكان خصوم الحكام يخرجون من بيوتهم فلا يعودون اليها ، لذلك ملك المواطنين الخوف وتولتهم الرهبة ، واصبحوا يخشون جانب

الحاكم ، ولا يكترثون لتصرفات الحكومة ، واخذت الروح التركية تحط شيئا فشيئا على الروح المصرية واوشكت ان تطفئها .

واخذ الشعب يتذمر من ارهاقه بمطالب عدة : كفداحة الضرائب، السخرة ، التجنيد، سلطة الحكام المستبدة ، فساد القضاء، ثم تدفق تجار الخمور من حثالة الافرنج واختلاطهم بالفلاحين ، وانتشار الموبقات ودور الميسر والبغاء ، ومع ذلك فان احدا لم تواته الجسارة فيفصح عن مكنون ضميره . وظلت مصر فى حالة استياء صامت لا تجد منفذا تعبر به عن آلامها وارائها امام رهبة الحكام الذين يشجعون اساليب الدس فى الظلام ويتهمون الابرياء ، ويأخذون بالشبهة كل من تحوم حوله غمامة شك ، فيسوقون الاحرار الى المعتقلات والسجون كالانعام ، ويتكلمون بعلماء الازهر وحملة الشريعة ، وينفون الى اعالى النيل كل من يتعرض لنقد نظام الحكم او الاعتراض على فرض ضريبة .

وقد دام الحال على هذا المنوال الى ان عاد شباب البعوث العلمية الذين عاشوا فى كنف المدنية الغربية وتذوقوا طعم الحرية الشخصية وعرفوا قدرها ، فصاروا يتناقشون ويتجادلون بحرية فى كل شيء الا فيما يتعلق بصلة الحاكم بالمحكومين ، او المجاهرة بمبدا مسئولية الحكومة امام الشعب .

وترتب على الحرية الوحيدة التى اكتسبها المصريون ، ونعنى بها حرية الفكر ان صرح بعض المتعلمين باشياء فيها مخالفة للدين وللافكار السائدة ، ومع ذلك لم يستطع احد سواء من رجال الدين او افراد الشعب ان يعارضهم فى آرائهم ، لانهم كانوا بمثابة اعوان للوالى فى خدمة الدولة ، يدافعون عن ملكه ويدعمون اركان حكمه .

ويؤيد نظريتنا هذه ما وجهه حسنين بسيونى احد افراد البعثة العلمية الى انجلترا فى عام ١٨٢٨ الى لورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا فى كتاب طبعه ونشره بالانجليزية وقال فيه : من الامور التى لا يختلف فيها اثنان ان الحكومة المصرية نالت القسط الاوفر من الرقى والاصلاح ، وانه ليس هنالك ما يمنع انجلترا من منح مصر الحق فى ان تصير امة مستقلة ، وان توضع فى مصاف البرازيل والمكسيك وكولومبيا واليونان ، ولهذا جئت راجيا ان تنظروا الى المسألة بعين العطف ، وانى مؤمن بان رفاهية مصر فى المستقبل يتوقف كلها او بعضها على اعتراف انجلترا باستقلال مصر .

نادى انصار الجديد بقطع الصلة بالماضى ، واستندوا الى محاكاة الغرب دون ان يحاولوا الابتكار ، اذ ان الافكار الغربية لم تكن قد تاصلت فى نفوسهم ولا رسخت فى اذهانهم حتى يهضموها هضما جيدا ويعملوا على تمثيلها ، ومن ناحية اخرى لم يكن فى وسعهم ان يهزوا الوسط الذى عادوا اليه ولا البيئة التى يعيشون فيها ، لان هذه البيئة كانت لا تزال متصلة بالوراثات الاصيلة للماضى سلطان قاهر عليها ، فهو حى فى اعماقهم ، ولا يمكن ان تؤثر فيه التطورات الحديثة .

والواقع ان السواد الاعظم من الشعب لم يدرك فى غضون الحقبة التى حكم فيها محمد على مصر وهى قرابة نصف قرن ، الوطنية القومية على وجهها الصحيح ، وانما فهمها على انها وطنية دينية او بالاحرى نخوة اسلامية ، وكانت الحروب التى قام بها محمد على وحشد لها الوف الفلاحين ، وزج فيها بزهرة شباب الامة هى حروب الدولة العلية او حروبه هو فيما بعد وليست حروب مصر ؛ لذلك لم يعطف المصريون على الحركة الاستقلالية فى الحكم التى كان محمد على ينزع اليها كلما اشتجر الخلاف بينه وبين الباب العالى .

وعندما تولى سعيد الحكم اخذ يمالىء الشعب ، فاقطع الفلاحين الاراضى التى يزرعونها بالوراثة ، وقرب اليه بعض المصريين وولاهم مناصب رئيسية ، وابطل اللغة التركية من بعض المكاتبات الرسمية واحل العربية محلها ، ومع انه خطب مرة فى حفل رسمى وزعم بانه يعد نفسه مصريا وليس بتركى ، وانه سيربى ابناء الشعب ويهذبه حتى يجعله يخدم بلده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الاجانب ، فان تقلب اهواء هذا الحاكم جعلت اقواله بمثابة ذر للرماد فى العيون ، فلم تبطل اللغة التركية من المكاتبات ، ولم يستغن عن خدمات الاجانب ، ولم يهذب الشعب او يعلمه بل سار على سياسة الحد من انتشار التعليم واقصاء المصريين عن المناصب العليا فى الجيش والادارة ، وقرب اليه طغمة من الافرنج وولاهم ارفع المناصب فى الدولة .

وارتقى اسماعيل العرش ، فكان عهده كعهد جده ينطوى على السيادة والاذلال وتتمثل فيه مظاهر العظمة والبؤس ، ويقترن بطابع الثروة وطابع الاملاق . ففى الشق الاول منه تدفقت الثروة نتيجة ارتفاع اثمان القطن على اثر نشوب الحرب الامريكية ، وخلق جو من

الرخاء الاقتصادى فى البلاد ، فتفتحت الامال وتحركت المطامع وبدا على العواصم والريف طابع الازدهار ، وفى الشق الثانى شهدت مصر غزو الحضارة الغربية غزو اذلال واستعباد ، وكذلك شهدت تقلبات سياسية واجتماعية خطيرة ، منها تدفق الجاليات الاجنبية والتدخل الاستعمارى فى الشئون المحلية بانشاء المراقبة الثنائية وصندوق الدين والمحاكم المختلطة واشراك وزراء اوربيين فى الوزارة وتوجيه جهاز الدولة الى خدمة مصالح الاغراب ، وخضوع الحكومة لمطالب الدول الاجنبية وقبولها وصايتها .

وكان للاجانب امتيازات ادت بهم فى كثير من الاحيان الى الخروج عن طاعة الحكومة ومناهضتها ، وكانت المحاكم المختلطة لا تهتم بالمصريين ولا تبالى بحكومتهم وتصدر احكاما على هواها ضد الدولة وفى غير مصلحة المحكومين ، وتجبر الحكومة بما لها من صفة دولية على تنفيذ هذه الاحكام .

ومن الوجهة الاجتماعية تطورت الحياة تطورا لم يكن لمصر عهد به ، فتمردت الطبقة الحاكمة على مظاهر الحياة الشرقية التى الفوها ، وهجر الاعيان والموظفون الزى الشرقى والعوائد والتقاليد الموروثة وبدات المنازل تشيد على النمط الغربى ، واسرفت الطبقة العالية فى مجاراة الاوربيين فى نظم المعيشة ، وانفاق ثرواتهم فى سبيل المظهر الاجتماعى ، ثم نشأ نظام الطبقات ، وكانت النتيجة ان الموسرين لم يتمكنوا من فهم الحياة الاوربية على حقيقتها ولا هضمها هضما صحيحا . ومنهم من وقف حائرا متشككا بين تقاليد الحياة الشرقية وبين الحضارة الغربية فضعفت روحهم المعنوية وتفككت روابط الاسرة وتمكن الدخيل من استغلالهم لمصالحه وقضاء مآربه .

وقد اقام اسماعيل التماثيل فى شوارع العاصمة الاسلامية وشجع الاقبال على التصوير واحيا الحفلات الراقصة الماجنة واباح حلق اللحى بعد ان كان لها احترام الشرقيين واستعمال الفرش المصنوعة من شعر الخنزير دون ان يدور بخلده استفتاء رجال الدين .

ومن الوجهة الاقتصادية قام الاجانب بمشروعات لم يكن لرءوس الاموال المصرية نصيب فيها وزاد الانتاج القومى ولكن مستوى الشعب ظل على ما هو عليه نتيجة ارهاقه بالسخرة وبمختلف انواع

الضرائب وارتباك مالية الموسرين للاستدانة ، ثم لتدفق المصنوعات الافرنجية وانتقال التجارة من ايدى المصريين الى الاجانب .

ولنمو الوعى القومى ونشوء الراى العام عدة بواعث منها :

تدفق سيل الاجانب على وادى النيل واحتلالهم المناصب الرئيسية فى الادارة والجيش بالاشتراك مع بقايا العثمانيين ، وقد ادى هذا الاختلاط والتكالب على المناصب الى ارتكاب عدة اخطاء جوهرية استنزفت فى سبيلها اموال الخزانة العامة وذهبت ضحيتها مصالح البلاد مما ادى الى القضاء على الامانى المشروعة .

ومنذ ان تولى اسماعيل العرش تعود الشعب ان يرى عرشه محاطا بجيش زاحف من شتى عواصم العالم ، وكان هؤلاء الافرنج حثالة اممهم ومن ابعد الطبقات عن خلق منزلة كريمة لهم فى قلوب الشعب الذى حلوا بين ظهرانيه ، فاقبلوا على افتتاح الحانات والملاهى ودور الميسر واقامة المصارف التى تقرض بالربا الفاحش ونشر الموبقات والمخدرات ، وانبثوا فى الريف ينفثون البغى والفساد ، ويقودون اعيان الريف الى مغامرات اجرامية استنزفت فى سبيلها ثرواتهم .

هناك تنبهت الطبقة المفكرة الى الخطر المحدق بامتها وبدات تشكو وتتذمر ويكاشف بعضها الاخر بما ينتابه من خوف وقلق . ووضع الاحرار فى احدى الكفتين اندفاع حاكمهم فى سبيل احتفائه بهؤلاء الاغراب ووضع يده فى ايديهم وتكالبهم على امتصاص ثروة مصر وسوقها الى الخراب ، ويضعون فى الكفة الاخرى مصلحة مصر الحيوية ورفاهية بنيها .

ومما زاد فى نمو شعور المصريين والعطف على حركتهم للتخلص من هذه الحال المؤلمة ان السلطان ارسل منشورا فى عام ١٨٦٩ يندد فيه بمسلك الخديو ويؤاخذه على انه اثقل اهل مصر بالضرائب الفادحة ، وارسل الى اوربا شخصا اسمه نوبار يدعى بغير وجه حق انه وزير خارجية مصر للمفاوضة فى عقد قروض وابرام معاهدات وتعديل نظام الامتيازات مع ان هذه حقوق لا يملكها سوى السلطان وحده .

وقد نشرت صيغة هذا الانذار باللغة العربية وعلق بابواب

المصالح الحكومية فتجمهر المصريون يمعنون النظر فيما يحويه واخذوا يعلقون عليه بمختلف الاراء .

من ذلك الحين بدا المصريون يهتمون بشئون بلادهم ويترقبون الانباء الواردة من دار الخلافة ويتباحثون فى تحديد علاقة الحاكم بالمحكومين ويفطنون الى انه ليس للحكومة ان تصنع بهم ما تشاء ، وبدا الراى العام يتكون ويتكتل ، واخذ الاحرار على عاتقهم ترجمة البرقيات التى ترد الى وكالات الانباء عن سوء الحال فى مصر وجرائم اسماعيل ، وينقلون مقالات الصحف الاجنبية الى اللغة العربية ونسخها وتوزيعها سرا .

وكان لتعاليم جمال الدين الافغانى أثر نافذ فى تطور العقلية وفى حركات الاصلاح ونزعات التحرر السياسى والاجتماعى كافة ، وقد تمكن من اعداد جيل من الكتاب ، وبعث القوة والنشاط فى الحياة الفكرية وخطا بها خطوات واسعة فكون الاندية واذكى الامال فى النفوس وحفزها للنهوض وهيا لاتباعه الفرصة لاعتلاء اعواد المنابر للخطابة ، واخذ يدربهم على انشاء المقالات وتدبيج الفصول السياسية والاجتماعية ومعالجة الكتابة على صفحات الصحف لرفع مستوى تحريرها .

وفد الافغانى على مصر للمرة الاولى فى مستهل عام ١٨٧٠ ولم يمكث بها الا قليلا ، ثم عاد اليها ثانية فى مارس ١٨٧١ حيث مكث بها ثمانية اعوام ظل نشاطه فى خلالها متصلا لا ينقطع . واستطاع ان يجذب الى حلقته طلاب المعرفة المجدين فى التحصيل فدربهم على اسلوبه فى التوفيق بين الاوضاع التاريخية للدين والفلسفة فى الاسلام وبين نتائج الفكر العلمى الحديث .

وكان نشاطه الفكرى ذا شعبتين : الاولى دروس علمية منتظمة يلقيها فى داره بحى « خان الخليلى » والثانية دروس عملية يبثها فى نفوس مريديه واتباعه فى المحافل والمجتمعات .

فاما دروسه العلمية فكانت تتناول شرح الكتب التى تدرس فى الازهر من منطق وفلسفة وتصوف . ولكنه كان يتبسط فى شرحها ويعلق عليها بما يعن له من افكار وآراء . وكان فى مقدمة الذين

حضروا عليه هذه الدروس : محمد عبده وعبد الكريم سلمان وابراهيم اللقاني وسعد زغلول وغيرهم ممن استضاءوا بانوار العلم والعرفان وتحررت عقولهم من قيود الجمود والاوهام .

على ان وجهة الافغاني الحقيقية كانت وجهة سياسية ، وكانت هذه في الواقع هي دروسه العملية . فعمل على بث الروح الوطنية في الطبقات المختلفة وعلى اشاعة الفكر الدستورية . وتنبيه الشعب الى مضار التدخل الاجنبي في شئونه ، وكشف عن سوءات الرقابة الاوربية التي فرضت على مصر ، حتى تمكن في خلال فترة قصيرة من اعداد راى عام ناضج .

كانت العامة تعتقد بان الحاكم هو السيد المطاع ، ولكن الافغاني استطاع عن طريق خطبه الحماسية وبياناته المتطرفة ان يغير هذه الفكرة . فكان يخاطب افراد الشعب جهرة بقوله : انك ايها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت منها ما يسد الرمق ويقوم باود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلوب الذين ياكلون ثمار اتعابك ؟.. وكان يحرض على الثورة بقوله : انكم معاشر المصريين نشأتم على الاستعباد وربيتم في حجر الاستبداد وينزل بكم الخسف والذل وانتم صابرون ، بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم وموارد غذائكم » ..

ولم يكن للمواطنين عهد بمثل هذا الكلام ، فكانوا يسحرون بمنطقه ويدهشون لاقواله ، ثم يمضي سامعوه فيتحدثون الى جلسائهم بما صافح اذانهم من معان سامية ، وكانت النتيجة ان تحركت الخواطر وتنبهت الافكار حول تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم وواجب كل منهما حيال الاخر ، حتى نفت عن الاذهان عقيدة الحق الالهي في الحكم .

وقد وجدت دعوة جمال الدين الافغاني ارضا صالحة وبيئة متحفزة لقبول هذه المبادىء والافكار ، فقد كانت هذه البيئة مكونة من مجموعة ثقافات علمية متعددة ووجهات تفكير متباينة . فمنهم من درس في المدارس العصرية ومن تعلم في معاهد اوربا فشب على الجديد ، ومن طوى صدر شبابه في رحاب الازهر فتمسك بالقديم ، وكانت هناك حركة اصلاح قوية ولكنها كانت في حاجة الى من يقودها نحو الخير والاصلاح ، فلما وفد الافغاني على مصر وجد التربة مهيئة

فغرس فيها بذور اصلاحه ولم تلبث قليلا حتى اينعت وازدهرت .

ومن مظاهر الوعى القومى الذى تعهده بالرعاية ، نشاط الصحف السياسية ، والاقبال على مطالعتها ، والتحدث فى شئون البلاد ومصيرها ، والتبرم بالاوضاع السياسية والمالية ، وظهور روح اليقظة والمعارضة بين اعضاء مجلس شورى القوانين .

ونحن نلمس الصلة الروحية بين الافغانى وبين مريديه الذين رفعوا لواء الجهاد والكفاح الشعبى كمحمد عبده ، واديب اسحق وعبد الله نديم وسليم النقاش ويعقوب صنوع ، وفى روح المعارضة بين النواب وعلى رأسهم عبد السلام المويلحى .

وعلى الرغم من ان الافغانى هو الاب الروحى للحركة الاستقلالية ، فقد ظلت تعاليمه بارزة الاثر فى المجتمع المصرى عقب نفيه فى اغسطس ١٨٧٩ وبقيت النفوس ثائرة تتطلع الى الاصلاح وارساء قواعد الحكم على دعائم الشورى والديمقراطيه .

وفى مقدمة العوامل التى ساعدت على يقظة الشعور القومى ظهور الصحافة الحرة وجعل الراى العام قوة يعتد بها فى السياسه والحكم .

كان اسماعيل يزعم « بان للصحافه منافع ومحسنات عند الاهالى » فاطلق لها الحرية فى التعبير عن مختلف الافكار والخوض فى اى موضوع الا فيما يختص بشخصه او التنديد باعماله . والواقع انه كان يريد الاستفادة من هذه الحرية لمحاربة التدخل الاوربى فى تصرفاته المالية والحد من سلطته . بيد ان الصحافة كان قد اشتد ساعدها فى اواخر حكمه فما لبثت ان انقلبت عليه وهيات الافكار للانعتاق من اسار الرهبة الذى حاول هو ان ينشره ، مع الذود عن حقوق الشعب المهضومة ورفع الغشاوة عن العيون وتخفيف حجاب الغفلة عن العقول .

يضاف الى ذلك ان هيبة الخديو كانت قد سقطت فى عيون الشعب نتيجة تشهير البعثة المالية بمساوىء حكمه وباخلاقه الشخصية ، وتطاولها عليه وتشجيعها الصحافة على مهاجمته والزج باسمه فى كل مناسبة ، وتحميله مسئولية الكوارث المالية التى حلت بالبلاد .

ووجدت الحكومة يدها مغلولة ازاء اعتقال اصحاب الصحف بسبب رعويتهم الاجنبية وتحصنهم بالامتيازات ، فقد حدث ان

قبض على صاحب جريدة الاهرام ولكن الحكومة عجزت عن محاكمته والانتقام منه بسبب تجنسه بالجنسية الفرنسية فاطلقت سراحه ، واقدمت الحكومة على مصادرة جريدة « مصر الفتاة » فاقام صاحبها دعوى فى المحاكم المختلطة مطالبا بالتعويض ، وهيا الفرصة لان يطعن محاميه في نظام الحكم وتعسف الحكومة فى محاربة الصحافة والقضاء على حرية التعبير فى الكتابة .

وكانت النتيجة ان قوى الشعور القومى واثارت هذه العوامل مجتمعة بوادر القلق والتمرد ، فهب الفلاح يناضل العدو المشترك ، ويتمرد على دفع الضرائب التى كانت لا تعود بالخير على ارضه بل تذهب نهبا مقسما بين العاهل واعوانه وبين الاغراب .

وكان الجيل الذى تلقى تعليمه فى المعاهد وجامعات الغرب قد صقلت عقليته وحنكته التجارب وهضم ما طالعه فى مؤلفات الغربين لا سيما ما يتعلق بالكفاح فى سبيل الحرية والاستقلال وثورة الشعوب على الظلم والمستبدين .

وزاد من قوة هذا الشعور احتكاك هؤلاء المتعلمين بعناصر هبطت مصر من الشرق الاسلامى ، وكانت تتالف من رجال ضاقت صدور الحكام بنظراتهم فى الاصلاح ونزعتهم فى التفكير الجرىء ، فنزحوا عن اوطانهم وهم يحملون بين جوانحهم شعلة التحرر وحماسة الثورة وقلب النظم السياسية والاوضاع الاجتماعية التى ترسف فيها الشعوب المظلومة ، وكانوا من الجراة فى القول والتعمق فى المعرفة بحيث اخذوا يندون جهرة بالاستبداد وبالسلطان المطلق ، واوحوا الى صفوة المتعلمين ضرورة المطالبة بالدستور وبالنظام النيابى والسعى الى وضع الحق فى نصابه .

والواقع ان اسرة محمد على حكمت الكنانة بالحديد والنار فى عصر ازدهرت فيه مبادىء الاستقلال فى كل امة ، وصارت الحرية حقا مقدسا للجميع ، ولم تحاول المظالم التى صبتها ان تنكس الرؤوس او تقتل فى النفوس الشعور بالكرامة والعزة ، وكانت النتيجة ان تاثر فريق كبير من افراد الشعب بمزايا الحريات العامة والخاصة التى كان وطنهم محروما منها فهبوا فى وجه الظلم وثاروا لمقاومة الطواغيت المستبدين .

محتويات الكتاب

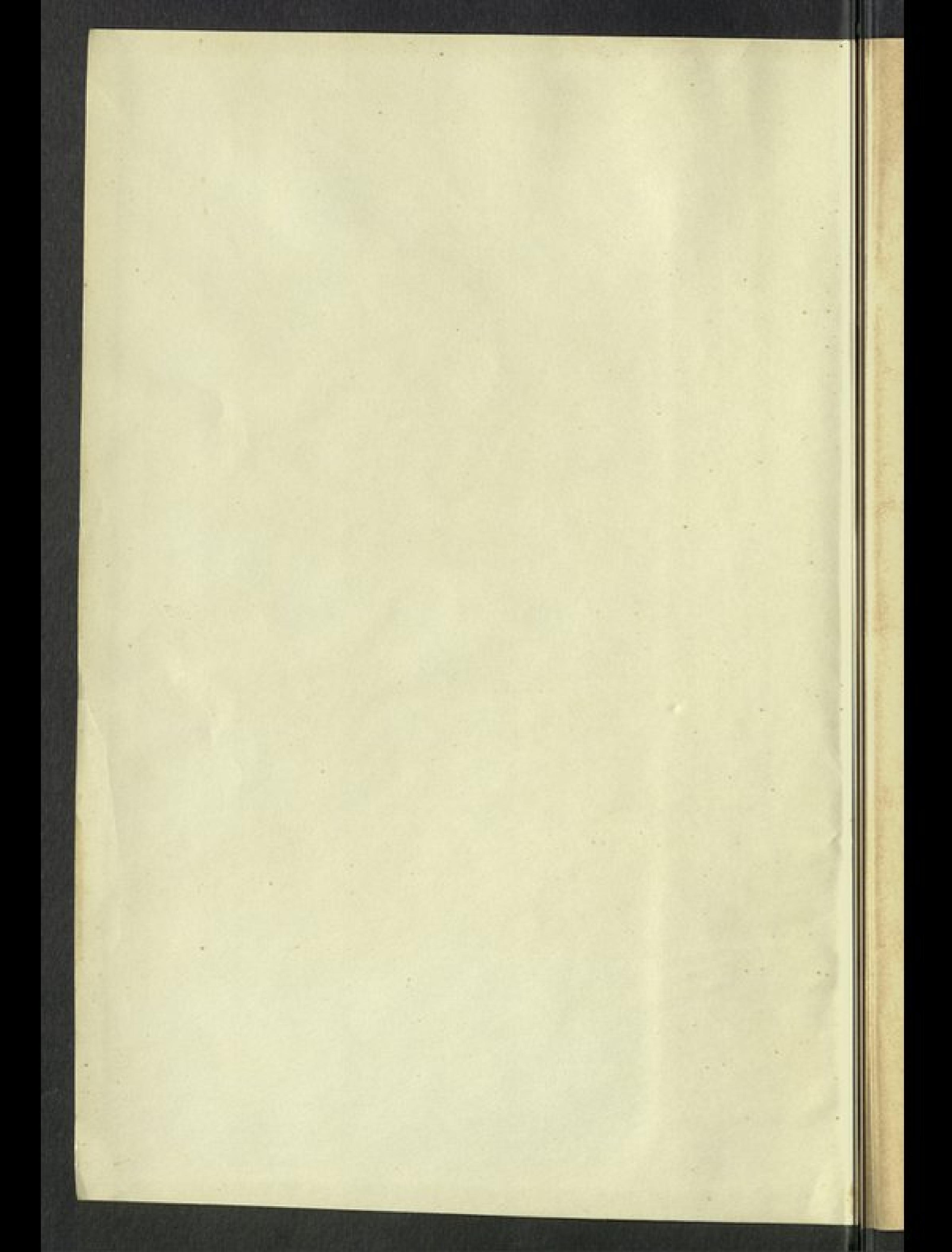
تم المجلد الاول من

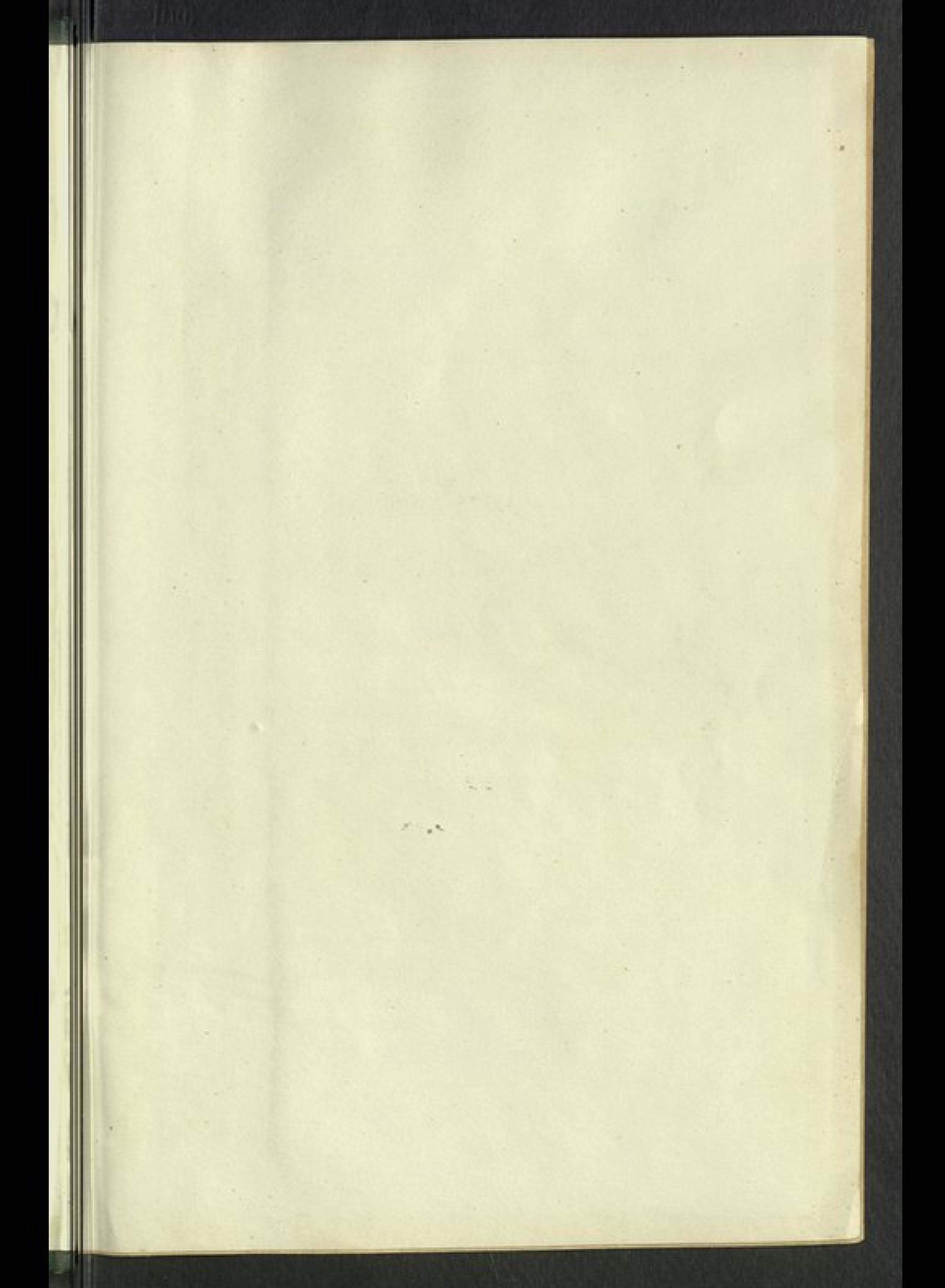
كفاح الشعب

ويليه المجلد الثانى بعنوان :

الوعى الثورى

طبع بمطابع « الصباح » بالقاهرة






AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت